الطفولة والصّبا والشباب

تأليف : ليف تولستوى
ترجمة : رمزى يسى
مراجعة : أحمد خاكى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٣

هذه ترجمة كتاب

Childhood, Boyhood, Youth

By : LEV TOLSTOI

ترجمة رمزى يسى   مراجعة الأستاذ احمد خاكى

Foreign Languages
Publishing House

الناشر

MOSCOW

الطفولة

(١)

« المعلم الخاص ، كارل ايفانتش »

•• فى اليوم الثانى عشر من أغسطس سنة ـ ١٨ (١) ، وهو اليوم الثالث بعد تاريخ ميلادى العاشر ، وكنت قد تسلمت هدايا رائعة للغاية ، أيقظنى كارل ايفانتش فى الساعة السابعة صباحاً وهو يضرب ذبابة بمذبة من ورقة مسكرة مثبتة الى عصا ، وقد فعل هذا بطريقة خرقاء حتى انه قلقل صورة ملاكى المعلقة على رأس سريرى المصنوع من خشب السنديان ، وسقطت الذبابة الميتة على رأسى مباشرة • واختلست النظر من تحت الغطاء وثبت الصورة التى كانت لاتزال تهتز ، ونفضت الذبابة الميتة الى الأرض ، ونظرت الى كارل ايفانتش بعينين حانقتين يساورهما النعاس ، ولكنه تابع طريقه بحذاء الجدران ، يصوب ويذب وهو فى عباءته الفضفاضة متمنطقا بحزام من القماش ، لابسا على رأسه غطاء أحمر ذا عذبة محبوكة •

---

(١) ولد تولستوى فى سنة ١٨٢٨ بقرية ياسنايا بوليانا . من أصل ألمانى • واستوطنت أسرته روسيا فى عهد بطرس الأكبر (المترجم) •

وقلت فى نفسى : « بفرض أننى صغير ، لماذا يقلقنى ؟ لماذا لا يقتل الذباب الذى يحوم حول فراش فولوديا ؟ ان هناك اكداسا منه • ولكن لا ، فان فولوديا أكبر منى سنا ، وأنا أصغر الجميع ، وهذا هو السبب فى أنه يعذبنى •• ولا يفكر فى شىء آخر فى الحياة » وهمست قائلا : « اللهم الا عمل أشياء تكدرنى ، فهو يعلم تمام العلم أنه أيقظنى وأفزعنى ولكن ـ الرجل البغيض ـ يتظاهر بأنه لا يعرف هذا !! أما عباءته وغطاء رأسه ، وعذبته ـ فيالها من أشياء تثير الاشمئزاز » •

••وبينما كنت أعبر عقليا على هذا الوجه عن ضيقى بكارل ايفانتش ، اقترب من فراشه وتطلع الى الساعة المعلقة فوقه • وكان ينتعل خفا مطرزاً بخرز من الزجاج ، فعلق مذبته على مسمار ، ثم التفت نحونا ، وهو يبدو على أحسن حالاته العقلية • وصاح بصوته الألمانى اللطيف (١) : « انهض أيها الطفل ، انهض •• لقد حان الوقت •• ان أمك فى القاعة » •

ثم قصد الى ، وجلس عند قدمى ، فأخرج من جيبه علبة السعوط ، وتظاهرت أنا بالنوم ؟ وتناول كارل ايفانتش قبضة من السعوط ، ومسح أنفه ، وطقطق أصابعه ، ثم وجه انتباهه الى ، وأخذ يدغدغ قدمى ، ويضحك أثناء ذلك ، ثم قال « هيا ، هيا ياكسول » •

---

(١) كان كارل ايفانتش يتحدث بالألمانية عادة •

••وعلى كثرة ماكنت أفزع من الدغدغة ، فانني لم أقفز من فراشي ، أو أجب بأية اجابة ، بل دفنت رأسي تحت الوسـادة ، ورفست بكل ما استطعت من قوة ، واستخدمت كل جهد لتحاشى الضحك •

« ما أطيبه ، وما أشد حبه لنا ، ومع ذلك كنت أسيء به الظن كثيرا !! » •

•• لقد كنت ساخطا على نفسي وعلى كارل ايفانتش ، وكنت أريد أن أضحك وأصرخ : لقد كانت اعصابى مضطربة •

•• فصحت والدموع تترقرق فى عينى : « آه ، أرجو أن تتركنى ياسيدى » • ودفعت برأسي من تحت الوسادة ، فكف كارل ايفانتش عن دغدغتى مندهشا ، وأخذ يستفسر باهتمام عن أمرى : هل كنت أحلم حلما مزعجا ؟ وكان وجهه الألمانى الحنون ، والعطف الذى حاول به جاهدا التكهن بسبب بكائى، كل ذلك أدى الى انهمار دموعى • واعترانى الخجل ، ولم أستطع ان أعرف كيف تمكنت منذ هنيهة أن أكره كارل ايفانتش ، وفكرت فى أن عباءته وغطاء رأسه والعذبة كانت جميعا على العكس ، تبدو شيئا يبعث على السرور الى أبعد حد ، بل ان العذبة كانت تبدو برهانا واضحا على طيبته • وقلت له اننى كنت أبكى لأننى رأيت حلما مزعجا ـ لقد رأيت أمى ميتة ، يحملونها الى الدفن • لقد اخترعت كل هذا ، لأننى فى الحقيقة لم أعرف ماذا رأيت فى حلمى تلك الليلة ، ولكن حين أخذ كارل

ايفانتش يهدىء ثائرتى ويلاطفنى ، متأثرا بقصتى ، خيل الى أننى رأيت بالفعل هذا الحلم المخيف ، ففاضت دموعى لسبب آخر •

•• وعندما تركنى كارل ايفانتش جالســا فى فراشى أضع جوربى فى رجلى الصغيرتين كفكفت دموعى الى حــد ما ، ولــكن الأفكار المقبضة ، أفكار الحلم الوهمى لم تفارقنى • ودخل نيكولاى الخادم الخصوصى ـ وكان رجلا أنيقا صغيرا جادا على الدوام ، مدققا ومحترما ، وصديقا حميما لكارل ايفانتش ••أحضر ملابسنا وأحذيتنا • وكان لدى فولوديا حذاء طويل ولكنى كنت لا أزال أستخدم ذلك النوع ذا الأشرطة غير المحتمــل • ولقد خجلت من البكاء أمامه ، بالاضافة الى أن شمس الصباح كانت تشرق من النافذة بابتهاج ، وكان فولوديا يقلد ماريا ايفانوفنا (مربية أختى) ويضحك بصوت مرتفع وطرب بالغ وهو واقف عند حوض الغســيل ، حتى ان نيكولاى الوقور ـ وكان يضع المنشفة على كتفه ، وقطعة الصابون فى احدى يديه ، وحوض يدويا فى اليد الأخرى ـ ابتسم وهو يقول : « كفى يا فلاديمير بتروفتش ، اغتسل من فضلك » •

•• وابتهجت أيما ابتهاج •

•• وناداني كارل ايفانتش من حجرة الدرس قائلا : « هـل أنت على وشك الاستعداد ؟ » •

•• وكان صوته جافا ، لم يعد يتسم بتلك النغمة الحانية التى

هزتني حتى انهمرت دموعي • وكان كارل ايفانتش وهو في حجرة الدرس رجلا مختلفا كل الاختلاف ، كان المعلم الخاص • ارتديت ملابسي بسرعة ، واغتسلت ، ودخلت حجرة الدرس وأنا لا أزال أفرش شعري المبلل •

•• كان كارل ايفانتش ، وقد وضع نظارته على أنفه ، والكتاب في يده ، يجلس في مكانه المعتاد بين الباب والنافذة ، والى يسار الباب رفان للكتب : أحدهما خاص بنا ـ أي بالأطفال ، والآخر لأشياء كارل ايفانتش الخاصة ، وتكدست على رفنا كل صنوف الكتب ـ كتب مدرسية وغيرها : بعضها قائما والبعض الآخر في وضع أفقي ، ولم يكن هناك غير مجلدين كبيرين في « تاريخ الرحلات » بغلافين أحمرين في وضعهما الملائم مستندين الى الحائط، يليهما خليط من الكتب الطويلة والسميكة ، الكبيرة والصغيرة ـ أغلفة عاطلة من الكتب ، وكتب عاطلة من الأغلفة • وقد تعودنا حشر كل شيء رأسا على عقب عندما كان يأمرنا بترتيب « المكتبة » ـ وهو الاسم الذي أطلقه كارل ايفانتش على الرف ـ أما مجموعة الكتب التي على رفه الخاص ، وان لم تكن كبيرة كمجموعتنا ، فانها كانت أكثر تنوعا وأتذكر ثلاثة منها ـ كتيب ألماني في « تسميد حديقة الكرنب » وهو بدون غلاف ، ومجلد في « تاريخ حرب السنوات السبع » بغلاف من الجلد الرقيق ، احدى زواياه محترقة ، وسلسلة محاضرات في الاستاتيكا المائية • وكان كارل ايفانتش يقضي الشطر

الأكبر من وقته فى القراءة حتى أضر ببصره نتيجة لذلك ولكنه لم يقرأ قط شيئا سوى هذه الكتب ومجلة « النحلة الشمالية » •

•• وكان بين الأشياء الموضوعة على رف كارل ايفانتش شيء يذكرني به أكثر من أى شيء آخر •• هو كمة مصباح مستديرة من الورق المقوى ، على قائم خشبى يمكن تحريكها الى أعلى والى أسفل بواسطة أوتاد من الخشب ، ملصق عليها صورة كاريكاتورية لسيدة وحلاق ، ولقد كان كارل ايفانتش يحذق كثيرا صنع أشياء كهذه، واخترع هو نفسه هذه الكلمة وصنعها لحماية عينيه الكليلتين من الضوء الساطع •

•• وأستطيع فى خيالى الآن أن أرى قامته الطويلة فى عباءته الفضفاضة ، وغطاء رأسه الأحمر يظهر من تحته شعره الأشيب •• أراه جالسا الى منضدة صغيرة ، وكمة مصباحه وعليها صورة الحلاق، تلقى ظلا على وجهه ، يمسك باحدى يديه كتابا ، وتستند الأخرى الى مسند مقعده ، ووضع أمامه ساعته المرسوم على وجهها صورة صياد ، ومنديله ذا الخطوط المتقاطعة ، وعلبة سعوطه المستديرة السوداء ، وقراب نظارته الأخضر ، ومقص الفتائل موضوعا على الطبق • أما الترتيب الدقيق للغاية الذى يوضع به كل شيء فى مكانه المحدد ، فيدعو المرء الى الجزم بأن طوية كارل ايفانتش صافية وعقله هادىء •

•• وكنت أحيانا بعد أن أجرى فى القاعة حتى ينالنى التعب،

أتسلل صاعداً على أطراف قدمي الى حجرة الدرس ، فأجد كارل ايفانتش جالسا وحده على مقعده ذى المسـنـدين يقرأ بعض كتبه المحبوبة وعلى وجهـه طابع الهدوء والوقار • وكنت أقصـد اليه أحيانا أخرى فى لحظـة لم يكن يقرأ فيها ، بل يجلس هنالك وحسب ، وقد تدلت نظارته فوق انفه ، يتطلع أمامه بعينيه الزرقاوين نصف المغمضتين وعلى وجهه تعبير غريب ، وعلى شفتيه ابتسـامة مكتئبة • والحجرة يسودها الصمت الا من صوت تنفسه الهادىء ، ودقات ساعة الصياد الخافتة •

•• ولم يكن يتنبه الى وجودى فى كثير من الأحيان ، فأقف عند باب الحجرة وأقول لنفسى : مسكين ، مسـكين هذا الرجل العجوز ! اننا كثيرون ، ونستطيع أن نلعب معا ونسـتمتع ـ ولكنه وحيد ، ليس لديه من يشفق عليه •• انه يتيم • لقد قال لنـا هذا بنفسه ، وقصة حياته مؤسفة للغاية !! انى أذكره وهو يقصها على نيكولاى : انه لمن المزعج أن يكون المرء فى مثل هذا الموقف !!

كنت أشعر نحوه بأشد الأسف حتى أننى كنت أذهب اليه ، وأتناول يده ، وأقول له : « عزيزى كارل ايفانتش ! » ولا بد أنه كان يحب أن أقـول له ذلـك ، لأنه كان يدللنى ، وكان تأثره واضحا •

•• وعلقت على جدار آخر خرائط كلهـا كانت قد تمزقت لولا أن يد كارل ايفانتش قد أصـلحتها بمهارة • وعلى الجدار

الثالث ، الذى يتوسطه الباب المؤدى الى السلم ، علقت مسطرتان : أحداهما متشققة كلها ـ وهذه مسطرتنا ـ أما الأخرى ـ الجديدة ـ فهى مسطرته الخاصة ، وكانت تستخدم فى « حكمنا » أكثر من استخدامها فى كراساتنا • وكان على الجانب الآخر من الباب سبورة يبين عليها أخطاءنا الجسيمة بواسطة دوائر ، والأخطار الأقل خطراً بواسطة صلبان ، وكان على يسار السبورة الركن الذى نركع فيه عندما نعاقب •

•• ما أقوى تذكرى لهذا الركن !! اننى أذكر صمام تنظيم هواء المدخنة ، والثقب الذى يسمح بدخول الهواء الساخن ، والضوضاء التى يحدثها هذا الصمام حين يدار • وكنت أقف فى ذلك الركن حتى تؤلمنى ركبتاى ، وظهرى ، وكنت أظن أن كارل ايفانتش قد نسى كل شىء عنى • « ان كل شىء يجرى على مايرام ، لأنه يجلس مستريحا على مقعده ذى المسندين ، ويقرأ الهيدروليكا المائية ولكن ، ما هو موقفى ؟ » ولذلك ، فلكى أذكره بوجودى ، كنت أفتح الصمام وأقفله برفق أو أقشر بعض الملاط من على الجدار ، ولكن اذا سقطت أيضا قطعة كبيرة على الأرض فجأة وأحدثت صوتا ، فالخوف وحده كان أسوأ من العقوبة كلها ، وكنت أسترق النظر الى كارل ايفانتش ، فاذا هو جالس ، والكتاب فى يده ، كأنه لا يلاحظ شيئا •

•• وتقوم بوسط الحجرة مائدة عليها غطاء من المشمع ممزق

أسود تنفذ منه حواف المائدة ، ويمكن رؤية القطوع التى أحدثتها مبراة الأقلام فى عدة مواضع ، وحول المائدة عدة مقاعد عاطلة من الطلاء ، صقلها طول الاستعمال • أما الجدار الأخير فكانت تشغله ثلاث نوافذ تطل على الطريق ، وكانت كل ثغرة وحصاة وثلمة مألوفة لدى عزيزة عندى منذ أمد طويل • وكان على الجانب الآخر من الطريق شارع على جانبيه أشجار الزيزفون المتشابكة ، ويلوح على امتداده سياج من الأغصان الملتفة ، وفيما وراء الشارع يستطيع المرء رؤية مرجة على أحد جانبيها مخزن غلال ، وعلى الجانب الآخر غابة ، ويبدو على مسافة كوخ الحارس الصغير ، وتشرف النافذة الى اليمين على جانب من الشرفة المكشوفة حيث كان يجلس الكبار عادة قبل الغذاء ، فاذا تطلعت الى هذه الناحية حيث كان يصحح كارل ايفانتش صفحة املائك فانك تستطيع أن تلمح رأس أمى الأسود ، وظهر شخص ما ، وأن تسمع أصوات أحاديث وضحكات خافتة ، ويضايقك عدم وجودك هناك ، وتقول لنفسك : « متى أصبح كبيرا وأنقطع عن الدروس حتى أستطيع الجلوس على الدوام مع أولئك الذين أحبهم بدلا من هذه المحاورات ؟ » ان المضايقات قد تتحول الى حزن ، وتملأ رأسك جميع ضروب الأفكار الغريبة حتى انك لاتكاد تسمع حتى كارل ايفانتش وهو ينتهرك بسبب أخطائك ••

•• وأخيرا خلع كارل ايفانتش عباءته وارتدى معطفه الأزرق

ذا الذيل المشطور ، والحدبات والثنيات على الكتفين ، ونظم رباط رقبته أمام المرآة ، ثم قادنا الى الطابق السـفلى لنحيي والدتنا تحية الصباح .

(٢)

أمى

.. كانت أمى جالسة في الردهة تصب الشاى : تحمل باحدى يديها ابريق الشاى وتمسك اليد الأخرى بصنبور الغلاية التى كان يتدفق منها الماء على سطح الابريق وينسكب على الصفحة وبالرغم من أنها لم تحـول عنه ، الا أنها لم تشـعر به ، بل لم تشـعر بأننـا قد دخلنا . ان كثيرا من ذكريات الماضى تقفز الى الذهن حين يحاول المرء تذكر معالم كائن محبوب ، حتى ليراها الانسان غائمة من خلال هذه الذكريات ، كأنه يراها من خلال دموع ، وهـذه هى دموع الخيـال . وحين أحاول تذكر أمى كما كانت فى ذلك الوقت ، لا يبدو لى منها شىء غير عينيها الداكنتين ، اللتين كانتا تعبران دواما عن الحب والحنـان ، والخـال الذى على عنقها تحت منبت خصلات الشعر الصغيرة مباشرة ، وبنيقتها البيضـاء المطرزة ويدها الرطبـة الناعمة التى طالما كانت تدللنى ، والتى طالما قبلتها : ولكن صورتها الكاملة تغيب عن ذهنى .

•• والى يســـار الأريكة يقوم « البيان » الانجليزى العتيق الضخم ، تجلس اليه أختى « ليوبا » ذات البشرة السمراء ، تعزف فى جهد واضـح مقطوعات « كلمنتى » التدريبية ، وقد تورد لون أصابعها اذ كانت قد غسلتها لتوها بالماء البارد • كانت فى الحادية عشرة من عمرها ، ترتدى ثوبا من الكتان ، مع سروال أبيض محكم ذى شريط مخرم ، واســتطاعت أن تتدرب فقط على ثمانية سريعة التتابع ، وجلست بجوارها ماريا ايفانوفنا وهى تكاد تنصرف عنها ، وعلى رأسها غطاء ذو أشرطة وردية وسترة زرقاء • وازداد وجهها الأحمر الغاضب صرامة حين دخل كارل ايفانتش ورمقتـه بنظرة مخيفة دون أن تستجيب لانحنـاءته ، وراحت تعد ، وتدق بقدمها وفقاً للنغمات الموسيقية •• واحد ، اثنان ، ثلاثة ـ واحد اثنان ، ثلاثة ، وارتفع صوتها وتزايد احكاماً عن ذى قبل •

•• ولم يعر كارل ايفانتش هذا أى التفات ، وتقدم من أمى وحياها بالألمانية كالمعتاد • وراحت هى تهز رأســها كما لو كانت تطارد أفكارها المؤلمة ، وناولت يدها لكارل ايفانتش وقبلته فى صدغه عندما انحنى ليقبل يدها • وقالت « انى أشكر العزيز كارل ايفانتش » واستمرت فى التحدث بالألمانية ، فسألته قائلة :

« هل نام الأولاد نوما هادئا ؟ » •

•• كانت احدى أذنى كارل ايفانتش صماء فلم يســمع آنئذ شيئا قط بسبب صوت « البيان » فزاد من انحناءته مقتربا من الأريكة

معتمدا باحدى يديه على المائدة ، واقفـــا على قدم واحــدة ، وفى ابتسامة خيل الى آنئذ أنها أسمى درجات التهذيب رفع قبعته وقال :

« أتسمحين لى يا ناتاليا نيكوليفنا ؟ » •

•• لم يحدث أن خلع كارل ايفانتش قبعتـه الحمراء مطلقا خوفا من اصـــابته بالبرد ، ولكنه كان فى كل مرة يدخل حجرة الاستقبال يطلب السماح له بلبسها •

•• وقالت أمى وهى تقترب منه وترفع صوتها : « دعها على رأسك يا كارل ايفانتش •• لقد ســـألتك عما اذا كان الأطفال قد ناموا نوما هادئا ؟ »

•• ولكنه للمرة الثانية لم يسمع شيئا ، ووقف بقبعته الحمراء على رأسه الأصلع ، وابتسم ابتسامة ودية لم يبتسمها من قبل •

•• وقالت أمى لماريا ايفانوفنا مبتسمة : « توقفى لحظة ، فانا لا نستطيع سماع شيء » •

كان وجه أمى جميلا ، لكنه أصبح أكثر بهاء بما لا يضـــارع عندما ابتسمت • ولو استطعت فى لحظات الحياة الشاقة أن أخطف ومضة وحسب من تلك الابتسامة لما عرفت للحزن معنى • ويخيل الى أن ما يسمونه جمالا ، انما يكون فى الابتســامة وحدها : فان سمت الابتسامة بسحر الوجه ، فان ذلك الوجه يكون جميلا ، فان

لم تغيره الابتســـامة ، فان الوجه يكون عاطلا من الجمال ، وان مسخته الابتسامة فان الوجه يكون قبيحا •

•• وعندما حيتنى أمى أخذت رأسى بين يديها ، وأحنته الى الوراء ، وتفرست فى بامعان قائلة :

« هل كنت تبكى هذا الصباح ؟ »

ولم أجب ، فقبلت عينى وسألتنى بالألمانية :

« لماذا كنت تبكى ؟ » •

•• عندما كانت تتحدث الينـــا حديثا ســـارا ، كانت تخاطبنا بالألمانية التى أجادت معرفتها الى حد الاتقان •

وقلت : « لقد بكيت أثنـــاء النوم يا أماه » وقد تذكرت حلمى الوهمى بكل تفاصيله واقشعر بدنى برغمى لدى التفكير فيه •

وأيد كارل ايفانتش كلامى ، ولكنه لم يذكر شيئا عن حلمى، وبعد حديث قصير عن الطقس اشتركت فيه ميمى أيضا ، وضـعت أمى ست قطع من السكر على الصحفة لبعض الخدم ذوى الحظوة ، وذهبت الى نول التطريز القائم عند النافذة •

والآن ، اذهبـا أيهـا الطفـلان الى والدكمـا ، وأخبراه ، بضرورة حضوره الى دون تأخير قبل ذهابه الى البيدر » •

وتوقفت الموسـيقى والعد والنظرات المخيفة ، وذهبنا الى بابا مجتازين الحجرة التى عرفت منذ أيام جدى « بحجرة أمين المخزن » ثم دلفنا الى حجرة المكتب •

(٣)

أبى

.. كان واقفا بقرب المكتب يشير الى بعض الأغلفة والأوراق وحزم الأوراق المالية ، ويتحـــدث بحدة مع « الخولى » ياكوف ميخايلوف « الذى كان واقفاً فى مكانه المعتاد ، بين الباب والبارومتر ، ويداه وراء ظهره ، يلف أصابعه ويلويها فى توتر عصبى .

.. وكلما زاد غضب بابا أسرعت حركة الأصـــابع ، وعلى العكس كلما كف عن الكلام توقفت أيضا حركة الأصابع ، ولكن حين أخذ ياكوف نفسه يتكلم ، نمت أصابعه عن أشد الاضطراب . فكان يقفز بوحشية . وقد خيل اليه أنه من المستطاع التكهن بأفكار ياكوف الخافية من حركاته ، وكان وجهه من ناحية أخرى هادئا دائما ، معبرا عن الشعور بالكرامة ، وعن الخضوع فى نفس الوقت كأن لسان حاله يقول : « اننى على حق ، ولك أن تفعل ماتشاء !! » .

وعنـــدما رآنا بابا اقتصر على قوله : « انتظرا دقيقة » وأومأ الينا أن نغلق الباب .

وتابع حديثه مخاطبـــا « الخولى ، وهو يهز كتفيه ، وكانت هذه عادته » :

« يا الهى الرحيم ! ماذا دهاك اليوم يا ياكوف ، ان هـــذا الغلاف بالثمانمائة روبل التى فيه •• » •

وهنا حرك لوحته الحاسبة ، وأحصى ثمانمائة روبل ، وأخذ يتفرس فى نقطة ما غير محددة ، وانتظر سماع ما سيأتى بعد •

« •• فللصرف على فلاحة الأرض أثناء غيبتى ، أفاهم أنت ؟ انك ستحصل من الطاحون على ألف روبل : حسـنا ؟ وستحصل على ثمانية آلاف قيمة القروض من الخزينة فى مقابل « الدريس » الذى تستطيع أن تبيع منه وفقا لتقديرك الخاص بســبعة آلاف « بود » (١) ـ ثمنها خمســـة وأربعون « كوبك » ولنفترض أنك ستحصل على ثلاثة آلاف ، والآن ، كم جملة ماســتحصل عليه ؟ اثنى عشر ألفاً : هل ذلك صحيح ؟ » •

وقال ياكوف : « صحيح تماماً يا سيدى » •

•• ولكنى رأيت من حركة أصــابعه السريعة أنه كان على وشك المعارضة فى نفس اللحظة حين قاطعه بابا •

وتابع بابا حديثه قائلا : « والآن ، سترسل عشرة آلاف روبل اذن الى المجلس ، الى بتروفســكوى ، أما المال الذى بالادارة ، (وهنا نحى ياكوف الاثنى عشر ألفا جانبا وأحصى واحدا وعشرين ألفا) « فانك ستحضرها لى وتقيدها للمصروفات ابتـداء من تاريخ

---

(١) بود : الواحد يساوى أربعين رطلا تقريبا •

اليوم » (ورفع ياكوف لوحته الحاسبة مرة أخرى ، ثم قلبها رأسا على عقب ، لعله يشير بذلك الى ان الواحد والعشرين ألفا قد اختفت بنفس الطريقة) « أما هذا الغلاف الذى ينطوى على المال ، فأرسله لى بالعنوان المذكور » •

•• كنت واقفاً بالقرب من المائدة ، وألقيت نظرة على الكتابة، كان نصها « كارل ايفانتش موير » •

ولابد أن يكون بابا قد لاحظ أننى اطلعت على عمل لايعنينى، لأنه وضع يده على كتفى ، وبحركة ضئيلة أشار الى أننى يجب أن أبتعد عن المائدة ، ولم أدر ما اذا كان ذلك تدليلا أم تعنيفا ، ولكن مهما كان معناه ، فقد قبلت اليد الكبيرة القوية التى استقرت على كتفى •

•• وقال ياكوف : « حسنا يا سيدى ، وما هى أوامرك فيما يتصل بأموال خاباروفكا ؟ » •

وكانت خاباروفكا قرية تابعة لأمى •

«أتركها بالادارة ، واستغلها مهما يكن الأمر دون اذن منى»•

•• وظل ياكوف صامتا لحظات قصيرة ، ثم أخذت أصابعه تتحرك فجأة بسرعة زائدة ، وزايلته نظرة الغباء الذليلة التى كان يتسم بها عند اصغائه لأوامر سيده ، وتحولت الى نظرة ماكرة حادة وهى نظرته الطبيعية ، وجذب اليه لوحته الحاسبة ، وبدأ يتكلم :

« اسمح لى ياسيدى ، بيتر الكساندروفتش أن أقرر ، ان من المحال أن ندفع للمجلس فى الموعد المحدد ، ولقد قلت ٠٠ » ثم تابع حديثه عامدا « لابد لنا ان نتسلم مالا من القروض ، ومن الطاحون ومن الدريس » وكان أثناء ذكره لهذه البنود يمليها من اللوحة الحاسبة » ثم أضاف قائلا بعد توقف ، وهو يحدج والدى بشدة : « وأخشى أن نكون قد تجاوزنا حسابنا قليلا » ٠

« لماذا ؟ »

« اسمح لى ياسيدى أن أوضح : أما عن الطاحون ـ فان الطحان ، زارنى مرتين يطلب التأجيل ، ويقسم أنه لا يملك أى مال ، وهو هنا الآن ، فهل تتفضل بالتحدث اليه بنفسك ؟ » ٠

وسأله بابا وهو يشير بحركة من رأسه الى أنه لا يرغب فى التحدث الى الطحان : « وماذا يقول ؟ » ٠

« نفس القصة القديمة ٠٠ يقول ان ليس هناك عمل ، وان المال القليل الذى كان عنده قد صرفه على اقامة الخزان ، فاذا طردناه فأية فائدة تعود علينا ؟ والآن ، فيما يتصل بالقروض ، كما يروق لك أن تصفها ، فأظننى أبلغتك توا ان أموالنا غارقة هناك ، ولن نتمكن من الحصول عليها بسرعة ٠ لقد أرسلت حملا من الدقيق الى المدينة منذ أيام قلائل ، الى ايفان أفاناستش، مع مذكرة عنالموضوع فأجاب بأنه يكون سعيدا لو قدم خدمة لبيتر الكسندر وفتش ، ولكن

الأمر ليس بيده ومن المتعذر أن تحصل على مخالصتك فى أقل من شهرين • وقد يسرك أن تتحدث عن الدريس : فلنفرض أننا بعناه بثلاثة آلاف •• » •

•• وأشار الى الثلاثة الآلاف على لوحة آلته الحاسبة ، وظـل صامتا برهة ، ينظر أولا الى اللوحة ثم الى عينى أبى كأنه يريد أن يقول :

« انك ترى بنفســك مقدار ضآلته ، هذا بالاضـافة الى أننا سنبيعه بخسارة اذا بعناه الآن ، كما تعرف أنت بنفسك •• » •

•• من الواضح أنه كان يملك حصيلة وافرة وجاهزة من الحديث ، ولابد أن يكون قد قاطعه لهذا السبب •

فقال : « لن أغير من ترتيباتى ، ولكن اذا حدث تأخير بالفعل فى تسلم هذا المال ، فلن يكون هناك اذن شىء يعمل ، فلنأخذ ما هو ضرورى من موارد خاباروفكا •

وكان واضـحا من تعبير وجه ياكوف ومن أصابعه أن ذلك الأمر الأخير قد منحه أكبر قدر من الرضا •

كان ياكوف عبداً رقيقاً ورجلا شديد التحمس والغيرة • وهو كجميع « الخولية » الأمناء ، شديد التقتير لصالح سـيده ، ويرحب بأغرب الأفكار الممكنة فيما يتعلق بصالح سيده • وكان دائم التبرم بكل زيادة تضاف الى أملاك سيده على حساب أملاك سيدته ، وحاول

أن يشير الى ضرورة استثمار كل دخل أملاكها فى بتروفسكى (القرية التى كنا نعيش فيها) • وفى هذه اللحظة كان مظفراً لأنه حقق هدفه •

•• وحيانا بابا ، وقال لنا ان الوقت قد حان لوضع حد لبطالتنا : فلم نعد بعد أطفالا ، ويجب أن نبدأ الدراسة بجد •

وقال : لعلكما تعرفان أننى ذاهب الليلة الى موسكو ، وسأصحبكما معى ، وستعيشان مع جدتكما ، وستبقى أمكما هنا مع الفتيات ، وأنتما تعرفان أن عزاءها الوحيد هو أن تسمع أنكما تحسنان الدراسة وأن معلميكما الخصوصيين راضون عنكم » •

وبالرغم من أننا كنا نتوقع شيئا غير عادى نتيجة للاستعداد الذى ظل قائما لعدة أيام ، فان هذا الخبر سبب لنا ما يشبه الصدمة ، فاحمر وجه فولوديا ، وأعاد قراءة رسالة أمى فى صوت متهدج •

وقلت لنفسى : « هذا ما تنبأ به حلمى ، فلا تسمح اللهم بما هو أسوأ ! » •

لقد أسفت كثيرا جدا لأمى ، ولكنى سررت فى نفس الوقت عندما ساورتنى فكرة أننا أصبحنا كبيرين •

وقلت لنفسى : « اذا كنا سنرحل الليلة فلن نتلقى دروسا بالتأكيد ، وهذا رائع ، ولكننى حزين من أجل كارل ايفانتش ، انه سيفصل دون شك ، ولهذا أعد له ذلك الغلاف ، •• لا ، خير

لنا أن نظل فى دراستنا الى الأبد ، وألا نرحل ونفترق عن امنا ، لا نجرح شعور كارل ايفانتش المسكين •• انه لتعيس جداً !! » •

•• وعندما ومضت هذه الأفكار في ذهنى وقفت دون حراك أتأمل الشرائط السوداء فى خفى •

وبعد أن قلت لكارل ايفانتش كلمات قليلة عن هبوط البارومتر وأمرت ياكوف ألا يطعم الكلاب لأنه قد يذهب بعد الغداء للقيام بتدريب الوداع لكلاب الصيد الصغيرة ، أعادنا بابا على عكس ماكنا نتوقع الى دروسنا ، وان كان قد طمأننا بأن وعد باصطحابنا الى الصيد •

•• وفى طريقنا الى الطابق العلوى جريت فى الشرفة المكشوفه ، وكانت الكلبة السلوقية « ملكا » الأثيرة عند بابا قابعة تطرف بعينيها فى ضوء الشمس عند الباب وقلت لها وأنا أربت عليها وأقبل أنفها : « ميلوتشكا ، سنرحل اليوم ، وداعاً ! سوف لايرى أحدنا الآخر ، وغلبتنى العاطفة ، فانفجرت باكيا •

(٤)

الدروس

•• كان كرل ايفانتش منحرف المزاج كثيراً ، وكان هذا واضحاً من عبوس حاجبيه • ومن الطريقة التى قذف بها سترته

الى صوان الملابس ، وأسلوبه الحانق فى معالجة حزامه ، والعلامة الغائرة التى وضعها على كراسة المحادثة مشيرا الى القطعة التى يجب استذكارها • واستذكر فولوديا بجد ، أما أنا فقد كنت فى حالة من الاضطراب بحيث لم أفعل شيئا ايجابيا ، وتأملت فى بلادة كتـــاب المحادثة مدة طويلة ، ولكنى لمأ ستطع القراءة لأن الدموع تجمعت فى عينى عند التفكير فى الرحيل الذى ينتظرنا • وعندما حل دورى لأعيد القاء القطعة على مسمع من كارل ايفانتش الذى أنصت بعينين نصف مغلقتين (وهى علامة سيئة) ، ووصلت الى الموضـع الذى يقول فيه المرء « من أين أتيت ؟ » ويجيبه الآخر بقوله : لقد أتيت من المقهى » ، لم أستطع كفكفة دموعى ومنعنى نشيجى من قولى : « ألم تترك الجريدة ؟ » •

ولمـا جاء وقت الـكتابة ، بلغت البقع التى أحدثتهـــا دموعى المتساقطة على الورقة حداً خيل الى عنده أننى أكتب بالماء على ورقة تغليف •

•• واستشاط كارل ايفانتش غضـــبا ، ودفع بى الى الركن وصرح بأن هذا العمل عناد ، ومهزلة صـــغيرة (وكان هذا تعبيره المفضل) ، وهددنى بالمسطرة ، وأمرنى أن أطلب منه الصفح ، وان كنت لم أستطع أن أفوه بكلمة بسبب بكائى ، ولابد انه شعر آخر الأمر أنه كان غير منصف ، لأنه دخل الى حجرة نيكولاى وصـفق الباب خلفه •

•• وكان الحديث فى حجرة نيكولاى مسموعا فى حجرة الدراسة •

قال كارل ايفانتش وهو يدخل الحجرة : « أسمعت يانيكولاى، ان الطفلين سيذهبان الى موسكو ؟ » •

وأجاب نيكولاى بلهجة تتسم بالوقار : « نعم ، لقد سمعت ذلك حقيقة » •

•• لابد أن تكون قد بدت منه حركة للنهوض ، لأن كارل ايفانتش قال : « لا ، لاتنهض يانيكولاى ! » ثم أغلق الباب ، وطلعت أنا من الركن وزحفت الى الباب لأصيخ السمع •

•• وقال كارل ايفانتش بتأثر : « مهما عملت خيرا للناس ، ومهما كان مدى اتصالك بهم ، فينبغى فيما يخيل الى يا نيكولاى ألا تنتظر منهم عرفانا بالجميل » •

وأومأ نيكولاى برأسه بالايجاب ، وكان يجلس بالقرب من النافذة يعمل فى صنع حذائه •

وتابع كارل ايفانتش حديثه ، رافعا عينيه وعلبة سعوطه نحو السقف : « لقد عشت فى هذا البيت اثنى عشر عاماً ، وأستطيع أن أقول أمام الله أننى أحببتهما ، وكان ميلى اليهما أكثر منه لو كانا طفلى بعينهما ، وانك لتذكر يا نيكولاى حين أصيب فولوديا بالحمى،

كيف جلست بجانب فراشه ، ولم تغمض عيناى طوال تسعة أيام ..
حقا !! لقد كنت آنئذ كارل ايفانتش الطيب العزيز ، وكنت لازماً
لهما فى ذلك الحين ولكن الآن .. » ثم أضاف بابتسامة مريرة :
الآن كبر الطفلان ، ويجب أن يدرسا بجد ، كأنهما لم يكونا ألبتة
هنا يا نيكولاى » .

.. وقال نيكولاى وهو يضع مخرازه ويسحب خيطه بكلتا
يديه : « لو سألتنى ، لقررت أنهما يدرسان كما يجب أن تكون
الدراسة » .

.. فقال وهو يضع يده على صدره : « نعم ، لم تعد بهم حاجة
الى بعد الآن ، يجب أن أبعد ، ولكن أين وعودهم ، وأين عرفانهم
بالجميل ؟ اننى أحب ناتاليا نيكوليفنا واحترمها يانيكولاى ، ولكنها
ماذا تكون ؟ ان رغبتها لم تعد ذات أهمية فى هذا البيت !! » وألقى
بقطعة من الجلد على الأرض بحركة معبرة ثم قال فى زهو : « انى
أعرف سبب ذلك ، وأعرف لماذا لم أعد ضروريا .. لأننى لا أتملق
أو أستعطف كما يفعل بعض الناس .. لقد تعودت أن قول الحق
دائما لكل شخص .. فليدنهم الله ! ان ابعادهم اياى لن يغنيهم فى
شىء ، وسأعمل بمشيئة الله على كسب عيشى ... ألا أستطيع
ذلك يا نيكولاى ؟ » .

.. ورفع نيكولاى رأسه ونظر الى كارل ايفانتش كأنه يريد

أن يؤكد له هو نفسه ، أنه يستطيع حقيقة كسب معاشه ، ولكنه لم يقل شيئا •

•• وتحدث كارل ايفانتش كثيرا على هـذا الوجه ولج في الحديث ، فقال ان خدماته قدرت أحسـن من هذا بكثير في بيت الجنرال فلان ، والجنرال فلان ، حيث كان يعيش من قبل (وتألمت كثيرا لدى سماعى هذا) ، وتحدث طويلا عن سكسونيا وعن والديه وعن صديقه شونهيت الخياط ، وما الى ذلك •

•• وعطفت على حزنه ، وآلمنى ، أن بابا وكارل ايفـانتش اللذين كنت أحبهما حباً يكاد أن يكون متساويا ، لم يفهم أحدهما الآخر وعدت ثانية الى ركنى ، وجلست القرفصاء أتدبر طريقـة لايجاد تفاهم بينهما •

•• ورجع كارل ايفانتش على التو الى حجرة الدراسة وأمرنى أن أنهض وأعد كراستى لكتابة الاملاء • وعندما أعد كل شيء ، جلس فى تعاظم على مقعده ذى المسندين ، وفى صوت كأنه صادر من عمق بعيد بدأ يملى على بالألمانية :

« نكران الجميل من أدعى الشـهوات الى الاشمئزاز ، ثم سألنى : « هل كتبت هـذا ؟ » وهنا تريث قليلا ثم تناول فى بطء قبضة من السعوط ، ثم تابع املاءه فى نشـاط مجدد ـ « نكران الجميل أدعى الشهوات الى الاشمئزاز » •• النون حرف كبير » •

وتطلعت اليه بعد كتابة آخر كلمة متوقعا ما هو أكثر •

•• وقال بابتسامة مكشوفة محسوسة : « نقطة وقف » وأومأ الى لأسلمه كراستى • وقرأ هــذا القول المأثور المعبر عن أعمق مشاعره عدة مرات ، وبشتى أنواع التنغيم وبمنتهى الرضا ، ثم قرر لنا درســا فى التاريخ ، وجلس بقرب النافذة ، ولم يكن وجهه مكتئبا كما كان من قبل ، بل عبر عن ابتهاج رجل ثأر لنفسه الثأر المناسب لأذى أحاق به •

•• كانت الساعة الواحدة الا الربع ، ولكن كارل ايفانتش لم يكن فى نيته فيما يبدو أن يصرفنا ، بل استمر ـ على العكس ـ فى توزيع دروس جديدة •

•• وتزايد الضجر والجوع بدرجة متســاوية ، ولاحظت بأعظم قدر من نفاد الصبر جميع الدلائل التى تشير الى قرب الغداء، فهناك قدمت المرأة بمنشفتها لغسل الأطباق ، واستطعت ان أســمع آنئذ قعقعة الصحون على السكردان (البوفيه) وسمعتهم يحركون المائدة ويضعون المقاعد ، ثم دخلت ميمى من الحديقة مع ليبوتشــكا وكاتنكا (كاتنكا هى ابنة ميمى الكبرى وتبلغ من العمــر اثنى عشر عاما) ، ولكن لم تقع العين على فوكا ، رئيس الخــدم ، الذى كان يأتى دائما فيعلن عن اعداد الغداء ، وحينئذ فقط كنا نستطيع ان نلقى بكتبنا جانبا دون أن نعير كارل ايفانتش أى التفات ونسرع بهبوط الدرج •

•• وسمع آنئذ صوت وقع أقدام على السلم ، ولكنه لم يكن فوكا ! فأنا أعرف وقع أقدامه عن ظهر قلب ، وأستطيع ان أعرف دائما ضغط حذائه •• وفتح الباب وظهر شخص مجهول تماما •

(٥)

الحاج

•• دخل الحجرة رجل فى نحو الخمسين ، ذو وجه مستطيل شاحب به آثار بثور ، وشعر رمادى ولحية متباعدة الشعر ضاربة الى الحمرة ، وكان من الطول بحيث لم يقتصر عند دخوله من الباب أن يحنى رأسه وحسب ، بل اضطر الى الانحناء بكل جسمه وكان يرتدى لباسا مهلهلا يشبه كلا من « القفطان » وقباء الكاهن ، وبيده عكاز غليظ يدق به الأرض بكل قوته أثناء دخوله الى الحجرة فاغر الفم ، مقطب الحاجبين ، وكان يضحك بطريقة بشعة غير طبيعية • وكان أعور ، لا يكف انسان عينه الأبيض عن القفز ، ليضيف الى هيئته ، مع قبح قسماته ، بشاعة تشمئز منها النفس •

•• وصاح : « آ ، ها ! لقد وجدتك ! » ثم جرى نحو فولوديا فى خطوات قصار ، وأمسك بيده • وبدأ يفحص قمة رأسه فحصا دقيقا ، ثم تركه وقد ارتسم على وجهه تعبير جاد كل الجد ، وسار نحو المائدة ، وأخذ يدق مشمع المائدة ويرسم فوقه علامة الصليب ،

وقال في صوت يتهدج بالعبرات وهو يتفرس في فولوديا متأثرا : « آه ، ياللعار ! أوه ، يا للأسف ! انهما سيرحلان » ثم أخذ يمسح بكميه دموعه التي كانت تهطل بالفعل •

•• وكان صوته خشنا جافا ، وحركاته متعجلة مرتجة ، وحديثه خالياً من المعنى وغير متصل ، ولكن نبراته كانت شديدة التأثير ووجهه القبيح الأصفر يتخذ أحيانا تعبيرا قويا فيه من الاخلاص والأسى ما يتعذر معه على السامع أن يكبح شعوره بالاشفاق الممتزج بالخوف والحزن •

•• كان هذا هو الحاج جريشا •

•• من أين أتى ؟ ومن هما والداه ؟ وما الذي أغراه باختيار حياة الحج ؟ لم يعرف ذلك أحد • ولكني عرفت فقط أنه يتظاهر منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره بأنه أبله ، يسير عاري القدمين شتاء وصيفا ، يزور الأديرة ، ويقدم صورا صغيرة لأولئك الذين يخطرون بخياله ، وينطق بكلمات غامضة ، يعتبرها بعض الناس نبوءة • وان أحدا لا يعرف عنه طابعاً آخر غير هذا ، وانه كان يزور جدتي اتفاقا ، وان البعض يقولون انه كان ابنا تعيسا لأبوين ثريين ، وان روحه نقية قدسية ، بينما يعتقد آخرون أنه مجرد فلاح لا يصلح لشيء••

•• وأخيرا وصل فوكا المواظب على موعده والذي افتقدناه طويلا ، وهبطنا الدرج وتبعنا جريشا وهو ينشج ويتحدث لغوا ،

ويدق كل درجة من السـلم بعكازه ، ودخل بابا وأمى حجرة الاستقبال متشابكى الذراعين يتحدثان فى صوت خفيض ، وجلست ماريا ايفانوفا أولا على أحد المقاعد ذات المسندين المرصوصة فى تناسق على شكل زوايا قوائم بالنسبة للأريكة ، وهى تحذر الفتيات اللائى جلسن بجوارها فى صوت خفيض متجهم ، ثم رفعت بصرها حين دخل كارل ايفانتش الحجرة ، ولكنها لم تلبث ان أدارت وجهها بسرعة ، واتخذ وجهها مسحة يمكن ان تفسر ما تعنيه « انك تحت ملاحظتى يا كارل ايفانتش » • وكان واضحا فى أعين الفتيات أنهن كن شديدات الرغبة فى ابلاغنا بعض أخبار بالغة الأهمية بأسرع ما فى الطاقة ، ولكن هذا قد يكون مما يخالف قواعد « ميمى » أن يقفزن ويأتين الينا ، اذ لابد لنا أولا أن نذهب اليها ونقول لها « صباح الخير يا ميمى » مع حك القدم بالأرض •

•• كم كانت تلك « الميمى » مخلوقة متزمتة !! فقد كان من العسير التحدث عن أى شىء فى حضورها : كانت تعتبر كل شىء غير لائق ، وتحضنا فوق ذلك باستمرار على التحدث بالفرنسية وكان يحدث هذا كأنه نكاية بنا عندما نريد ان نثرثر بالروسية ، أو فى أثناء الغداء ـ حين تأخذ فى الاستمتاع بأكلتك ، وترغب فى أن تترك وحدك فيكون من المحقق ان تقول : « كلوا اذن الخبز » أو « كيف تمسكون بالشوكة ؟ » وقد تقول فى نفسك : « وماذا

يكون عملها معهن ، دعهـــا تعلم فتياتها ـ فان لدينا كارل ايفانتش يهتم بنا » • لقد كنت أشاركه بغضه لبعض الناس كل المشاركة •

•• وهمست كاتنكا ، وهى تمسك بى من سترتى عندما دخل الكبار الى حجرة الطعام : « اطلبوا من أمى اصطحابنا الى الصيد » • « حسن ، سنحاول » • وأكل جريشـــا أيضـــا فى حجرة الطعام ، ولكن على مائدة صغيرة منفصلة ولم يرفع عينيه عن صحنه ، وقد تجهم تجهما مخيفـــا ، وكان يتنهد مرارا ويتمتم لنفســـه قائـــلا : « واحسرتاه لقد طارت •• ســـتطير الحمامة الى الســـماء •• آه ، هناك حجر على القبر ! » وما الى هذه العبارات •

•• وكانت أمى فى حالة انزعاج عقلى منذ الصـــباح ، وقد ضاعف وجود جريشا ، وكلماته وتصرفه على مايظهر من انزعاجها •

وقالت أمى وهى تناول بابا طبقا من الحساء : « آه ، نعم لقد أوشكت أن أنسى ان أطلب منك شيئا واحدا » •

« وما هو ؟ » •

« أرجوك أن تحبس كلابك المخيفة ، فقد كانت على وشـــك ان تعقر جريشـــا المســـكين وهو يجتاز الفناء ، وربمـــا هاجمت الأطفال » •

•• ولدى سماع جريشا لاسمه التفت الى ناحية المائدة وأخذ يكشف عن أطراف ثوبه الممزقة ويتحدث وهو ممتلىء الفم •

« لقد أرادت أن تعقرنى حتى الموت •• ولكن الله لم يدعها تفعل •• انه لمن الاثم تحريض الكلاب ! لا تضرب ، يابولشاك(١)• لماذا تضرب ؟ ان الله سيغفر ، لقد تغيرت الأيام الآن » •

وسأل بابا وهو يتفرس فيه بجفاء وترو : « ماذا يقول ، اننى لا أفهم كلمة واحدة » • وأجابت أمى : « حسـن ـ انا فهمت ، فهو يقول ان أحد الصيادين حرض كلابه عليه قاصدا فيما يقول ، أن تعضـه حتى الموت وهو يتوسـل اليك ألا تعاقب الرجل على فعلته » •

وقال بابا : « آه ، عرفت ، ولكن كيف يعرف أننى أقصـد معاقبة الصياد ؟ انك تعلمين أننى لست شديد الولع بهؤلاء السادة » ثم أضاف بالفرنسية « وهذا الشخص بنوع خاص لا يروق لى ، وينبغى أن •• » •

وقاطعته أمى ، كما لو كانت مذعورة : « آه ، لا تقل ذلك ، فماذا تعرف عنه ؟ » •

•• أظن ان الفرصة كانت كافية لدى لمعـرفة وسائل هؤلاء الناس عن ظهر قلب : ويأتى الى منهم عدد كاف ••• وهم جميعاً على غرار واحد ، والقصة نفسها تتكرر المرة بعد المرة » •

•• كان من الواضح ان رأى أمى مختلف كل الاختلاف فى هذه النقطة ولكنها لم تناقش •

---

(١) البولشاك هو كبير القرية أو العائلة أو الجماعة •

وقالت : « ناولنى فطيرة من فضلك ، أهى اليوم لذيذة ؟ » .

واستمر بابا فى حديثه وهو يتناول بيده فطيرة ، ولكنه يمسك بها على مسافة بعيدة عن متناول يد أمى قائلا : « انه ليضايقنى أن أرى أناساً عقلاء مثقفين يقعون فى الفخ » .

ثم ضرب المائدة بشوكته .

وأعادت أمى عبارتها وهى تمد يدها : « لقد طلبت ان تناولنى فطيرة » .

واستمر بابا فى حديثه وهو يبعد يده عن ذى قبل : « وهم يحسنون صنعاً حين .. يقبضون على أمثال هؤلاء الناس . ثم أضاف مبتسماً اذ أدرك أن حديثه قد ضايق أمى كثيراً ، وناولها الفطيرة وهو يقول : « والخير الوحيد الذى يفعلونه هو افساد الأعصاب الضعيفة عند أفراد معينين » .

عندى شىء واحد فقط أقوله فى هذا الموضوع : « انه لمن العسير أن أصدق أن رجلاً ــ بالرغم من بلوغه سن الستين ــ يسير عارى القدمين صيفاً وشتاء ، ويعلق سلاسل تزن «بودين» لا يخلعها مطلقاً من تحت ثيابه ، ويرفض أكثر من مرة عرضاً يهيىء له حياة ميسرة ــ من العسير أن أصدق ان مثل هذا الرجل يفعل كل هذا لمجرد الكسل » .

وأضافت أمى وهى تتنهد بعد تريث : « أما عن التنبؤ ، فقد تقاضيت ثمن ايمانى به ، وأظننى ذكرت لك كيف تنبأ كريوشا بنفس اليوم ونفس الساعة التى توفى فيها والدى » .

وقال بابا مصطنعاً الفزع وهو يضحك ويضع يده على فمه ، من الناحية التى تجلس فيها ميمى : « آه ، يا عزيزتى ، ماذا فعلت بى ! » (وعندما كان يفعل هذا كنت أصغى بانتباه شديد متوقعاً سماع شىء مسل) . : لماذا ذكرتنى بقدميه ؟ لقد نظرت اليهما ، ولن استطيع الآن أكل أى شىء .

.. كان طعام الغداء قد أوشك على النهاية ، وكانت ليوبوتشكا وكاتنكا تغمزان لنا دون توقف وهما تتململان على مقعديهما وأظهرتا قلقاً كبيراً ، وكانت غمزاتهما تشيران بطبيعة الحال الى السؤال : « لماذا لم تطلبوا منهم اصطحابنا الى الصيد ؟ » . ووكزت فولوديا بكوعى ، ووكزنى فولوديا وأخيراً استجمع شجاعته : فأوضح أول الأمر فى صوت هياب ، ثم فى صوت راسخ ومرتفع كل الارتفاع بعد ذلك ، قائلا : انه لما كان لا بد لنا أن نرحل فى ذلك اليوم ، فانا نحب ان نصحب الفتيات فى العربة الى الصيد ، وبعد مشاورات قصيرة جرت بين الكبار ، تقرر الأمر لصالحنا ، وكان أكثر ما يدعو الى البهجة قول أمى انها ستأتى معنا هى الأخرى .

(٦)

الاعداد للصيد

وفى أثناء تناول الحلوى بعد الطعام استدعى ياكوفا فتلقى الأوامر الخاصة بالعربة والكلاب وخيل الركوب ـ فنسق كل شيء بأعظم جانب من التفصيل ، وعين كل حصان باسمه • وكانت مطية فولوديا عرجاء : فأمر بابا بأن يسرج له حصان صيد ، وكانت عبارة « حصان صيد » غريبة الوقع دائماً على أذنى أمى : كان يبدو لها أن « حصان الصيد » لا بد أن يكون ذا طبيعة كطبيعة الحيوان المفترس ، ومن المحقق انه سيجرى بفولوديا ويقتله ، وبالرغم من تأكيدات بابا وفولوديا كلها ـ وتصريح فولوديا بشدة انه ملائم كل الملاءمة ، وأنه يحب الحصان حين يسرع ـ فان أمى المسكينة أصرت على انها ستكون منزعجة طوال الرحلة •

•• وانتهى الغداء ، وذهب الكبار الى المكتبة ليشربوا القهوة ، بينما جرينا نحن الى الحديقة لنحك أقدامنا على الممرات المغطاة بأوراق الأشجار اليابسة الصفراء ، وللتحدث عن ركوب فولوديا حصان الصيد ، ومدى ما لحق ليوبوتشكا من خجل لأنها لم تستطع ان تضارع كاتنكا فى السرعة وما كان من مزاحنا حين رؤية سلاسل جريشا ، وما الى ذلك • ولم تصدر كلمة واحدة عن افتراقنا ، وقطع حديثنا وصول العربة ، وكان يجثم على كل « ياى » منها

خادم ، وجاء الصيادون بكلابهم وراء العربة يتبعهم الحوذى اجنات راكباً الحصان الذى عقد العزم على ان يركبه فولوديا ، يقود حصانى الصغير من لجامه • واندفعنا الى السياج لكى نشهد كل هذه الأشياء المسلية ، ثم صعدنا الدرج طائرين نتصايح ونضرب بأقدامنا الأرض لكى نرتدى ملابس أقرب ما تكون الى ملابس الصيادين ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، وكانت احدى الوسائل لتحقيق هذه الرغبة هى أن نحشو سراويلنا فى أحذيتنا الطويلة ولم نضع وقتاً فى هذا العمل ، واندفعنا الى الخارج قاصدين الى سقيفة الباب لامتاع أعيننا بالكلاب والجياد ، والثرثرة مع الصيادين •

•• كان اليوم حاراً ، وكانت السحب البيضاء ذات الأشكال الخيالية تحوم فوق الأفق منذ الصباح ، وبعد قليل بدأ يدفعها نسيم خفيف فتقترب شيئاً فشيئاً حتى كانت تخفى قرص الشمس فى الفينة بعد الفينــة • وبالرغم من حلكة هذه السحب وتكاثرها ، فقد كان واضحاً انها لا تنذر بالتجمع لاحداث عاصــفة مرعدة تعكر علينــا صفونا فى آخر يوم لنا ، وأخذت تتفرق ثانية قرابة المساء : فشحب لون بعضــها ، واستطالت ثم أسرعت الى الأفق وتحــول بعضها ، المسامت لنا مباشرة ، الى حلقات شفافة ، ولم تبق غير سحابة كبيرة داكنة تتسكع نحو الشرق ، وكان كارل ايفانتش يعرف دائما المكان الذى يتجه اليه كل نوع من أنواع السحب ، فأعلن أن هذه السحابة

ستتجه الى ماسلوفكا ، وأن المطر لن يهطل ، وأن الطقس سيكون لطيفاً .

.. وجـرى فوكا بالرغم من تقدم سـنه ، فهبط الدرج على جانب عظيم من الرشاقة وصاح قائلا : « انطلق ! » ومكن لقـدميه المنفرجتين ، واتخذ لنفسه موقفاً وسط المدخل بين النقطة التى ينبغى ان تقف فيها العربة ، وبين عتبة الباب ، فكان فى وضع الرجل الذى لا يحتاج الى من يذكره بواجبه . وتبعته السـيدات ، وبعد نقاش قصير حول من سيجلس على الجانبين ، ومن سيمسك به (مع ماكان يبدو لى من عدم وجود أية ضرورة للتشبث بأحد قط) ، وجلسن ثم فتحن مظلاتهن ، وسارت بهن العـربة ، وأشـارت أمى عندما بدأت العربة (١) سيرها الى حصان الصيد وسألت الحوذى فى صوت متهدج قائلة :

« هل ذلك هو الجواد الذى أعد لفلاديمير بتروفتش ؟ » .

وعندما أجاب الحوذى بالايجاب ، أشارت بحركة يسيرة من يدها وأشاحت بوجهها وكنت نافد الصبر : امتطيت جوادى، ونظرت مباشرة فيما بين أذنيه ، وأخذت فى عمل مناورات مختلفة فى الفناء .

---

(١) نوع خاص من العربات القليلة الارتفاع المستعملة فى روسيا وهى ذات اربعة مقاعد ويطلق عليها « لينيكا Lineika » .

•• وقال لى أحد الصيادين : « احذر من فضلك أن تدوس أحـد الكلاب » • فأجبته فى تعـال : « لا تقلق لقد ركبت الجيـاد من قبل » •

وامتطى فولوديا حصـان الصيد ، ولكن اعترته رجفة خفيفة بالرغم من طبعه العنيد ، وسأل عدة أسئلة بينما كان يربت عليه •

« أهو سلس القياد ؟ » •

وكان يبدو جميلا على صهوة الحصان ـ كأنه أحد الكبار ـ وكانت فخذاه على السرج فى جلسة بالغة الاتقـان حتى لقد غبطته عليها ـ وخاصة لأننى حكمت بقدر ما استطعت أن أميز من ظلى ، اننى أبعد ما أكون عن تمثيل رشاقة المظهر •

•• ثم سمعنا وقع أقدام بابا على السلم : فساق ملاحظ الكلاب الصغيرة ، كلاب الصيد المتفرقة ، وجمع الصيادون كلابهم السلوقية وبدءوا يمتطون جيادهم ، وقاد « السايس » الحصـان الى السلم ، واندفعت كلاب بابا التى كانت راقدة هنا وهنالك فى أوضاع مختلفة وجرت نحوه ، وجاءت بعدهم « ملكا » فى طوقها المزين بالخرز ، تجلجل بلجامها الحديدى فى مرح ، وكانت تحيى الكلاب الأخرى على الدوام حين تخرج ، فتلعب مع البعض ، وتشمشـم أو تزمجر للبعض وتصيد البراغيث من الأخرى •

وامتطى بابا حصانه ومضى •

(٧)

الصيد

•• كان كبير الصيادين ويدعى توركا يركب حصانا رماديا داكناً فى المقدمة ، ويلبس قبعة شعثاء ، ويضع على كتفه بوقاً ضخماً ، وفى حزامه سكيناً ، فسرعان مايخيل للمرء اذا حكم على مظهر الرجل انه ذاهب الى نزال مميت ، لا الى رحلة صيد ، وتجرى خلف حصانه كلاب الصيد ، متزاحمة كأنها حزمة متعددة الألوان متماوجة •• وكان من المؤلم ان ترى ما حدث للكلب التعيس ، الذى أصر على السير متمهلا فى الخلف ، وكان لا بد له ان يجر مقوده معه ، ولذلك فما ان فعل هذا حتى سارع واحد من ملاحظى الكلاب الراكبين بالمؤخرة فلسعه بسوطه قائلا : « هيا الى الجماعة » •

•• وعندما برزنا من الأبواب، أصدر بابا أمره الينا والى الخدم أن نسير قدماً فى الطريق ، بينما عرج هو الى حقل جاودار (١) •

•• كان محصول الحبوب فى كامل نموه ، والحقل الأصفر المشرق الممتد الى ما وراء البصر يحيط به من جانب واحد فقط غابة سامقة زرقاء ، كان يخيل الى فى ذلك الحين انها فى مكان شديد البعد والغموض تنتهى فيما وراءه الدنيا ، أو يبدأ عنده اقليم غير

---

(١) نبات يشبه الشعير •

مأهول ، وكان الحقل مرقطاً بأكداس من الحزم ومن الناس ، وكنت ترى هنا وهنالك على امتداد الماشى ظهر امرأة حصادة محنية بين سنابل القمح وهى تتناولها بين أصابعها ، أو امرأة أخرى مكبة فوق مهد وضع فى مكان ظليل ، أو حزما متفرقة فوق أعقاب الحنطة التى تشيع فيها أزهار العنبر ، والفلاحين على مبعدة يرتدون القمصان الطويلة ، ويقفون على عربات يوثقونها بالحزم ، ويثيرون سحباً من الغبار على الحقول الجافة التى لفحتها الشمس • وما أن لمح باباً من مسافة بعيدة النبيل صاحب الأرض بحذائه الطويل ، وقد أمسك فوق كتفيه الأرمباك (١) وأمسك بقوائم الحساب ، حتى خلع قبعته المصنوعة من صوف الخراف ، ومسح بمنشفة شعر رأسه ولحيته الضارب الى الحمرة ، ونادى النساء • وركض الجواد الأشقر الذى يمتطيه باباً خببا فى خطوة نشيطة لعوب ، يحنى رأسه ويشد شكيمته الفينة بعد الفينة ، ويهف بذيله الغزير ، البعوض والذباب الذى التصق به متعطشاً اليه ، وكان كلبا صيد بذيلهما الملتويين كالمنجل يقفزان فى أذيال الجواد برشاقة فوق بقايا أعواد الحنطة ، وجرت « ملكا » فى المقدمة ، وقد أدارت رأسها الى الخلف مترقبة • ان طنين الأصوات وضوضاء الخيل والعربات وزقزقة السمان ، وأزيز الحشرات المعلقة أسراباً فى الهواء ، ورائحة الشيح والدريس وعرق الخيل ، وآلاف الألوان والظلال المتباينة التى تعكسها الشمس

(١) سترة طويلة فضفاضة يرتديها الفلاحون •

الحارقة فوق بقايا أعـواد الحنطة اللامعة ، والغـابة الزرقاء النائية ، والسحب البنفسجية الشاحبة ، وخيوط العناكب البيضاء الطافية في الهواء أو المستقرة على بقـايا أعـواد الحنطة ... كل ذلك رأيتـه وسمعته وأحسسته .

.. وعندما بلغنا غابات كالينوفو وجدنا العربة هنالك، ووجدنا على غير أى توقع منا ، المركبة التى جلس فيها خادم المائدة ، وقد برز من تحت القش ابريق الشـاى وقصعة ملآى بالمثلجات ، وغير ذلك من مختلف الأسفطة والسلال الأخرى ، التى يشحذ منظرها الشهية ، وهذه دلائل لا تخطىء على اننا سنتناول الشاى والقشـدة المثلجة والفاكهة فى الهواء الطلق . وهتفنا بهجة لدى رؤية المركبة اذ كان شرب الشاى فى الغابات على الحشائش ، وبخاصة فى مكان لم يشربه فيه انسان من قبل يعد وليمة كبرى .

.. وحضر توركا الى هذه الغـابة الصـغيرة ، ووقف مصغياً بانتباه الى توجيهات بابا الدقيقـة كطريقـة وقوفهم ومكان هجومهم (بالرغم من انه لم يتبع مطلقاً هذه التوجيهات وكان يعمل بالضبط ما يروقه) ، ففك الكلاب ورتب الأربطة على مهل ، وامتطى جواده واختفى وراء أشـجار البتولا الصـغيرة ، وبصبصت كلاب الصـيد بأذنابها من فرحتها لفك اسارها ، فهزت أجسامها وتشممت الأرض ثم ولت الادبار فى شتى الاتجاهات وهى لا تزال تبصبص بأذنابها.

وسألنى بابا : « ألديك منديل ؟ » .

فأخرجت منديلا من جيبى وأريته اياه .

« حسن ، اربطه فى هذا الكلب الرمادى » .

فتساءلت بلهجة العارف قائلا : « زيران ؟ » .

نعم ، اركض معه فى الطريق ، فاذا ما وصلت الى مرجة صغيرة ، قف وتلفت حولك ولا ترجع الى بدون أرنب برى .

.. لففت المنديل حول رقبة «زيران» المشعثة الشعر وانطلقت بسرعة قاتلة الى المكان المعين ، فضحك بابا وصاح بى قائلا :

« أسرع ، أسرع ، والا تأخرت كثيراً » .

.. وظل «زيران» واقفاً ، يرهف أذنيه ، يتسمع الى أصوات المطاردة فجذبته بكل قوتى ، ولكنى لم أستطع حمله على الحركة حتى صحت به أستحثه « هيا ، هيا » فانفلت مسرعاً بحيث لم أملك منعه الا بشق النفس ، وسقطت غير مرة قبل أن أصل الى مكانى ، وتخيرت مكاناً مستوياً ظليلا عند أصل شجرة سنديان حيث استلقيت على الحشائش وجعلت زيران يرقد الى جانبى ، وانتظرت. لقد سبق خيالى الواقع بكثير كما يفعل دائماً فى مثل هذه الأحوال ، فكنت فى تصورى كأننى أطارد بالفعل حين سمعت عواء أول صيد وجلجل صوت توركا عالياً واضحاً داخل الغابة ، وارتفع صوت صيد باك ، وتكرر الصوت مرة ومرة ، ثم لحق به صوت آخر أشد عمقاً ، ثم ثالث ورابع ، ولكن هذه الأصوات كانت تنخفض ثم ترتفع مرة

أخرى ، كل منها يطغى على الآخر • ثم تعالت الأصوات شيئاً فشيئاً حتى ضاعت كلها فى جلبة مستمرة ، واستعادت الغابة لغتها كما يقول الصيادون ، فلقد انطلقت حيوانات الصيد فى أسرع عدو •

•• وتسمرت فى مكانى ، وثبت عينى على حافة الغابة ، وابتسمت فى بلاهة ، وكنت اتقطر عرقاً ، ومع ان القطرات كانت تدغدغنى وهى تسيل على ذقنى فاننى لم أمسحها فكانت هذه اللحظة كما بدا لى أكثر الأشياء حسماً ، وكان موقف الترقب هذا أقسى من أن يستمر طويلا ، وكانت تصدر صيحة حيوانات الصيد آناً من حافة الغابة ثم تتراجع آناً ، ولكن لم يظهر هناك أى أرنب برى ، وتطلعت فيما حولى ، وكان زيران فى نفس الحالة ، يشد فى عنف وينشج فى أول الأمر ، ثم رقد بجانبى واضعاً أنفه على ركبتى ولاذ بالهدوء •

وتجمعت أسراب النمل حول جذور شجرة السنديان العارية التى جلست تحتها ، بأعداد لا حصر لها فوق الأرض الرمادية الجافة ، بين أوراق أشجار السنديان الذابلة وثمار البلوط وأعواد الطحلب النامية ، والطحلب الأخضر الضارب الى الصفرة ، وأوراق الحشيش الأخضر الرفيعة ، تسرع الواحدة اثر الأخرى على امتداد درب صنعته هى لنفسها ، بعضها مثقل بحمله ، والبعض الآخر لا يحمل شيئاً البتة ، والتقطت غصناً ، اعترضت به طريقها ، وكان من العجيب أن أرى بعضها وقد تسلق الغصن مستخفا بكل خطر ،

بينما ارتبك بعضها الآخر فيما يظهر ، وبخاصة من لم يكن يحمل شيئاً ، فلم يعرف ماذا يفعل فتوقف وبحث عن طريق آخر يدور حوله ، أو عاد أدراجه أو زحف فوق الغصن حتى بلغ يدى ، بقصد الدخول فى كم سترتى على ما بدا لى • وقد صرفتنى عن هذه الملاحظات المسلية فراشة ذات أجنحة صفراء كانت ترفرف أمامى بصورة مغرية ، فما أن وجهت اليها انتباهى حتى طارت مبتعدة عنى مسافة خطوتين تحوم حول برعم طرفى من البرسيم البرى الأبيض الموشك على الذبول فاستقرت عليه ، ولا أدرى ما اذا كانت تريد أن تدفىء نفسها فى الشمس أم لتمتص من هذا العشب عصارته ، ولكن كان من الواضح أنها تستمتع • وكانت بين آونة وأخرى ترفرف بجناحيها وتقترب من الزهرة ، ثم توقفت فى النهاية عن الحركة ، فأسندت رأسى بكلتا يدى وأخذت أتطلع اليها بسرور •

•• أخذ « زيران » على حين غرة يعوى ، وجذبنى جذبة كدت أسقط من جرائها ، وتطلعت ، فاذا أرنب برى يقفز عند حافة الغابة ، متدلية احدى أذنيه والأخرى مرفوعة ، واندفع الدم الى رأسى ، ونسيت لساعتى كل شىء آخر ، وأطلقت صيحة طائشة ، وأفلت الكلب يعدو وراءه • ولكنى أسفت بعد برهة أننى فعلت هذا ـ اذ أقعى الأرنب ثم وثب ، ولم أر شيئاً أكثر من ذلك •

•• ولكن كم كانت مذلتى حين تبعد حيوانات الصيد التى خرجت الى حافة الغابة تعوى ، وظهر توركا من وراء الآيلة !!

فرأى غلطتى (وهى عدم انتظارى) وتفرس فى باحتقار قائلا : « يا سيدى !! » ، ولم يقل غير ذلك ، ولكن لهجته جعلتنى أتمنى لو علقت فى سرجه مثل الأرنب .

ووقفت برهة طويلة فى نفس البقعة ، يائساً أعمق اليأس ، فلم أناد على الكلب ولم أستطع عمل شىء الا أن أضرب فخذى ، وأكرر هذا مراراً قائلا : « آه ، يا عزيزى ، ماذا فعلت !! » .

•• وسمعت أصوات عدو حيوانات الصيد عن بعد ، سمعتها تعدو بأسرع ما تطيق على الجانب الآخر من الغابة ، وتقتل الأرنب البرى ، وتوركا يستدعى الكلاب بسوطه الطويل : « ولكنى ظللت جامداً لا أتحرك من مكانى » .

(٨)

الالعاب

•• انتهى الصيد ، وفرش بساط فى ظل أشجار البتولا الصغيرة واجتمعت الزمرة كلها حوله ، وداس جافريلو خادم المائدة الحشيش الريان الأخضر تحت قدميه ، وجفف الأطباق ، وأفرغ سلال البرقوق والخوخ الملفوفة بالورق ، وكانت الشمس تضىء من خلال أغصان البتولا الصغيرة الخضراء ، وتلقى من حولنا أشعة مرتجفة ، على رسوم البساط ، وعلى قدمى ، بل على رأس جافريلو

الأصلع المندى بالعرق ، وكان يهب نسيم هادىء منعش من بين الأوراق يداعب شعرى ، ووجهى ينضح بالبخار .

•• وعندما أتينا على المثلجات والفاكهة لم يعد هناك شيء يربطنا بالبساط ، وبالرغم من ميل الشمس التى كانت أشعتها لا تزال حامية نهضنا وانصرفنا الى اللعب .

•• وقالت ليوبتشكا وهى تحجب عينيها عن الشمس وتثب فوق الخضرة : « وماذا نفعل الآن ؟ فلنلعب روبنصن ! » .

وقال فولوديا وهو يتمرغ متكاسلاً فوق الخضرة ويمضغ ورقة : « لا ، انها لعبة متعبة ، ونحن نلعب روبنصن دائماً !! فان كان لابد من لعب شيء ما ، فلنبن تعريشه » .

•• وكان من الواضح ان فولوديا كان يتصنع : لا بد انه كان فخوراً لأنه ركب حصان الصيد فادعى انه متعب للغاية ، أو أنه يمتاز بقسط كبير من حسن الادراك ، وقسط ضئيل جداً من الخيال لا يجعله يستمتع الى أقصى حد بلعبة روبنصن ، وتتضمن هذه اللعبة تمثيل مناظر مختلفة من روبنصن السويسرى (١) التى كنا قد قرأناه منذ وقت ليس ببعيد .

وألحت الفتيات ، فقالت كاتنكا وهى تحاول جذبه من على

---

(١) أسرة روبنصن السويسرية .

الأرض من كمى سترته : « آه ، نرجوك ••• لمجرد ادخال السرور الى قلوبنا ! » •

« انك ستقوم بدور تشارلز ، أو أرنست ، أو الأب ، أو أى دور تريد » •

فقال فولوديا وهو يتمدد مبتسماً راضياً عن نفسه : « اننى لا أريد اللعب فى الحقيقة ، انه يبعث على الضجر » •

•• وقالت ليوبتشكا من خلال دموعها : « كان من الأفضل ان نبقى فى البيت اذا كان لا يريد أحد منا أن يلعب » •

وبكت وكان بكاؤها مزعجاً كما يكون بكاء الطفل •

تعالى اذن ، وحسبك أن تكفى عن البكاء ، فأنا لا أستطيع احتماله » •

•• ولم يمنحنا تنازل فولوديا : الا قدراً قليلا جداً من الارتياح • بل على العكس ، أفسدت نغمته الثقيلة المتكاسلة كل ما فى اللعب من فتنة، وحين جلسنا على الأرض متخيلين اننا سنخرج فى رحلة لصيد السمك وأخذنا نجدف بكل قوتنا ، أصر فولوديا على الجلوس ، وقد طوى ذراعيه فى وضع مصطنع يصلح لأى شىء آخر غير وضع صياد السمك • وقد قلت له ذلك ، ولكنه أجاب بأننا سوف لا نكسب مع ذلك شيئاً من التلويح بأذرعنا ، واننا لن

نسير بالتأكيد الى أبعد من ذلك ، وقد وافقته كارهاً ، وعندما تظاهرت بأننا سنذهب للقنص وخرجنا الى الغابات ، ووضعت العصا على كتفى ، انطرح فولوديا وظهره على الأرض ، واضعاً يديه تحت رأسه ، وطلب منى أن أتظاهر بذهابه هو الآخر • وأدت مثل هذه الأحاديث والتصرفات الى فتور اهتمامنا بالصيد ، وأصبحت بغيضة الى أقصى حد ، وبخاصة أنه لم تكن لنا حيلة فى شعورنا بأن فولوديا كان على حق •

•• كنت أعرف ، أنا نفسى ، أن اطلاق النار على طائر بواسطة عصا ، فضلا عن قتله ، أمر مستحيل ، ولكن هذا لم يكن غير لعب ، فان عللت الأمر تعليلا عقلياً على هذه الصورة ، فانك بالمثل لا تستطيع أن تجعل من المقاعد مطية تركبها • ولكنى ظننت أن فولوديا نفسه لا بد قد تذكر كيف كنا فى أمسيات الشتاء الطويلة نغطى مقعداً ذا مسندين بالقماش ونجعل منه عربة ذات عجلات صغيرة • وبينما كان أحدنا يركب فى مكان السائق كان الآخر يقوم بدور السايس، وتجلس الفتيات فى الوسط ، بالاضافة الى ثلاثة مقاعد تمثل جياد العربة (ترويكا) (١) الثلاثة ، ثم نخرج الى رحلة ، وكم من مغامرات مثيرة كانت تقابلنا فى الطريق ! فان التزمت الحقائق لما كانت هناك ألعاب ، واذا ذهبت الألعاب فماذا يبقى بعدها ؟•

---

(١) ترويكا اسم لنوع خاص من العربات المعروفة فى روسيا ، وتجرها ثلاثة جياد جنبا لجنب •

(٩)

شىء كالحب الأول

•• تظاهرت ليوبتشكا بأنها تقطف بعض الفاكهة الأمريكية من شجرة ، فنزعت ورقة عليها دودة كبيرة ، فألقتها على الأرض فى فزع ، ورفعت يديهـا واندفعت الى الخلف كما لو كانت تخشى أن تقذفها ببعض السم • وتوقف اللعب ، وانحنينا جميعاً لفحص هذا الشىء الغريب فتقاربت رءوسنا بعضها الى بعض •

•• ونظرت من فوق كتف كاتنكا وهى تحاول التقاط الدودة على ورقة وضعتها فى طريقها •

لقد لاحظت ان فتيـات كثيرات لهن طريقـة انتفاضة خاصة بأكتافهن لسحب ثيابهن ذوات الفتحات الواسعة عند نحورهن لردها الى مكانها عندما تنزلق ، وأذكر ان هذه الحركة كانت دائماً تغضب «ميمى» فتقول : « هذه حركة تليق بخادمة حجرة النوم » ، وقد أتت كاتنكا هذه الحركة وهى تنحنى فوق الدودة ، وفى نفس اللحظة أطاحت الريح بالمنديل الأبيض من على عنقها فأصبح كتفها الصغير على مسافة قيراطين من شفتى ولم أعد بعد أنظر الى الدودة : تفرست وتفرست فى كتف كاتنكا ، ثم قبلته بكل قوتى ، ولم تلتفت وراءها ، ولكننى لاحظت ان عنقها بل وأذنيهـا استحالا الى اللون الأحمر ،

وقال فولوديا باحتقار دون أن يرفع رأسه : « يا لها من رقة ! » •

ولكن عينى امتلأتا بالدموع •

لم أستطع أن أحول عينى عن كاتنكا ، لقد ألفت منذ مدة طويلة وجهها الصغير الغض وأحببته دائماً ، ولكنى بدأت الآن ملاحظته بانتباه أكثر ، ولا أزال أحبه بدرجة أعظم •

وعندما لحقنا بالكبار ، كان أشد ما أبهجنا ان أعلن أبى بناء على رجاء أمى ، تأجيل رحيلنا الى اليوم التالى •

وركبنا العربة الى البيت وعدونا راكبين ، فولوديا وأنا ، الى جانب العربة ، نتنافس معاً فى استعراضنا للفروسية والجسارة • كان ظلى أطول من ذى قبل ، وتخيلت قياساً على ذلك اننى أبدو كفارس لطيف جداً ، ولكن هذا الشعور بالرضاء عن الذات سرعان ما تحطم نتيجة للحادث التالى : فلرغبتى فى أن أفتن جميع الراكبين فى العربة ، تخلفت الى الوراء قليلاً ، وبضربة سوط وغمزة مهماز حينذاك أطلقت حصانى الى الركض ، وتظاهرت برشاقة غير متكلفة بقصد الانقضاض مارا بهم كالاعصار ، من الجانب الذى كانت تجلس فيه كاتنكا • ولكن فى الوقت الذى كنت أحاول فيه بالضبط أن أقرر ما اذا كان الأفضل أن أركض صامتاً أم أصيح وأنا أمر بهم ، وقف الحصان القذر على غير توقع مطلقاً عندما وصل الى جياد العربة ، حتى أننى طرت من على السرج الى عنقه وكدت أقع بعيداً عن ظهره •

(١٠)

أى نوع من الرجال كان أبى

كان رجلا ينتمى الى القرن الماضى ، وأخلاقه مزيج لا يمكن تفسيره من الفروسية والاقدام والثقة بالنفس والمروءة والدعارة الشائعة فى شباب ذلك العهد ، وكان ينظر باحتقار الى الجيل الحاضر . وقد نشأت نظرته هذه الى هذا الحد من الكبرياء الفطرية ، وكذلك من غيظ باطن لعدم قدرته على حسن استخدام انتصارات عصرنا أو الاستمتاع بها كما استمتع فى أيامه السالفة . وكانت الشهوات المسيطرة على حياته هى لعب الورق والنساء . ولقد كسب فى مجرى حياته الملايين من لعب الورق ، وكانت له علاقات مع نساء لا يحصيهن الحصر من جميع الطبقات .

كان طويلا ذا منظر جليل ، ومشية متأنقة غريبة ، فيه لازمة هز الكتفين ، ذا عينين صغيرتين ضاحكتين أبدا ، وأنف كبير أعقف، وشفتين غير عاديتين بل غريبتين ، وان كانتا مضمومتين بلطف ، ألثغ اللسان أصلع الرأس ـ كان هذا مظهر بابا منذ الوقت الذى فطنت له ، وهو مظهر لم يكسب به شهرته كرجل واسع الثراء ، وحسب ـ كما كان فى الواقع ـ بل ليجعل نفسه محبوباً عند كل الناس دون استثناء ـ أناس من جميع الطبقات والمراكز ، وبخاصة أولئك الذين كان يحب ارضاءهم .

وكان يعـرف كيف يكون صاحب اليد العليـا على الجميع ، وبالرغم من انه لم يكن ينتمى الى طبقـة راقيـة جداً ، فانه كان يتحرك دائماً فى تلك المجالات ، ويدبر الأمر بحيث يكون موضع احترام الجميع ، وكان يعـرف بالضبط الدرجـة التى تصـل اليها كبرياؤه وثقته بنفسه وهما اللتان رفعتا من قدره فى نظر العالم دون أن يغض من قدر الآخرين • وكان مبدعاً ، وان لم يكن هكذا على الدوام ، واستخدم ابداعه احياناً ، بديلا للسلالة أو الثروة ، ولم يكن فى الحياة شيء يمكن أن يثير شـعوره بالدهشة : فبرغم نباهة مركزه ، كان يبـدو أنه ولد له ، ولا يملك المرء الا أن يحسـد قدرته على الاختفاء عن الآخرين ، وابعاد الجانب المظلم من الحياة ، بكل مضايقاته ومنغصاته الصغيرة •

وكان خبيراً بجميع الأشياء التى تهيىء الراحة أو السرور ، ويعرف كيف يستمد منها أكبر فائدة ، ويزهو بعلاقاته الممتازة التى كونها عن طريق زواجه بأمى من ناحية ، وعن طريق أصدقاء شبابه من ناحية أخرى • وكان يحمل لهؤلاء حقـداً دفينـاً لأنهم ارتقوا جميعاً فى وظائفهم ، بينما ظل هو نقيباً متقاعداً من قوة الحرس • ولم يكن يعرف كبقية الضباط القـدماء كيف يرتدى الملابس على الطراز الحديث ، ومع ذلك فان رداءه كان مبتكراً وأنيقاً ، وثيابه دائماً فضفاضة خفيفة ، وملابسه الداخلية البيضاء من أفخر الأنواع، وأكمامه وبنيقاته الواسعة مثنية الى الخلف ، فكان كل شيء يرتديه

يلائم فى الحقيقة طوله ومظهره القوى ، ورأسه الأصلع ، وحركاته الهادئة الواثقة ، وكان رقيق الشعور بل سريع الانفعال لدرجة البكاء فاذا ما بلغ أثناء قراءته بصوت مرتفع فقرة مثيرة للشجن ، فان صوته يأخذ فى التهدج ويسقط منه الكتاب فى معظم الأحيان ، وكأن يحب الموسيقى ويغنى بمصاحبة « البيان » ويهوى القصص التى كتبها صديقه وأغانى الغجر ، وقليلا من نغمات الأوبرا ، ولكنه لا يأبه بالموسيقى الجادة ، ويقول صراحة ، مزدرياً الرأى العام ، ان سوناتا بتهوفن تسلمه الى النوم ، وانه لم يعرف ما هو أروع من « لا توقظ الصبية » كما تغنيها مدام سيمنوفا ، و « لا أحد الا أنت » كما تغنيها المرأة الغجرية تانيوشا . وكانت طبيعته من تلك الطبائع التى لا غنى للشعب عن مآثرها . ولم يكن يقدر أو يحترم الا تلك التى تواضع العالم كله على تقديرها أو احترامها . وسواء أكان يدان أخلاقياً أم لا ، فهذا من العسير القول به ، فلقد كانت حياته مليئة للغاية بالدوافع من كل صنف حتى ان وقته لم يتسع للتفكير فيها ، وكان هانئاً فى حياته فلم يجد ضرورة للتفكير .

وعندما تقدمت به السن اكتسب وجهة معينة فى الحياة ، وقانوناً جامداً للسلوك كان برغم ذلك عملياً خالصاً ؛ فهذه الأعمال وهذه الطريقة فى الحياة التى نال بها السعادة والسرور ، اعتبرها خيراً ، واعتقد أن كل امرىء ملزم باتباعها . كان يتكلم بطلاقة ، فرفعت

هذه الصفة فيما يبدو لى من مرونة مبادئه : لقد كان قادراً على تصوير نفس العمل على أنه مرح فاتن أو أنه دعارة صريحة •

(١١)

فى المكتب وحجرة الاستقبال

كانت الدنيا قد أظلمت عندما وصلنا الى البيت ، وكانت أمى تجلس الى « البيان » وذهبنا نحن الأطفال فأحضرنا أوراقنا وأقلامنا وألواننا ، وجلسنا حول المائدة المستديرة لكى نرسم • ومع انه لم يكن لدى غير لون أزرق ، الا أننى قمت بتصوير القنص ، ورسمت بسرعة صبياً باللون الأزرق ، يمتطى حصاناً أزرق ، وبعض كلاب زرقاء ، ولكنى لم أكن واثقاً اذا كنت أستطيع رسم أرنب برى باللون الأرزق ، فجريت الى المكتبة أستشير بابا • وكان بابا يقرأ وأجاب على سؤالى دون أن يرفع رأسه : « أتوجد أرانب زرقاء » » فأجبت : « نعم يا بابا العزيز ، هناك أرانب زرقاء » • ورجعت الى المائدة المستديرة ورسمت أرنباً أزرق ، ثم وجدت لزاما ان أحول الأرنب الأزرق الى شجيرة ، ولكن الشجيرة لم تعجبنى كذلك ، فحولتها الى دوحة ، والدوحة الى بيدر من الدريس ، ثم حول هذا الى سحابة ، وأخيراً رسمت مثل هذا الخليط على ورقتى كلها باللون الأزرق حتى اننى مزقتها ، وقد ضاقت نفسى بها ، وذهبت الى مقعد كبير ذى مسندين لأهجع قليلا •

كانت أمى تعـزف قطعة « كنسرتو « فيلد » الثانية » ، الذى كان مدرساً لها ، ـ فأخذت أحلم ، وقفزت الى خيالى أضغاث أحلام براقة واهمة ، ثم عزفت « سوناتا بتهوفن الشـجية » ، فاستحالت ذكرياتى مقبضة محزنة ، ولما كانت أمى تعزف هاتين المقطوعتين فى كثير من الأحيان ، فاننى لأذكر جيدا الشعور الذى كانتا تثيرانه فى نفسى .. لقد كان شيئاً شبيها بالذكرى ـ ولكن ذكرى ماذا ؟ يبدو لى فى أغلب الظن ، اننى تذكرت شيئاً لم يحدث قط .

كان باب حجرة المكتب فى الجانب الآخـر ، ورأيت ياكوف وبعض الرجـال ذوى اللحى والقفـاطين يدخلون ، وأغلق الباب وراءهم بعد دخـولهم مبـاشرة . وقلت فى نفسى : « والآن قد بدأ العمل » وتراءى لى ان شيئاً فى العالم لا يمكن أن يكون أكثر أهمية من العمل الذى يقضى فى حجرة المكتب تلك ، وممـا ثبت فكرتى هذه أن جميع من دخلوا من باب حجرة المكتب ، انما دخلوا على أطراف أصابعهم وتحدثوا همساً . ونفذ من خلال الباب صوت بابا المرتفع ورائحة السيجار التى كانت تثيرنى دائماً ، ولا أعرف لذلك سبباً . ودهشت أثناء اغفاءتى على المقعد لدى سـماعى صرير حـذاء مألوف لدى فى مخزن رئيس الخـدم ، وظهر كارل ايفانتش وعلى وجهه مسحة من التصميم العابس ، يحمل فى يده بعض الأوراق ، ويسير على أطراف أصابعه الى الباب ، وطرقه بخفـة ، وسمح له بالدخول وصفق الباب ثانية .

وقلت لنفسى : « آمل ألا يحـــدث شيء سيىء ، ان كارل ايفانتش غاضب ، وهو على استعداد لعمل أى شيء » •

ثم رحت ثانية فى اغفاءة •

ولكن لم تحدث كارثة • ولم تمض ساعة حتى أيقظنى نفس صرير الحذاء ، وخرج كارل ايفانتش من المكتب وهو يجفف عينيه ـ اللتين رأيتهما ممتلئتين بالدموع ـ بمنديله ، وصعد الدرج وهو يهمهم فى سره ، وخرج بابا فى اثره ودخل غرفة الاستقبال •

وقال مبتهجاً وهو يضع يده على كاهل أمى : « أتعرفين ماذا قررت ؟ » •

« وماذا قررت يا عزيزى ؟ » •

« سأصحب كارل ايفـانتش مع الطفلين اذ يوجـد له مكان بالعربة ، لأنهما ألفاه ، ويبدو ان علاقته بهما وثيقة جداً ، ثم ان سبعمائة روبل فى العـــام ليست بالمبلغ الكبير : ثم انه فى الواقع عفريت لطيف جداً !! » •

•• ولم أستطع أن أعرف لماذا تحدث بابا عن كارل ايفانتش بهذا القدر من قلة الاعتبار •

وقالت أمى : « اننى لسعيدة جداً ، لصالح الطفلين ولصالحه •• انه عجوز طيب » •

« ليتك رأيت مقدار تأثره حين قلت له ان يتحفظ بالخمسمائة روبل كمنحة !! ولكن الذى يبعث على التسلية أكثر من أى شىء آخر ، هو هذه القائمة التى سلمها لى على التو ، فهى جديرة بالنظر » ثم أضاف بابا بابتسامة وهو يناولها قائمة مكتوبة بخط يد كارل ايفانتش « انها لتدعو الى الانبساط !! » .

وهذا ما كانت تضمه القائمة :

« صنارتان لصيد السمك للطفلين ، سبعون كوبك .

« ورق ملون ، حاشية مذهبه ، مكبس وغراء لصنع علب للهدايا ، ستة روبلات وخمسة وخمسون كوبك .

« كتاب وقوس ، هدية للطفلين ، ثمانية روبلات وستون كوبك .

« سروال لنيكولاى ، أربعة روبلات .

« ساعة ذهبية ، وعدنى بيتر الكسندرتش باحضارها من موسكو سنة ١٨ ..... ، مائة وأربعون روبل .

« مجموع ما يستحقه كارل موير ، بالاضافة الى مرتبه ، مائة وتسعة وخمسون من الروبلات وتسعة وسبعون كوبك » .

.. ان من يقرأ هذه القائمة التى يطالب كارل ايفانتش بدفعها له ، لا بالنسبة للنقود التى صرفها على الهدايا وحسب ، بل بالنسبة

للهدية التى وعد بها لشخصه ، ليظن ان كارل ايفانتش لم يكن أكثر من أنانى شحيح قاسى القلب ـ وانه مخطىء جداً .

وعندما دخل المكتب بهذا البيان فى يده ، والحديث معداً جاهزاً فى رأسه ، كان يقصد ان يضع فى طلاقة أمام بابا كل ما كابده فى بيتنا ، ولكنه حين بدأ الكلام بذلك الصوت المؤثر ، وبتلك التنغيمات العاطفية التى اعتاد استخدامها عندما كان يملى علينا ، بلغ تأثره بفصاحته مبلغاً كبيراً ، حتى انه عندما وصل الى الموضع الذى يجب أن يقول فيه : « وبقدر ما يؤلمنى انفصالى عن الطفلين » انهار وتهدج صوته واضطر الى جذب منديله ذى المربعات من جيبه .

وقال من خلال دموعه (ولم تكن هذه الفقرة موجودة فى حديثه المعد) : « نعم ، يا بيتر الكسندرتش ، لقد ألفت الطفلين الى الحد الذى أصبحت معه لا أدرى كيف أعيش بدونهما ... فدعنى أبق معهما بدون مرتب » ثم أخذ يجفف دموعه باحدى يديه ، ويقدم القائمة بيده الأخرى .

ولمعرفتى بشفقة قلب كارل ايفانتش أستطيع الجزم باخلاصه. أما كيف وفق بين هذا البيان وبين كلماته فهذا لا يزال سرا غامضا على .

وقال بابا وهو يربت كتفه : « اذا كان من المؤلم لك ان نفترق لهو اكثر ايلاما لنا . لقد غيرت رأيى » .

دخل جريشا الحجرة قبل طعام العشاء بوقت قصير ، ولم يكن منذ أن دخل المنزل قد انقطع عن التنهد والعويل ، وكان هذا فى نظر أولئك الذين اعتقدوا فى قدرته على التنبؤ علامة مؤكدة على أن شرا ما سيلحق بنا • وانصرف أخيراً وهو يقول انه انتوى الرحيل فى الصباح التالى ، فغمزت بعينى لفولوديا وغادرت الحجرة •

« ماذا هناك ؟ » •

« اذا كنت تريد رؤية سلاسل جريشا ، فلنصعد الى الطابق العلوى ، اذ ان جريشا ينام فى الغرفة الثانية ، ونستطيع رؤية كل شىء من حجرة المهملات » •

« هذا رائع ! انتظر هنا ، سأدعو الفتيات » •

وخرجت الفتيات مسرعات ، وصعدنا السلم ، وبعد نقاش قليل حول من يذهب أولا دخلنا حجرة السطح المظلمة وقبعنا هناك ننتظر •

(١٢)

جريشا

•• ثقلت وطأة الظلام علينا جميعاً ، تكدسنا معاً ولم نتكلم ، ودخل جريشا غرفته مباشرة بخطواته الساكنة ، يحمل عكازه

باحدى يديه ، وبيده الأخرى شمعة مثبتة فى شمعدان نحاسى فحبسنا أنفاسنا .

أخذ يصلى : « سيدى يسوع المسيح ! يا أم الله الممتلئة بالنعمة! أيها الأب والابن والروح القدس ! » وكرر هذه الترنيمات والتلخيصات المختلفة الخاصة بأولئك الذين كثيراً ما اعتادوا تكرار هذه الكلمات .

وظل يصلى وهو يضع عكازه فى الزاوية ، وفحص فراشه ، وأخذ يخلع ملابسه وفك حزامه الأسود ، وخلع قميصه الممزق ، الأصفر القاتم ، وطواه بعناية وعلقه فى ظهر مقعد ، ولم يعد وجهه يتسم بطابع العجلة والبلاهة المألوفين ، بل على العكس ، كان رزيناً، مكتئباً ، بل مهيباً ، وكانت حركاته متأنية مليئة بالتأمل .

وغاص فى فراشه برفق بعد أن ارتدى ملابسه الداخلية ، ورمز باشارة الصليب على جميع الجوانب وأحكم وضع سلاسله تحت قميصه بجهد واضح (لأنه تجهم) وبعد أن جلس هناك برهة وفحص بعناية عدة تمزقات فى ملابسه التيلية البيضاء ، نهض فرفع الشمعدان الى مستوى الهيكل الصغير القائم فى ركن الغرفة ، وكان يضم صوراً عدة ، ثم تلا صلاة وأشار بعلامة الصليب أمامها ، وقلب الشمعة رأساً على عقب فخبت ثم انطفأت .

ونفذ ضوء القمر الذى كان فى تمامه تقريباً من النافذة المطلة

على الغابة ، وسقطت أشعته الواهنة الفضية على جانب واحد من وجه المهرج الأبيض الطويل ، بينما كان الجانب الآخر فى ظل قاتم، غارقاً مع الأطياف التى يعكسها اطار النافذة على الأرض والجدران، وتصل الى السقف من كل ناحية ، وكانت قعقعة الحارس تسمع فى الفناء السفلى •

وشبك جريشا ذراعيه الضخمتين فوق صدره ، وأحنى رأسه ووقف صامتاً امام الصور يتنهد ببطء ودون أن يقف ، ثم ركع فى شىء من العناد وأخذ يصلى •

وتلا أول الأمر الصلوات المألوفة فى رفق ، لا يضغط الا على كلمات معينة وحسب ، وكرر الصلوات ولكن بصوت مرتفع وانتعاش أقوى ، ثم أخذ فى استعمال كلماته الخاصة محاولا فى جهد ظاهر التعبير عن ذاته بلغة سلافية • كانت كلماته متقطعة ولكنها مؤثرة ، صلى من أجل المحسنين اليه جميعاً (اذ انه ذكر أولئك الذين منحوه مأوى) ومن بينهم أمى ونحن ، وصلى لنفسه ، والتمس من الله أن يغفر له ذنوبه الفظيعة وقال : « يا الهى ، اغفر لأعدائى ! » • ونهض وهو يتأوه ويكرر نفس الكلمات من جديد ، ويهبط الى الأرض مرة ثم ينهض أخرى بالرغم من ثقل السلاسل التى كانت تحدث قعقعة كلما ارتطمت بالأرض •

وضغط فولوديا على قدمى بشدة ، ولكنى لم ألتفت حولى مجرد التفاتة ، بل اكتفيت بدعك الموضع بيد واحدة ورحت أتابع

كل كلمة يفوه بها جريشا أو حركة يأتيها ، بشعور الدهشة والاشفاق والاحترام الذى يميز الطفولة .

وبدلا من المزاح والضحك اللذين كنت أتوقعهما عند دخولى غرفة السطح ، شعرت برجفة وهبوط فى قلبى .

وظل جريشا وقتا طويلا على هذه الحال من التمجيد الدينى والصلوات المرتجلة ، وكرر عبارة : « ارحمنى يا ربى » عدة مرات متوالية ، ولكنه كان يكررها فى كل مرة بقوة متجددة وتعبير جديد . أو ، « أللهم اغفر لى ، علمنى يا الهى ماذا أفعل ، علمنى يا الهى ماذا أفعل » فى تعبير كما لو كان يتوقع استجابة سريعة لكلماته ، وفى بعض الأوقات كان يسمع فقط رثاء محزناً .. ونهض على التو راكعاً وشبك ذراعيه فوق صدره والتزم الصمت .

.. ودفعت برأسى الى الباب دون حراك وحبست انفاسى .. لم يتحرك جريشا ، وكانت تنهدات ثقيلة تمزق صدره ، وجمدت دمعة فى عينه العوراء تلمع فى ضوء القمر على حدقته المعتمة .

وصاح فجأة بتعبير يصعب وصفه قائلا : « فلتكن مشيئتك ! » ثم سجد بمقدم رأسه على الأرض وانتحب كالطفل .

ومضى زمن طويل منذ ذلك الحين ، وفقدت ذكريات كثيرة عن الماضى كل ما تعنيه بالنسبة لى ، وأصبحت مطموسة غير محددة المعالم كأنها الأحلام ، حتى الحاج جريشا قد انقضى وقت طويل منذ

أن انتهى من آخر حجة له ، ولكن الأثر الذى تركه فى والشعور الذى أيقظه فى نفسه لا يمكن أن يفنى من ذاكرتى .

.. آه يا جريشـا ، المسيحى العظيم !! ان ايمـانك كان من القوة بحيث جعلك تشعر بقربك من الله ، وكان من عمق حبك ان تدفقت الكلمات من بين شفتيك فيضا من نفسك ولم تحبسها فى نطاق عقلك ، وكم استطعت تمجيد عظمته ، حين لم تجد كلمات ، فارتميت على الأرض وانتحبت !!.

ولم يستطع التأثر الذى استمعت به من جريشا البقاء طويلا ، أولا لأن فضـولى كان قد أشبع ، وثانياً لأن سـاقى كانتا قد تصلبتا لجلوسى فى موضع واحد ، ولأننى أردت المشاركة فى الهمس والحركة المسموعين من خلفى فى الظلام ، وأمسـك شخص بيـدى وقال : « يد من هذه ؟ » لقد كانت الظلمة حالكة ، ولكنى عرفت باللمس والهمس بجانبى ، انها يد كاتنكا .

وأمسكت بذراعها من كمه ، وبطريقة خارجة عن وعيى ، ووصلت الى مرفقها فحسب ورفعتـه الى شـفتى ، ولا بد ان تكون كاتنكا قد دهشت ، لأنها جذبت يدها بعيداً فاصطدمت وهى تفعل هذا بمقعد مكسور كان بالحجرة ، ورفع جريشا رأسه وتطلع حوله وهو يتلو صلاة ، وأخذ يشـير بعـلامة الصليب فى جميع أركان الحجرة ، وجرينا نحن دون جلبة الى غرفة السطح هامسين بصوت مرتفع فيما بيننا .

(١٣)

ناتاشكا سافيشنا

.. فى نحو منتصف القرن الماضى كانت هناك فتاة تدعى ناتاشكا ، مهلهلة الثياب عارية القدمين ، ولكنها ممتلئة الجسم ، ذات وجنتين متوردتين ، دائمة المرح ، اعتادت التجول مسرعة فى الأفنية بقرية خاباروفكا وكان جدى قد أخذها الى الطابق العلوى ، أى انه جعلها احدى خادمات جدتى اعترافا بخدمات والدها « سافا » وهو رقيق عازف بوق ، وكان قد اختار هذا العمل لنفسه . وكانت ناتاشكا بوصفها خادمة تمتاز برقة طبعها وحماستها ، وعندما ولدت أمى احتاج الأمر الى مربية فعهد بهذا العمل الى ناتاشكا ، فظفرت فى هذا العمل الجديد بالمديح والمكافآت معاً جزاء على عملها وأمانتها وتعلقها بسيدتها الصغيرة .

ولكن فوكا ، رئيس الخدم الشاب القوى ، برأسه المزين بالمساحيق ، وجواربه الطويلة ، ظفر بقلب ناتاليا الساذج الودود لكثرة اتصاله بها بحكم وظيفته ، وقد شجعها حبها فذهبت بنفسها الى جدى وطلبت اليه ان يأذن لها بالزواج من فوكا واذ رأى جدى فى طلب الفتاة نكراناً للجميل ، طرد المسكينة وعاقبها بابعادها الى قرية يملكها فى السهوب لتعمل راعية بقر . ومضت ستة أشهر ، ولم يستطع أحد ملء مكانها ، أعيدت ناتاليا للقيام بمهامها السابقة .

ولدى عودتها ذهبت الى جدى وارتمت على قدميه وتوسلت اليه أن يعيد لها حظوتها عنده وحنـوه عليهـا ، وان ينسى رعونتها ، التى أقسمت ألا تتكرر ، وقد حافظت على قسمها •

وأصبحت ناتاشكا منذ ذلك اليوم تعرف باسم ناتاليا سافشنا ، ولبست قبعة • ان جميع كنوز الحب التى ينطوى عليها قلبها ، قد منحتها لسيدتها الصغيرة فى سخاء •

وعندما حلت محلها فيما بعد مربية أخرى ، أسند اليه ادارة المنزل ، وعهد اليها بجميع البياضات والمؤن ، فقامت بهذه الواجبات الجديدة بنفس الحب والحماس ، وعاشت للحفاظ على متاع سيدها ، ورأت ان الاتلاف والتخريب والسرقة تقترفها كل يد ، فاعتبرت ان واجبها الملزم هو مقاومتها •

وعندما تزوجت أمى ، وأرادت مكافأة ناتاليـا سافيشـنا على خدمتها والتصاقها بالأسرة مدى عشرين عاما ، استدعتها وعبرت عن حبها لها والعرفات بجميلها ، بعبارات بالغة الاطراء ، وسلمتها وثيقة رسمية تعترف فيها بان ناتاليا سافيشنا امرأة حرة (١) وأضافت ان لها ان تتقاضى معاشاً سنوياً قدره ثلاثمائة روبل ، سواء استمرت فى خدمة المنزل أو لم تستمر ، وأصغت ناتاليا سافيشنا الى كل هذا فى صمت ، ثم تناولت الوثيقة بين يديها ، وفحصتها غاضبة ، وهمست

---

(١) يجب أن نذكر أن هذا كان فى عهد الاسترقاق •

بشيء من بين شفتيها ثم انفلتت الى خارج الحجرة ، وصفقت الباب خلفها ، فذهبت أمي الى حجرة ناتاليا مندهشة لتصرفها الغريب ، فوجدتها جالسة على صندوقها ، تفيض عيناها بالدموع ، تلوى منديلها بين أصابعها ، وتنظر عامدة الى قطع ورقة تحريرها المتناثرة على الأرض أمامها .

وسألتها أمي وهي تتناول يدها : « ماذا دهاك يا ناتاليا سافيشنا العزيزة ؟ » ، فأجابتها : « لا شيء يا سيدتي العزيزة ، لا بد أن أكون منفرة لك بوجه من الوجوه ، ما دمت ترغبين في طردي من البيت ... حسن ، سأنصرف » .

وجذبت يدها ، وكانت على وشك مغادرة الحجرة وهي تحبس دموعها بمشقة ، ولكن أمي منعتها وقبلتها ، ثم بكتا سوياً .

.. ومنذ ذلك الحين أستطيع أن أتذكر كل شيء فأنا أذكر ناتاليا سافيشنا ، وحبها ورقتها ، ولكنني الآن فقط استطيع تقديرهم ـ اما في ذلك الوقت فلم يدر في ذهني مطلقاً ، كم كانت هذه المرأة العجوز مخلوقة نادرة ، مدهشة . انها لم تقتصر على عدم التحدث عن نفسها وحسب ، بل يبدو انها لم تفكر في نفسها قط : كانت حياتها كلها حباً وانكاراً للذات ، ولقد بلغ من اعتيادي حبها الرقيق لنا المبني على انكار الذات ، انني حتى لم أتخيل شيئاً غير هذا ، ولم أعبر لها عن امتناني على الأقل ، ولم أتوقف لأسأل نفسي عما اذا كانت سعيدة أم قانعة .

•• كنت أهرب من دروسى الى غرفتها متعللا ، وأروح أنسج أوهاماً بصوت مرتفع فلا أرتبك أقل ارتباك لوجودها ، وكانت دائماً تشغل نفسها بشىء ما : فاما أن ترفو الجوارب أو ترتب الصناديق التى تمتلىء بها غرفتها ، أو تحصى البياضات وتصغى فى أثناء عملها الى جميع اللغو الذى أفوه به ، مثل « عندما أصبح قائداً سأتزوج بفتاة رائعة الجمال ، وأبتاع لنفسى جواداً أشقر ، وأبنى بيتاً من البللور ، واستدعى جميع أقارب كارل ايفانتش من سكسونيا » ، وما الى ذلك ، فتقول : « نعم ، يا عزيزى ، نعم » وكانت عندما أنهض وأتأهب للرحيل ، تفتح صندوقاً أزرق بداخل غطائه ، فيما أذكر الآن ، صورة ملصقة لجندى راكب ، وصورة منزوعة من علبة مرهم ، ورسم بيد فولوديا ـ فتأخذ منه عوداً من البخور وتشعله ، وتقول لى وهى تلوح به : « هذا يا عزيزى بخور أوتشاكوف فعندما ذهب المرحوم جدك ـ أراح الله روحه ! الى الحرب ضد الأتراك ، أحضره معه من هناك ، ثم تضيف قائلة وهى تتنهد :

« وهذه هى القطعة الأخيرة » •

وكانت الصناديق التى تملأ غرفة ناتاليا سافيشنا تحتوى على كل شىء على الاطلاق فاذا ما احتاج الأمر الى شىء ، تقول : « يجب أن نسأل عنه ناتاليا سافيشنا » والواقع أنها كانت بعد قليل من النبش تعثر دائماً على الشىء المطلوب • وتقول : « لقد كان من الخير أن

خبأتها فى مكان بعيد » • وكانت فى هذه الصناديق آلاف الأشياء التى لا يعرفها فى البيت أو يهتم بها أحد سواها •

ولقد أغضبتنى مرة غضباً شديداً ، واليك ما حدث : أسقطت الدورق بينما كنت أصب لنفسى شيئاً من جعة الجاودار فلطخت غطاء المائدة •

فقالت لى أمى : « استدع ناتاليا سافيشنا ودعها ترى ماذا فعل محبوبها » •

وجاءت ناتاليا سافيشنا ، فما ان رأت البقعة التى أحدثتها حتى هزت رأسها ، وحينئذ همست أمى بشىء فى أذنها ، فخرجت وهى تشير الى بأصبعها •

•• كنت بعد الغداء فى طريقى الى الردهة أقفز وأنا على أحسن حال من الابتهاج فاذا ناتاليا سافيشنا تندفع فجأة من وراء الباب ، وبيدها غطاء المائدة وأمسكت بى ، وأخذت بالرغم من مقاومتى اليائسة ، تدعك وجهى بالجزء المبتل من الغطاء وهى تصرخ: « لا توسخ غطاء المائدة أبداً ، لا توسخ غطاء المائدة أبداً ! » وبلغ من استيائى أن أخذت أهدر غضباً •

وقلت فى نفسى وأنا أقطع الغرفة جيئة ورواحاً ، وأبتلع دموعى : « كيف تجرؤ على ضرب وجهى بغطاء مائدة مبلل كما لو كنت خادماً ! ، انه لشىء فظيع » •

وحالما رأتنى أبكى ابتعدت وتركتنى أسير جيئة وذهاباً ، وأدبر الأخذ بثأرى من تلك « الناتاليا » الوقحة للاهانة التى ألحقتها بى » •

وعادت ناتاليا سافيشـــنا بعد دقـائق قليلة ، فاقتربت منى على استحياء ، وحاولت تهدئتى •

والآن ياعزيزى ، لا تبك ، اغفر لى ، اننى عجوز غبية ، وهذه غلطتى ، ستغفر لى يا عزيزى ، أليس كذلك ؟ خذ ، هذه لك » •

وأخرجت من تحت منديلها حزمة حمـراء من الورق كان بها قطعتان من الحلوى وثمرة تين وناولتنى اياها بيد مضطربة • ولم أستطع أن أتفرس فى وجه المرأة العجوز الحنون ، بل درت ناحية وتناولت هديتها وفاضت دموعى من جديد ، لا غضباً فى هذه الحالة، ولكن حباً وخجلا •

(١٤)

الرحيل

•• فى الساعة الثانية عشرة من اليوم التـالى للحـوادث التى ذكرتها ، وقفت كل من المركبة الصغيرة والبرتشكا بالباب ، وكان نيكولاى يرتدى ملابس السفر ، أى انه حشر سرواله فى حـذائه الطويل وكان معطفه القديم مشدود الحزام ووقف بجانب البرتشكا

يحزم المعاطف والوسائد تحت المقعد ، وعندما وجد أن الكومة أكبر مما يجب جلس فوق الوسائد وأخذ يثب فوقها ليضغطها .

وقال خادم أبى الخاص وقد انحنى فوق العربة الصغيرة مبهور الأنفاس : « ألا نستطيع يا نيكولاى ديمترتش ، بحق السماء أن نضع صندوق السيد بداخلها ؟ انه لا يستغرق مكاناً كبيراً » .

فأجابه نيكولاى بسرعة وغضب وهو يطرح حزمة على أرض البرتشكا : « كان ينبغى ان تقول ذلك من قبل » . ثم أضاف وهو يخلع قبعته ويمسح قطرات العرق الكبيرة من على حاجبه الذى لوحته الشمس : « يا الهى ، ان رأسى يدور . وهأنت تأتى بصندوقك ! » .

وقف الخدم الرجال بمعاطفهم وقفاطينهم وقمصانهم حاسرى الرءوس ، والنساء بثيابهن المخططة ، بأطفال على أذرعتهن وأطفال حفاة بالقرب من سقيفة الباب يراقبون المهمات ويتحدثون فيما بينهم ، وأمسك أحد الحوذية ـ وهو رجل عجوز محنى الظهر يرتدى قبعة شتوية وقميصاً طويلا أبيض ـ بعمود العربة الصغيرة وفحصه بدقة ، وعاين عمله باهتمام ، والآخر شاب حسن المظهر يرتدى قميصاً أبيض ذا مثلثين على الكتفين من قماش وبرى أحمر ، وقبعة من صوف الخراف الأسود ، غطى بها أول الأمر احدى أذنيه ، ثم غطى بها الأخرى وهو يحك خصلات شعره الأشقر ، ووضع قميصه الأبيض على الصندوق ، وهناك ألقى الأعنة كذلك ، ويطرقع

بسوطه المضفور ، ويتأمل حذاءه حيناً ، والسائقين الذين يعملون فى تشحيم البرتشكا ، وكان أحدهم يبذل جهده فى رفع العجلة ، وآخر محنياً فوقها يشحم المحور ، بل ويدهن الحافة من أسفل لكى لا يذهب سدى شيء آخر من الشحم الذى على قطعة القماش • ووقفت عند السياج جياد البريد المرهقة من مختلف الألوان ، تهش الذباب بذيولها ـ بعضها رسخت أرجلها المشعثة المنتفخة متباعدة وأغمضت عينيها فى اغفاءة ، وأخرى أتعبها طول الوقوف جامدة فأخذت تتحاك مع بعضها البعض ، أو تقطف أوراق السرخس وسيقانه الخضراء القاتمة المزروعة بالقرب من السقيفة ، ورقدت عدة كلاب سلوقية تلهث فى الشمس ، ويتسكع بعضها فى الظل تحت العربات ، وتلعق الشحم من حول محاور العجلات •

وكان الجو كله محملا بنوع من ضباب الغبار ، وكان لون الأفق بنفسجياً ضارباً الى الرمادى ، ولكن لم تكن هناك أية سحابة صغيرة فى الجو • ورفعت الرياح الغربية القوية أعمدة التراب من الطرقات والحقول ، وأمالت نواصى أشجار الزيزفون والبتولا السامقة فى الحديقة ، وحملت الى مسافة بعيدة الأوراق الذابلة الصفراء • وجلست بقرب النافذة أنتظر بفارغ الصبر انجاز جميع هذه الترتيبات •

•• وعندما التأم الجميع حول المائدة الكبرى بغرفة الطعام لقضاء دقائق قليلة معاً لآخر مرة ، لم يخطر ببالى ان هذه لحظة مؤلمة

فى انتظارنا ، وكانت أكثر الأفكار تفـاهة هى التى تجول بذهنى ، حاولت أن أخمن أى حوذى هو الذى سيقود العربة الصغيرة وأيهم سيقود البرتشكا ، من سيسافر مع أبى ، ومن مع كارل ايفانتش ، ولماذا يجب ان التف بوشاح ومعطف فضفاض طويل •

« هل أنا رقيق البنية الى هذا الحد ؟ اننى لن أتجمد ، وأرغب فى الانتهـاء من هـذا بأسرع ما يمـكن !! أريد ركوب العـربة والابتعاد •

ودخلت ناتاليا سافيشنا بعينين متورمتين باكيتين وبيدها القائمة وسألت أمى : « لمن أعطى قائمة بياضات الطفلين ؟ » •

« أعطيها لنيكولاى ، وتعالى لتوديع الطفلين » •

حاولت المرأة العجوز ان تقول شيئاً ، ولكنها توقفت فجأة ، وغطت وجهها بمنديلها وغادرت الغرفة وهى تلوح بيدها •

وضاق قلبى بالألم عندما رأيت هذه الحـركة ، ولكن تعجلى الرحيل كان أقوى من ذلك الشعور ، فأخذت أصغى الى حديث أبى مع أمى دون اهتمام ، كانا يتحدثان عن أشياء من الواضح انها لا تهم أحدهما : ماذا كان يهم الحديث عن ابتياع منزل ، وماذا يجب أن يقال للأميرة صوفى والسيدة جولى ، وهل سيكون السفر مريحاً ••

ودخل فوكا ، ووقف على عتبة الباب وأعلن : « ان العربات

جاهزة » بنفس اللهجة التي قال بها « ان الغداء معد » ولاحظت ان أمي ارتعدت وشحب لونها عند هذا الاعلان كأنها لم تكن تتوقعه.

وصدر الأمر الى فوكا باغلاق جميع أبواب الحجرات (١) ، وأظن أن هذا الأمر مضحك جداً « كأننا جميعاً كنا مختبئين من شخص ما » .

وعندما جلسنا جميعاً ، جلس فوكا أيضاً على حافة مقعد ، ولكن ما ان فعل هذا حتى انفتح الباب فالتفت نحوه الجميع ، ودخلت ناتاليا سافيشنا على عجل ، وجلست دون أن ترفع عينيها على نفس المقعد مع فوكا . ويبدو لى حتى الساعة اننى أرى رأس فوكا الأصلع المغضن ، ووجهه الجامد ، وشكل انحناءة قبعته التى يظهر من تحتها الشعر الأشيب ... لقد كانا محشورين فى مقعد واحد ، وشعر كل منهما بالحرج .

وظللت غير مهتم ، نافد الصبر ، وخيل الى ان الثوانى العشر التى جلسناها هناك والأبواب مغلقة كأنها ساعة كاملة . وأخيراً نهضنا جميعاً ورسمنا اشارة الصليب وأخذنا نتصرف ، واحتضن أبى والدتى وقبلها عدة مرات .

وقال والدى : « كفى يا عزيزتى ، انا لن نفترق الى الأبد ».

---

(١) عادة روسية قديمة : وهى اغلاق جميع الأبواب والجلوس برهة قبل بدء رحلة طويلة .

وقالت أمى بصوت يرتجف بالبكاء : « ولكنه مؤلم مع ذلك ».

وعندما سمعت ذلك الصوت ، وشاهدت شفتيها الراجفتين وعينيها المغرورقتين نسيت كل شيء ، وشعرت بأشد الحزن والتعاسة، وارتعدت الى الحد الذى فضلت معه الفرار على قولى لها وداعا ، وأدركت في تلك الآونة حين احتضنت والدى ، انها ستودعنا على التو .

وقبلت فولوديا ورسمت عليه اشارة الصليب مرات عدة، وظننى أنها ستتحول الى آنئذ ، خطوت الى الأمام ، ولكنها استمرت فى مباركته وضمه الى صدرها . وأخيراً احتضنتها وتشبثت بها ، وبكيت دون أى تفكير فيما وراء حزنى .

وعندما خرجنا لركوب العربة تقدم الخدم المتعبون بالغرفة الملاصقة لتوديعنا. فكانت عبارة : « اعطنى يدك ياسيدى من فضلك » وتقبيلهم الصاخب لأكتافنا ، ورائحة الشحم على رؤوسهم أثارت فى نفسى شعوراً شبيهاً بشعور الاشمئزاز ، وتحت تأثير هذا الشعور قبلت ناتاليا سافيشنا بفتور شديد على قبعتها ، وحيتنى تحية الوداع وهى غارقة فى دموعها .

•• ومن العجيب أننى حتى الآن أستطيع رؤية وجود هؤلاء الخدم ، وأستطيع تصويرهم مع كل التفاصيل الدقيقة ، ولكن وجه امى وهيئتها قد غابت عن ذهنى تماما ، ولعل السبب هو أننى طوال

ذلك الوقت لم أستطع مرة استجماع شجاعتى للتفرس فيها ، اذ كان يخيل الى اننى اذا فعلت فلا بد أن يزيد حزنهـا وحـزنى الى حد لا يحتمل •

واندفعت الى العربة الصغيرة فى مقدمة الآخـرين ، وجلست على المقعد الخلفى ولما كان ظهر المقعد مرتفعاً ، فاننى لم أستطع رؤية شىء ، ولكن دافعاً فطرياً قال لى ان أمى لا تزال هناك •

وقلت لنفسى : « هل أنظر اليها ثانية ، أم لا ؟ حسن ، فلتكن اذن آخر مرة ! » ثم انحنيت الى خارج العربة نحو سقيفة الباب ، وفى هذه اللحظة كانت أمى قد انتقلت الى الجانب الآخر من العربة لنفس الغرض ونادتنى بالاسم ، وحين سـمعت صـوتها من خلفى التفت ورائى ، ولكنى فعلت هذا فجـأة حتى أن رأسـينا ارتطمـا معا فابتسمت بأسى وقبلتنى طويلا وبحرارة لآخر مرة •

ولم أتجاسر على النظر اليها الا بعد أن سـارت العـربة بضع خطوات ، ورفع النسيم المنديل الأزرق الذى كانت تربطه حـول رأسها ، وصعدت الدرج فى بطء مطأطئة الرأس وقد غطت وجهها بيديها • وكان فوكا يسندها •

•• وجلس أبى بجـانبى صامتاً ، وخنقتنى العبرات ، وكان هناك ما يشبه السد فى حلقى حتى اننى خفت ان أختنق • وعندما بلغنا الطريق العام رأينـا منـديلا أبيض كان يلوح به من الشرفة

شخص ما ، فأخذت ألوح أنا أيضاً بمنديلى فهدأت نفسى لهذه الحركة بعض الشيء • واستمر بكائى ، ومنحنى اعتقادى بأن دموعى برهنت على رقة قلبى ، سروراً وسلواناً •

وبعد أن قطعنا من سفرتنا فرسخاً أو نحوه هدأت قليلا ، وأخذت أركز انتباهى فى أقرب الأشياء الى عينى ـ عجز الحصان الأبلق الذى يركض الى جانب العربة من ناحيتى ، ولاحظت كيف يلوح الحيوان بذيله ، وكيف يضع قدماً واحدة على الأرض بعد الأخرى ، وكيف يلاحقه سوط صبى البريد المضفور فتبدأ قدماه فى الوثب معاً ، ولاحظت كيف يقفز سرجه من على ظهره ، والحلقات من فوق السرج • وظللت أراقبه حتى غطى الزبد الأحزمة فى مواضع قريبة من الذيل • ثم بدأت أتأمل فيما حولى ـ فى حقول الجاودار الناضجة المتموجة ، والأرض الراقدة الدكناء التى ترى عليها هنا وهنالك فلاحاً بمحراثه ، أو فرساً بجانبها مهر ، بل كنت أنظر عند شواخص المسافات الى مقعد الحوذى لأعرف من ذا الذى يقودنا • ولم تكن دموعى قد جفت من على وجهى عندما انصرفت أفكارى عن أمى التى ربما أكون قد تركتها الى الأبد ، ومع ذلك فان كل تذكر كان يؤدى الى التفكير فيها • وحينئذ تذكرت على حين فجأة الفطر الذى وجدته فى اليوم السابق فى ممشى أشجار البتولا ، وتذكرت ان ليوبتشكا وكاتنكا قد تنازعتا حول من يقتلعه ، وتذكرت كيف بكتا عندما افترقتا عنا •

•• كم كان شعورى بالحزن عندما فارقتهم ، وفارقت ناتاليا سافيشنا ، وممشى البتولا وفوكا ، حتى ميمى الخبيثة • كل هؤلاء سأفتقدهم • وأمى الحبيبة المسكينة ؟ وملأت الدموع عينى مرة أخرى ، ولكن لفترة غير طويلة •

(١٥)

الطفولة

•• يا للطفولة السعيدة ، سعيدة ، تلك المرحلة الهانئة التى لا يمكن استرجاعها مطلقاً !! فما حيلتى فى حبها والحفاظ على ذكرياتها المشرقة ؟ تلك الذكريات تنعش روحى وتسمو بها ، انها مصدر فرحى الذى لا ينضب •

كنت حين أتعب من الجرى أجلس الى مائدة الشاى على مقعدى المرتفع ، لقد شربت قدحى من اللبن والشاى والسكر منذ وقت طويل ، ومع ذلك فان النوم يلصق عينى فلا أتحرك من مكانى ، •• أجلس وأصغى ••• ان أمى تتحدث مع شخص ما وجرس صوتها عذب ، ان هذا الجرس وحده يقول لقلبى أشياء كثيرة جداً !! وما ان يغبش عينى النعاس وأتفرس فى وجهها حتى تبدو فجأة صغيرة ـ صغيرة للغاية ـ لا يزيد وجهها على حجم زر صغير ـ ولكننى لا أزال أراه واضحاً •• أراها تنظر الى وتبتسم • اننى

أحب أن أراها صغيرة جداً ••• وأجـذب جفنى اللذين لا يزالان متقاربين ، وهى لا تزيد على حجم الأولاد الصغار الذين يراهم المرء فى حدقات العيون ، ولكننى أتحرك ويتحطم الوهم ، وأحكم اغلاق عينى ، وأدور محاولا استرجاعه بكل وسيلة ، ولكن دون جدوى•

وأنهض وأصعد الى مقعد مريح حيث أستريح •

وتقول أمى : « انك ستنام مرة أخرى يا نيكولنكا ، خير لك أن تصعد » •

فأجيب والأحلام الحلوة المبهمة تملأ ذهنى ••• ان نوم الطفولة السـليم يغمض جفنى وفى لحظة أغيب عن الشـعور وأنام حتى يوقظونى ، وأشعر فى أحلامى ان يد شخص ما ناعمة تلمسنى ، فأعرفها بهذه اللمسة وحدها ، وأظل نائما ، وأمسـك بها وأضغط عليها بحرارة ، بحرارة شديدة ، على شفتى •

لقد سـافر الجميع على التو : شـمعة واحـدة فقط موقدة فى حجرة الاسـتقبال • لقد قالت أمى انهـا ستوقظنى : انها هى التى جلست على المقعـد الذى أنام عليـه ، وتمسح على شـعرى بيدها العجيبة النعومة ، ويتردد فى أذنى الصوت الحبيب المألوف •

« انهض ، يا حبيبى ، لقد حان وقت نومك » •

ليست هناك نظرات جامدة تربكها ، ولا تخاف ان تصب على كل حنانها وحبها •• اننى لا أتحرك ولكنى أقبل يدها بشغف •

« استيقظ ، يا ملاكى » •

وتلف يدها الأخرى حول عنقى ، وتدغدغنى بأصابعها الدقيقة •• الحجرة هادئة وتكاد أن تكون مظلمة •• الدغدغة وايقاظى من النوم يستفزان اعصابى •• وتجلس أمى بالقرب منى ، تلمسنى ، وأنا أعرفها بعطرها وبصوتها ، فأقفز ، وألقى بذراعى حول عنقها ، وأضغط رأسى على صدرها ، وأتنهد قائلا : « آه يا حبيبتى ، يا أمى العزيزة ، لكم أحبك ! » •

وتبتسم ابتسمتها المحزونة الساحرة ، وتتناول رأسى بكلتا يديها ، ثم تقبلنى فى جبينى ، وتضعنى على ركبتيها ، وتتحدث الى قائلة : « واذن فأنت تحبنى حباً جما ، ولن تنسانى أبداً ؟ وعندما ينتهى أجل أمك ، فسوف لا تنسانى ؟ سوف لا تنساها يانكولنكا ؟ »

وتظل تقبلنى بحنان أوفر •

فأصيح وأنا أقبل ركبتيها ، وتفيض الدموع من عينى ـ دموع الحب وفرط السرور : « لا ، أرجوك ، لا تقولى ذلك يا أعز أم !! »

•• وبعد ذلك حين أصعد الى غرفتى بالطابق العلوى ، وأقف أمام الصور فى قميص نومى الفضفاض ، كم كنت أكرر فى حماسة : « اللهم بارك أبى وأمى ! وعند تكرارى للصلوات التى تعلمت أول شفاه طفولتى ترديدها متلعثماً وراء أمى المحبوبة ، كان حبى لهـا وحبى لله يتحدان معاً فى شعور واحد وبصورة عجيبة •

فاذا ما انتهيت من صلاتي ، لففت نفسي في غطائي الصغير ، بروح نشيطة مبتهجة ، فأرى حلما يعقب حلما ، ولكن عما تدور هذه الاحلام جميعا ؟ انها احلام غير حسية ، ولكنها مليئة بالحب الطاهر ، والآمال في السعادة • ثم افكر بعدئذ في كارل ايفانتش ونصيبه المحزن من الحياة ـ وهو الرجل الوحيد التعس الذي أعرفه ـ فأشعر نحوه بأسى شديد • انى أحبه الى الحد الذي يفعم عيني بالدموع ، وأقول لنفسي : « اللهم امنحه السعادة ، وامنحني القوة لكي أساعده وأخفف أساه •• انني مستعد للتضحية بكل شيء في سبيله » • ثم أدس لعبي المحبوبة ـ كلب أو أرنب من الخزف الصيني ـ في زاوية الوسادة الناعمة ويسعدني تفكيري في مدى دفئها وراحتها وهي في هذا المكان ، وأصلي مرة ثانية لله عسى ان يمنح السعادة للجميع ، وان يكون كل انسان راضياً ، وان يكون الطقس في الغد لطيفاً يسمح بالسير • وأدور الى الجنب الآخر ، وتختلط أحلامي بصورة مشوشة ، ثم أروح في السبات بهدوء وسكينة ، ووجهي لا يزال مبللا بالدموع •

•• هل يمكن لتلك العذوبة ، وتلك الروح الخفيفة ، وتلك الحاجة الى الحب ، وتلك القوة في الايمان التي يملكها الانسان في الطفولة ، ان تعود أبداً ؟ وأي وقت يمكن أن يكون خيراً من الوقت الذي تكون فيه أعظم فضيلتين ، السرور البريء ، والتعطش غير المحدود الى الحب ، هما الدافع الوحيد في الحياة ؟ •

•• أين تلك الصلوات الملتهبة ؟ وأين تلك الهبة التى تفضل الهبات جميعاً ، تلك الدموع النقيـة ، دموع الانفعال ؟ لقد اعتاد ملاك السلوان أن يأتى ويمسح تلك العبرات بابتسامة ، وبث الرؤى الحلوة فى خيال الطفولة النقى •

•• هل ألقت الحيـاة على كاهل قلبى مثل هذا العبء الثقيل بحيث هجرتنى تلك الدموع وتلك المسرات المفرطة الى الأبد ؟ وهل بقيت لى الذكريات فحسب ؟•

(١٦)

الأشعار

•• بعد شهر تقريباً من وصولنا الى موسكو ، كنت جالساً مع جدتى أكتب فى الطابق العلوى من بيت جدتى ، وكان يجلس الى الجانب الآخـر من المـائدة الكبيرة معلم الرسم يقـوم بالتصحيحات النهائية لرسم تخطيطى لرأس شخص تركى ، وكان فولوديا واقفاً وراء المعلم مشرئباً بعنقه ليرى من فوق كتفه • وكانت هذه الرأس أول رسم بالقلم الرصاص يقوم به فولوديا ، وكان يجب أن يهدى الى جدتى فى ذلك اليوم وهو عيد قديسها •

وقال فولوديا وهو ينهض على أطراف أصابعه ويشير الى عنق

التركى : « أفتضع هنا ظلا أكثر قليلاً ؟ » فقال المعلم وهو يضع يراعه وقلم الرسم فى القراب : « انه على ما يرام الآن ، ولست بحاجة الى عمل أى شىء آخر فيه أكثر من ذلك » وأضاف وهو ينهض ، ويداوم النظر الى التركى من زاوية عينيه : « حسن ، وأنت يا نيكولنكا ، ألا تكشف لنا عن سرك ؟ ما عسى أن تقدم لجدتك ؟ أظن ان رأساً ثانياً كهذا تماماً سيكون أجمل هدية » . وتناول قبعته وسجله وانصرف قائلاً : « أستودعكم الله يا سادة ».

.. لقد كنت أنا نفسى أفكر فى نفس اللحظة أن رأساً قد تكون أفضل مما كنت أعمل فيه . وعندما أعلن لنا ان عيد قديس(١) الجدة أصبح قريباً جداً ، وأننا يجب أن نعد الهدايا لهذه المناسبة ، فقد خطرت لى فكرة الشعر ، وأنشأت على التو بيتين من الشعر على أمل أن البقية سرعان ما ترد الى ذهنى ، ولم أعرف فى الحقيقة كيف وردت الفكرة الى عقلى ـ وهى فكرة غريبة جداً بالنسبة لطفل ـ ولكننى أذكر انها راقتنى كثيراً ، وأننى أجبت على جميع الأسئلة الخاصة بالموضوع بأننى سأقدم هدية لجدتى دون شك ، ولكننى لم أذكر لأحد قط ما هى الهدية .

.. وعلى عكس جميع ما توقعته ، وبالرغم من كل جهودى لم أستطع تكوين أكثر من زوجين من الشعر فكرت فيهما عفو

(١) جرت عادة المسيحيين على تسمية أبنائهم عند التنصير باسم أحد القديسين ، ويحتفل كل شخص بعيد القديس الذى سمى به .

(المترجم)

اللحظة . وأخذت أقرأ بعض القصائد فى كتبنا ، ولكن لم يستطع ديمتريف ولا درزافين مساعدتى ، بل على العكس ، أقنعانى بعجزى الكامل ، ولعلمى أن كارل ايفانتش كان مغرماً بكتابة الشعر ، فقد نقبت بين أوراقه خلسة فوجدت بالاضافة الى القصائد الألمانية ، قصيدة روسية كذلك ، لا بد انها من انتاج قلمه شخصياً :

الى السيدة ل.

تذكرينى عن قرب ،
تذكرينى عن بعد ،
تذكرينى دائماً أبداً ،
نعم ، وتذكرى أيضاً فيما وراء القبر ،
أننى أحببتك كل الحب .

بتروفسكوى ، فى ٣ من يونيه سنة ١٨٢٨ ، كارل موير .

وأعجبت بهذه القصيدة بعد أن نسخت على ورقة رقيقة من أوراق المذكرات بخط متحرر مستدير الحروف ، نظراً للشعور المؤثر الذى استوحيته فيها . ثم حفظتها فوراً عن ظهر قلب ، وصممت على اتخاذها نموذجا ، ثم أصبح التقدم بعد ذلك سريعاً .

وفى يوم عيد القديس كانت تهنئتى المكونة من اثنى عشر بيتاً من الشعر جاهزة ، وجلست فى حجرة الدراسة لنسخها على ورقة نصف شفافة .

وما لبثت أن أتلفت ورقتين ، لا لأننى أردت تغيير أى شيء من أشعارى ـ فقد بدت لى كلها رقيقة جداً ـ ولكن لأن نهايات السطور ابتداء من السطر الثالث كانت تتجه الى أعلى شيئاً فشيئاً ، ولذلك كانت تبدو ، حتى من مسافة بعيدة ، انها كتبت كلها كتابة معوجة لا تصلح لشيء .

وكانت الورقة الثالثة منحرفة أيضاً كالأخريين، ولكنى صممت على عدم نسخها مرة أخرى ، وهنأت جدتى فى قصيدة وتمنيت لها أعواماً كثيرة فى صحتها ، وختمتها كما يلى :

لكى نسعدك فسنحاول جهدنا ،
أن نحبك مثل حبنا للعزيزة أمنا .

وبدت لى غاية فى الجودة ، ومع ذلك فقد كان السطر الأخير سيىء الوقع على أذنى بدرجة غريبة . وظللت أكرر وأعيد فى سرى : « ان نحبك حبنا للعزيزة .. أم .. نا أية قافية يمكننى استخدامها بدلا من « أمنا » ؟ ... سرورنا ؟ أملنا ؟ ... حسن لا بأس فى ذلك انها أفضل على أى حال من أشعار كارل ايفانتش ».

وهكذا نسخت السطر الأخير ، ثم قرأت كل عملى بصوت مرتفع فى حجرة النوم بتأثر واشارات ، وكانت أبيات الشعر عاطلة

كل العطل من القافية والوزن ، ولكننى لم أتوقف عندهما ، ومع ذلك فان السطر الأخير كان لا يزال يصدمنى بقوة ويبعث فى نفسى الكدر ، فجلست فى فراشى وأخذت أفكر على هذا الوجه :

« لماذا كتبت عبارة » مثل حبنا للعزيزة أمنا ، انها ليست هنا ، ولم يكن من الضرورى ذكرها .. حقيقة أنى أحب جدتى ، وأحترمها ، ولكنها مع ذلك ليست مثلها ، فلماذا كتبت ذلك ؟ لماذا كتبت كذباً ؟ فما كان ينبغى أن أجعل حبهما واحداً حتى اذا كان فى الشعر » .

.. ودخل الخياط فى هذه اللحظة ومعه سترتى الجديدة .

وقلت فى ضيق شديد وانا أدس اشعارى تحت الوسادة وأجرى لقياس ملابسى الجديدة : « حسن ، فليكن » .

لقد كانت ملابسى لطيفة حقاً ، فالمعطف القصير ذو اللون البنى الخفيف بأزراره النحاسية ، صنع بتأنق لا كما يصنع فى الريف ، وكذلك كانت السراويل السوداء محكمة ، وكان ابرازها للعضلات واخفاؤها للحذاء شيئاً رائعاً .

.. وقلت فى نفسى وأنا أكاد أطير من الفرح ، بينما كنت استعرض سروالى من كل جانب : « وأخيراً حصلت على سروال ذى أحزمة حقيقية » وبالرغم من أن الملابس الجديدة كانت ضيقة جداً ، وكانت الحركة بها صعبة ، فقد أخفيت ذلك عن

الجميع ، بل أعلنت ، على العكس ، انني مستريح فيها الى أقصى حد ، وانه ان كان في الملابس أي خطأ ، وان كان هناك شيء فهو اتساعها قليلاً . ووقفت بعد ذلك وقتاً طويلاً أمام المرآة ، أصفف شعري الغزير المدهون : ولكن بالرغم مما بذلت من جهد لم أستطع أن أجعل خصلة الشعر في قمة رأسي ترقد منبسطة ، فكلما توقفت عن ضغطها بالفرشاة لأرى اذا كانت قد أذعنت لي ، ترتفع وتبرز في جميع الاتجاهات وتجعل وجهي يبدو مضحكاً .

.. كان كارل ايفانتش يرتدي ملابسه في حجرة أخرى ، وقد حمل اليه عبر حجرة الدراسة معطف السهرة الأزرق ، وملابسه الداخلية البيضاء ، وسمعت صوت احدى خادمات جدتي عند الباب الذي يؤدي الى الطابق السفلي ، فخرجت لأعرف ماذا تريد . كانت تمسك بيدها قميصاً ذا صدر مقوى ، ذكرت لي انها أحضرته لكارل ايفانتش ، وأقسمت انها لم تنم طوال الليلة السابقة لكي تجهزه له . وأخذت على نفسي تسليمه له ، وسألتها عما اذا كانت جدتي قد استيقظت .

« آه ، نعم يا سيدي ! لقد تناولت قهوتها على التو ، ووصل الكاهن » .. ثم أضافت وهي تتأمل مبتسمة حلتي الجديدة : « يا لك من شاب لطيف ! » .

أخجلتني ملاحظتها ، فدرت سريعاً على قدم واحدة ، وطقطقت

أصابعى ، ووثبت • كنت أرغب فى أن تعرف أنها لم تقدر فخامتى حق قدرها •

وعندما أحضرت القميص ذا الصدر المقوى الى كارل ايفانتش وجدت أنه لم يعد بحاجة اليه ، فقد ارتدى قميصا آخـــر ، انحنى أمام مرآة صغيرة موضوعة فوق المائدة ، ممسكا بكلتا يديه ـ عقدة ربطة عنقه الفاخرة ، يحرك فيها ذقنه الحليقة الى أعلى وأسفل للتأكد من ملاءمتها • وبعد تسوية ملابســنا من كل جانب ، والتماسنا من نيكولاى ان يفعل مثلنا ، تقدمنا الى جدتنـا • واننى لأضحك الآن حين أتذكر مدى نفاذ المرهم العطرى الذى شـممناه نحن الثـلاثة ونحن نهبط الدرج •

•• حمل كارل ايفانتش علبة صغيرة هدية من صنع يديه ، وكان مع فولوديا رسمه ، ومعى أشعارى ، وكان على لسان كل منا التحيات التى ينوى أن يقدم بها هديته وفى نفس الوقت الذى فتح فيه كارل ايفانتش باب حجرة الاستقبال كان الكاهن يرتدى ثيابه ، وتتردد الكلمات الأولى من الصلاة •

وكانت جدتى موجودة فعلا بحجرة الاستقبال : كانت واقفة قرب الحائط ، مسندة ذراعيها على ظهر مقعـد ، تصلى بورع وهى محنية الرأس ، ووقف والدى بجانبها ، فالتفت نحونا وابتسم حين رآنا نخفى هدايانا بسرعة وراء ظهورنا ، ونقف داخل الباب محاولين تحاشى رؤيتنا ، وتحطم كل الأثر الذى اعتمدنا عليه للمفاجأة •

•• وعندما حان الوقت للصعود وتقبيل الصليب شملتنى فجأة نوبة قاهرة من الخجل ، والشعور بأن الشجاعة لن تواتينى مطلقاً لتقديم هديتى ، فاختبأت وراء كارل ايفانتش الذى ما أن هنأ جدتى فى لغة منتقاة حتى نقل علبته من يده اليمنى الى اليسرى ثم ناولها اياها وتراجع خطوات قليلة ليفسح طريقاً لفولوديا • وبدا فرح جدتى بالعلبة المزينة بأشرطة ذهبية ملصقة على حوافها ، وابتسمت معبرة عن امتنانها بأحر الابتسامات • ومع ذلك فقد كان من الواضح انها لم تعرف أين تضع العلبة ، ولعل هذا كان السبب فى أنها أعطتها لأبى وطلبت اليه ان يلاحظ مدى دقة صنعها •

•• وبعد أن أشبع حب استطلاعه أعطاها الكاهن الذى سر أيما سرور بهذا الشىء الزهيد ، فهز رأسه ، وأخذ يتفرس مرة فى العلبة وأخرى فى الفنان الذى استطاع أن يصنع مثل هذا الشىء الجميل • لقد أنتج فولوديا صورة التركى • وتلقى أعظم اطراء من كل ناحية •

والآن جاء دورى : فالتفت الى جدتى بابتسامة تشجيع •

ان الذين يقاسون من الخجل يعرفون انه شعور يتزايد تزايدا مطرداً بينما يقل التصميم بنفس الدرجة : أى انه كلما بقى الشعور مدة أطول تزداد قابليته للتدهور وتقل البقية الباقية من التصميم •

•• ان بقايا الشجاعة والتصميم خذلتنى عندما قدم كارل ايفانتش وفولوديا هديتهما وبلغ خجلى الذروة ، وشعرت ان الدم

يندفع دون توقف من قلبي الى رأسي ، وانتابني الشحوب والاحمرار على التعاقب ، وانتشرت قطرات العــرق الكبير على أنفي وجبيني ؛ والتهبت أذناي وشعري بقشعريرة وعرق بارد شمل كل جسمي ، وأخذت أبدل قدماً بقدم دون أن أتحرك من موضعي .

وقال أبي : «تعال يانيكولنكا، أرنا ماهعك ـ علبة أم رسما» ..
لم تكن هناك حيلة ، قدمت بيد مرتعشــة القرطاس المطوى المغضن المشئوم ، ولكن صوتي خذلني كل الخذلان فوقفت امام جدتي صامتاً، ولم أســتطع أن اتحمــل التفكير في أنه بدلا من الرسم الذي كان متوقعاً ستقرأ أشعاري التافهة أمام أي شخص بما في ذلك عبارة « (أن نحبك مثل حبنا للعزيزة أمنا) التي ستبرهن بوضوح على انني لم أحب أمي قط وأنني نسيتها . كيف أستطيع وصف عذابي عندما أخذت جدتي في قراءة قصيدتي بصوت مرتفع ، وعندما عجزت عن حل طلاســمها ... توقفت عند منتصف ســطر وتطلعت الى أبي بابتسامة خيل الى أنها ابتســامة سخرية ، وعندما لم تنطق بكلمــة ملائمة لي ، وعندما ناولت الورقة لأبي ، نظراً لضعف بصرها ، قبل ان تتم قراءتها ، ورجته أن يقرأها كلها من أولها مرة أخرى ؟ لقد خيل الى أنها فعلت هذا لأنها لم تعبأ بقراءة مثل هذا الشعر الأخرق الرديء الكتابة ، ومع ذلك فقد أرادت ان يقــرأ أبي لنفســه ذلك السطر الأخير ، الذي يثبت بجلاء افتقاري الى الشعور .

لقد توقعت أنه سيلطمني على أنفي بهذه الأشعار قائلا : « يالك

من صبى خبيث نسى أمه ـ تناول هذا » ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل حدث العكس ، فحين قرئت الأشعار كلها قالت جدتى: « رائعة !! » وقبلتنى على جبينى • وعرضت العلبة والرسم والأشعار فى صف بجانب منديلين من التيل الرفيع وعلبة سعوط مع صورة لأمى ، على منضدة متحركة ملاصقة للمقعد الذى كانت تجلس عليه جدتى دائماً •

وأعلن أحد الخادمين الضخمين اللذين رافقا عربة جدتى قائلا : « الأميرة فارفارا الينتشنا » •

•• وتأملت جدتى باهتمام الصورة الموضوعة على غلاف علبة السعوط المصنوع من صدف السلحفاة ولم تجب •

وأعاد الخادم يقول : « أتسمحين سموك باستقبالها ؟ » •

(١٧)
الأميرة كورناكوفا

•• وقالت جدتى وهى تستقر على مقعدها ذى المسندين : « دعها تدخل » • كانت الأميرة امرأة فى نحو الخامسة والأربعين ، صغيرة الجسم واهنة ، تافهة وصارمة ، ذات عينين خضراوين ضربتين الى اللون الرمادى تبعثان على النفور ، يبدو فى وضوح أنهما تتعارضان مع التعبير الودى غير الطبيعى الذى يستقر على

شفتيها ، ومن تحت قبعتها المخملية التي بينها ريشـــة نعـام يظهـــر شعرها الأشقر ذو الصباغ الضارب الى الحمرة ، وحاجباها ورمشاها تبدو جميعاً أكثر شقرة واحمراراً بعكس وجهها الشاحب الدال على السقم ، ولكن مع ذلك كله فان سلوكها الطليق ، ويديها الدقيقتين، والصلابة الغريبة في ملامحها لتنم على شيء ما أرسـتقراطي ومؤثر في مظهرها العام •

« تحدثت الأميرة طويلا جدا ، ومع ذلاقة لسانها التي تختص بها هذه الطبقة من الناس الذين يتحدثون دائماً كما لو كان هناك من يعارضهم ، بالرغم من أن أحـداً لم ينطق بكلمة واحـدة : كانت ترفع صوتها وتخفضه شـيئاً فشيئاً على التعاقب ، ثم تأخذ لتوها في الحديث بحيوية جديدة وهي تتطلع الى جميع الحاضرين حتى وان لم يشتركوا في النقاش كما لو كانت تحاول الحصول على مؤازرتهم•

وبالرغم من أن الأميرة قبلت يد جدتي ، وكانت تناديها دائماً بعمتي الطيبة ، فقد لاحظت ان جدتي لم تكن مسرورة منها ، كان ينتفض حاجباها بطريقة غريبة وهي تصغي الى اعتذاراتها عن عدم زيارة الأمير ميخايلو شخصياً لتهنئة جدتي بالرغم من رغبته الحارة في ذلك وتجيب بالروسية على حديث الأميرة بالفرنسية •

قالت ببطء غريب : « انني لشـــديدة الامتنـان يا عـزيزتي لاهتمامك ، اما عن تخلف الأمير ميخايلو عن الحضور فأرجو عدم التنويه به ، فهو مشغول دائمـا ، وفوق ذلك فأية مسرة يمكن أن

يجدها فى زيارة سيدة عجوز مثلى ؟ » وسألتها دون أن تفسح للأميرة وقتاً لمعارضتها قائلة : « وكيف حال أطفالك يا عزيزتى ؟ » •

« أحمد الله يا عمتى ، انهم يتقدمون تقدماً حسناً ، ويدرسون ويلهون ، وبخاصة اتيين ، وهو أكبرهم ، ويتجه الى طيش لا نعرف كيف نعالجه ، ولكنه مجتهد ـ صبى وأعد•• تخيل يا ابن عمى•• » وواصلت حديثها وهى ملتفتة الى أبى لأن جدتى التى لم تكن تهتم بأطفال الأميرة ، وأرادت أن تفاخر بالأحرى بأحفادها هى ؛ فتناولت أشعارى من الصندوق بعناية كبرى وأخذت تنشرها ، « تخيل يا ابن عمى ماذا فعل منذ أيام قليلة » ثم مالت الأميرة نحو أبى وأخذت تقص عليه شيئاً فى كثير من الانتعـــاش ، وعندما أتمت حكايتها التى لم أسمعها ، ضحكت ، ونظرت الى بابا مستفسرة ؛ وقالت :

« مارأيك فى ذلك يابن عمى ؟ انه كان بحـــاجة الى الجلد ولكن لهوه كان حاذقاً ومدعـــاة الى التسلية يابن عمى ، بحيث غفرت له » •

وثبتت الأميرة نظراتها على جدتى ثم راحت تبتسم ولكنها لم تقل شيئاً •

واستفسرت جدتى وهى ترفع حاجبيها باهتمام ، « هل تضربين أطفالك يا عزيزتى ؟ » ، وشددت النطق عند كلمة « تضربين » •

وأجابت الأميرة بلهجة هادئة ، ونظرة سريعة ألقتها على بابا :

« يالأسف يا عمتى الطيبة ، فأنا أعـرف رأيك فى هذه الناحية ، اننى آسـفة ، ولكن لا بد أن أخالفك الرأى فى هـذا الموضـوع الخاص : فبالرغم من كل تفكيرى وقراءتى فى الموضوع ، وبالرغم من كل نصيحة انتصحت بها ، فان التجربة أرشدتنى الى الاقتنـاع بان الأطفال يجب أن يحكموا بالخوف ، ان الخـوف ضرورى لكى نصنع من الطفل شيئاً . أليس كذلك يا ابن عمى ؟ والآن أسألكم قليلا ... هل يخاف الأطفال شيئاً أكثر من العصا ؟ » . وعند هذا رمقتنا بنظرة متسائلة ، واعترف اننى شعرت فى تلك اللحظة بالضيق نوعاً ما « ومهما قلتم ، فان صبيا فى الثانية عشرة أو حتى فى الرابعة عشرة لا يزال طفلا ، والفتـــاة بطبيعـة الحـال شىء مختلف كل الاختلاف » .

وقلت فى نفسى : « ما أسعدنى اننى لست ابنها !! » .

وقالت جدتى وهى تطوى أشعارى وتضعها تحت العلبة كأنها اعتبرت الأميرة بعد ذلك غير جديرة بسـماع مثل هذا الانتـاج : « كل هذا جميل جـداً ، ولكن أرجو ان تخبرينى كيف تتوقعين بعد ذلك أى رقة فى شعور الأطفال ؟ » .

وأضافت جدتى وقد اعتبرت النقاش لا يحتمل الاجابة، ولكى تضع حدا للحديث : « ومع ذلك ، فلكل شخص الحـق فى ابداء رأيه الخاص فى ذلك الموضوع » .

ولم تجب الأميرة ، ولكنها ابتسمت متلطفة ، وبذلك هيأت لنا

ان ندرك أنها صفحت عن هذه الآراء المبتسرة التى أدلى بها شخص تحترمه جد الاحترام .

وقالت وهى تتفرس فينا وتبتسم متلطفة : « أرجو أن تقدمونى لصغاركم » .

فنهضنا وثبتنا أعيننا على وجه الأميرة ، ولكن لم نعرف مطلقاً ماذا ينبغى أن نفعل لكى نبين ان التعارف قد تم .

وقال أبى : « قبل يد الأميرة » .

فقالت وهى تقبل فولوديا فى رأسه : « ستحب عمتك العجوز، أليس كذلك » ثم أضافت وهى توجه ملاحظاتها الى جدتى بنوع خاص : « ولكنى أقدر علاقات الصداقة أكثر من علاقة الدم » . ولكن جدتى ظلت غير راضية عنها وأجابت :

« آه يا عزيزتى ، وهل تساوى هذه العلاقة شيئاً فى هذه الأيام ؟ » .

وقال أبى مشيرا الى فولوديا : « ان هذا سيكون فتى الدنيا » ثم أضاف قائلا : « وهذا هو الشاعر » فى اللحظة التى كنت أقبل فيها يد الأميرة العجفاء الصغيرة وأتخيل بأجلى وضوح أن باليد قضيبا ، وأن تحت القضيب كرسيا ، وما الى ذلك .

وسألته الأميرة وهى تحتجزنى بيدها قائلة : « من ؟ » .

وأجاب أبى وهو يبتسم مبتهجاً : « هذا الشخص الصغير الذى تعلو ناصيته خصلة الشعر » .

وقلت فى نفسى وأنا انسحب الى الركن : « وماذا تعنيه خصلة شعرى ؟ ألا يوجد شيء عداها يتحدث عنه ؟ » •

•• لقد كنت أحمل أغـرب الأفكار عن الجمـال ، بل كنت أعتبر كارل ايفانتش أجمل رجل فى العـالم ، ولكنى كنت أعرف جيداً أننى لم أكن مليح المنظر ، ولم أكن مخطئاً فى هذه الناحية : ومن ثمة فان أى تلميح الى مظهرى الشخصى كان يسيء الى اساءة عميقة •

•• اننى لأذكر جيدا كيف حدث مرة ـ وكنت فى السادسة من سنى فى ذلك الوقت ـ انهم كانوا يتناقشون على مائدة الغـداء عن شكلى ، وأن أمى كانت تحاول الكشف عن شيء جميل فىوجهى فقالت : « ان لى عينين ذكيتين ، وابتسامة محبوبة وأخيراً ، فاذعانا لحديث والـــدى وللحقيقة الملموسة اضطررت الى الاعتراف بأننى عاطل من الجمال ، وعندما شكرتها آنئذ على الغداء ، ربتت على خدى مدللة وقالت :

« تذكر يا حبيبى ، ان أحداً لن يحبك لجمال وجهك ، ولذا يجب أن تحاول أن تكون طيبا وذكيا ، أستكون كذلك ؟ » •

•• ولم تقتصر هذه الكلمات على اقناعى وحسب اننى لم أكن جميلا ، ولكننى مضطر أيضاً أن أكون طيباً وذكياً •

ومع ذلك فكثيرا ما كانت تنتابنى لحظات من اليـأس : كنت

أتخيل عدم وجود سعادة لانسـان على وجـه الأرض له مثل هـذا الأنف الواسع والشفتين الغليظتين ، ومثل هاتين العينين الرماديتين، وكنت أتوسل الى الله أن يصنع معجزة ليحيلنى جميلا ، على أن أقدم كل ما أملكه فى حاضرى ، وما يمكن أن أملكه فى المستقبل فى مقابل وجه جميل •

(١٨)

الأمير ايفان ايفانتش

•• وعندما سـمعت الأميرة الأشـعار ، وأغدقت على المؤلف المديح ، أخذت جدتى تخاطبها بالفرنسية مترفقـة ، وتوقفت عن مناداتها بـ « انت » و « يا عزيزتى » (١) ودعتها الى زيارتهـا مرة أخرى فى المساء بصحبة أطفالها وقد وافقت الأميرة على ذلك ، وبعد ان مكثت قليلا غادرت المكان •

لقد حضر زائرون كثيرون فى ذلك اليـوم يحملون تهـانيهم حتى ان العربات كانت تقف فى الفنـاء بالقرب من المدخل طوال الصباح •

---

(١) أى أنها كانت تخاطبها بضمير المفرد (أنت) •

وقال أحد الضيوف وهو يدخل الحجرة ويقبل يد جدتى :
« صباح الخير يا ابنة عمى العزيزة » •

كان رجلا يناهز السبعين من عمـره طويل القامة ، يرتدى الزى العسكرى المطرز الكتفين بشريط القصب ، من تحت البنيقة التى يظهر من تحتها صليب كبير أبيض ويرتسم على تقاسيم وجهه الهـدوء والصراحة وقد أدهشتنى بســاطته وتصرفاته • وكان وجهه جميلا بدرجـــة ملحوظة ، بالرغم من أن كل مابقى له من الشعر ، هو نصف دائرة رفيعة على قفاه ، وأن شفته العليا الغائرة تكشف عن فم ليس فيه أسنان •

قام الأمير ايفان ايفانتش قرب نهاية القرن الماضى بعمل باهر وهو شاب صغير جداً ، وذلك بفضل خلقه النبيل وشخصه اللطيف وشجاعته البارزة وعائلته الشهيرة القوية ، ثم بفضل حظه السعيد بنوع خاص • وظل فى الخدمة ، وأشبع طموحه كل الاشباع بسرعة كبرى حتى لم يعد أمامه شىء يتمناه فى هذا الجانب من الحيـاة • وساس نفسه منذ شبابه الباكر كأنه يستعد لشغل تلك المكانة ـ المجيدة فى العالم ـ التى وضعه فيها الحظ أخيرا ، ومن ثمة ، فبالرغم من مواجهته لبعض ضروب الاخفاق واليأس فى حياته اللامعة ، المنطوية على شىء من الخيلاء ، كالتى يكابدها كل الناس ، فان مزاجه الهادىء

وطريقته الراقية فى التفكير ، ومبادئه القائمة على أساس قوى من الدين والأخلاق ، كل ذلك لم يخذله قط ، فظفر بالاحترام الشامل نتيجة لقوة عزمه وثباته أكثر منه نتيجة لمركزه الممتاز • وهو لم يكن ذا عقلية ممتازة ، ولكن بفضل المركز الذى سمح له بازدراء كل عبث الحياة وضجيجها ارتقت نظرته الفكرية • وكان بطبيعته شفوقاً حساساً ، ولكنه فى تصرفه كان يبدو فاتراً ومتعالياً الى حد ما• وقد نشأ هذا من وضعه فى مركز يستطيع معه أن يكون مفيداً لكثير من الناس ، وحاول بتصرفه الفاتر حماية نفسه من الالتماسات التى لا تنقطع وطلبات الأشخاص الذين يرغبون فى استغلال نفوذه وحسب • ولكن هذا الفتور صقله الأدب المتلطف الذى يتسم به رجل « مجتمع بالغ الرقى » •

وكان مثقفاً يحسن القراءة ، ولكن ثقافته توقفت عند حصيلة شبابه ــ أى عند نهاية القرن الماضى ، قرأ كل شىء مشهور كتب فى فرنسا فى موضوع الفلسفة وعلم البلاغة ابان القرن الثامن عشر ، وكان ملما الماماً تاماً بجميع آثار الأدب الفرنسى ، ولذلك كان قادراً على اقتباس فقرات من « راسين » و « كورنيى » و « بوالو » و « موليير » و « مونتانى » و « فنلون » ، وأغرم بهذا العمل ، وحصل على معلومات ممتازة من الأساطير ، ودرس الروائع القديمة من الشعر القصصى فى ترجماته الفرنسية وأفاد منه وحصل على قدر

طيب من المعرفة فى التاريخ من كتابات « سيجير » (١) ، ولكنه لم يكن يعرف شيئاً البتة عن العلوم الرياضية فضلا عن الحساب ، ولا عن العلوم الطبيعية ولا الأدب المعاصر ، وكان يعتصم بالصمت المهذب أو يفوه بعبارات عادية قليلة عن جوته وشيلر وبيرون ولكنه لم يقرأ لهم شيئاً • وبالرغم من هذا التعليم الفرنسى التقليدى الذى لا يزال باقياً منه أمثلة قليلة جداً ، فان حديثه كان بسيطاً ، وهذه البساطة فى ذاتها كانت تخفى جهله بأشياء مختلفة ، وكانت تضفى على حديثه فى نفس الوقت لونا من السماحة والذوق المصقول ، وكان يكره الشذوذ من كل نوع ، ويعلن أنه من اختراع الدهماء ، ويرى المجتمع ضرورة بالنسبة اليه ، وحيثما كان يعيش سواء فى موسكو أم فى الخارج ، كان يعيش فى سخاء ، ويستقبل فى أيام معينة كل سكان المدينة • وكانت منزلته فى المجتمع كأنها دعوة منه تستخدم كجواز مرور الى كل حجرات الاستقبال ، وكانت كثيرات من النساء الصغيرات الجميلات يقدمن له وجناتهن الوردية التى كان يقبلها فى ظاهر الأمر بشعور أبوى ؟ وبقدر ما أرى من ظاهر الأمر ، كان كثير من الناس ذوى المكانة والاحترام الكبيرين يسرهم أن يسمح لهم بالحضور الى ولائم الأمير •

---

(١) الكونتس دى سيجير (١٨٩٩ ـ ١٨٧٤) • واسمها الأصلى رستوبشين وهى كاتبة فرنسية ولدت فى روسيا ولها آثار أدبية قيمة قصدت بها توجيه النشء والأطفال • ومن أهم مؤلفاتها مذكرات حمار ، وفندق الملاك الحارس ويمتاز اسلوبها بالسهولة • (المترجم)

لم يبق آنئذ غير عدد قليل جدا من الناس على شاكلة جدتى ، ممن كانوا أعضاء فى نفس الحلقة ، ومن نفس السن ، ونفس التعليم ووجهات النظر ، ومن أجل هذا كان يمتدح بنوع خاص صداقته لها ، ويظهر لها على الدوام أعظم الاحترام •

لم أستطيع التفرس طويلا فى الأمير • فالاحترام الذى أولاه اياه كل شخص ، والزخرف القصبى الضخم على كتفيه ، والابتهاج الخاص الذى أظهرته جدتى عند رؤيته ، وكونه الشخص الوحيد الذى لم يكن يخشاها ويعاملها بغاية اليسر ، بل انه ليتجاسر فيخاطبها « بابنة عمى » كل ذلك أوحى الى باحترامه الذى تساوى مع احترامى الذى كنت أشعر به نحو جدتى ان لم يزد عليه • وحين أطلعته على أشعارى استدعانى اليه وقال لجدتى :

« من يدرى يا ابنة عمى ، فقد يكون « درزافين » آخر ؟ »•

وعندئذ قرص وجنتى بشدة بالغة ، وان كنت لم أصرخ ، فلأننى قدرت ان المقصود بها التدليل •

وانصرف الضيوف ، وخرج أبى وفولوديا ؛ وبقى الأمير وجدتى وأنا بحجرة الاستقبال •

وسأل الأمير بعد لحظات قصيرة من الصمت : « لماذا لم تحضر عزيزتنا ناتاليا نيكولايفنا ؟ » .

وأجابت جدتى وهى تميل برأسها وتضع يدها على كم ثوبه الرسمى : « آه ياعـزيزى ، كان لابد أن تأتى لو كانت حرة تفعل ما تشاء ، انها تكتب لى بأن بيير قد اقترح ان تحضر ، ولكنها رفضت ، اذ لم يكن لديهم دخل البته فى هذا العام ، وهى تكتب قائلة : « وفوق ذلك فليس هناك سبب لانتقالى الى موسكو فى هذا العام مع جميع أهل المنزل ، وان ليوبتشكا لا تزال صغيرة جداً ، أما عن الولدين اللذين يعيشان معك ، فأنا أكثر اطمئناناً عليهما مما لو كانا يعيشان معى .. » وتابعت جدتى حديثها قائلة بلهجة تكشف بوضوح تام انها لم تعتبر ذلك شيئاً ملائماً البته : « كل هذا جميل ! كان ينبغى أن يرسل الولدان الى هنا منذ وقت طويل لكى يتعلما شيئاً ، ويعتادا حياة المجتمع ، فأى نوع من التعليم يمكن ان يقدم لهما فى الريف ؟ » . ان أكبرهما سيبلغ الثالثة عشرة قريباً جدا ، والآخر فى الحادية عشرة ، ولعلك لاحظت يا ابن عمى ، انهما غير مصقولين مطلقا هنا ، فهما لا يعرفان كيف يدخلان الغرفة » .

وأجاب الأمير : « ولكنى لا أفهم سبب هذه الشكاوى المستمرة من ظروف هذا الضيق ؟ ان لديه أملاكاً حسنة جداً ، وأنا أعرف خاربارونكا ، قرية ناتاليا ـ حيث كنت أمثل معك المسرحيات فى وقت

من الأوقات ـ معرفتى لراحة يدى ، انها أملاك طيبة ، وينبغى أن تغل دخلا حسنا •

وقاطعته جدتى قائلة والأسف باد عليها : « لا يهمنى ان أخبرك ، كصديق مخلص ، اذ يبدو لى ان كل هذه الأعذار انما اخترعت فقط بقصد السماح له بأن يعيش هنا وحده ، ولكى يتلكأ فى النوادى فى أوقات الغداء ، والله يعلم ماذا يفعل غير هذا ؛ ولكنها لا تشك فى شىء قط ، فأنت تعرف أى ملاك هى ، انها تثق به تمام الثقة وهو يؤكد لها ما كان من ضرورة احضار الطفلين الى موسكو وتركها وحيدة فى الريف مع تلك القهرمانة الغبية • وقد صدقته• وان قال انه من الضرورى ضرب الطفلين بالسياط ، كما قالت الأميرة فارفارا اليلتشنا ، فمن المحتمل أيضا ان يصدقها » وقالت جدتى وهى تدور فى مقعدها وقد ارتسمت عليها علامات الاحتقار التام : « نعم يا صديقى » • وتابعت جدتى حديثها بعد توقف لحظة وهى تتناول أحد منديليها لتمسح دمعة طفرت من عينيها : « كثيراً ما أفكر فى أنه لا يستطيع تقديرها ولا يستطيع فهمها ، وذلك بالرغم من طيبتها وحبها له ، وجهودها التى تبذلها لاخفاء حزنها ـ اننى أعرفها حق المعرفة ، فهى لا تستطيع أن تسعد معه ، واصغ الى كلماتى ، فاذا لم ـ » •

وغطت جدتى وجهها بمنديلها •

وقال الأمير عاتباً : « آه ، يا صديقتى الطيبة ، أرى انك

جافيت كل تعقل ، فأنت تغتمين لحزن وهمي ، تعالى ، ألست خجلانه من نفسك ؟ لقد عرفته منذ آمد طويل ، وأعرف انه رجل طيب ، يقظ ، وزوج ممتاز ، فما هو الشيء الأساسي ؟ ان يكون رجلا أميناً كل الأمانة » •

ولما كنت قد سمعت عن غير قصد محادثة ماكان ينبغي لى سماعها ، فقد انسحبت من الحجرة على أطراف قدمي في حالة من الاضطراب العنيف •

(١٩)

أبناء ايفن

•• صحت قائلا : « فولوديا ! فولوديا ! أبناء ايفن ! » وذلك حين وقع نظرى من النافذة على ثلاثة أولاد يرتدون معاطف زرقاء ذات بنيقات من جلد القندس ، كانوا يعبرون الممشاة الجانبية المواجهة لمنزلنا ، وعلى رأسهم معلمهم الخاص ، الشاب المتأنق •

ان أبناء ايفن يمتون لنا بالقرابة ، وفى نحو عمرنا ، وقد تعرفوا بنا حال وصولنا الى موسكو وأصبحنا آنئذ أصدقاء مخلصين•

وكان سريوزا ، الابن الثانى أسمر البشرة مجعد الشعر ، ذا أنف صغير أشم ، وشفتين حمراوين غضتين قلما تنطبقان فوق

أسنانه البيضاء ، بل على أسنانه العليا النائتة ، وعينين قاتمتي الزرقة ، وتعبير يقظ بشكل غريب . لم يبتسم مرة . فهو اما أن يبدو جادا تمام الجد ، أو يضحك من أعماق قلبه ضحكة رنانة شديدة العدوى ، وقد لفت نظري جماله غير العادي لأول نظرة ، وشعرت نحوه بجاذبية لا تقاوم ، وكانت تكفيني رؤيته لأكون سعيداً كل السعادة. وفي ذلك الحين كانت كل روحي مركزة في هذه الرغبة الوحيدة ، فاذا تصادف أن مرت ثلاثة أو أربعة أيام دون أن أراه ، فاني أشعر بالانقباض والحزن ، بل كان يصل بي الحال الى حد البكاء . وكانت كل أحلامي في سيري ونومي تدور حوله : وعندما أرقد لأنام ، أتمنى أن أحلم به ، وحين أغمض عيني أراه أمامي ، وأعتز بالرؤيا كأنها أعظم متعة . كان هذا الشعور من التعاسة بحيث لم أستودع سره أحدا ، وكان من الواضح انه يفضل ان يلعب ويتحدث مع فولوديا على ان يلعب أو يتحدث معي ، وربما كان يضايقه شعوره بعيني القلقتين اللتين تتفرسان فيه باستمرار ، أو ربما كان السبب هو عدم شعوره وحسب بالمشاركة الوجدانية ، ولكن مهما كان الأمر فقد كنت قانعا . لم أرغب في شيء ، ولم أطلب شيئا ، وكنت مستعداً للتضحية بكل شيء في سبيله ؛ وبالاضافة الى العلاقة العاطفية التي بعثها في ، فان وجوده كان يثير في شعوراً آخر بدرجة لا تقل قوة ـ الخوف من ايلامه أو الاساءة اليه ، أو تكديره . كان شعوري بالخوف عليه كالشعور بالحب ، ولعل ذلك كان راجعا الى أن وجهه كان يتسم

بطابع الكبرياء ، أو لازدرائي لمظهرى الخاص ، فأنا أقدر جمال الآخرين تقديراً عالياً جداً ، أو على أصح الاحتمالات جميعاً ، انها علامة الحب التى لا تخطىء •

عندما تحدث الى سريوزا لأول مرة ، فقدت كل فطنتى أمام هذه الغبطة غير المتوقعة ، الى درجة أننى أصبت بالشحوب والخجل ولم أحر جواباً • كانت فيه عادة سيئة حين كان يفكر وذلك انه يثبت نظره فى شيء ما ، وتطرف عينه دون توقف ، ويختلج أنفه وحاجباه فى نفس الوقت ، وقد اتفق الجميع على انها عادة قبيحة ، ولكنى كنت أرى فيها من قوة الفتنة ما جعلنى انا نفسى أعتادها طواعية • وبعد أيام قليلة من تعارفنا لأول مرة ، تساءلت جدتى عما اذا كانت عيناى تؤلمانى ، وذلك لأننى كنت أطرف بهما كالبومة • لم نتبادل فيما بيننا كلمة حب واحدة ، ولكنه كان يشعر بسيطرته على ، ونفذ هذه السيطرة عن غير قصد ، ولكن فى طغيان أثناء اختلاطنا الصبيانى • أما فيما يتعلق بى ، فلئن كنت أصبو الى سكب قلبى كله من أجله ، الا أننى كنت أخاف كثيرا التحدث اليه فى صراحة ، وكنت أحاول اظهار عدم الاهتمام وأخضع له دون تذمر • وكان نفوذه فى بعض الاحيان يبدو جائرا غير محتمل ، ولكن لم يكن فى طاقتى الهرب منه •

انه ليحزننى التفكير فى ذلك الشعور العذب الجميل ، الشعور

بالحب الخالى من الاثرة والقيود ، الذى مات دون أن يجد متنفسا أو يلقى تجاوبا .

لماذا كافحت عندما كنت طفلا لكى أبدو شخصاً مكتملا ، فلما انتهت مرحلة الطفولة تاقت نفسى الى أن أكون كالطفل ؟ .

لطالما حالت رغبتى فى ألا أبدو كالطفل فى علاقاتى مع سريوزا ، دون الشعور الذى كان على استعداد للتدفق ، مما حدا بى الى النفاق !! ، ولم أتجاسر على مجرد تقبيله وهو ماكانت تشتد بى الرغبة فيه أحيانا ، وفى أن أمسك بيده ، وأقول له اننى سعيد برؤيته ، بل اننى لم أتجاسر أن أدعوه سريوزا وظللت محافظاً بدقة على مناداته باسمه الرسمى ، سيرجى ، لقد كان كل تعبير عن الشعور يعد طفولة ، والانغماس فى اظهار مثل هذا الشعور انما كان مجرد دلالة على أن الشخص لم يزل صبيا صغيرا . ودون أن نجتاز بعد هذه التجارب المريرة التى أدت بالكبار الى الحذر والفتور فى علاقاتهم مع بعضهم البعض ، حرمنا أنفسنا من المتعة النقية ، متعة انعطاف الطفولة اللين ، وذلك بسبب الرغبة العجيبة فى تقليد الكبار دون غيرها .

قابلت أبناء ايفن فى غرفة الانتظار ، وتبادلنا التحيات ، ثم طرنا مباشرة الى جدتى وأنبأناها بحضورهم فى كثير من الابتهاج كما لو كانت هذه الأخبار لا بد أن تجعلها سعيدة كل السعادة ؛ ثم تبعت سريوزا الى غرفة الاستقبال دون أن أبعد عنه نظرى ، وأراقب

كل حركـاته • وبينما كانت جدتى تخبره انه كبر الى حد بعيد ، وترمقه بعينيها المتفحصتين ، داخلنى ذلك الشـعور بالخوف والأمل الذى لا بد أن يجربه الرسام عندما ينتظر الحكم على عمله من قاض يحترمه •

وذهب معنا هر فروست ، معلم أبناء ايفن الشاب بعد استئذان جدتى الى الحديقة الأمامية ، وجلس على مقعد أخضر ، يضع ساقاً على ساق فى جلسة جديرة بالتصوير ، ووضع بينهما عصـا ذات رأس من البرونز ، وأخذ يدخن سيجارة وهو راض كل الرضـا عن تصرفه •

كان هرفورسـت ألمانيا ، ولكنه من نوع مختلف جـدا عن صاحبنا كارل ايفانتش الطيب ، فقـد كان قبـل كل شيء يتحـدث اللغة الروسـية السـليمة ، ويتحدث الفرنسـية فى لهجة رديئة ، ويشتهر بوجه عام وخاصة بين النساء ، بأنه رجل علم ضليع جداً • ثم ان شاربه كان أحمر ، ويضع دبوساً كبيراً من الياقوت فى ربطة عنقه السوداء المصنوعة من الأطلس ، تنحشر أطرافها فى حمالته ، ويرتدى سروالا خفيفاً أزرق ذا طرفين ناتئين وأربطة، وثالث الأمور أنه كان شاباً ذا مظهر جميل ، ويتسم بالرضا الذاتى ، له سـاقان لطيفتان قويتان بصـورة ملحوظة ، وواضـح انه كان فخوراً بنوع خاص بهاتين الساقين ويعتبر أن الجنس الآخر لايستطيع مقاومتهما ، ولعل هذا كان السبب فى محاولته عرضهما ماوسـعه ذلك • فقد

كان يحرك ساقيه على الدوام سواء كان واقفاً أم جالساً • كان طرازاً من الشاب الروسى الألمانى الطامح فى أن يكون شخصاً مرحاً ، زير نساء •

كنا غاية فى المرح بالحديقة ، ولم تكن لعبتنا « الحرامية » يوماً أنجح منها فى هذه المرة ، ولكن حادثاً طرأ فأفسد كل شىء ••• لقد كان سريوزا يقوم بدور « الحرامى » وبينما هو يسرع فى تعقب المسافرين ، سقط وارتطمت ركبته بشجرة ارتطاماً بلغ من شدته اننى ظننتها قد كسرت • وبالرغم من قيامى بدور رجل الشرطة ، ومن واجبى القبض عليه ، فقد اقتربت منه وسألته فى عطف عما اذا كان قد أوذى • وغضب منى سريوزا ، وضم قبضته ، وضرب على قدمه وصاح بصوت يدل بوضوح على انه قد أصيب اصابة بالغة :

« حسن ، وماذا يهم ؟ انك تفسد اللعبة كلها ! تقدم واقبض على !! لماذا لا تقبض على ؟ » وظل يكرر هذه العبارة مرات عدة وهو يرمق من جنب عينيه فولوديا وايفن الكبير اللذين كانا بوصفهما من المسافرين ، يركضان فى الممر ، ثم صرخ على حين فجأة ، واندفع وراءهم وهو يطلق ضحكة عالية •

لا أستطيع أن أصف كيف تأثرت بهذا التصرف البطولى ، فبالرغم من شدة الألم لم يقتصر على عدم البكاء ، بل لم يظهر حتى انه أصيب ، ولم ينس اللعب لحظة واحدة قط •

وبعد ذلك بقليل عندما لحق بجماعتنا أيضاً « النكا جراب » صعدنا الى الطابق العلوى لكى نلعب حتى يحين وقت الغداء ، ادهشنى سريوزا مرة أخرى وأبهجنى بشجاعته الغريبة وثبات خلقه •

كان النكا جراب ابن رجل اجنبى فقير عاش فى وقت ما عند جدى ؛ وكان مديناً له بصورة ما ، فرأى آنئذ ان واجبه الحتمى يقتضيه ارسال ابنه الينا فى كثير من الأحيان ـ فلو كان يفترض ان معرفتنا ستضفى عليه أى شرف أو تعويضا ، فهو مخطىء كل الخطأ ، لأننا لم نرفض ان نجعل منه صديقا وحسب ، بل اننا لم نعره أى اهتمام الا حين كنا نريد السخرية منه • وكان النكا جراب ولدا طويلا نحيلا فى نحو الثالثة عشرة ، ذا وجه شاحب يشبه وجه الطائر ، عليه سمات الخضوع الفطرى• وكانت ملابسه رثة للغاية ، ولكن شعره كان دائما كثير الدهان حتى لقد جاهرنا فى يوم مشمس بان دهان جراب سوف يذوب ويسيل تحت سترته • وأرى حين أتذكره الآن انه كان كريما لطيفا ، وشفوقا جدا ، ولكنه كان يبدو لى فى ذلك الوقت مخلوقاً محتقراً الى حد بعيد ، لم يكن من الضرورى العطف عليه أو حتى التفكير فيه •

وعندما بلغت لعبة « الحرامية » نهايتها ، وصعدنا الى الطابق العلوى وأخذنا ننط ونستعرض مختلف الالعاب الرياضية امام بعضنا البعض ، وكان النكا يشاهدنا وعلى شفتيه ابتسامة اعجاب

هيابة ، وعندما اقترحنا عليه ان يحاول بدوره ،رفض قائلا انه ليس قويا كما ينبغي • كان سريوزا يبدو ساحرا بصورة مدهشة ، فقد خلع معطفه ، وكانت وجنتاه وعيناه متأججة ، ويضحك دون توقف؛ وابتدع كل ضروب الألعاب الجديدة ، كان يقفز من فوق ثلاثة مقاعد موضوعة في صف واحد ، وأنجز عمل عجلات العربة ، ووقف برأسه على قاموس تاتشيف الذي وضعه في وسط الحجرة وجعل منه ركيزة ، وفي نفس الوقت قام بقفزات مضحكة بالقدمين حتى اننا لم نستطع مقاومة الضحك ، وبعد هذه اللعبة الأخيرة تدبر الأمر قليلا ـ وهو يرمش بعينيه كالمعتاد ـ وتقدم من النكا بوجه جاد تماما وقال له : « والآن ستفعل أنت ذلك ، انه شيء صعب في الحقيقة » واذ أدرك جراب ان الانتباه العام موجه اليه ، احمر وجهه وأعلن في صوت خافت انه لا يستطيع القيام به •

« ما أمر هذا الشخص ؟ لماذا لا يريد ان يفعل شيئاً ؟ لعلكم ظننتموه فتاة ! ، انه سيقف على رأسه » •

وأمسك به سريوزا •

وصحنا جميعاً : « نعم ، نعم ، قف على رأسك فوراً » وأحطنا بالنكا الذي ظهر عليه الخوف في تلك اللحظة وشحب لونه ، فقبضنا على ذراعيه وسحبناه الى القاموس وصاحت الضحية التعسة : « أتركوني ، سأفعل ذلك وحدي ، انكم ستمزقون سترتي » ولكن كل هذه الصيحات البائسة لم تجد شيئاً غير حفزنا الى المزيد • وكنا

نضج بالضحك وتمزق المعطف الأخضر ايما تمزق •

وثنى فولوديا وايفن الكبير رأسه الى أسفل ووضعوه فوق القاموس ، وأمسكنا ، سريوزا وانا ، بساقى الصبى المسكين النحيلتين اللتين كانتا تتأرجحان فى كل اتجاه وطوينا سرواله حتى الركبة ورفعنا ساقيه عالياً فى الهواء ونحن نهدر بالضحك ، بينما حاول ايفن الصغير المحافظة على توازن بقية جسمه •

وهدأت ضجة ضحكنا على حين فجأة وران علينا الصمت، وبلغ من سكون الحجرة ان أصبح تنفس جراب هو الصوت الوحيد المسموع ، ولم أكن متأكداً بحال فى تلك اللحظة ان كل هذا الذى حدث كان مدعاة للضحك والتسلية الى هذا الحد •

وقال سريوزا وهو يصفعه : « اليكم الآن زميل لطيف » •

وظل النكا صامتا • وفى اثناء محاولته تخليص نفسه كان يطوح بساقيه فى جميع الاتجاهات ، وفى حركة من هذه الحركات اليائسة ، صدم سريوزا فى عينه بمؤخرة قدمه صدمة مؤلمة للغاية ترك على أثرها سريوزا الساق وشد على عينه التى أخذت تسيل منها الدموع دون انقطاع ، ودفع النكا بكل قوته • ولما لم يكن أحد منا يسند النكا ، فقد سقط على الأرض بكل ثقله ، وكان كل ما استطاع ان ينطق به بسبب انهمار دموعه هو :

« لماذا تعذبوننى هكذا ؟ » •

ان منظر النكا المسكين المكتئب ، بوجهه الذى لطخته الدموع ، وشعره المشعث وسرواله المطوى الى أعلى ، الذى تظهر من تحته ساقاه القذرتان المتعلتان ، أعادت الينا وعينا فوقفنا صامتين نغتصب الابتسام اغتصاباً .

كان سريوزا هو أول من أفاق .

وقال وهو يدفعه بقدمه بتهور : « أيها الوالد الغبى ، المخاط ، البكاء كالطفل ، ألا تعرف المزاح ! يكفيك هذا الآن ، انهض » .

وقال النكا غاضبا وهو منصرف ينشج بصوت مرتفع : « انك لولد قذر خبيث » .. وصاح سريوزا : « هذا ترفسنى أولا ، ثم تشتمنى ! » .

وأمسك بالقاموس وطوح به الى رأس الولد البائس الذى لم يفكر قط فى الدفاع عن نفسه ، واقتصر على تغطية رأسه بيديه .

وقال سريوزا وهو يضحك ضحكة مغتصبة : « خذ تلك الضربة ! وتلك ! ولنتركه وحيداً اذا كان لا يفهم المزاح ، ولنهبط الى الطابق السفلى » .

وتطلعت فى عطف الى الزميل المسكين الذى رقد على الأرض مخفيا وجهه بالقاموس يبكى بكاء حاراً حتى لقد خيل الى انه سيموت من الرجفة التى تهز كل بدنه .

وقلت : « آه ، يا سرجى ! لماذا فعلت ذلك ؟ » .

« تلك علقة طيبة » ! اننى لم أبك ، هل بكيت عندما جرحت ركبتى اليوم وكاد الجرح يبلغ العظم ؟ » .

وقلت فى نفسى : « نعم ، هـذا صحيح ، ان النكا ليس الا طفلا كثير البكاء ، لديك الآن ياسريوزا زميل شجاع ! » .

•• لم تساورنى أية فكرة فى أن بكاء الولد المسكين لم يكن من الألم البدنى بقدر ما كان من ان خمسة أولاد ، من المرجح انه كان يحبهم ، قد اجتمعوا دون أى سبب على بغضه واضطهاده .

اننى فى الواقع لا أستطيع أن أفسر لنفسى قسـوة سلوكى ، فلماذا لم أذهب اليه وأدافع عنه وأواسـيه ؟ وماذا حدث للمشـاعر الرقيقة التى دفعتنى الى البكاء بمرارة لدى رؤية غراب صغير كان قد سقط منعشه ، أو لرؤية الجرو الذى كان على وشك أن يلقى به فى الطريق ، أو الدجاجة التى كان الطبـاخ يحملهـا ليصنع منهـا حساء ؟ .

هـل كان حبى لسريوزا ورغبتى فى الظهـور أمامه بمظهـر الرجولة التى كان هو نفسه يمتاز بها ، يخفيان ذلك الشعور الجميل؟ لو كانت الحـالة هذه ، لكان ذلك الحب ، وتلك الرغبـة فى الظهور بمظهر الرجولة صفتين لا أحسد عليهما بل انهما البقعتان السوداوان الوحيدتان فى صفحات ذكريات طفولتى .

(٢٠)

كان لدينا زائرون

كان من المتوقع حضور عدد كبير من الضيوف فى تلك الليلة اذا أدخلنا فى حسابنا النشاط غير العادى بمخزن المؤن ، والأضواء الساطعة التى أضفت طابعاً احتفالياً جديداً على الأشياء فى قاعة الاستقبال و « الصالون » التى ألفتها منذ زمن طويل ، وبخاصة ان الأمير ايفان ايفانتش كان قد أرسل الى منزلنا عازفى موسيقاه •

•• كنت أجرى الى النافذة عند سماع كل عربة سائرة ، فأضغط أنفى على الزجاج وأتفرس فى الشارع بفضول نافد الصبر ، ومن خلال الظلام الذى كان يخفى عن النافذة فى أول الأمر كل المعالم ، كان يظهر بالتدريج على الجانب الآخر من الطريق الدكان المألوف ، والى جانبه المصباح ، والبيت الكبير بنافذتيه المضيئتين بالطابق السفلى على مسافة قصيرة ، وفى منتصف الشارع حوذى فقير مع اثنين من المسافرين ، أو عربة صغيرة خاوية تسير متمهلة• ولكن تتقدم الآن عربة الى سقيفة الباب ، فهى دون شك عربة آل ايفن الذين وعدوا بالحضور فى ساعة مبكرة ، فأسرعت بالهبوط لمقابلتهم فى غرفة الانتظار ، ولكن بدلا من آل ايفن ظهرت سيدتان وراء الخادم ذى الكسوة الخاصة ، الذى فتح الباب : وكانت احداهن طويلة ترتدى معطفاً أزرق ذا بنيقة من فراء السمور ، أما الأخرى القصيرة فكانت متشحة كلها بشال لا يظهر من تحته غير قدميها

الصغيرتين فى نعلين من الفراء • وتقدمت الصغيرة من الأخرى الكبيرة فوقفت أمامهـا دون أن تلقى بالا الى وجـــودى ـ بالرغم من ان واجبى كان يقتضينى ان أحييهما بالانحناء • ونزعت الكبرى المنديل الذى يغطى رأسها الصغير وفكت أزرار معطفها • وعندما عهد الى الخادم ذى الكسوة الخاصة بهذه الأشياء ، ونزع من قدميهـا نعليهـا الصـغيرين المصـنوعين من الفـراء ، ظهر من تحت هذه الدثارات جميعا فتاة صغيرة فى نحو الثانية عشرة ترتدى جلباباً واسـع فتحة النحر من الموصلين ، وسروالا قصـيراً أبيض ، وخفين صـغيرين اسودين ، وعلى عنقها الأبيض شريط أسـود من القطيفة • وكان رأسها كتلة من الشعر المجعد ذى اللون الكستنائى القاتم تلائم كل الملائمة وجهها البديع وينسدل على كتفيها فى وضع بلغ من الفتنة مبلغاً لم أكن أصدق معه كارل ايفانتش نفسه لو قال لى ان تجعيد الشعر على هذا الوجه جاء نتيجة للفه على قطع من ورق جـريدة « موسكو جازيت » منذ الصباح وكيه بمكواة الشعر الحامية • انها لتبدو كأنها ولدت بذلك الرأس المجعد الشعر •

كان أوضح معالمها عيناها الواسـعتان بصـورة غير عـادية ، البارزتان نصف المغمضتين اللتان تشـكلان مع فمها الصغير تناقضـاً غريباً وان كان مستحباً ، وكانت شفتاها مضـمومتين باحكام ، وفى عينيها نظرة جادة جداً ، وتعبير وجهها بوجه عـام لا يدعك تتوقع ابتسامة ترتسم عليه ، مما جعل ابتسامتها أقوى ما تكون فتنة •

وتسللت الى القاعة محاولا ألا تقع على عين ، ورحت أسير جيئة ورواحا متظاهرا بالتفكير العميق متغافلا عن وصول الضيوف. وعندما بلغتا الى منتصف الحجرة أخذت فى الانحناء لهما ، وأخبرتهما ان جدتى بحجرة الاستقبال .

وأومأت الى السيدة فالاخينا التى راق لى وجهها الى أبعد حد ايماءة رشيقة وبخاصة لأننى أدركت فيها شبها قوياً لابنتها سونتشكا.

وظهر على جدتى الابتهاج الشديد لدى رؤيتها سونتشكا : واستدعتها اليها ، وصففت لها خصلة مجعدة من الشعر كانت متدلية على جبينها ، وقالت وهى تتفرس باهتمام فى وجهها : « يا لك من طفلة فاتنة ! » وابتسمت سونتشكا ، واعتراها خجل ظريف للغاية، حتى اننى خجلت أنا أيضا عندما وقع نظرى عليها .

وقالت جدتى وهى تمسك بذقنها وترفع وجهها الصغير : « آمل ألا يثقل عليك المكان هنا يا طفلتى ، وأرجو ان ترقصى بملء قلبك » . ثم أضافت قائلة وهى تلتفت الى السيدة فالاخينا ، وتلمسنى بيدها : « ها قد أصبح لدينا الآن سيدة وسيدان » .

وقد سرنى كثيراً هذا الجمع بيننا حتى عرانى الخجل مرة أخرى .

وانسحبت عند شعورى بتزايد خجلى وسماعى صوت عجلات العربة ، فوجدت فى غرفة الانتظار الأميرة كورناكوفا وابنها وعددا

لا يصدق من بناتها ـ وكانت جميع الفتيات متشابهات كل التشابه ـ فهن يشبهن الأميرة ، قبيحات ليس بينهن واحدة تستحق النظر اليها . وبينما كن يخلعن اعطفتهن ، ويزحن طرحهن ، رحن جميعا يتحدثن بأصوات جادة ، ويحدثن ضجة ، فيضحكن لشيء ما ـ من المرجح أن يكون عددهن الكبير ـ كان اتيين فتى طويل القامة ممتلىء الجسم يناهز الخامسة عشرة ، ذا وجه لا دم فيه ، وعينين غائرتين تحف بأسفلهما دوائر زرقاء ، ويدين وقدمين لا يتناسب كبر حجمها مع سنه : كان ثقيل الحركة ذا صوت خشن منفر ، ولكنه يبدو راضياً عن نفسه كل الرضا ، فهو على التحديد من وجهة نظرى صبى من ذلك النوع الذى يجلد بالسوط .

وقفنا برهة سويا ، وجها لوجه دون ان ننطق بكلمة ، يتفحص كل منا الآخر بعناية ، ثم تقاربنا قليلا ، حتى ليبدو كأننا قصدنا ان يقبل كل واحد منا أخاه ، ولكنا غيرنا قصدنا لسبب ما بعد أن نظر كل منا فى عينى صاحبه ، وعندما خشخشت ملابس اخوته جميعاً اثناء مرورهن بنا ، سألته لكى أبدأ الحديث عما اذا كانت العربة لم تكتظ بهم .

وأجاب فى فتور : « لا أعرف ، لأننى لا أركب أبدا فى داخل العربة ، فهى تسبب لى دواراً ، وأمى تعرف ذلك ، وعندما نذهب الى أى مكان فى المساء أجلس دائماً على مقعد الحوذى ، فهو أدعى الى الابتهاج ، وأنت تعرف كل شيء ، ويتركنى فيليب أقود العربة ،

وأحياناً أمسك السوط أيضاً ، وأحيانا أخرى ، كما لا يخفاك .. يمسك المارة كذلك بالسوط . ثم أضاف قائلا بحركة معبرة : « انه لمزاح ممتع ! » .

وقال السايس وهو يدخل غرفة الانتظار : « ان فيليب يريد أن يعرف يا صاحب السمو أى مكان أعجبك فوضعت فيه السوط ؟ » .

« لقد أعطيته اياه بطبيعة الحال » .

« يقول انك لم تعطه اياه » .

« حسن اذن ، لقد علقته على الفانوس » .

واستمر السايس فى حديثه قائلا وقد استشاط غضبا : « يقول فيليب انه ليس على الفانوس ، وانه كان من الخير لك القول انك أخذته وأضعته ، والا فان على فيليب ان يدفع ثمن مزاحك من ماله الخاص » .

وظهر أن السايس وكان يبدو شخصاً محترماً ، قد انحاز الى جانب فيليب ، وصمم على توضيح المسألة بأى ثمن . وانتحيت جانباً بحركة لبقة غير ارادية كأننى لم ألاحظ شيئاً . ولكن الخدم الذين كانوا حاضرين تصرفوا تصرفاً مختلفاً كل الاختلاف . فقد اقتربوا ونظروا الى الخادم العجوز نظرة استحسان .

وقال اتيين متحاشيا الدخول فى تفصيلات أبعد مدى : « حسن جداً ، لقد فقدته اذن ، وماذا يهم ؟ ثم أضاف قائلا وهو يقترب منى ويقودنى الى قاعة الاستقبال : « سأدفع له ثمن هذا السوط ، انه لشيء مسل » .

« معذرة يا سيدى كيف تدفع ؟ اعرف انك منذ ثمانية أيام تدفع عشرين كوبك لماريا فاسيليفنا ، والحالة بعينها بالنسبة لى ، وقد مضت سنتان على بتروشكا منذ أن » وصاح الأمير الصغير وقد استحال وجهه الى الشحوب من الغضب : « امسك لسانك سأروى أنا » .

وقال السايس ساخراً : « أنت تروى !! أنت تروى !! » .

ثم أضاف بانفعال عندما دخلنا قاعة الانتظار ، وذهب هو بالأعطفة نحو خزانة الملابس ، « عار عليك يا صاحب السمو » .

وقال صوت استحسان من ورائنا بغرفة الانتظار : « حقاً ، حقاً ! » .

امتازت جدتى بموهبة فى التعبير عن رأيها فى الناس عندما ترغب فى ذلك ، وذلك باستخدامها ضمائر المفرد والجمع فى صيغة المخاطب بتشديد معين ، فهى تستخدم كلا من أنتم وأنت بعكس المعنى تماماً ، الذى تواضع عليه كافة الناس ، وكانت الكلمات عندها تتضمن تعبيراً مختلفاً كل الاختلاف . فلما اقترب منها الأمير الصغير ، وجهت اليه كلمات قليلة ، وخاطبته بـ«أنتم» ونظرت اليه وقد ارتسم على وجهها

تعبير من الاحتقار ، لو كنت فى مكانه لارتبكت ارتباكاً تاماً • ولكن من الواضح ان اتبين لم يكن ولدا من ذلك الطراز : فهو لم يقتصر على عدم اعارة استقبال جدتى أى اهتمام ، بل فعل ذلك بالنسبة لشخصها أيضاً ، وحيا المجموعة كلها بتحية ، ان لم تكن لطيفة فقد كانت على الأقل خالية من التحفظ •

واحتلت سونتشكا كل التفاتى ، وأذكر أننا حين كنا نتحدث معاً ، فولوديا واتيين وأنا ، فى ناحية من الغرفة كنا نستطيع منها رؤية سونتشكا ، وتستطيع هى رؤيتنا وسماعنا ، كنت أتحدث بسرور • فكنت اتحدث بصوت مرتفع واتطلع الى باب حجرة الاستقبال عندما تلوح الفرصة لقول شىء ما ، يبدو لى انه سار أو ابداء ملاحظة تنطوى على شهامة ، ولكنا حين تحولنا الى مكان آخر يستحيل معه رؤيتنا أو سماع صوتنا من حجرة الاستقبال كنت الوذ بالصمت ولا أجد بعد متعة فى الحديث •

وامتلأت حجرة الاستقبال و «الصالون» شيئاً فشيئاً بالضيوف• وكان هناك عدد كبير من الأطفال الكبار بين عدد الحاضرين كالمعتاد فى حفلات الأطفال ، ممن لا يرغبون فى اضاعة فرصة للرقص والمرح ، بل كانوا يتظاهرون بذلك لمجرد ادخال السرور الى قلب المضيفة •

وعندما وصل آل ايفن ، شعرت بدلا من السرور الذى كنت

أتذوقه عادة لدى مقابلتى سريوزا ، باحساس غريب من الضيق حين فكرت فى انه سيرى سونتشكا ، وانها ستراه •

(٢١)
قبل رقصة المازوركا

قال سريوزا وهو قادم من حجرة الاستقبال وكان يجذب من جيبه قفازاً جديداً من جلد الماعز : « أرى أنكم سوف ترقصون فيجب أن ألبس قفازى » •

وقلت فى نفسى : « وماذا نفعل ــ ليس لدينا قفازات ، ويجب أن أصعد للبحث عن بعض منها » •

ولكن بالرغم من اننى نبشت جميع الأدراج كان كل ماعثرت عليه قفازاتنا الخضراء الخالية من الأصابع ، وقفازا واحدا من جلد الماعز ليس لى فيه أى نفع ــ أولا لأنه كان قديماً كثير البقع ، وثانياً لأنه كان واسعا جدا بالنسبة الى ، وبخاصة لأنه كان خاليا من الأصبع الوسطى ، اذ كانت قد قطعت منذ مدة طويلة ، ومن المرجح ان يكون كارل ايفانتش هو الذى قطعها لتقرح أصاب يده • ومع ذلك فقد ألبست يدى هذه الفضلة من القفاز ، وتفرست فى مكان الأصبع الوسطى الذى كان ملطخا دائما بالحبر •

وقلت فى نفسى : « لو كانت ناتاليا سافشنا هنا لوجدت لى

بالتأكيد بعض القفازات « اذ كان من المحال أن أهبط الى الطـابق الأسفل بدونهما ، لأنهم لو سألونى لماذا لم ارقص ، فبماذا أجيب ؟ كما ان بقائى هنا مستحيل أيضـاً ، لأننى كنت على ثقـة من انهم سيفتقدوننى ، فما العمل ؟

وسألنى فولوديا وهو يدخل مسرعا : « ماذا تفعل هنا ؟ اذهب واحجز فتاتك لأن الرقص سيبدأ فورا ٠

وقلت فى يأس وانا أريه يدى وقد برز أصـبعان من القفـاز القذر : « فولوديا ، لقد نسيت هذا يا فولوديا » ٠

فقال وقد نفد صبره : « ماذا ؟ آه ! القفازات » ثم أضاف بغير اهتمام : « حقاً ، ليس لدينـا منها شىء ٠ فيجب ان نسـأل جدتى رأيها فى هذا » وهبط مسرعاً الى الطابق السفلى دون تمهل للتفكير٠

وكان فتوره مبعث طمأنينتى فى ناحيـة كانت تبـدو لى ذات أهمية بالغة ، فأسرعت الى حجرة الاستقبال وقد نسيت تماما اننى لا أزال لابساً القفاز الممزق فى يدى اليسرى ٠

واقتربت فى حذر الى مقعـد جـدتى ذى المسـندين ولمست وشاحها بلطف ، وقلت هامساً : « ماذا نفعل يا جدتى ؟ ليس لدينا قفازات !! » ٠

« ماذا يا عزيزى ؟ »

« فأعـدت قولى وانا اقترب منهـا وأقترب ، وأضع يدى على مسند مقعدها :

« ليس لدينا قفازات » •

فقالت على الفور وهى تنظر الى يدى اليسرى : « وما هذا ؟ ثم أضافت وهى تلتفت الى السيدة فالاخينا : « انظرى يا عزيزتى ، لقد جعل هذا الرجل الصغير من نفسه شخصـاً أنيقاً لكى يراقص ابنتك » •

وأمسكتنى جدتى من يدى باحكام ، ونظرت الى ضيوفها فى وقار وتسـاؤل ، الى أن أشبع فضـول المجموعة كلها وشـاع الضحك بينها •

كان لا بد أن أنزعج انزعاجاً كبيراً لو ان سريوزا رآنى فى اللحظة التى تجهم فيها وجهى خجلا ، وحاولت عبثا اطلاق حرية يدى ، ولكن لم يسبب لى وجود سونتشـكا أى احباط ، اذ انها ضحكت حتى امتلأت عيناها بالدموع ، وتشـوشت جميع عضـلات شعرها على وجهها المتورد ، فوجدت ان ضحكها الصادر من أعماق قلبها ، على السجية ، لا يمكن أن يكون سخرية ، بل على العكس ضحكنا سـويا ، ويبـدو ان ذلك قد قارب بيننا • ولئن كان حادث القفاز قد انتهى نهاية سيئة ، فقد أكسبنى ميزة وضعى فى يسر فى الحلقة التى كانت تبدو لى دائماً على أكبر جانب من الفظاعة ، وهى

دائرة حجرة الاستقبال ، فلم أعد بعد أشعر بأقل خجل وأنا أدخل قاعة الرقص •

ان ما يعانيه الناس الذين يشعرون بالخجل ناجم عن عدم الثقة فى الفكرة التى كونها الناس عنهم ، وحالما تتضح هذه الفكرة بجلاء ـ سواء أكانت طيبة أم سيئة ـ تتوقف هذه المعاناة •

كم كانت سونتشكا فالاخينا ساحرة وهى ترقص قبلتى رقصة الكدريل الفرنسية (١) مع الأمير الصغير الأخرق ! وكم كانت ابتسامتها حلوة عندما ناولتنى يدها الصغيرة فى التتابع ! وما أجمل خصلاتها الذهبية وهى تموج بانتظام ، وما أشد بساطتها وهى تقارب الى الجانب الآخر ، وانتظرت النقرة استعداداً لرقصتى المنفردة ، ما بين قدميها ! وعند الخطوة الخامسة ، حين تركتنى زميلتى وذهبت، ضمت سونتشكا شفتيها فى جد ونظرت الى الجانب الآخر • ولكن لم يكن هناك ضرورة لخوفها على ، فقد قمت بخطوتى الى الأمام ، وخطوتى الى الخلف ، ثم بالانزلاق ، وعندما اقتربت منها أريتها مداعباً قفازى الذى يبرز منه اصبعاى ، فانفجرت مقهقهة ، وخطت قدماها الصغيرتان فوق الأرض المدهونة بالشمع خطوات أشد سحرا من أى وقت مضى ، ولا أزال أذكر كيف انها حين كونا حلقة رقص وتشابكت أيدينا جميعاً ، طأطأت رأسها الصغير ، ودون أن

(١) رقصة رباعية يقوم بها أربعة أزواج من الراقصين وتتكون من خمس حركات ولها موسيقى خاصة بها • (المترجم)

تسحب يدها من يدى حكت أنفها الدقيق بقفازها ، وأستطيع رؤية هذا كله كأنه يحدث أمام عينى مباشرة ، ولا أزال أسمع معزوفة الكدريل من « عذراء الدانوب » التى يرجع الى موسيقاها كل ما حدث .

ورقصت الكدريل الثانية مع سونتشكا نفسها ، ومع ذلك فحين ذهبنا للجلوس سوياً فى فترة الاستراحة شعرت بالارتباك على أشده، ولم أعرف على الأقل ماذا أقول لها .. ولما طال صمتى أكثر مما ينبغى ، بدأت أخاف ان تظننى غبيا ، فصممت من جانبى انقاذها من أى خطأ كهذا بأى ثمن ، فقلت لها بالفرنسية : « انك من سكان موسكو ؟ » .

وبعد أن تلقيت جوابها بالايجاب تابعت حديثى قائلا : « وانا لم أتردد قط حتى الآن على العاصمة » تقديرا منى بنوع خاص للتأثير الذى ستحدثه كلمة «أتردد» وبالرغم من اننى شعرت بأنها بداية رائعة جدا ، برهنت تماما على معرفتى باللغة الفرنسية ، فاننى لم أستطع الاستمرار فى هذا الأسلوب من الحديث . ولم يكن دورنا فى الرقص سيحل وشيكا ، وران علينا الصمت مرة أخرى، ونظرت اليها فى غير ارتياح تواقاً الى معرفة الأثر الذى أحدثته فيها منتظراً أن تساعدنى . وكم كان سرورى وراحة نفسى عظيمين حين استفسرت منى فجأة : « أين عثرت على هذا القفاز المضحك ؟ » فأوضحت لها انه قفاز كارل ايفانتش ، بل وتهكمت على كارل

ايفانتش نفسه ، وحدثتها عن منظره المضحك حين يخلع قبعته الحمراء ، وكيف انه ارتدى مرة معطفاً أخضر ، وانه سقط من على صهوة جواده مباشرة فى بركة موحلة ، وما الى ذلك • وانتهت رقصة الكدريل دون ان تشعر بها ، وكان كل شيء يبعث على السرور • ولكن لماذا سخرت من كارل ايفانتش ؟ هل كنت أفقد حسن ظن سونتشكا بى لو كنت وصفته بالحب والاحترام اللذين اكنهما له !•

وعندما بلغت رقصت الكدريل نهايتها ، قالت سونتشكا : « أشكرك » فى لفظ بالغ العذوبة ، كأننى استحق امتنانها حقيقة كدت أطير من الفرح ، ولم أعرف نفسى منذ أن ظفرت بالجسارة والثقة بل والشجاعة • وقلت فى نفسى وأنا أسير فى قاعة الرقص جيئة وذهاباً دون اكتراث : « لن يستطيع شيء أن يخجلنى ، اننى مستعد لكل شيء » •

وسألنى سريوزا ان أكون مواجهاً له ، فقلت : « حسن جدا ، ليس لى زميلة » ولكننى سأعثر على واحدة « وألقيت نظرة أخيرة حول الحجرة فوجدت ان جميع السيدات مرتبطات فيما عدا واحدة ـ سيدة شابة واقفة عند باب الردهة ، وكان يقترب منها شاب بقصد دعوتها الى الرقص ـ فيما ظننت ، وكان منها على مسافة خطوتين ، بينما كنت فى آخر القاعة ، وفى غمضة عين طرت اليها مجتازاً المسافة الفاصلة ، أنزلق فى رشاقة على الأرض المدهونة ، وبصريف من

قدمى ، وبصوت حازم دعوتها الى الرقص ، فابتسمت السيدة الشابة معضدة وناولتنى يدها ، وبقى الشاب دون زميلة •

كنت شديد الشعور بقوتى حتى أننى لم أعر امتعاض هذا الشاب أي التفات ، وان كنت قد عرفت فيما بعد انه استفسر عن ذلك الولد الأشعث الذى قفز من امامه ثم خطف زميلته •

(٢٢)

المازوركا

رقص الشاب الذى سلبته فتاته ، رقصة المازوركة فى الثنائى الأول ، فقد قفز واقفاً وأمسك بيد فتاته ، وبدلا من أن يخطو خطوات الباسك كما علمتنا ميمى، جرى الى الأمام وحسب ، وعندما وصل الى الركن توقف ، وضرب بكعبيه ، ثم استدار ، وراح ينط بعد ذلك •

ولما لم تكن لى زميلة فى رقصة المازوركة ، فقد جلست وراء مقعد جدتى المرتفع وأخذت أشاهد •

« لماذا يفعل ذلك ؟ انها ليست البتة الطريقة التى علمتنا ميمى اياها ، لقد كانت تقول دائما ان كل الناس يرقصون المازوركا على أطراف أقدامهم ، ويحركون أقدامهم فى حركة انزلاق دائرية ،

ولكنها تتغير حتى انهم لا يرقصونها بتلك الطريقة مطلقاً ، وهناك آل ايفن واتيين كلهم يرقصون ، ولكن واحداً منهم لا يرقصها بخطوات الباسك • حتى فولوديا اختار الطريقة الجديدة ! انها ليست سيئة !! وما أجمل سونتشكا ! انها ذاهبة الى هناك ! » •

لقد كنت مرحاً للغاية •

قاربت رقصة المازوركا نهايتها ، وقدم عدد كبير من السيدات والسادة الكبار ليودعوا جدتي ثم انصرفوا ، وكان الخدم يتحاشون بمهارة طريق الراقصين ويدخلون بالأطباق الى الغرفة الخلفية• ومن الواضح ان جدتي كانت متعبة ، يبدو عليها انها تتحدث كارهة وفي بطء شديد • وأخذ الموسيقيون يعزفون متراخين نفس النغمة للمرة الثلاثين • ورأتني السيدة الشابة التي رقصت معها ، بينما كانت تمشي مزهوة بنفسها وتبتسم ابتسامة خداعة _ ولا بد أنها كانت تريد ارضاء جدتي _ •• فقدمت لي سونتشكا واحدى الأميرات العديدات وقالت : « أتريد وردة أم حشيشة شائكة ؟ » •

وقالت جدتي وهي تستدير في مقعدها : « آه ، هأنت ذا هنا ! اذهب وارقص يا عزيزي » •

وكنت أفضل كثيراً في تلك اللحظة اخفاء رأسي تحت مقعد جدتي على الظهور من ورائه ، ولكن كيف أستطيع الرفض ؟ فوقفت وقلت : « وردة » بينما كنت أتطلع خجلا الى سونتشكا • وقبل أن

أستعيد شعورى استقرت فى يدى يد شخص عليها قفاز أبيض من جلد الماعز ، وبدأت الأميرة على الفور وعلى فمها ابتسامة ، دون أن تشك فى أننى لا أعرف على الأقل ماذا أفعل بقدمى .

كنت أعرف أن خطوات الباسك غير ملائمة وغير لائقة ، بل انها ستسبب لى المهانة ، ولكن أصوات المازوركا المشهورة تؤثر فى أذنى وتوصلها الى الأعصاب السمعية التى توصلها بدورها الى قدمى ، وهذه الأخيرة لا ارادية على الاطلاق . ولشد ما أدهش كل المشاهدين ان بدأ الرقص بخطوة الانزلاق الدائرية المشئومة على أطراف القدمين . وقد اتبعنا الأسلوب مادمنا قد تحركنا قدما ، ولكن حين درنا لاحظت أننى لا بد أن أسبق اذا لم أتخذ بعض الحيطة . ولكى أتحاشى مثل هذه النكبة ، وقفت جامداً بقصد القيام بنفس الدورة السريعة التى قام بها الشاب فى الثنائى الأول برشاقة كبرى . ولكن فى نفس اللحظة ، وعندما باعدت بين قدمى استعداداً للقفز ، دارت الأميرة بسرعة حولى، ورمقت قدمى بنظرة فيها سمات الذهول والفضول والحيرة ، فقضت على هذه النظرة ، وفقدت السيطرة على نفسى الى الحد الذى جعلنى أضرب الأرض بقدمى رفعا وخفضا فى نقطة واحدة وبأسلوب غاية فى الغرابة ، بدلا من الرقص ، وأخيراً توقفت دون حراك . وتطلع الى الجميع ، البعض فى دهشة ، وآخرون بفضول أو حيرة أو عطف ، وكانت جدتى هى الوحيدة التى تطلعت الى دون أى اكتراث .

وهمس بابا فى أذنى بصوت غاضب : « ينبغى ألا ترقص اذا لم تكن تعرف كيف ترقص » ودفعنى جانباً دفعة خفيفة ، وتناول يد زميلتى ، ورقص معهـا دورة من الطراز القـديم مما أثار ابتهاجا عظيما بين الحاضرين ، وقادها الى مقعدها • وانتهت رقصة المازوركا على التو •

•• لقد احتقرنى كل الناس ، وسيحتقروننى على الدوام•• ان الطرق المؤدية الى كل شيء ـ الى الحب والصداقة والشرف ـ قد سدت فى وجهى •• ضاع كل شيء ! لماذا أومأ فولوديا الى باشارات رآها كل انسان ، ولم تكن لها أية فائدة لى ؟ ولماذا نظرت الأميرة البغيضة الى قدمى على هذا الوجه ؟ ولكن لماذا ابتسمت سونتشـكا فى نفس الوقت ـ وكانت جميلة ؟ ولماذا احمر وجه أبى وأمسك بيدى ؟ حتى هو اعتراه الخجل من أجلى ؟ آه ، انه لفظيع ! لو كانت أمى هنالك لما خجلت من ابنها نيكولنكا • وحملنى خيالى بعيدا الى تلك الرؤية العذبة •• تذكرت المرجة التى أمام المنزل ، وأشجار الزيزفون السامقة فى الحديقة ، والبركة الصافية التى ترفرف فوقها عصافير السنونو ، والسماء الزرقاء المعلقة بها السحب البيضاء الشفافة ، وأكداس الدريس الطرية العطرة ، وأشياء أخرى كثيرة مفرحة ، وذكريات تبعث الى الهدوء كانت تؤثر فى خيالى الشارد •

(٢٣)

ما بعد المازوركا

•• جلس الشاب الذى رقص فى الثنائى الأول الى مائدة الأطفال معنا ، وأولانى اهتماما خاصا وهو شىء كان لابد أن يشبع زهوى الى حد ليس بالقليل لو كنت قادراً على الشعور بأى شىء بعد المحنة التى حلت بى • ولكن يبدو أن الشاب كان مصرا على أن يطيب خاطرى ، فكان يمازحنى ويدعونى بالزميل اللطيف ، ويساعدنى على تناول النبيذ من مختلف الزجاجات اذا لم يكن يرانا أحد من الكبار ويحملنى على الشرب • وفى نهاية العشاء ، عندما صب لى الساقى من زجاجة « الشمبانيا » الملفوفة « بالفوطه » ليملأ ربع كوبى وحسب ، وأصر الشاب على أن يملأه كله ، واضطرنى الى ابتلاعه فى جرعة واحدة ، فشعرت بدفء محبب يسرى فى جميع بدنى ، وبنوع من الائتناس نحو ظهيرى الفكه وضحكت طربا •

ترددت من قاعة الرقص على حين فجأة أصوات رقصة «الجد» وأخذ الضيوف ينهضون تاركين المائدة ، وانتهت صداقتى على التو بالشاب ، فقد ذهب الى الكبار ولما لم أتجاسر على ملاحقته ، اقتربت فى فضول لأستمع الى ماكانت تقوله السيدة فالاخينا لابنتها •

قالت سونتشكا متوسلة : « أرجوك مجرد نصف ساعة أخرى » •

« هذا محال ياملاكى » •

فقالت ملاطفة : « آه ، من فضلك ، من أجل مرضاتى » •

وقالت السيدة فالاخينا ، وكانت من الفطنة بحيث ابتسمت ، « هل يسرك اذا ما أصبحت فى الغد مريضة ؟ » •

وصاحت سونتشكا وهى ترقص فرحاً : « واذن يمكننا أن نبقى ؟ نعم ؟ »

فقالت وهى تشير الى : « ماذا أفعل ؟ حسن جدا ، اذهبى وارقصى واليك زميلك » •

وناولتنى سونتشكا يدها وأسرعنا الى قاعة الرقص •

ان النبيذ الذى شربته ، ووجود سونتشكا ، والانشراح ، كل ذلك جعلنى أنسى تماماً ورطتى التعسة فى المازوركا ، وقمت بقفزات مسلية بقدمى مقلدا الحصان ، ورحت أسير خببا فى رفق أرفع ساقى فى كبرياء ، ثم أضرب بقعة واحدة مثل كبش أثاره كلب ، وأضحك ملء قلبى دون أى اهتمام بما يتركه ذلك من أثر على المشاهدين • ولم تتوقف سونتشكا أيضا عن الضحك : ضحكت حين استدرنا فى حلقة متماسكى الأيدى ، وضحكت حين وقع

نظرها على سيد عجوز كان يرفع قدميه بحـــذر ويخطو من فوق منديل ، متظاهراً بأن أداء ذلك يصعب عليه ، وضحكت حتى كادت تستلقى عندما قفزت الى السقف تقريبا لكى أستعرض خفة حركتى .

وبينما كنت أجتاز مكتب جدتى تأملت نفسى فى المرآة : كان وجهى يستحم فى العرق ، وشعرى مشعثاً ، وخصلة الشعر فى قمة رأسى منتصبة على أسوأ ماتكون ، ولكن ملامحى العامة كانت بالغة المرح واللطف والصحة بحيث كنت راضيا عن نفسى .

.. وقلت فى نفسى : « لو كنت كذلك دائما ، لاستطعت أن أسر الآخرين » ، ولكن حـــين تأملت ثانية وجـه زميلتى الجميل الصغير ، رأيت فيه المرح والصحة وخلو البـــال من الهموم وهى أشياء استرحت اليها فى سرى ، كما رأيت الكثير من الجمال الوديع الكيس ممـا جعلنى أثور على نفسى وأدركت مدى غفلتى اذ أؤمل فى جذب انتباه مثل هذا الكائن الرائع الى شخصى .

.. لم أكن أؤمل أن يقابلنى حبـا بحب ، ولم أفكر حقيقة فى هذا : كانت روحى تفيض بالسعادة ، ولم أستطع أن أتصـــور مقابلا لحبى الذى غمر نفسى ببهجة لا يطلب المرء ازاءها أية سعادة تفضلها ، أو أية رغبة أكثر من أن يبقى هذا الشـــعور الى الأبد . كنت سعيدا ، قلبى يخفق كجناحى حمامة ، والدم يتدفق فيه دون توقف ، ورغبت فى البكاء .

وعندما كنا نجتـاز الدهليز مارين بمخـزن المؤن المظلم تحت

السلم ، نظرت اليه وقلت في نفسي : « كم تكون الهناءة لو استطعت العيش معها الى الأبد في ذلك المخزن المظلم ، ولو جهل الناس جميعاً أننا نعيش هنالك » .

وقلت في صوت هادىء متهدج : « أليست هذه ليلة مبهجة ؟ » ثم أسرعت الخطى ، ولم يكن خوفي مما قلت ، بقدر خوفي مما كنت أهتم بقوله .

فأجابت وهي تدير رأسها الصغير نحوى وعليها سيماء صريحة حانية أزالت عني مخاوفي : « نعم ، مبهجة جداً » .

« وبخاصة بعد العشاء ، ولكن لو عرفت كم كنت آسفاً (وكنت أريد أن أقول تعيساً ولكنني لم أجرؤ) لأنك سترحلين بهذه السرعة فلن يرى أحدنا الآخر بعد ذلك !! » .

فقالت وهي تتأمل عامدة طرفي خفيها وتجرى أصابعها على الستر الشبكي الذى كنا نمر به : « لماذا لن يرى أحدنا الآخر ؟ ان أمي وأنا ، نذهب الى تفرسكوى بوليفار كل ثلاثاء وجمعة ، ألا تذهب للنزهة هنالك أبداً ؟ » .

« سأطلب الاذن بالذهاب الى هناك يوم الثلاثاء القادم ، فاذا لم يأذنوا لي ، .. فسأهرب وحدى ، حتى دون أن آخذ قبعتي ... انني أعرف الطريق » .

وقالت سونتشكا على حين فجأة : « هل تعرف ما كنت أفكر

فيه الآن ؟ اننى أقول دائما « انت » ، للأولاد الذين يزورون بيتنا ، فليخاطب كل منا الآخـــر « بأنت » • ثم تابعت حديثهـا وهى تدفع برأسها الصغير الى الخلف وتحدق فى عينى مباشرة : « ألا توافق « أنت » على ذلك ؟ » •

ودخلنا فى هذه اللحظة قاعة الرقص ، فى بدء الشطر الثانى من رقصة « الجد » النشيطة فقلت : « اننى متفق ••• معكم » وذلك ظناً منى أن صوت الموسيقى سوف يطغى على كلماتى •

فقالت سونتشكا تصحح الكلمة وهى تضحك : « قل معك »•

وانتهت رقصـــة « الجـد » ، ولم أكن قد تدربت على النطق بعبارة واحدة فيها كلمة « أنت » بالرغم من أننى لم أتوقف قط عن ابتداء ما يسمح بتكرار ذلك الضمير مرات عـدة ، ولم تكن لدى الشجاعة الكافية • وطنت فى أذنى كلمة « أتوافق ؟ » وسببت لى نوعاً من الخدر فلم أر شـيئاً ولا أحـداً الا سونتشـكا ••• رأيت خصلات شـعرها مزمومة خلف أذنيهـا ، تكشف عن أجــزاء من حاجبيها وصدغيها لم أرها من قبل ، لقد رأيتها متشحة كلها بشـال أخضر يغطيها بحيث لا يظهر منها غير طرف أنفها الصغير ، والواقع أنها لو لم تفتح ثغـرة ضيقة من فمها ، بأصابعها الوردية الصـغيرة لاختفت دون شك ••• ورأيت كيف استدارت نحونا بسرعة وهى تهبط الدرج مع أمها وأومأت برأسها ، ثم مرت من الباب واختفت•

ان فولوديا ، وآل ايفن ، والأمير الشاب ، وأنا ؛ كلنا أحببنا سونتشكا ، وتبعناها بعيوننا ونحن وقوف على السلم ، ولست أعرف من الذى خصته بايماءة رأسها الصغير ، ولكننى فى تلك اللحظة كنت مقتنعا كل الاقتناع أن الايماءة كانت موجهة الى •

وعندما ودعت أبناء ايفن تحدثت اليهم وصافحتهم غير مكره ، بل فى شيء من الفتور بالنسبة لسريوزا ، ولو عرف انه فقد فى ذلك اليوم كلا من حبى له وسلطانه على ، لأسف لذلك بالتأكيد ، بالرغم من أنه حاول أن يبدو غير مكترث أى اكتراث •

•• لأول مرة فى حياتى لم أكن أميناً على حبى ، ولأول مرة أجرب لذة هذا الشعور ، لقد سرنى أن أستبدل بعاطفة الود البالية المألوفة ، شعوراً جـــديداً بالحب المليء بالغموض والشك ، وفوق ذلك ، فان الوقوع بعيــداً عن الحب ، وفى الحب فى نفس الوقت ، يعنى الحب بحماسة مضاعفة عن ذى قبل

(٢٤)

فى الفراش

•• أخــذت أتأمل وأنا راقــد فى فــراشى : « كيف أحببت سريوزا بكل هذه العاطفة وطوال هذه المدة ؟ ، لا ، انه لم يفهمنى قط ، ولم يستطع تقدير حبى له ، ولم يكن فى وقت ما جديراً به ،

وسونتشكا ؟ يا لها من محبوبة ! أموافقة ؟ ، لقد حل دورك لكى تبدئى » .

وقفزت فى فراشى حين تصورت بجلاء وجهها الصغير ، وغطيت رأسى بالغطاء وحشرته تحتى من جميع النواحى ، ولما لم تعد هناك أية فتحة فى أية ناحية ، رقدت وقد ساورنى شعور لذيذ بالدفء ، واستغرقت فى رؤى وذكريات حلوة ، وعندما ركزت نظرتى دون حراك فى بطانة اللحاف المحشو ، رأيتها واضحة فى مثل الوضوح الذى رأيته عليه منذ ساعة مضت ، وتبادلت معها الحديث عن طريق العقل وبالرغم من أن هذه المحادثة عاطلة كل العطل من الحس فقد أمدتنى بمسرة يعجز عنها الوصف ، اذ وجدت فيها الضمائر « انت ، وانك ومعك ولك » على الدوام .

وكانت هذه الرؤى من الوضوح بحيث لم أستطع النوم فأضيع به الاحساس الجميل ، وأردت أن يشاركنى شخص ما هذه الغبطة الفائقة .

وقلت فى صوت يكاد أن يكون مرتفعاً وأنا أدور فجأة الى الجنب الآخر :

« الحبيبة ! هل أنت مستيقظ يا فولوديا ؟ » .

وأجاب فى صوت يغالبه النعاس : « لا ، ماذا بك ؟ »

« لقد وقعت فى الحب يا فولوديا ، اننى لا شك وقعت فى حب سونتشكا » .

وقال وهو يتمطى : « حسن وماذا يضيرك من هذا » •

« آه يافولوديا » لا يمكنك أن تتخيل ما يدور فى دخيلة نفسى : لقد كنت راقداً هنا الآن ، ملفوفاً فى الغطاء ، فرأيتها بوضوح ، بوضوح تام ، وتحدثت اليها ، كان شيئاً رائعاً وحسب ! وهل تعرف أننى حين أرقد فأفكر فيها أشعر بحزن شديد حتى لأستطيع البكاء » •

وتحرك فولوديا •

وتابعت حديثى قائلا : اننى أريد شيئاً واحداً ، وهو أن أظل معها دائماً ، وأراها دائما ، ولا شىء غير هذا ؟ وأنت هل تحب ؟ أصدقنى القول يا فولوديا ! » •

انه لشىء شاذ ، ولكنى أريد أن يقع جميع الناس فى حب سونتشكا ، وأريدهم أن يتحدثوا جميعا عن هذا الحب •

وقال فولوديا وهو يدير وجهه نحوى : « وماذا يفيدك هذا ؟ ربما » •

وأدركت من عينيه اللامعتين أنه لا يفكر فى النوم أقل تفكير ، فأزحت الغطاء ناحية وصحت قائلا : « انك غير راغب فى النوم ، ولكنك تتظاهر به فحسب ، فلنتحدث عنها •• انها لمحبوبة ، أليست كذلك ؟ ، ثم قلت : وهى من الرقة بحيث اذا قالت لى اقفز يا نيكولنكا من النافذة ، أو ارتم فى النار ، فأقسم اننى أفعل ذلك على

التو ، وبسرور . آه ، ما أشد سحرها ! » ، وبينما كنت أستحضر صورتها الى خيالى ؛ ولكى أستمتع على هذا الوجه أعظم استمتاع ، درت فجأة الى الجنب الآخر ، وحشرت رأسى تحت الوسادة وأضفت قائلا : « آه ، أريد أن أبكى بكاء فظيعاً يا فولوديا ! » .

فابتسم قائلا : « يا لك من أبله » ، وساد الصمت برهة ، ثم تابع حديثه قائلا : « اننى لا أشعر بشىء مما تشعر ، وأظن من الأفضل ، اذا كان ممكناً ، أن أجلس بجانبها وأتحدث اليها » .

فاعترضته قائلا : « آه ، وأنت أيضاً وقعت فى حبها ؟ » .

وتابع فولوديا حديثه وهو يبتسم فى رقة : وحينئذ ، حينئذ أقبل أصابعها الصغيرة وعينيها وشفتيها وأنفها ، وقدمها الدقيقة — أقبل كل شىء فيها » .

فصحت به من تحت الوسادة : « هذا هراء ! » .

وقال فولوديا متعالياً : « نعم ، اننى أعرف بالتأكيد ، ولكنك أنت لا تعرف ، وتقول لغواً » .

« حسن ، ليس هناك شىء تبكى من أجله ، يا لك من طفل كثير البكاء !! » .

(٢٥)
الرسالة

•• فى السادس عشر من أبريل ، أى بعد ستة أشهر تقريبا من اليوم الذى وصفته ، صعد الينا بابا أثناء ساعة الدرس وأخبرنا أننا سنسافر معه الى الريف فى تلك الليلة ، فانقبض صدرى لهذا الخبر ، وتحولت أفكارى فور ذلك الى أمى •

وكانت الرسالة التالية هى السبب فى رحلينا غير المتوقع :

بتروفسكوى فى الثانى عشر من أبريل :

« لقد تسلمت تواً رسالتك المؤرخة فى الثالث من أبريل ، فى الساعة العاشرة مساء ، وهأنا أرد عليها كالمعتاد مباشرة •• ولقد أحضرها فيودور من المدينة الليلة الماضية ، ولما كانت الساعة متأخرة ، فقد سلمها الى ميمى ، واذ كنت مريضة وعصبية المزاج ، فقد حجبتها ميمى عنى طوال النهار ، والحقيقة اننى محمومة قليلا وأصدقك القول أن هذا هو اليوم الرابع لملازمتى الفراش •

« أرجو ياعزيزى ألا تنزعج ، فأنا أشعر أننى فى صحة تامة، واذا سمح لى ايفان فاسيلتش ، فسأفكر فى مغادرة الفراش غدا »•

« أخذت الأطفال يوم الجمعة الى نزهة راكبين ، ولكن الجياد

غرزت فى الوحل بالقرب من مدخل الطريق العام بجانب تلك القنطرة نفسها التى كانت تخيفنى دائما ، وكان اليوم صافياً جدا ، وظننتنى مستطيعة السير راجلة حتى الطريق العام ، بينما كانوا يسحبون العربة ، وعندما وصلت الى الكنيسة الصغيرة كان لا بد من الجلوس اذ كنت متعبة جداً ، وانقضت على هذه الحال ساعة ونصف ساعة ، بينما كانوا يستدعون الناس لسحب العربة • وشعرت ببرودة ، وبخاصة فى قدمى اذ كنت أنتعل حذاء ذا نعل رقيق فنفذ منه الماء • وشعرت بالحمى بعد الغداء ، ولكنى لم أذهب الى الفراش• وجلست كعادتى بعد تناول الشاى أعزف ثنائية مع ليوبتشكا (انك لا تعترف بها •• لقد تقدمت تقدما كبيرا !!) ، ولكن تخيل دهشتى حين وجدت أننى لا أستطيع أن أحصى الوقت ، وأخذت أحصيه عدة مرات ، ولكن رأسى أصيب بدوار شديد ، وشعرت بضجة غريبة فى أذنى ، وأحصيت ، واحدا ، اثنين ، ثلاثة ، ثم انتقلت دفعة واحدة الى ثمانية ثم الى خمس عشرة ، وأعجب ما عجبت له أننى كنت أقول هراء دون أن تكون لى فى ذلك حيلة ، وأخيراً جاءت ميمى لمعاونتى ، فوضعتنى فى الفراش بالقوة تقريبا • فاليك ياعزيزى بيانا مفصلا عن سبب مرضى ، وكيف أننى أستحق اللوم • وفى اليوم التالى كانت درجة حرارتى مرتفعة كل الارتفاع، وجاء صاحبنا الطبيب العجوز ايفان فاسيلتش ، ولم يفارقنا منذ ذلك الوقت ، ووعد بأنه سيجعلنى أقف على قدمى ثانية ، وشيكاً جداً ،

يا له من رجل عجوز مدهش !! عندما كنت محمومة أهذى ، جلس بجانبى طوال الليل ، وهو الآن اذ يعرف اننى اكتب ، يجلس مع الفتيات ، وأستطيع أن أسمعه من حجرتى يقص عليهن حكايات ألمانية ، يكاد يقتلهن الضحك وهن يستمعن اليه .

ان « الفلمنكية الحسناء » كما تسميها انت ، مكثت معى طوال الأسبوعين الماضيين لأن أمها سافرت الى مكان ما ، وهى أشد ماتكون عناية بى وملازمة لى ، وهى تعهد الى بكل أسرار قلبها ، ولو تناولتها أيد طيبة لتحولت الى فتاة لطيفة جداً بوجهها الجميل وقلبها الحنون ونضارة شبابها ، ولكنها ستتحطم تحطما تاما فى المجتمع الذى تعيش فيه اذا حكمنا على ذلك من قصتها الخاصة ، ولقد خطر لى ، لو لم يكن لدى عدد كبير من الأطفال ، ان أقوم برعايتها كعمل من أعمال البر .

« أرادت ليوبتشكا الكتابة اليك بنفسها ، ولكنها مزقت حتى الآن ثالث صحيفة من الورق وهى تقول : « اننى أعرف مقدار سخرية أبى ، فأنت اذا ارتكبت غلطة واحدة أطلع عليها الجميع » ان كاتنكا لطيفة كما هى دائما ، وميمى كذلك تشق طريقها .

والآن سأحدثك عن شئون جدية . لقد كتبت لى أن أعمالك لا تسير سيراً حسناً هذا الشتاء ، وانك مضطر الى أخذ الدخل من خابارفكا ، وانه ليدهشنى أن تسألنى الموافقة على ذلك. ان ما أملكه، لتملكه أنت كذلك دون شك .

« انك لمن الحنان والطيبة بحيث تخفى عنى الحالة الحقيقية لشئونك خوفاً من ايلامى : ولكنى أخمن أنك فقدت مبلغاً كبيراً فى لعب الورق على الأرجح ، وأؤكد لك أننى لست غاضبة عليك ، ولذا ، فان استطعت وحسب التغلب على هذه الضائقة ، فأتوسل اليك ألا تفكر فيها طويلا • لقد تعودت عدم التعويل على مكاسبك فيما يتصل بالأطفال ، ولا كل التعويل حتى (واغفر لى) على كل أملاكك • ان مكاسبك تسبب لى أقل سرور كما تسبب لى خسائرك أقل ألم ، والشىء الوحيد الذى يؤلمنى حقاً هو غرامك التعس بالمقامرة ، الذى يسلبنى جزءا من حنانك الرقيق ، ويضطرنى الى مصارحتك بمثل هذه الحقائق المرة التى أذكرها لك الآن - ويعلم الله كم يؤلمنى هذا !! ولن أكف عن الابتهال لله أن يمنحنى شيئا واحدا ، هو أن ينقذنا سبحانه - لا من الفقر (فما هو الفقر ؟) - ولكن من ذلك الموقف المخيف ، وعندما تتعارض مصالح أطفالنا ، التى ألتزم بحمايتها ، مع مصالحنا نحن • ولقد استجاب الله من قبل الى دعائى : فأنت لم تتجاوز الخط الذى نضطر عنده اما الى التضحية بأملاكنا - التى لم نعد نملكها حتى الآن ، بل يملكها أطفالنا - واما - والتفكير فى هذا مخيف - وان كان سوء الطالع الرهيب هذا ، يهددنا على الدوام • نعم انه لصليب ثقيل ذلك الذى أرسله الله لنا سويا •

« انك تكتب عن الطفلين وتعود الى نزاعنا القديم : تسألنى الموافقة على ارسالهم الى أحد معاهد التعليم •

« اننى لا أعرف ياصديقى العزيز ، ما اذا كنت توافقنى ، ومع ذلك أرجوك أن تعد ، اكراما لى ، ألا تفعل ذلك ما دمت على قيد الحياة ، ولا بعد وفاتى ان أراد الله التفريق بيننا •

« كتبت لى أنك يجب أن تذهب الى سانت بترسبورج لملاحظة أعمالك ، فليكن المسيح معك يا صديقى ، اذهب وعد بأسرع ما تستطيع • ان الحياة تشق علينا كثيراً بدون وجودك ! ان الربيع رائع الجمال ، وقد أنزلنا باب الشرفة على التو ، والممرات المؤدية الى الصوبة جافة تماما منذ أربعة أيام ، وأشجار الخوخ فى تمام ازدهارها ، والثلج «يتلبث» بقع قليلة فقط ، وجاءت طيور السنونو ، وأحضرت لى ليوبتشكا بواكير أزهار الربيع • ويقول لى الطبيب اننى سأكون على خير حال فى مدى ثلاثة أيام ، وسأستطيع تنفس النسيم النقى والاستدفاء فى شمس ابريل ، •• والآن الى اللقاء ياصديقى العزيز : أرجوك ألا تقلق لمرضى ولا لخسائرك ، أنجز عملك بأسرع ما فى طوقك وتعال الينا مع الطفلين لقضاء الصيف كله ، فأنا أضع مشروعات عظيمة للصيف ومجيئك وحده هو الذى ينقص اكتمالنا » •

أما الشطر الباقى من الخطاب فقد كتب باللغة الفرنسية ، خطته

يد متشنجة غير هادئة على قطعة أخرى من الورق • وهأنا أترجمه كلمة بكلمة :

« لا تصدق ما كتبتـه لك بشـأن مرضى ، ولا يشك أحد في مقدار خطره ، وأنا وحدى الذى أعرف أننى لن أغـادر الفراش مرة أخرى ، فلا تضيع لحظة : تعال واحضر الطفلين فقد أستطيع أن أقبلهما مرة أخرى وأباركهما : هذه هى رغبتى ، وأنا أعرف أية صـدمة قوية أوجهها لك ، ولكنك ستتلقاها ان عاجلا أم آجلا من الآخرين • فلنتحمل هذه المحنة بثبـات ، ونثق فى رحمـة الله ، ولنخضع لمشيئته تعالى •

« لا تظن أن ما أكتبه هذيان خيال ، محموم ، بل ان أفكارى على العكس ، صافية فى هذه اللحظة صفاء عجيبـا ، رابطة الجأش تمـاماً ولا تعز نفسـك كذلك بآمال باطلة ، كأن هـذه ليست الا هاجسات مبهمة كاذبة لنفس هيابة ، لا ، فأنا أشعر وأعرف حقيقة ، لأن الله رضى أن يكشف لى عن هذا ـ لأنه لم يعد أمامى طويل وقت فى الحياة •

« هل سينتهى حبى لك وللأطفال بانتهاء هذه الحياة ؟ أعرف أن هذا محال وفى هذه اللحظة التى يملؤنى فيها الحب امتلاء يجعلنى أفكر فى أن ذلك الحب ، الذى لا أستطيع بدونه فهم الوجود يمكن أن يفنى • ان روحى لا تستطيع أن توجد بدون حبها لك ، واعلم

انها ستبقى الى الأبد بهذا وحده ، وان حبا كحبى لم يكن ليوجد اذا لم يكن من المقدر له أن يحيا الى الأبد .

« سوف لا أكون معك ، ولكننى مقتنعة كل الاقتناع بأن حبى لن يفارقك البتة ، وفى هذه الفكرة من العزاء لقلبى مايجعلنى أنتظر الموت الذى يقترب وشيكا ، فى هدوء ودون فزع .

« اننى هادئة ، ويعلم الله أننى كنت دائماً أنظر الى الموت ، ولا أزال أنظر اليه ، بوصفه الطريق الى حياة أفضل ، ومع ذلك فلماذا لا أستطيع حبس دموعى ؟ ولماذا لا بد أن يحرم أطفالى من الأم التى يحبونها ؟ ولماذا لابد أن يكون نصيبك كل هذه الصدمة الشديدة غير المتوقعة ؟ لماذا يجب أن أموت فى الوقت الذى جعل حبك من حياتى سعادة لا حد لها ؟ » .

« فلتكن مشيئته المقدسة ! .

« لا أستطيع أن أكتب لك مزيداً بسبب دموعى ، وأخشى ألا أراك ... أشكرك ياحبيبى لكل السعادة التى أحطتنى بها فى هذه الحياة ، وسأبتهل الى الله أن يجزيك عنى ... وداعا يا أعز عزيز ، وتذكر حين أصبح نسياً منسياً أن حبى لن يفارقك مطلقاً أينما كنت .. وداعا يا ملاكى فولوديا ، وداعا يا صغيرى بنيامين ، ويانيكولنكا .

« هل يمكن أن ينسونى ؟ » .

وكان هذا الخطاب يشتمل على ملاحظة بالفرنسية من ميمى ،

نصها كالآتى : ـ « ان الخوالج التى تتكلم عنهـا ليست الا ما أيده الطبيب تأيداً تاماً ، وقد أمرتنى فى الليلة الماضية أن أحمـل هذه الرسـالة الى البريد توا • وظنا منى انهـا تهـذى فقد انتظرت الى الصباح ثم فكرت فى أن أفضها ، وما أن فعلت ذلك حتى سألتنى ناتاليا نيكوليفنا عما فعلته بالرسالة ، ثم أمرتنى بحرقها اذا لم أكن قد أرسلتها ، وهى دائمة التحدث عنها ، وصرحت بأنها ستقتلك ، فلا تؤخر حضورك ان كنت تريد رؤية ملاكنا قبل أن يفارقنا الى الأبد • معذرة لهذه الكتابة المشوشة لأننى لم أنم منذ ثلاث ليال ، فأنت تعلم مقدار حبى لها •

أخبرتنى ناتاليا سافشنا التى قضت طوال ليلة الحادى عشر من ابريل فى حجرة نوم أمى، أنها بعد كتابة الشطر الأول من الرسالة ، وضعتها على مائدة صغيرة بجانبها ثم ذهبت لتنام •

وقالت ناتاليا سافشنا : « أعترف أننى غفوت فى المقعـد ذى المسـندين ، وسـقط جوربى من يدى ؟ ولكن فى نحو السـاعة الواحدة سمعت فى أحلامى كأنها تتحدث الى شخص ما ، وفتحت عينى ، فوجدتها جالسة فى الفـراش ، وجدت حمامتى الصغيرة ، بيديها الصـغيرتين مضمومتين هكذا ، والدموع تفيض من عينيها ، وقالت : « وهكذا ينتهى كل شىء ؟ » ثم دفنت وجهها بين يديها ، وقفزت واقفة على قدمى وسألتها : « ماذا بك ؟ » •

فقالت : « آه ياناتاليا سافشنا ، لو عرفت ماذا رأيت الآن ! » •

« ولكن لا يهم كيف توسلت اليها أن تجيبنى لأنها لم تزد على ذلك شيئاً • انما طلبت منى فقط احضار المائدة الصغيرة فأضافت الى الرسالة شيئاً ما ، وجعلتنى أختمها لساعتى وأرسلها مباشرة • ثم أخذت حالتها بعد ذلك تتزايد سوءاً •

(٢٦)

ما كان ينتظرنا فى الريف

•• فى الثامن عشر من ابريل نزلنا من عربتنا عند سقيفة البيت فى بتروفسكوى ، وكان بابا مستغرقاً فى التفكير حين غادرنا موسكو، فلما سأله فولوديا عما اذا كانت أمه مريضة ، نظر اليه فى أسى وهز رأسه فى صمت ، ثم بدأ أهدأ حالا فى أثناء الرحلة • ولكن حين اقتربنا من البيت اتخذ وجهه شيئاً فشيئاً طابع الحزن • وعند نزوله من العربة سأل فوكا الذى أسرع لاهثاً : « أين ناتاليا نيكولايفنا ؟ ولم يكن صوته ثابتاً ، تتندى عيناه بالدموع • ونظر الينا فوكا العجوز الطيب وغض من عينيه ، وفتح باب حجرة الانتظار ، ثم التفت جانباً وأجاب : « انه اليوم السادس يا سيدى منذ أن لزمت غرفتها ولم تبارحها » •

أما « ملكا » (التى عرفت فيما بعد أنها لم تتوقف عن العواء المحزن منذ اليوم الذى حملت فيه أمى المريضة) فقد اندفعت مغتبطة

نحو بابا وقفزت عليه ، وهى تعوى وتلعق يديه ، ولكنه دفعها عنه جنبا واجتاز حجرة الاستقبال الى المخدع حيث يوجد باب يؤدى مباشرة الى حجرة النوم • وعندما اقترب من الحجرة تزايد اضطرابه الذى كان ظاهراً فى كل حركة : دخل المخدع على طرفى قدميه لا يكاد يجسر على التنفس ، ورسم اشارة الصليب قبل أن يعمد الى مقبض الباب المغلق • وفى تلك اللحظة دخلت ميمى مسرعة من الممر مشعثة دامعة العينين ، وقالت هامسة وقد انطبع على وجهها قنوط حقيقى : « آه ، بيوتر الكسندروفتش » وما أن لاحظت أن أبى يدير المقبض حتى أضافت بصوت لا يكاد يسمع : « ليس من هنا ، ان هذا الباب مغلق ، والدخول عن طريق حجرة الخادمات » •

آه ، كم أثر كل هذا على خيالى الصبيانى الذى جعله التشاؤم المفزع متوافقاً مع الحزن !! •

وذهبنا الى حجرة الخادمات ، فقابلنا فى الممر ، « آكيم » الأبله الصغير الذى كان يسلينا دائما بتقطيبات وجهه ، ولكن فى هذه اللحظة لم أشاهد فيه شيئاً يبعث على الضحك ، فلم يصدمنى فى الواقع شىء مؤلم الى هذا الحد بقدر ما صدمنى ذلك الوجه العاطل من الشعور والاكتراث • وكانت فى حجرة الخادمات اثنتان منهن عاكفات على شغل الابرة ، نهضن للانحناء لنا بالتحية ، عليهن من سمات الحزن ما أفزعنى • وبمرورنا بحجرة « ميمى » المجاورة ، فتح أبى باب حجرة النوم ودخلنا • كان الى يمين الباب نافذتان

يتدلى منهما وشاحان • جلست على احداهما ناتاليا سافشنا بنظارتها على انفها تحيك جورباً ، ولم تقبلنا كما كانت تفعل عـادة ، ولكنها نهضت وحدقت فينا من خـلال نظارتها وحسب ، وهطلت الدموع على وجنتيها ، لقد أزعجني أن أرى أناســاً هادئين على الدوام ، يأخذون في البكاء حالما يروننا •

والى يسار الباب ينسدل ستار ، خلفه فراش ومنضدة صغيرة، وصوان صغير ملىء بالعقاقير ، والمقعد الكبير ذي المسندين الذي أغفى عليه الطبيب • ووقفت الى جانب الفراش فتاة شابة بالغة الجمال ذات شعر أشقر ، وقد شمرت عن كمي ردائها الصباحي الأبيض ، وهي تضع الثلج على رأس أمي ، أما أمي نفسها فلم أرها • وكانت هذه الفتاة هي « الفلمنكية الحسناء » التي كتبت عنها أمي من قبل ، والتي قامت بدور كبير الأهمية في حيـاة الأسرة كلها • وحالما دلفنـا الى الحجـرة ، رفعت يدها من على رأس أمي ، ورتبت ثنيات صـدر قميصها ، ثم قالت بصوت خافت : « انها فاقدة الحس » •

•• كنت شديد التعاسة في تلك اللحظة ، ولكن لاحظت كل هذه الأشياء التافهة قسرا • وكانت الحجرة مظلمة تقريبـا ، والجو حاراً ، وقد اختلطت روائح النعنـاع وماء « الكولونيا » والبابونج ونقط هوفمـان فتأثرت بهذه الرائحـة حتى بلغت بي الحـال حين أشمها أو حتى أتذكرها أن يحملني خيالي على التو الى الماضي ، الى

تلك الحجرة الخانقة المظلمة ، وأستعيد كل تفاصيلها ، بل أدق ما وعته تلك اللحظة •

كانت عينا أمي مفتوحتين ، ولكنها لم تر شيئاً ، ولن أنسى مطلقاً تلك النظرة المرعبة • لقد كانت طافحة بالعذاب وأبعدونا •

عندما سألت ناتاليا سافشنا فيما بعد عن لحظات أمي الأخيرة ، روت على ما يلي :

« بعد ابعادكم ، ظلت سيدتي العزيزة وقتا طويلا تتململ ، كأن شيئاً ما يضايقها ، ثم مالت برأسها على وسادتها وأغفت في هدوء وسلام كاملين كأنها ملاك هبط من السماء ، وخرجت أرى لماذا لم يحضروا لها شراباً • وعندما عدت كانت حبيبتي قد استيقظت ثانية ، وأومأت الى والدك ليقترب منها ، فانحنى فوقها ، ولكن قواها خذلتها فلم تستطع النطق بما كانت ترغب في قوله ، واستطاعت أن نفتح شفتيها فقط وتتأوه قائلة : « آه يا الهي !! يا ربي ! الأطفال ، الأطفال ! » • وأردت أن أسرع فأستدعيكم ، ولكن ايفان فاسيلتش استوقفني وقال : « ان ذلك يزيد من تأثرها ، فمن الخير ألا تفعلي ، وبعد ذلك رفعت يدها فقط ثم أنزلتها ثانية • فماذا كانت تعني بذلك الله وحده هو الذي يعلم • وأظنها كانت تبارككم في غيبتكم ، ولكن الله لم يمنحها نعمة رؤية أبنائها الصغار قبل أن تلقى نهايتها • ثم

رفعت حمامتى الصغيرة جسمها ، وقامت بهذه الحركة متكئة على يدها ، وتكلمت بصوت لا أستطيع تحمل التفكير فيه قائلة : « يا الله لا تتخلى عنهم !! ، ولابد أن يكون الألم آنئذ قد وصل الى قلبها ، وقد عرفنا من عينيها مدى ما كانت تقاسيه هذه المخلوقة المسكينة ، ثم سقطت على الوسادة ، وأمسكت بأغطية الفراش بين أسنانها ، وأخذت دموعها تفيض وتنهمر » .

وسألتها : « ثم ماذا ؟ » .

ولكن ناتاليا سافيشنا لم تزد شيئاً ، وتحولت عنى وأخذت تبكى بكاء مريرا .

لقد ماتت أمى بعد احتضار أليم .

(٢٧)
الحزن

فى ساعة متأخرة من مساء اليوم التالى رغبت فى رؤيتها مرة أخرى ، وتغلبت على شعور الخوف القسرى ففتحت الباب بخفة ودخلت القاعة على أطراف قدمى .

وضع التابوت على مائدة فى وسط الحجرة وأشعلت من حوله الشموع فى شمعدانات طويلة من الفضة ، وفى الركن البعيد جلس المنشد يقرأ المزامير فى صوت خفيض رتيب .

توقفت عند البـاب وتطلعت ، ولكن عينى كانتـا كليلتين من البكاء ، وأعصابى شـديدة الاضطراب حتى اننى لم أسـتطع رؤية شىء . كان كل شىء يجرى بطريقة غريبـة ؟ الأضـواء والنسيج الحريرى ، والمخمل ، والشمعدان الضخم ، والوسادة ذات اللون الوردى المخرمة الأطراف ، وغطاء الرأس ذو الأشرطة ، ثم شىء شفاف يشبه الشمع . وصعدت على كرسى لكى أرى وجهها ، ومع ذلك فحيث كان ينبغى ان توجد ، رأيت نفس الشىء الشفاف الشبيه بالشـمع ، فلم أسـتطع تصـديق أن هذا وجهها ، ومع ذلك فبينما عكفت على النظر اليـه أخذت أميز شيئاً فشـيئاً القسـمات المألوفة المحبوبة ، وعرتنى رعـدة حين تحققت من أنهـا هى . ولكن لماذا كانت العينان المغلقتان غائرتين الى هذا الحد ؟ ولماذا ذلك الشحوب المخيف والبقعة الضاربة الى السواد تحت الجلد على احدى الوجنتين؟ ولماذا كانت قسمات الوجه جميعاً عابسة باردة الى هذا الحد ؟ ولماذا كانت الشفتان بالغتى الشحوب ، وبلغ رسمهما من الجمال والجـلال والتعبير عن الرصانة المخيفة حداً بعث فى قشعريرة باردة سرت الى أسفل ظهرى وشملت شعر رأسى عندما نظرت اليها ؟

وعندما تطلعت ، شعرت بقوة غامضة لا تقـاوم تجتذب عينى الى ذلك الوجه العاطل من الحياة فلم أحـول عنه عينى ، ورسم لى خيالى صوراً من الحياة المزدهرة والسعادة ، ونسيت أن الجسد الميت الممدود أمامى الذى كنت أتطلع اليه فى بلاهة كأننى أتطلع الى شىء

شائع فى أحلامى ، كانت هى ، وتخيلتها مرة أخرى كما كنت أراها فى غالب الأحيان نشيطة مرحة مبتسمة ، ثم صدمتنى للحال قسمة من قسمات هذا الوجه الشاحب الذى استقرت عليه عيناى، وتذكرت الحقيقة المفزعة فاقشعر بدنى ولكنى لم أتوقف عن تطلعى •

وحلت الرؤى محل الحقيقة مرة أخرى ، ثم ألجأها الشعور بالحقيقة الى الهرب ثانية • وأخيرا تعب الخيال وتوقف عن خداعى ، واختفى كذلك الشعور بالحقيقة ، وفقدت حواسى ، فلا أعرف كم من الوقت بقيت على هذه الحال ، أو ماذا تضمنت ، ولا أعرف الا اننى فقدت كل الشعور بوجودى وقتا ما ، ومررت بتجربة قوية ، سارة ومحزنة ، تفوق كل وصف •

لعل روحها الجميل وهى تطير من هنا الى عالم أفضل تتطلع خلفها محزونة الى العالم الذى تركتنا فيه ، شعرت بحزنى وعطفت عليه وهبطت الى الأرض على أجنحة الحب ، وعلى شفتيها ابتسامة حزن سماوية لكى تعزينى وتباركنى ، وصفق الباب ودخل الحجرة منشد آخر ليريح الأول ، فنبهتنى هذه الضوضاء ، وكانت الفكرة الأولى التى طرأت على ، هى اننى لم أكن أبكى ، واننى كنت أقف على كرسى فى موقف لا يتصل به فى شىء ، فلربما يحسبنى ولدا عديم الاحساس صعد على الكرسى بدافع العطف أو حب الاستطلاع، فرسمت علامة الصليب وأحنيت رأسى وأخذت أبكى •

وعندما أتذكر انطباعاتى أجد أن لحظة نسيانى لذاتى كانت هى لحظة الحـزن الحقيقى • ولم أكف عن البكاء قط قبـل الدفن وبعده ، وكنت حزيناً ، ومع ذلك فانه ليعترينى الخجل حين أتذكر ذلك الحزن ، لأن شعوراً بحب الذات كان يختلط به دائماً ، فمرة كان رغبة فى اظهار أننى أشد غمـاً من أى شخص آخـر ، ومرة أخرى كان اهتماماً بما أتركه من أثر فى الآخرين ، وفى مرة ثالثة حب استطلاع بلا هدف ، كان يدفعنى الى ابداء ملاحظات عن قبعة « ميمى » وعن وجوه أولئك الحاضرين ، وقد ازدريت نفسى لأن الشعور الذى ساورنى لم يكن شعور حزن خالص • وحاولت اخفاء جميع المشاعر الأخرى ، ومن أجل هذا كان حزنى غير صادق وغير طبيعى • وفوق هذا فقد خبرت لونا من السرور بمعرفتى أننى لست سعيداً ، وحاولت اثارة شعورى بالسعادة ، وهذا الشـعور الأنانى أخمـد فى دخيلة نفسى الحـزن الحقيقى أكثر من جميع المشـاعر الأخرى •

وبعد أن قضيت الليلة فى نوم عميق هـادىء كما هو الحـال دائماً بعد الحزن الكبير ، استيقظت وقد جف دمعى وهدأت أعصابى• وفى السـاعة العاشرة استدعينا لحضـور القداس الذى أقيم لتكريم الميتة قبل مواراة الجثـة التراب ، وامتلأت الحجـرة بخـدم المنزل والفلاحين الباكين ، الذين قدموا لتوديع سيدتهم • وفى أثناء اقامـة الصلاة بكيت كثيرا جدا ، ورسـمت علامة الصليب وسجدت على

الأرض ، ولكننى لم أبتهل بقوة ، بل كنت أبتهل بنفس هادئة • لقد كنت قلقا لأن المعطف القصير الذى ألبسونى اياه كان ضيقا من تحت الابطين ، وكنت أفكر كذلك فى عدم تلويث ركبتى سروالى أكثر مما ينبغى ، ولاحظت خفية كل أولئك الحاضرين • ووقف بابا عند رأس التابوت وكان شاحب اللون كشحوب منديله ، يحبس دموعه بصعوبة واضحة ، وكان هيكله الفارع فى معطفه الأسود ، ووجهه الشاحب المعبر ، وحركاته الرشيقة الثابتة ، كما كانت دائما ، وهو يرسم اشارة الصليب ، أو وهو ينحنى حتى يلمس الأرض بيده ، أو يتناول الشمعة من يد الكاهن ، أو يقترب من التابوت ، كانت حركاته جميعا مؤثرة الى أقصى حد، ومع ذلك لا أعرف لماذا كانت هذه القدرة التى تبدو على هذا القدر من التأثير فى لحظة كهذه ، لم ترقنى تماما • ووقفت « ميمى » متكئة على الجدار كأنها لا تكاد تقوى على الوقوف ، وكان رداؤها مغضناً مرقطاً بالوبر ، وقبعتها مائلة الى أحد الجانبين ، وعيناها المنتفختان حمراوين ، ورأسها يهتز ، ولم تكف مطلقاً عن النشيج فى صورة تمزق القلب ، تدفن وجهها باستمرار فى يديها ومنديلها وقد خيل الى أنها انما تفعل ذلك لكى تخفى وجهها عن الناظرين ، ولكى تستريح برهة بعد نشيجها المتغالى • لقد تذكرتها وهى تخبر والدى فى اليوم السابق أن وفاة أمى كانت صدمة فظيعة لها حتى انها لم تكن تأمل فى الحياة لهذا السبب ، وانها حرمتها كل شىء ، وأن ذلك

الملاك (كما كانت تسمى أمى) لم تنسها قبل موتها ، فأبدت رغبتها فى تأمين مستقبلها ومستقبل كاتنكا من الهم الى الأبد • وذرفت دموعاً حارة وهى تقول هذا ، ولربما كان حزنها حقيقيا ، ولكنه لم يكن خالصاً وشاملا ، ووقفت ليوبتشكا بجلبابها الأسود الملائم للحداد ووجهها المبلل بالدموع ، منكسة الرأس ترنو الى التابوت الفينة بعد الفينة بتعبير ينم عن الفزع الصبيانى • ووقفت كاتنكا بجانب أمها ، وبالرغم من طابع الحزن فقد كانت وردية اللون كما كانت دائما • وكانت طبيعة فولوديا الصريحة ، صريحة حتى فى حزنه • كان يقف أحياناً بنظرته المفكرة الثابتة مركزة على شىء ما ، ثم بدأ فمه يختلج على حين فجأة ، فرسم علامة الصليب بسرعة وانحنى باحترام ، وضقت باحتمال جميع الحاضرين فى حفلة الدفن ، وكانت عبارات المواساة التى وجهوها الى أبى ، من أن أمى ستكون هنالك أسعد حالا ، تثير نوعاً من غضبى •

بأى حق كانوا يتحدثون عنها ويحزنون عليها ؟ كان بعضهم حين يتحدث عنا يطلق علينا « الأيتام » كأننا لم نكن نعرف بدون مساعدتهم أن الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم يطلق عليهم هذا الأسم !! واضح أنه كان يسعدهم أن يكونوا أول من يمنحنا هذه التسمية ، تماماً كاسراعهم عادة بتلقيب الفتاة الشابة عقب زواجها مباشرة بلقب « السيدة » لأول مرة •

وفى الركن البعيد من القاعة ، كانت هناك سيدة ذات شعر

رمادي يكاد باب مخزن المؤن المفتوح أن يخفيها عن الأنظار ، راكعة ساجدة ، متشابكة اليدين • مرفوعة العينين الى السماء • لم تكن تبكي ولكنها كانت تبتهل ، تتطلع روحها الى الله ، وتتوسل اليه تعالى أن يلحقها بتلك التى أحبتها أكثر مما أحبت جميع من على الأرض، وتمنت مخلصة أن يتحقق لها هذا سريعاً •

وقلت وقد اعترانى الخجل من نفسى : « هناك واحدة تحبها حباً صادقاً !! » •

انتهى القداس : وكشف عن وجه السيدة الميتة ، واقترب جميع الحاضرين من التابوت فيما عدانا نحن ، فقبلوه واحداً بعد واحد •

وكان ممن اقتربوا لوداعها أخيراً ، امرأة فلاحة تقود صبية جميلة فى الخامسة من عمرها ، أحضرتها الى هناك ، لسبب يعلمه الله ، وفى تلك اللحظة سقط منى منديلى المبلل فجأة فانحنيت لالتقاطه ، فما ان انحنيت عليه حتى صدرت صرخة مخيفة حادة أفزعتنى ، لقد كانت صرخة رعب لن أنساها مطلقاً حتى لو عشت مائة عام ، وعندما أتذكرها تسرى فى كل بدنى قشعريرية باردة ، ورفعت رأسى : كانت نفس المرأة •• الفلاحة واقفة على كرسى بجوار التابوت تحمل فى مشقة بين ذراعيها الصبية الصغيرة التى كانت تحدق مهتاجة فى وجه أمى الخامد وتطلق صرخات مفزعة متعاقبة ، وهى تضرب الهواء بيديها الصغيرتين ، وتشيح بوجهها

المذعور ، وصرخت أنا أيضاً فى صـوت قد يكون أشـد ازعاجاً من الصوت الذى أفزعنى ، فاندفعت الى خارج الحجرة •

وفى هذه اللحظة فقط عـرفت من أين أتت تلك الرائحـة الثقيلة المختلطة برائحة البخور التى ملأت الحجـرة ، وحين فكرت فى أن ذلك الوجه الذى كان قبل أيام قليلة مليئاً بالجمال والحنان ، ذلك الوجه الذى أحببته أكثر من أى شىء آخر فى الحياة ، بدا لى لأول مرة أنه يكشف لى عن الحقيقة المرة ويملأ روحى باليأس •

(٢٨)

آخر الذكريات المحزنة

لم تعد أمى معنا بعد ، ولكن حياتنا جرت فى مجراها الطبيعى، فكنانام ونستيقظ فى نفس الساعات وفى نفس الحجرات ، ونتناول شاى بعد الظهر ، والغداء والعشاء فى الموعد المعتاد • الموائد والمقاعد قائمة فى نفس أماكنها • لم يتغير شىء فى البيت ولا فى نمط حياتنا ، لم يتغير شىء الا ـ هى •

لقد خيـل الى ، بعد تعاسـة كهـذه ، أن كل شىء لا بد أن يتغير ـ وبدا لى أن نمط حياتنـا العادية اهانة لذكراها ، وتذكرت غيابها بوضوح بالغ •

وبعد طعام الغداء ، فى الليلة السابقة على يوم الدفن ، أردت أن أنام ، فذهبت الى حجرة ناتاليا سافشنا ، بقصد الاستلقاء على فراشها المحشو بالريش الناعم ، وتحت الغطاء الدافىء الفضفاض •

وكانت ناتاليا سافشنا عند دخولى راقدة فى فراشها ، نائمة على الأرجح : ولدى سماعها صوت اقدامى نهضت ، ونحت جانبا القماش الصوفى الذى يحمى رأسها من الذباب ، وأصلحت من وضع غطاء رأسها ، ثم جلست على طرف الفراش •

كنت قد اعتدت الحضور الى حجرتها فى كثير من الأحيان لأغفو قليلا بعد الغداء وحالما دخلت الحجرة عرفت لساعتها لماذا حضرت •

وقالت : « ها قد أتيت لتستريح قليلا أليس كذلك ؟ أرقد اذن يا عزيزى » •

فقلت وقد تناولت يدها : « آه ، لا يا ناتاليا سافشنا ، ليس هذا مطلقاً ، لقد فكرت فى الحضور وحسب ، انك أنت نفسك متعبة ، وخير لك أن ترقدى » •

فقالت : « لقد نمت يا عزيزى وقتاً كافياً » (وكنت أعرف أنها لم تنم طوال ثلاثة أيام) ثم أضافت وهى تتأوه تأوهاً عميقاً : « وفوق ذلك ، فمن ذا الذى يستطيع التفكير الآن فى النوم » •

كنت أرغب فى التحدث مع ناتاليا سافشنا عن سوء طالعنا ، اذ كنت أعرف مدى حبها الخالص لأمى ، وقد يعزينى أن أبكى معها•

فقلت وأنا أجلس على الفراش بعد صمت قليل : « اكنت تتوقعين ذلك يا ناتاليا سافشنا ؟ » ، فتفرست فى المرأة العجوز فى ذهول وفضول ، ولعل من المرجح أن يكون السبب أنها لم تعرف لماذا سألتها عن ذلك .

فكررت عبارتى قائلا : « من كان يتوقع هذا ؟ » .

فقالت وهى تلقى على أرق نظرة من العطف : « آه ياعزيزى، وحتى الآن لا أستطيع ان أصدق هذا .. اننى امرأة عجوز ، كان ينبغى أن تكون عظامى الواهنة قد دفنت منذ وقت طويل ، ومع ذلك فان سيدى العجوز أى جدك الأمير نيكولاى ميخايلوفتش (أراح الله روحه) ، وأخوى الاثنين ، وأختى انوشكا ، كل هؤلاء قد دفنوا قبلى ، وان كانوا جميعاً أصغر منى سناً ، فمن الواضح الآن انه بسبب ذنوبى كان مصيرى ان أعيش من بعدها . فلتكن مشيئته المقدسة ! لقد أخذها سبحانه وتعالى لأنها تستحق ذلك ، وهو يريد هناك الأرواح الصالحة » .

وقد أدخلت هذه الفكرة البسيطة العزاء الى نفسى ، فاقتربت من ناتاليا سافيشنا وشبكت يديها على صدرها وتطلعت الى فوق ، وعبرت عيناها الغائرتان المغرورقتان عن ألم كبير ولكنه ألم صامت. وتشبثت بأمل راسخ أن الله لن يفرق طويلا بينها وبين من ركزت فيها أعواماً عدة كل قوة حبها .

نعم يا عزيزى ، يخيل الى أنه لم يمض وقت طويل منذ كنت مربيتها ، ألبس ثيابها وكانت تدعونى « ناشا » .. كانت تسرع الى وتطوقنى بذراعيها الصغيرتين وتأخذ فى تقبيلى وتقول لى: « ياعزيزتى ناشا ، وجميلتى ، ومحبوبتى ! » وكنت أقول لها ممازحة : « لا يا عزيزتى انك لا تحبيننى ، انتظرى حتى تكبرى وتتزوجى وتنسى عزيزتك ناشا ، فترد على بعد أن تستغرق فى التفكير : « أفضل ألا أتزوج اذا لم أصحب معى ناشا ، اننى لا أتخلى عن ناشا ، والآن ها هى ذى قد فارقتنى، ولم تنتظرنى فكيف أحبتنى!! ، حقاً ، فمن ذا الذى لم تكن تحبه ؟ يجب ألا تنس أمك مطلقاً يا عزيزى ، فانها لم تكن انساناً عادياً ، لقد كانت ملاكاً من السماء. وحين تصل روحها الى مملكة السماء ، فستحبك هنالك وتبتهج من فوقك » .

وسألتها : « لماذا تقولين تصل الى مملكة السماء يا ناتاليا سافشنا ؟ اننى أظنها هنالك الآن » .

وقالت ناتاليا سافشنا وهى تخفض من صوتها وتجلس على الفراش بالقرب منى : « لا يا عزيزى ، ان روحها هنا الآن » وأشارت الى فوق . وكانت تتحدث همساً تقريباً ، وفى كثير من الاقتناع حتى اننى رفعت عينى قسراً وتطلعت الى الطنف بحثا عن شيء ما ، وقالت : « قبل أن تذهب روح البار الى الفردوس تعانى يا عزيزتى أربعين تغييرا ويمكن أن تبقى فى بيتها أربعين يوماً » .

وتحدثت كثيراً فى هذا الصدد ، وفى كثير من البساطة والايمان كأنها كانت تقص احداثاً يومية شاهدتها بنفسها ، ولا يساور الشك فيها عقل أى انسان • وكنت أمسك أنفاسى وأنا أصغى اليها ، ومع أننى لم أفهم ما قالته فهما جيداً ، فقد صدقتها كل التصديق •

وقالت ناتاليا سافشنا فى خاتمة حديثها : « نعم يا عزيزى ، انها هنا الآن ، وهى تنظر الينا ، ولربما تسمع ما نقوله » •

وطأطأت رأسها ولاذت بالصمت ، ثم احتاجت الى منديل تمسح به دموعها المتساقطة ، فنهضت وتفرست فى وجهى ، وقالت بصوت يرتجف بالانفعال :

« لقد قربنى الله منه بذلك عدة خطوات ، فماذا بقى لى الآن، وأى شىء أعيش من أجله ؟ ومن لى أحبه ؟ » •

وقلت معاتباً وأنا أحبس دموعى بمشقة : « ألا تحبيننا ؟ » •

« الله يعلم كم أحبكم يا أحبائى ، ولكننى لم أحب أحداً قط كما أحببتها ، ولن أستطيع أن أحب أحداً مطلقاً الى هذا الحد • •

ولم تستطع أن تزيد على هذا ، بل ابتعدت وأخذت تنشج بصوت مرتفع •

لم أعد أفكر فى النوم بعد ذلك ، فجلسنا متقابلين فى صمت وبكينا • ودلف فوكا الى الحجرة ، ولكنه ما أن رأى حالتنا ، ولعله لم يرد ازعاجنا ، ونظر الينا فى خجل وصمت ، وتوقف عند الباب•

وسألته ناتاليا سافشنا ، وهى تمسح عينيها : « ماذا تريد يا فوكا الطيب ؟ » .

« أريد رطلا من الزبيب ، وأربعة أرطال من السكر ، وثلاثة أرطال من الأرز لصنع الكوتيا » (١) .

وقالت ناتاليا سافشنا وهى تتناول متعجلة قبضة من السعوط : « نعم ، لحظة واحدة » ثم ذهبت الى الصوان بخطوات نشيطة . واختفت آخر آثار الحزن التى أثارها حديثنا حين أخذت فى أداء واجبها الذى كانت تعتبرة أمراً بالغ الأهمية .

وقالت فى تذمر وهى تخرج السكر وتزنه بالميزان : « ماذا تريد أن تعمل بأربعة أرطال ، يكفى ثلاثة أرطال ونصف رطل » ، وأخذت عدة قطع من الميزان ، وتابعت حديثها : « وكيف تحتاج الى مزيد من الأرز ؟ لقد أعطيتك بالأمس ثمانية أرطال ! لا ذنب لك يأفوكا ديمدتش ، ولكنى لا أستطيع أن أعطيك مزيداً من الأرز . ان فانكا سعيد لأن البيت انتكس رأساً على عقب ، ويظن ان أحداً لن يلاحظ ... لا ، اننى لا أريد أى عبث بحاجيات سيدى .. ثمانية أرطال ! من سمع بمثل هذا !! » .

« وماذا نفعل ؟ يقول انه نفد كله » .

« حسن ، اليك هى ، خذها اذن ، فليأخذها ! » .

---

(١) طبق من الحلوى يتناوله أصحاب الحداد فى المآتم الروسية .

ودهشت لهذا الانتقال من الشعور المؤثر الذى كان يسود حديثها معى الى هذا التذمر والتقدير الزهيد • وعندما فكرت فيه فيما بعد ، وجدت انه بالرغم مما يجرى فى دخيلة نفسها ، تحتفظ بقدر كاف من حضور الذهن لتشغل نفسها بعملها ، وجرتها قوة العادة الى أداء واجباتها اليومية • وكان حزنها أقوى وأصدق من ان تحتاج الى تظاهر بعجزها عن الانشغال بالأمور التافهة ، ولا هى فهمت ان مثل هذه الفكرة يمكن أن تطرأ على ذهن أى شخص •

ان الزهو شعور يتعارض كل التعارض مع الحزن الحقيقى ، ومع ذلك يبلغ من قوة امتزاجه بطبيعة الكثيرين، ان تعجز عن طرده معظم الهموم الا فى النادر القليل • ويظهر الزهو فى الحزن عند الرغبة فى أظهار الأسى أو التعاسة أو الثبات ، وهذه الرغبات الهابطة التى لا نعلنها ، ويندر ان تفارقنا ، حتى فى أعمق حالات قلقنا ، انما تحرمه من القوة والكرامة والصدق ، ولكن ناتاليا سافشنا كان جرحها من تعاستها من العمق بحيث لم تبق فى روحها رغبة مطلقا ، فسارت فى حياتها بمحض العادة •

بعد أن أعطت فوكا المواد التى طلبها ، وذكرته بالفطيرة التى يجب اعدادها للاحتفاء برجال الدين ، صرفته وتناولت جوربها وجلست ثانية بالقرب منى •

وتحول الحديث مرة أخرى الى نفس الموضوع كما كان من قبل ، وعدنا الى البكاء سويا •

كانت هـذه الأحـاديث مع ناتاليا سـافشنا تتكرر كل يوم ، ومنحتنى دموعها الهادئة وكلماتها الرصينة الورعة الراحة والعزاء .

ولكن كان لا بد لنـا أخـيراً أن نفترق ، اذ انتقل كل أهل المنزل بعد ثلاثة أيام من الدفن الى موسـكو ، وقدر لى ألا أراها مرة أخرى .

وتلقت جدتى وحدها الخبر المفزع لدى وصولنا ، وكان حزنها شديداً، فلم يسمح لنا برؤيتها لأنها ظلت أسبوعاً كاملا فاقدة الوعى، وخشى الطبيب على حياتهـا ، وبخاصـة لأنها لم تقتصر على عـدم تعاطى أى دواء ، بل لم تتحدث الى أحد ما أو تتناول أى غذاء ، وكانت أحياناً ، وهى جالسـة وحيدة فى غرفتها ، على مقعدها ذى المسندين ، تنفجر بالضحك فجأة ثم تأخـذ فى النشيج بلا دموع ، أو كانت ترتد الى تشنجاتها ، فتصرخ بكلمات مزعجة غير متصلة ، وكان هذا أول حزن عرفته فى حياتها . فألقى بها فى مهاوى اليأس. وكانت تشعر بحاجة الى القـاء اللوم على شخص ما تحسـبه سبب تعاستها ، فكانت تنطق بأشـياء مخيفـة ، وتكلم شخصـاً غير منظور بحماسة فائقة ، وتقفز من على مقعدها فى خطوات طويلة سريعـة فاقدة الوعى .

دخلت حجرتها فى مناسبة ما ، وكانت جالسـة كالمعتـاد على مقعدها ذى المسندين، وكانت مظاهرها هادئة ولكن نظرتها أفزعتنى. كانت عيناها مفتوحتين شديدتى الاتساع ، ولكن نظرتهما كانت قلقة

خاوية ، وتطلعت نحوى مباشرة دون أن تبصرنى ، وأخذت شفتاها تبتسمان ببطء ، وتحدثت بصوت فيه رقة مؤثرة قائلة : « تعالى هنا يا عزيزتى ، تعالى هنا يا ملاكى » • وظننتها تخاطبنى فاقتربت منها ، ولكنها لم تنظر الى ، وأضافت : « آه ، لو انك عرفت يا حبيبتى أى عذاب قاسيت ، وكم أنا سعيدة بحضـورك ! » وحينئذ فهمت انهـا تخيلت رؤية أمى ، فتوقفت • ثم تابعت حديثها وقد تقطب وجهها : « يا للعبث ! أيمـكن أن تمـوتى قبـلى ؟ » ثم ضحكت ضحـكة هستيرية مخيفة •

ان الناس الذين يستطيعون ان يحبوا حبا عميقاً ، هم وحدهم الذين يستطيعون معاناة الحـزن العظيم ، ومع ذلك فان نفس هذه الحاجة الى الحب ، تساعد على مقـاومة حـزنهم وابرائهم • ولهذا السبب تكون طبيعـة الانسـان الأخلاقية أشد تماسـكا من طبيعته الجثمانية ، والحزن لا يقتل أبداً •

وبعد انقضـاء أسـبوع استطاعت جدتى ان تبكى ، وتحسنت حالتها ، وكنا نحن أول من فكرت فيهم عند عـودتها الى حواسها ، وازداد حبها لنا ، ولم تفارق مقعدها ذا المسندين قط ، وكانت تبكى بهدوء ، وتتحدث عن امنا ، وتدللنا بحنان •

لم يكن يدور بخلد أحد ينظر الى جدتى ، ان حزنها مبالغ فيه ، وكانت التعبيرات عن ذلك الحزن ذات تأثير عميق ، ومع ذلك

لا أعرف لماذا كنت أكثر تعاطفاً مع ناتاليا سافشنا ، ولا أزال حتى اليوم مقتنعاً بأنأحداً لم يحب والدتى ويحزن عليها بصفاء واخلاص كما فعلت هذه المخلوقة البسيطة الودود •

انتهت أيام طفولتى السعيدة بموت أمى ، وبدأ عهد جديد ـ عهد الصبا ـ ولـكن لما كانت ذكرياتى عن ناتاليا سافشنا ، التى لم أرها قط بعد ذلك ، والتى تركت مثل هذا الأثر القوى الخير على سيرى فىالحياة ونمو مشاعرى ، انما تنتمى الى العهد الأول ، فسأقول عبارات أخرى قليلة عنها وعن موتها •

بعد رحيلنا ، كما قيل لنا فيمـا بعد ، بقيت هى فى الريف ، ووجدت ان الوقت يمضى متثاقلا بين يديها لعدم وجـود ما يشغلها• وبالرغم من أن خزانات الملابس كانت فى عهدتها ، وانها لم تنقطع عن تقليب محتوياتها ، تعلق أشياء ثم تعود فتحزمها فانهـا مع ذلك فقدت ضوضاء وجود سيدها بالمنزل وضجيجه لأنها كانت قد اعتادت ذلك منذ الطفولة ، فالحزن ، وتغير نمط حياتها وفقدانها مسئولياتها سرعان ما أظهرت علة قديمة طالما تاقت اليها نفسها ، فبعد مضى عام واحـد على موت أمى ، أصيبت بمـرض الاستسـقاء وعكفت على فراشها •

لقد كان من الصعب على ناتاليا سافشنا فيما أظن ، ان تواصل العيش ـ وأصعب من ذلك ـ ان تمـوت وحيـدة فى بيت خـاو فى بتروفسكوى ، بدون أقارب أو أصدقاء • ان كل شخص فى البيت

قد أحب ناتاليا سافشنا واحترمها ، ولكنها لم تعقد صداقات وكانت فخورة بذلك ، اذ اعتبرت ان عقد صداقة مع أى شخص ، بالنسبة لمركزها كمدبرة شئون البيت ، وتتمتع بثقة سيدها ، وفى عهدتها كثير جداً من الصناديق الملأى بجميع صنوف المتاع ، سيؤدى حتماً الى المحاباة والتلطف الخاطىء • ولهذا السبب وربما لأنه ليس لديها ما يربطها بالخدم الآخرين ، اعتزلت الجميع ، وقالت انها ليس لديها أقارب ولا خلان بالمنزل ، فلم تسمح بأى استثناء فيما يتصل بمتاع سيدها •

ولقد بحثت ووجدت العزاء فى ان تسلم شعورها لله فى صلاتها الحارة ، ومع ذلك ففى بعض الأحيان ، فى لحظات الضعف تلك التى نتعرض لها جميعاً ، حين يجد الانسان خير عزاء له فى الدموع ، وفى العطف على كائن حى ، فكانت تضع كلبها الصغير فى فراشها (كان يلعق يدها ، ويثبت عليها عينيه الصفراوين) وتتحدث اليه وتبكى فى رقة وهى تدلله ، وعندما كان الكلب الصغير يأخذ فى العواء حزيناً تحاول تهدئته وتقول له : « كفى ، كفى ! اننى أعرف دون أن تخبرنى ، ان نهايتى قد حانت » •

وقبل شهر من موتها ، أخرجت من صندوقها قماشاً أبيض « بفتة » وآخر من الموصلين ، وأشرطة وردية اللون ، وصنعت لنفسها بمساعدة خادمتها ثوباً أبيض ، وغطاء للرأس ، ورتبت كل شيء ضرورى لدفنها حتى أقل التفاصيل الصغيرة • ونسقت كذلك

صناديق سيدها وكتبت قائمة بمحتوياتها وعهدت بها الى رئيس الخدم ، وكان كل ما احتفظت به ثوبان من الحرير ، و « شال » قديم كانت جدتى قد أعطتها اياه فى وقت ما ، وحلة جدى العسكرية الرسمية التى كان قد أعطاها اياها أيضاً ، وبفضل عنايتها ظل تطريز الحلة وشريطها الذهبى ناضرين كل النضر ، ولم تمس « العتة » قماش الحلة •

وأعلنت قبل موتها عن رغبتها فى أن أحد الثوبين ، ذا اللون الوردى ينبغى أن يعطى لفولوديا ليصنع منه عباءة لحجرة النوم أو سترة ، اما الرداء الآخر البنى ذو المربعات فيعطى لى لنفس الغرض ، ويعطى الشال لليوبتشكا ، وأورثت الحلة لأى منا يصبح ضابطا قبل الآخر ، أما بقية متاعها ونقودها فقد تركتها لأخيها ، باستثناء أربعين روبل وضعتها جانباً لجنازتها وللقداس ، وكان أخوها الذى حصل على حريته قبل ذلك بوقت طويل ، يحيا حياة داعرة للغاية باقليم بعيد ، ومن ثمة لم يكن لها فى أثناء حياتها أى اتصال به •

وعندما قدم أخو ناتاليا سافشنا للحصول على ميراثه ، وتبين أن كل ما تملكه المتوفاة يتكون من خمسة وعشرين روبل من الأوراق المالية لم يصدق ، وقال ان امرأة عجوزاً عاشت ستين عاماً فى أسرة غنية ، وكان عليها وحدها حراسة المنزل ، وكانت تعيش دائما

عيشة التقتير ، وتغضب لكل كسرة ، لا يمكن أن تموت من غير أن تترك شيئاً ، ولكن هذه كانت حقيقة الحال •

قاست ناتاليا سافثنا من علتها طوال شهرين ، وتحملت الألم بصبر مسيحى حقيقى ، فلم تتذمر أو تشك ، ولكنها كانت تصلى دون انقطاع ، جريا على عادتها • وقبل أن توافيها منيتها بساعة واحدة ، اعترفت ، وتقبلت السر الأخير والمسحة الأخيرة بابتهاج هادىء •

والتمست من جميع خدم المنزل ان يغفروا لها أى أذى قد تكون الحقته بهم ، وناشدت كاهنها الأب فاسيلى ان يخبرنا جميعا انها لم تعرف كيف تعبر عن شكرها لنا عن كل اشفاقنا عليها ، وتوسلت الينا ان نغفر لها ان كانت قد آلمتنا عن غفلة منها ، « ولكن لم أسرق أبداً ، واستطيع القول باننى لم أخدع سادتى مطلقاً مثقال ذرة » وكانت هذه هى الصفة الوحيدة التى تقدرها فى نفسها •

وألبست الدثار وغطاء الرأس اللذين كانت قد أعدتهما ، وأسندت الى الوسائد ولم تكف عن الحديث مع الكاهن حتى لحظة موتها • وتذكرت انها لم تترك شيئاً للفقراء فأعطته عشرة روبلات طلبت اليه ان يوزعها فى الأبروشية (١) ، ورسمت علامة الصليب، واضطجعت ثم تنهدت للمرة الأخيرة ، ونطقت باسم الله فى نغمة سارة •

---

(١) دائرة الكنيسة •

وفارقت الحياة غير آسفة ، ولم تخش الموت ، بل تقبلته بوصفه نعمة . ان هذا ليقال كثيراً ، ولكن قلما يكون قولا صادقا !! فناتاليا سافشنا لم تخش الموت لأنها ماتت ثابتة الايمان منفذة لقانون الأناجيل ، وكانت حياتها برمتها طهرا وحبا غير أناني ، وتضحية بالذات .

وماذا يهم لو كان اعتقادها أسمى ، ولو كانت حياتها مكرسة لأغراض أرقى ؟ أيمكن ان تكون هذه الروح الطاهرة أقل استحقاقا للحب والاحترام على ذلك الاعتبار ؟

لقد انجزت أحسن عمل وأعظمه فى هذه الحياة : ماتت دون أسف أو خوف . ودفنت وفقاً لرغبتها ، غير بعيد عن المصلى القائم فوق قبر أمى ، وتزايد نمو حشيشة القريض والأرقطيون (١) فوق الرابية التى ترقد تحتها ، ويحيط بها سياج من الحديد الأسود ، ولم أنس مطلقاً الذهاب من المصلى الى ذلك السياج والانحناء فى تبجيل على الأرض . وأحياناً أتريث فى منتصف الطريق بين المصلى والسور الحديدى وتقفز الى ذهنى ذكريات مؤلمة ، والفكرة التى تساورنى هى : هل ربطتنى العناية الالهية بهاتين المخلوقتين لمجرد ان تجعلنى أحزن عليهما الى الأبد ؟

---

(١) من النباتات الشائكة .

الصبا

(٢٩)

رحلة بلا محطات

•• وللمرة الثانية قدمت الى سقيفة بيت بترو فسكوى عربتان، احداهما كبيرة تجلس فيها ميمى وكاتنكا وليوبتشكا والخادمة ، ومعهن كاتينا ياكوف ، على كرسى الحوذى ، والأخرى صغيرة (برتشكا) يسافر بها فولوديا وانا مع الخادم فاسيلى الذى كان قد أعيد أخيراً الى الخدمة بالأجر •

ويقف بابا الذى كان سيلحق بنا فى موسكو بعد أيام قلائل ، عارى الرأس تحت السقيفة يرسم علامة الصليب على نافذة العربة والبرتشكا •

« فليكن المسيح معكم ! سافروا على بركة الله ! » ويخلع ياكوف والحوذى قبعتهما (كنا مسافرين فى عربتنا الخاصة) ويرسمان شارة الصليب ويقولان : « فليكن الله معنا ! ويستحثان الخيل على المسير •• (شى •• شى ••) •

وتأخذ العربة والبرتشكا فى التأرجح على الطريق الوعر ، وتمر بنا أشجار البتولا مسرعة على طول طريق المركبات الكبير ،

الواحدة فى اثر الأخرى • لم أكن حزينا البتـة • ولم أكن أرى بعينى عقلى ما أنا تارك ، بل ما ينتظرنى • ولما كانت الأشياء المرتبطة بالذكريات المؤلمة التى ملأت رأسى حتى هذه اللحظة تتراجع بمضى الزمن ، فان هذه الذكريات تفقد قوتها وتخلى المكان للشعور اللذيذ بأن الحياة مليئة بالقوة والجدة والأمل •

قلما قضيت أياماً ـ لا أكاد أقول بالغـة المـرح ، لأننى كنت لا أزال محـزون القلب نوعا ما بفـكرة اننى استسلمت للمرح ـ ولكننى كنت كثير الرضا والسرور أثناء الأيام الأربعة التى استغرقتها الرحلة •

لن ترى عيناى بعد الآن باب غرفة أمى المغلق ، الذى لم أكن أمر به دون ان تنتابنى رعدة ، ولا « البيانو » المغلق الذى لم يجسر أحد ان يتطلع اليه ، فضـلا عن فتحه ، دون ان ينتـابه نوع من الخوف ، ولا ملابس الحـداد (كنا جميعـاً نرتدى ملابس السـفر البسيطة) ، ولا أى شىء من هذا كله الذى يذكرنى بقوة بخسارتى التى لا تعـوض ، والتى تدفعنى الى النكوص عن أى مظهـر من مظاهر الحياة خشية أن أسيىء الى ذكراها بوجه من الوجوه • وهنا من ناحيـة أخـرى أماكن جديدة بهيجـة المنظر ، وأشياء تجتذب انتباهى وتستوقفه ، وتوقظ فى نفسى طبيعة الربيع احساساً بالطرب والرضا بالحاضر ، والأمل المزدهر فى المستقبل •

وفى وقت مبكر من الصباح ، مبكر جداً ، يسحب فاسيلى الذى

لا يرحم الغطاء ، وكان شديد التحمس كما يفعل دائما أولئك الناس الذين يوضعون فى مناصب جديدة ، ويعلن ان وقت السفر قد أزف وان كل شيء على أهبة الاستعداد • ويمكنك أن تستريح أو تثور أو تناضل كما تشاء لكي تؤجل هجعة الصباح اللذيذة حتى لمدة ربع ساعة ، ولكنك ترى فى وجه فاسيلى المصمم انه لا يلين ، وانه مستعد لسحب الغطاء عشرين مرة ، ولذلك فانك تقفز وتجرى الى الفناء لتغتسل •

•• ان الغلاية تغلى فى حجرة الانتظار ، ويقوم « ميتكا » خادم العربة بالنفخ فيها حتى أصبحت حمراء مثل جراد البحر • ان الجو رطب كثير الضباب فى الخارج ، كأن البخار يتصاعد من كومة روث دخنه ، وتشع الشمس المبكرة ضوءاً لامعاً مفرحاً فوق الأفق الشرقى ، وفوق أسطح الزرائب الفسيحة المصنوعة من الغاب المحيطة بالساحة المتألقة بالندى ، يمكن ان نرى من تحتها جيادنا مربوطة الى مزاودها ، وتسمع صوت عضعضة لجامها المعتادة •

ويتمطى كلب أشعث اسود كان قد تكوم قبل الفجر فوق ربوة من السباخ الجافة متكاسلا ، ثم يجتاز الفناء ركضاً ، ويهز طوال الوقت ذنبه ، وتفتح ربة البيت فى ضجة ، الأبواب ذات الصرير ، وتسوق الأبقار الساهمة الى الشارع الذى تأتى منه الآن قطعان الماشية الجوابة بخوارها وثغائها ، ثم تتبادل كلمة أو كلمتين مع جارتها النائمة ، ويسحب فيليب وقد طوى كمى قميصه ، الدلو

الذى يترشش منها الماء اللامع ، من البئر العميقة فيسكبها فى البرميل السندياني الذى يكون البط فى البركة من حوله يغطس غطسة الصباح •

وأتطلع فى سرور الى وجه فيليب الجميل ، والى لحيته الكثة ، والى اوتار عضلاته السميكة التى تنفر على ذراعيه العاريتين القويتين كلما بذل أى جهد •

وتأتى أصوات الحركة من وراء الجدار الفاصل حيث تنام ميمى والفتيات ، والذى كنا نتجاذب عبره أطراف الحديث فى المساء• وتظل خادمتهن « ماشا » تدخل وتخرج بمختلف الأشياء التى تحاول اخفاءها بثوبها عن فضولنا • وأخيرا تفتح الباب وتدعونا لشرب الشاى •

ويأخذ فاسيلى فى الجرى بحماسته الفائقة الى داخل الحجرة يحمل شيئاً واحدا فى أول الأمر ، ثم شيئاً آخر وهو يغمز لنا ، ويبذل قصارى جهده لاغراء ماريا ايفانوفنا بالرحيل مبكرين ماوسعنا ذلك • فالخيول مسرجة ، وهى تعلن عن نفاد صبرها الفينة بعد الفينة ، وذلك بشخشخة أجراسها ، وتحزم الحقائب والصناديق وعلب الملابس مرة أخرى ، ونأخذ أماكننا • ولكننا نجد فى كل مرة جبلا من أمتعتنا بدلا من المقاعد فى داخل العربة (البرتشكا) بحيث يتعذر معرفة الطريقة التى رتبت بها فى اليوم السابق ، ولا كيف سنجلس الآن • وقد أثار غضبى بخاصة وجود صندوق

شاى من خشب الجوز ذى غطاء مثلث الزوايا وضع تحتى فى البرتشكا، ولكن فاسيلى يقول انها ستستقر ، فأصدقه كرهاً .

وأشرقت الشمس لتوها فوق السحب البيضاء المتراكمة التى تغشى الشرق ـ وأضاءت جميع جنبات الريف من حولنا بنور هادىء مبهج . كل شىء حولى جميل ، وأنا هادىء خلى البال . وكان الطريق يتعرج من أمامنا فسيحا غير محدود بين حقول أعقاب الحنطة الجافة ، والحشيش الأخضر المتلألىء بالندى . وكنا نمر ، هنا وهنالك ، على جانب الطريق بأشجار الصفصاف المقبضة أو احدى اشجار البتولا الصغيرة ذات الأوراق الغضة تنشر ظلها الطويل الساكن على الأخاديد الصلصالية الجافة ، وحشائش الطريق العام القصيرة الخضراء ، ولا تطغى أصوات العجلات والأجراس الرتيبة على شدو القنابر المحومة بالقرب من الطريق . وتضيع رائحة القماش المعثوث ، والتراب ، ورائحة حريفة معينة علقت بعربتنا ، ازاء أريج الصباح وأشعر بضيق مفرح فى نفسى ، رغبة فى عمل شىء ما ، وهو دلالة على الاستمتاع الحقيقى .

لم أستطع تلاوة صلواتى فى محطة البريد ، ولكن لما كنت قد لاحظت أكثر من مرة ان المصائب تحل بى فى اليوم الذى انسى فيه أداء هذه الشعيرة الدينية لسبب أو لآخر ، فاننى أحاول اصلاح هذا الاهمال ، فأخلع قبعتى وأتحول الى ركن من البرتشكا فأتلو صلاتى وأرسم علامة الصليب من تحت سترتى حتى لا يرانى أحد

ومع ذلك آلاف الأشياء تصرف انتباهى فأعيد نفس عبارات الصلاة عدة مرات وأنا شارد الذهن •

وعلى ممر المشاة الذى يتعرج بجانب الطريق يتحرك على مدى البصر فى بطء بعض الأشخاص : انهم حجاج ، رءوسهم مغطاة بمناديل مغبرة ، وعلى ظهورهم أكياس من لحاء شجر البتولا ، وأقدامهم بلفافات من أسمال بالية ، وينتعلون أحذية ثقيلة من ألياف النبات ، ويلوحون بعصيهم فى حركة متوافقة ، وقلما ينظرون الينا ، يسيرون مكدودين فى بطء صفا مفردا • وتساءلت مندهشاً عن المكان الذى يقصدونه ولماذا ؟ وهل ستستغرق رحلتهم وقتاً طويلا ؟ وهل ستتحدد وشيكاً ظلالهم النحيلة التى يلقونها على الطريق مع ظل شجرة الصفصاف الملقى على طريقهم ؟ وهنا عربة بريد ذات أربعة جياد تأتى مسرعة فتقابلنا ، وبعد ثانيتين أخريين كانت الوجوه التى تتطلع الينا بابتسامة الفضول على مدى ذراع واحدة قد مرقت مارة بنا كالبرق ، ويبدو من المستبعد ان تكون هذه الوجوه ، وجوه اناس غرباء تماماً وانه من المحتمل الا تقع عليهم عيناى البتة مرة أخرى •

ثم يأتى بعد ذلك جوادان مشعثان يتقطران عرقاً يعدوان على جانب الطريق فى شكيمتيهما ، وقد ربط الحطامان بالطوق الخلفى ، بينما يركب فى المؤخرة صبى البريد ينشد ببطء أغنية مقبضة ، وقد أمال قبعته المصنوعة من صوف الغنم على أحد الجانبين ، ويتدلى

ساقاه فى حذائه الضخم على جانبى حصان ذى قوس (دوجا) (١) وأجراس تصلصل بصـوت خافت بين حين وآخـر ، يعبر وجهـه وهيئته عن الكثير من الكسل والاهمال والقناعة ، حتى ليبدو لى أن غـاية السـعادة ان يكون المرء صبى بريد يركب الجيـاد ويعـود الى بيته وهو يغنى أغنيات حزينة • وهنالك فيما وراء الوادى الضيق بمسافات طويلة ، توجد كنيسة قروية بسقفها الأخضر متميزة من السـماء المشرقة الزرقاء ، وهنالك مزرعة ، وبيت سـيد ذو سقف أحمر وحديقة خضراء •• من يسكن هذا البيت ؟ هل فيه أطفال وأب وأم ومدرس خاص ؟ لماذا لا نسير اليه ونتعرف بصـاحبه ؟ وهنا صف طويل من عربات البضاعة الثقيلة مشدودة الى عربات من نوع الترويكا التى تجـرها جيـاد جيـدة التغـذية ضخمة السيقان فاضطررنا الى الابتعاد عن الطريق لكى نمر • ويستفسر فاسيلى من أول سائق من سائقى عربات النقل : « ماذا تحملون ؟ » وكان يدلى قدميـه الكبيرتين من على اللوح الذى يكون مقعده ، ويرمقنا بنظرة طويلة خاوية ، ويلوح بسوطه ويجيب بنوع من الاجابة عندما يبتعد عنا بمسافة أطول يتعذر معها سماعه • ويسأل فاسيلى وهو يلتفت الى مجموعة أخرى « ما نوع حمولتكم ؟ » وكان يضطجع على سياجها الأمامى سائق آخر تحت حصيرة جديدة من القش ، فيبرز رأس

---

(١) قوس فوق الحصان الأوسط الذى يجر العربة (الترويكا) ، أو ثلاثة خيول مشدودة بعدتها جنبا الى جنب

أشقر ذو وجه متورد ولحية حمـراء برهة من تحت الحصيرة ، ثم يختفى ثانية ، وخطرت لى فكرة أن هؤلاء السائقين لا يستطيعون ان يعرفوا بالتأكيد من نحن ولا المكان الذى نقصده •

واستغرقت فى ملاحظاتى المختلفة حتى اننى فى مدى سـاعة ونصف ساعة لم ألاحظ الأرقام المعوجة المكتوبة علىأعمدة المسافات• ولكن الشمس تبدأ تحرق رأسى وظهرى ، وتصبح الطرق متربة ، ويأخذ رصاص صندوق الشاى المثلث يزعجنى ازعاجاً شديداً فأغير مكانى مرات عدة • ويبدأ شعورى بالحر وقلة الراحة والضجر ، ويتجه كل اهتمـامى الى أعمـدة الفراسخ والأرقام التى تحملها ، وأقوم بعمل احصاءات حسابية عن الوقت الذى سنقضيه للوصـول الى المرحلة التالية •

« ان اثنى عشر فرسخاً معناها ثلث الستة والثلاثين فرسخاً ، وان واحداً وأربعين حتى ليبتز ، واذن فقد قطعنا ثلث الطريق وأكثر قليلا ؟ » وهكذا •

وألاحظ ان فاسيلى أخذ فى تنكيس رأسه فأقول : « فاسيلى ، دعنى أجلس فى مقعد القيادة ، انه لشىء محبوب » • ويوافق فاسيلى ونتبادل مكانينا ، ثم يأخذ مباشرة فى الغطيط والتمدد بحيث لم يترك مكاناً لأى شخص آخر فى البرتشكا • وتظهر أمامى ، من مجثمى الجديد أروع صورة ـ جيادنا الأربعة نيروتشنسـكايا • ودياكون

وليفايا ، وهو حصان « العريش » ، وأبوثيكارى ، وجميعها اعرفها جد المعرفة حتى أصغر تفاصيلها وتفاوت صفات كل منها •

وأستفسر فى شىء من الخجل : « لماذا يوضع دياكون اليوم من الجانب القريب بدلا من الجانب البعيد يا فيليب ؟ » •

« دياكون ؟ » •

فأقول : « ونيروتشنسكايا لا يجر شيئاً البتة » •

ويقـول فيليب دون ان يعير ملاحظتى الأخـيرة أى التفات : « انك لا تستطيع ان تشد دياكون على الجانب البعيد ، انه ليس من النوع الذى يصلح لهذا ـ انك بحاجة الى حصان من النوع الذى ••• حسن •• حصان حقيقى ، وليس دياكون من ذلك النوع »•

وعند هذه الكلمات يميل فيليب الى اليمين ، ويجذب الأعنـة بكل قوته ، ويأخذ فى ضرب دياكون بالسوط ، على ذيله وأرجله بطريقة خاصة من اسفل ، وبالرغم من أن دياكون يشد كل عضلة بحيث كانت البرتشـكا تميل ، فان فيليب لا يتخلى عن خطته حتى يشعر بحاجته الى الراحة ، والى امالة قبعته جانبا ، بالرغم من انهـا كانت متوازنة ثابتة على رأسه من قبل ، وأستفيد من هذه الفرصة المواتية ، فالتمس من فيليب ان يسمح لى بالقيادة فيعطينى فيليب أولا عنانا واحداً ، ثم يعطينى عناناً آخر ، ثم تنتقل الى يدى آخر الأمر الأعنة الستة والسـوط ، وأشـعر بغـاية السرور • وأحاول تقليد

فيليب فى كل صغيرة وأسأله عما اذا كنت أحسن التصرف : ولكنه يبدو غير راض بوجه عام ، ويقول ان حصاناً يتحمل عبئاً أكبر فى الجر ، وان آخر لا يجر مطلقاً ، ثم ينحنى ويتناول الأعنة منى • وتشتد الحرارة شيئاً فشيئاً ، وتأخذ السحب الشبيهة بصوف الغنم تنتفخ ، وترتفع كفقاقيع الصابون ، وتندمج وتتخذ لونا رماديا قاتماه وتظهر من نافذة العربة يد ممسكة بزجاجة وحزمة صغيرة ، فيقفز فاسيلى من كرسى القيادة بمرونة مدهشة بينما نتحرك نحن ، ويحضر لنا قليلا من كعك الجبن وجعة الجويدار (١) •

ونهبط جميعاً من العربات عند انحدار حاد ، ونركض الى القنطرة بينما يضع فاسيلى وياكوف الدعامات ويسندان العربة من جانبيها بأيديهما كما لو كانا يرفعانها فى حالة تعطلها • وباذن من «ميمى» يركب فولوديا أو أنا فى العربة ، وليوبتشكا أو كاتنكا تأخذ ماكان فى البرتشكا • وتهيىءهذه التغيرات سروراً كبيراً للفتيات • لأن ركوب البرتشكا ، كما ظنن بحق ، ادعى الى الطرب • وعندما يشتد الحر أحياناً ونحن نجتاز الغابة ، نتمهل خلف العربة ونقطع الأغصان الخضراء ونبنى تعريشة فى البرتشكا • وتفاجأ العربة بهذه التعريشة المتحركة ، وتصفر ليوتشكا صفيراً حاداً الى أقصى حد : لا تنسى البتة ان تفعله فى كل مناسبة لانه يمنحها السرور •

---

(١) نوع من الجعة الروسية وتسمى كفاس • (المترجم)

ولكن هذه هى القرية التى ستناول فيها غذاءنا ونستريح • • لقد شممنا رائحة القرية من قبل ، روائح الدخان والقطران والخبز ، وسمعنا ضجة الأصوات ووقع الأقدام والعجلات • ولم تعد ترن اجراس الخيل كما كانت تفعل فى الحقول المكشوفة ، ونمر على الجانب الآخر بأكواخ ذات أسقف من القش ، وطنف مصنوعة من شرائح خشبية ، ونوافذ صغيرة ذات مصاريع حمراء وخضراء يلوح من بينها وجه امرأة فضولية ؟ وصغار الصبيان والفتيات من الفلاحين لا يرتدون غير القمصان، عيونهم محملقة وأيديهم ممدودة فى دهشة ، يقفون مسمرين فى أماكنهم أو يلتمسون طريقهم برشاقة ، بين التراب بأقدام حافية ، يحاولون التسلق على الصناديق خلف العربات بالرغم من تهديد فيليب لهم بالاشارات • ويسرع أصحاب الحانات ذوو الشعر البرتقالى الى العربات من كل ناحية • يحاول كل منهم اجتذاب المسافرين من الآخر بالكلمات والاشارات المغرية ، ثم نتوقف ! ويسمع صرير الباب وتربط عارضة العربة بقوائم الباب ، ثم ندلف الى الفناء لننعم بالراحة والحرية أربع ساعات•

(٣٠)
العاصفة الرعدية

تنحدر الشمس نحو الغرب وتلفح عنقى ووجنتى بأشعتها الحامية المائلة غير المحتملة ، فكان من المحال ان تلمس جوانب

البرتشكا اللاسعة ، وثار تراب كثيف فوق الطريق وملأ الهواء • ولم يكن هناك هبة نسيم تحملها بعيداً عنا ، وكان هيكل العربة الطويل المعفر بالتراب يتمايل بانتظام محتفظا على الدوام بنفس المسافة أمامنا ؛ وكنا نلمح السوط بأعلى العربة أحياناً حين يلوح به السائق وقبعته وقبعة ياكوف • ولم أعرف ماذا أفعل بنفسى ، فلا وجه فولوديا الذى اسود من العفار ، وقد أغفى بجانبى ، ولا حركات ظهر فيليب ولا ظل البرتشكا الطويل المائل التى تتابعنا فى قوة واندفاع ، لا شىء من هذا استطاع أن يمنحنى أية تسلية • كان كل انتباهى مركزا على أعمدة المسافات التى أراقبها عن بعد ، وعلى السحب التى كانت من قبل متناثرة على صفحة السماء ، وهى الآن تتجمع في كتلة واحدة داكنة متوعدة • وكان الرعد البعيد يهدر بين وقت وآخر وضاعف هذا الحادث الأخير ـ اكثر من أى حادث آخر ـ من تعجلى للوصول الى محطة البريد • وأوحت الى العواصف المرعدة بشعور من الضجر والخوف والحزن يجل عن الوصف •

كان لا يزال بيننا وبين أقرب قرية الينا عشرة فراسخ ، ولكن السحابة الضخمة الأرجوانية القاتمة التى ظهرت من حيث لا أدرى ، تتحرك بسرعة فوقنا ، مع أنه لم تكن هناك هبة نسيم ، وكانت الشمس التى لم تتوار بعد وراء السحب تضيىء بنورها الباهر كتلتها المعتمة ، والخطوط الرمادية الممتدة منها الى قلب الأفق • وكان البرق يومض من بعيد بين حين وآخر • وتسمع قعقعة خافتة ترتفع

رويداً رويداً كلما اقتربت • ثم تغـرق فى هزيم متقطع يشـمل السماء • وصعد فاسيلى فوق كرسى الحوذى ونشر غطاء البرتشكا • وارتدى الحوذية معاطفهم الفضفاضة وكانوا ينزعون قبعاتهم عند كل فرقعة ويرسمون شارة الصليب • وأرهفت الجيـاد آذانهـا ونفخت خياشيمها كما لو كانت تشم الهواء النقى الذى كان يهب من السحابة المرعدة المقتربة • وأسرعت البرتشكا بالمسير على الطريق المتربة ، وشملنى شعور بعدم الاكتراث فقد كنت أحس الدم ينبض بقوة فى عروقى • وللحال حجبت السحب الأولى قرص الشمس • ولآخر مرة تبزغ وتلقى بآخـر شـعاع من الضـوء على الأفق الغاضب ثم تختفى • وتحول المنظر الطبيعى برمته فجأة واتخذ طابعاً كئيباً • واهتزت شجيرات الحور ، واصطبغت الأوراق بلون رمادى فبرزت بوضـوح ازاء السـحابة الأرجـوانية ـ وخشخشت واضـطربت وتأرجحت أعالى اشجار البتولا العـالية ، ودومت خصـل الحشيش الجـافة مسرعة عبر الطريق وجاءت طيور السـنونو الرشـيقة ذات الصدور البيضاء تحوم حول البرتشكا وتنقض الى ما تحت صدور الخيل كأنها أرادت وقفنا • وطارت فى الهواء غربان الحقول تخفق بأجنحتها من الجانبين • ورفرفت حواف الغطاء الجلدى الذى ثبتناه فوقنا • وسمح بدخول الريح الرطبة فصفقت وضربت جسم العربة • وخيل الى كأن البرق يومض فى البرتشـكا نفسـها فيبهر عيوننا ، يضىء لحظة القماش الرمادى بحاشيته المجدولة ووجـه فولوديا ،

الرابض فى الزاوية • وفى نفس اللحظة دوت فوق رءوسنا مباشرة دمدمة هائلة • وخيل الى انهـــا تعلو وتعلو ، وتتسـع وتتسع الى مالا نهـاية • فى حلزون عظيم يتزايد شيئاً فشيئاً حتى انفجر فى دمدمة تصم الآذان • بعثت فينا رعدة اضطرتنا الى حبس انفاسنا • انه غضب الله !! وكم فى ذلك التصور المألوف من شاعرية •

وتدور العجلات أسرع وأسرع • ثم أدرك من ظهر فاسيلى، وظهر فيليب الذى كان دائم التلويح باعنته أنهما هما أيضاً خائفين• وتنحدر البرتشـكا مسرعة من على التـل وترتطم مدوية بالقنطرة الخشبية فلا أجرؤ على الحركة ، متوقعـاً فى رعب ان الدمار سيحل بنا جميعاً فى أية لحظة •

قف ! ان جرار العربة مكسـور • ونضطر الى التوقف عند القنطرة رغم قرقعة الرعد المستمرة التى تصم الآذان •

وأميل براسى عند جنب البرتشكا واحبس انفاسى • ويتملك اليأس قلبى حين أشاهد حركات أصابع فيليب السمينة السوداء ، فهو يربط عقدة فى بطء ويقوى الجرارات ، ويضرب جنب الحصان براحة يده وبمقبض السوط •

وأزدادت مشـاعرى المكروبة حـزنا ورعبا كلمـا ازدادت العاصفة قوة • ولكن عندما حل الصـمت العظيم الذى يسبق عادة هدير الرعد ، بلغت تلك المشاعر حدا من الشدة بحيث اقتنعت بأنه

لو طال الموقف ربع ساعة لقتلنى الهياج • وظهر فى تلك اللحظة من تحت القنطرة شكل رجل يرتدى قميصاً قذراً مهلهلا وجهه منتفخ فاقد الشعور ، ورأسه عار حليق متأرجح ، وساقاه عاطلان من الأعصاب ، وفى مكان اليد بقية من يد حمراء لامعة دفعها الى داخل البرتشكا •

وقال الشحاذ فى صوت مرتجف وهو يرسم شارة الصليب عند كل كلمة ثم ينحنى بشدة : « فى محبة المسيح ، ساعدوا كسيحاً ! » •

لا أستطيع وصف الرعب الذى اقشعرت له روحى فى تلك اللحظة ، وسررت فى شعرى رجفة ، وتسمرت عيناى على الشحاذ فى خوف مذهل •

وكان فاسيلى الذى شمل الرحلة بحسناته ، يعطى فيليب التعليمات فى كيفية تقوية الجرار • ولم يبدأ فيليب فى تحسس جيبه الجانبى الا عندما أعد كل شىء وجمع فى يده الأعنة وصعد الى كرسى القيادة ، ولكن ما ان بدأنا المسير ثانية حتى أضاء برق يبهر الأعين ، وغمر كل الوادى برهة بلمعانه الحاد فأدى الى توقف الخيل ، وكان مصحوباً برعد هادر يصم الآذان دون أقل انقطاع حتى خيل الى كأن قبة السماء برمتها ستتحطم على رءوسنا ، وأصبحت الرياح أعنف من ذى قبل ، وأخذت أعراف الخيل وذيولها وعباءة فاسيلى وأطراف غطاء العربة ، كل هذه تصفق بشدة فى نفس الاتجاه تحت

قصفات الريح الغاضبة الهوجاء • وسقط سيل غزير من المطر فوق غطاء البرتشكا الجلدى ، ثم هطل سيل آخر وثالث ورابع• وسرعان ما أمطرتنا كما تضرب الطبل ، ورددت كل أنحاء الصقع نقرات هطول المطر المطردة ، ولاحظت من حركة كوع فاسيلى انه يفك كيس نقوده ، وكان الشحاذ لا يزال يرسم شارة الصليب وينحنى وهو يجرى بالقرب من العجلة حتى خيل الى انه سيتهشم « محبة فى المسيح ! » وأخيراً طارت قطعة نقد نحاسية مارة بنا ، وتوقف المخلوق التعس مترددا يتأرجح فى الريح ، والتصق قميصه الذى بلله المطر بأطرافه المقوسة ثم اختفى عن انظارنا •

كانت الأمطار المنحدرة مدفوعة بالرياح العاتية تتدفق كالسيل الجارف وتتقاطر مسايل الماء من معطف فاسيلى الخشن الى بركة الماء القذر الموحلة التى تجمعت على غطاء العربة • والتراب الذى كان من قبل فى شكل حبات ، أصبح الآن وحلا سائلا ترششه العجلات • وأصبحت الهزات أقل من ذى قبل ، وتدفقت الجداول الكدرة فى الأخاديد ، وأصبحت ومضات البرق أوسع مدى وأكثر شحوباً ، ولم تعد قرقعة الرعد مفزعة الى حد كبير فوق نقرات المطر •

ولم يعد المطر يهطل بغزارة ، وبدأت السحابة الراعدة تتوزع وسطع الضوء فى المكان الذى يجب أن تكون فيه الشمس ، وكادت تظهر فرجة من اللون الأزرق الصافى من خلال أطراف السحابة

الشهباء • وبعد برهة سطع شعاع خجـول من ضـوء الشمس فى البرك التى على الطريق ، وفى مسايل المطر الرفيعة المستقيمة كأنها سقطت من نقوب غـربال ، وفوق الحشـائش على جـانب الطريق بخضرتها التى اغتسلت لتوها •

ولم تكن السحابة السوداء المرعدة الممتدة على الجانب المقابل من الأفق أقل وعيداً بالشـؤم ، ولكننى لم أعـد أخافها ، وشملنى شعور سار بالأمل فى الحياة يقصر عنه الوصف ، بدد شعورى الطاغى بالخوف • وابتسمت روحى كابتسام الطبيعة وتجددت وانتعشت •

وأرخى فاسيلى بنيقة معطفـه ، وخلع قبعتـه ونفضها ، وألقى فولوديا العباءة وأطللت انا خارج البرتشكا وعببت فى لهفة من الهواء النقى العطر • وتسير البرتشكا أمامنا قدما بجسمها اللامع المغسول وعارضتها المتقاطعـة وصناديق الملابس وكانت ظهور الجيـاد وحبال الربط ، واعنة الجياد ، واطارات العجلات كلها مبللة تلمع فى ضوء الشمس كأنها مغطاة بدهان اللك • وعلى أحد جانبى الطريق حقل حنطة شتوية لا يحده البصر • تشوبه هنا وهنالك أخاديد ضحضاحة تلمع مع الأرض النـدية والخضرة النضرة • كأنها بسـاط متباين الألوان ممـدود الى صـميم الأفق • وعلى الجانب الآخر من الطريق غيضة من أشجار الحور ، مع شجيرات البندق والكرز البرى تقف ثابتة ، كأنها تائهة فى السعادة ، تنفض فى بطء قطرات المطر اللامعة من أغصانها التى غسلتها العاصفة فوق أوراق السنة الماضية الجافة •

وتحلق القنابر ذات الشواشى فى كافة الأنحاء ، مغردة فى مرح ثم تعود فتهبط مسرعة ، بينما تصدر من الأدغال الرطبة ضوضاء صغار الطيور ، ويرن تغريد الوقوق صافيا من صميم الغابة . وبلغ من سحر أريج الغابة بعد هذه العاصفة الربيعية ـ رائحة شجر البتولا ـ وأزهار البنفسج والأوراق الميتة ، وعيش الغراب ، والكرز البرى . اننى لم أقو على الجلوس ساكناً فى البرتشكا ، بل قفزت من على الدرجة وأسرعت الى الأدغال . وبالرغم من هطول قطرات المطر قطفت نباتات من كرز العصافير فضمخت بها وجهى لأسكر برائحتها الرائعة .

وخضت فى الوحل مسرعاً الى باب العربة غير مكترث بحذائى الذى لطخه الطين ولا بجوربى الذى غمره الماء طويلا .

وصحت بصوت مرتفع ، وأنا أمد يدى ببعض أغصان من أزهار الكرز : « ليوبتشكا ! كاتنكا !.. أنظرا .. ما أجملها ! » .

ولهثت الفتاتان وصرختا فى فزع ، وصاحت بى ميمى ان ابتعد والا داستنى العربة دون شك .

وصحت : « بل شماها وحسب لترياً مقدار شذاها » .

(٣١)

آراء جديدة

•• كانت كاتنكا تجلس بجانبي في البرتشكا ورأسها الجميل محنيا يراقب مفكراً الطريق المترب وهو يجري مارا من بين العجلات • وتأملتها في صمت • ودهشت للملامح البعيدة عن ملامح الطفولة التي رأيتها لأول مرة على وجهها الوردي •

وقلت : « سنكون الآن بموسكو حالا ، فماذا تظنين شكلها ؟ »

فأجابت كارهة : « لست أدري » •

« ولكن ماذا تظنين ؟ هل هي أكبر من سربوخوف أم لا ؟ »•

« ماذا ؟ » •

« آه ـ لا شيء » •

ولكن عن طريق هذه الغريزة التي يتكهن بها الشخص بأفكار شخص آخر ، والتي تستخدم كخيط يوجهه اثناء المناقشة فهمت كاتنكا ان عدم اهتمامها يؤلمني فرفعت رأسها والتفتت ناحيتي وقالت :

« هل أخبرك بابا اننا سنعيش مع الجدة ؟ » •

« نعم • ان جدتنا تصر على أن نعيش معها » •

« بالطبع • سنعيش فى الطابق العلوى فى نصف البيت ، وستعيش أنت فى النصف الآخر ، أما والدى ففى الجناح ، ولكننا جميعاً سنتناول الطعام مع جدتنا » •

« تقول أمى ان جدتك مبجلة للغاية ـ وسيئة الطباع » •

« آه • لا • انها ليست كذلك ! بل تبدو هكذا فقط لأول وهلة •• انها مبجلة ولكن طباعها ليست سيئة ، بل على العكس ، حنونة وأنيسة جداً ، ولو انك رأيت فقط أية حفلة رائعة أقمناها فى عيد قديسها ! » •

« لا أزال خائفة منها • وهذا بالاضافة ، والله يعلم لو أننا•• »

وأمسكت كاتنكا عن الكلام فجأة وراحت تفكر •

وسألتها فى قلق : « ماذا ألم بك ؟ » •

« لا شىء » •

لقد قلت والله يعلم •

وأنت قلت أية حفلة رائعة أقمناها لعيد قديس جدتى !!

نعم ، ويا للأسف انك لم تكونى موجودة ، فقد كان هناك ضيوف كثيرون جداً ، مئات منهم ـ والموسيقى وقادة الجيش • ورقصت ثم توقفت فجأة أثناء شرحى وقلت : « انك غير مصغية يا كاتنكا » •

نعم . اننى ، لقد كنت تقول انك رقصت .

ما سبب اكتئابك الى هذا الحد ؟.

ان المرء لا يستطيع أن يكون مرحاً طوال الوقت .

« ولكنك تغيرت كثيراً جداً منذ عودتنا من موسكو » ثم تابعت حديثى بنظرة اصرار وانا التفت نحوها : « اخبرينى بصدق . ما الذى جعلك منحرفة المزاج الى هذا الحد ؟ » .

وأجابت كاتنكا فى انتعاشة اظهرت اهتمامها بملاحظتى : « هل أنا منحرفة المزاج ؟ لست منحرفة المزاج البتة » .

وتابعت حديثى قائلا : « لست كما اعتدت أن تكونى ، فقد كان من الواضح كل الوضوح انك كنت تشعرين بنفس شعورنا ازاء كل شيء ، وتعتبريننا كالأقارب ، وتحبيننا كما نحبك تماما ، ولكنك الآن أصبحت كثيرة الجد ثم أنك شديدة العزلة » .

لا ، لست كذلك ...

واعترضت حديثها ، اذ شعرت لتوى بدغدغة فى أنفى ـ نذير الدموع التى تفيض بها عيناى دائما حين انفس عن فكرة شعر بها قلبى وطال احتباسها . فقلت : « انك تبتعدين عنا ، ولا تتحدثين الى أحد سوى ميمى كأنك أردت تجاهلنا » .

وأجابت كاتنكا . التى كان من عادتها تفسير كل شيء بنوع

من الضرورة القاتلة عندما لا تعرف ماذا تقول : « حسن • انك لا تستطيع ان تكون دائما كما انت • بل لا بد لك أن تتغير فى بعض الأحيان » •

لقد تشاجرت مرة مع ليوبتشكا وقالت لها فى شجارها «يامغفلة» فأجابتها بقولها : « لا يمكن لكل انسان أن يكون حكيما • فلا بد أن يكون بعض الناس مغفلين » • ولم ترضنى اجابتها حين قالت : « انك لا بد ان تتغير فى بعض الأحيان • فتابعت توجيه اسئلتى » •

« ولماذا لا بد لك ان تتغيرى ؟ » •

وأجابت كاتنكا وقد اعتراها خجل طفيف • وتطلعت الى ظهر فيليب « اننا لا نستطيع أن نعيش سويا على الدوام • ان أمى استطاعت أن تعيش مع أمك المتوفاة لأنهما كانتا صديقتين • ولكن الله يعلم ما اذا كانت تستطيع مسايرة الكونتيسة التى يقولون انها سيئة الطباع • وفوق هذا فلا بد لنا من الافتراق يوماً ما مهما كانت الحال• فأنتم أغنياء ، تملكون بتروفسكوى • ولكنا فقراء ووالدتى لا تملك شيئاً •

« أنتم أغنياء • ونحن فقراء !! » وبدت لى تلك الكلمات وما يرتبط بها من أفكار شيئاً غريباً جداً • فقد كنت أظن فى تلك الأيام ان الشحاذين والفلاحين (الموزيك) وحدهم ، هم الذين يمكن ان يكونوا فقراء ـ ولم أستطع قط ان اربط فكرة الفقر هذه بكاتيا الجميلة الرشيقة • وخيل الى انه ما دامت ميمى وكاتيا قد

عاشتا معنا دائماً فانهما مستطيعتان أن تظلا معنا ومقاسمتنا كل شيء ، ولكن الآن لاحت لى الف فكرة تتصل بموقفهم الانعزالى ، وشعرت بالخجل من كوننا اغنياء وهم فقراء حتى لقد احمر وجهى حياء . ولم أفكر فى التحديق مباشرة فى وجه كاتنكا . وقلت فى نفسى : « ما معنى اننا أغنياء وهم فقراء ؟ وكيف يستدعى هذا أننا لا بد ان نفترق ؟ ولماذا لا نتقاسم كل شيء على قدم المساواة ؟ » ولكنى فهمت ان هذا شيء يجب الا أتحدث عنه مع كاتنكا . وحدثتنى على التو تلك الغريزة العملية المعارضة لهذه الاستناجات المنطقية ، بأنها كانت على حق ، وانه من تحصيل الحاصل ان أشرح لها فكرتى .

وسألتها : « أحقيقة انك ستتركيننا ؟ وكيف نستطيع العيش وكل منا بعيد عن الآخر ؟ » .

« وما حيلتنا فى هذا ؟ انه لشيء مؤلم لى أنا أيضاً . ولكنه اذا حدث بالفعل فانا أعرف ما سأفعله » .

وقاطعتها قائلا : « ستصبحين ممثلة ! يا له من عبث ! » وكنت أعرف ان حلمها الدائم هو ان تصبح ممثلة .

« لا . لقد قلت حين كنت صغيرة جدا » .

« وماذا تفعلين اذن ؟ » .

سأصبح راهبة وأعيش فى الدير ، وأتجول فى رداء أسود وقلنسوة من المخمل .

وانفجرت كاتنكا بالبكاء •

وهل حدث لك مرة ايها القارىء ان لاحظت على حين فجأة ، وفى أية مرحلة من مراحل حياتك ، ان نظرتك الى الأشياء قد تغيرت تغيراً تاماً ، كما لو كانت كل الأشياء رأيتها من قبل قد تحولت الى الجانب الآخر الذى لم تكن تدركه ! ان تغيراً عقلياً من هذا النوع قد حدث لى أثناء رحلتنا • ومنذ ذلك الوقت أؤرخ بداية صباى •

ولأول مرة ، وقع فى نفسى اننا ـ أى أسرتنا ـ لم نكن وحدنا فى هذا العالم واننا لسنا المركز الذى تدور حوله جميع الاهتمامات، وان هناك حياة أخرى لأناس لا تربطهم بنا رابطة ، ولا يهتمون بنا فى شىء ، بل ليس لديهم فكرة عن وجودنا • ولا شك اننى عرفت كل هذا من قبل ، ولكننى لم أعرفه على الوجه الذى عرفته الآن ، ولم أحسه بشعورى •

ان الفكرة تصبح اعتقاداً فقط بطريقة محددة يغلب الا تكون متوقعة مطلقاً ومختلفة عن الطريقة التى تصل بها عقول أخرى الى نفس الاعتقاد • ان المحادثة مع كاتنكا التى أثرت فى تأثيراً عميقاً وجعلتنى أمعن النظر فى موقفها فى المستقبل ، كانت هى الطريق الذى انتهجته • لقد تطلعت الى القرى والمدن التى نجتازها ، والتى تعيش فى كل بيت منها أسرة على الأقل كأسرتنا ، والى النساء والاطفال الذين ينظرون فى فضول طارىء بعد مرور عرباتنا

واختفائها عن الانظار الى الأبد ، والى اصحاب الحوانيت والفلاحين ، الذين لم يحيـونا وحسب كمـا تعـودت أن أراهم يفعلون فى بتروفسكوى ، بل انهم لم يكرموننا بأكثر من نظرة . ولذلك خطرت لى فكرة لأول مرة وهى : ماذا يمكن أن يشغلهم اذا كانوا لا يهتمون بنا أقل اهتمام ؟ ومن هذا السؤال انبثقت أسئلة أخرى : كيف ، وبأية وسيلة يعيشون ؟ وكيف يربون أطفالهم ؟ هل يثقفونهم أو يتركونهم يلعبون ؟ وكيف يعاقبونهم ؟ وما الى ذلك .

(٣٢)

فى موسكو

عند وصـولنا الى موسـكو كان التغير فى آرائى عن الأشـياء والناس ، وعن علاقاتى بهم لا يزال محسوسا . وعندما رأيت جدتى فى أول اجتمـاع بها نحيلة مغضنة الوجه كليلة العينين ، تحـول شعورى بالتبجيل الحقير ، والخوف الذى كان يخالجنى نحوها الى عطف وعندما ضغطت وجهها برأس ليوبتشكا بكت . حتى لكأنهـا تنظر الى جثة ابنتهـا المحبوبة . بل ان عطفى استحال الى حب . وضاقت نفسى لرؤية حزنها لدى مقابلتها لنا . ورأيت أننا لا نساوى شيئاً بذاتنا فى نظرها ، واننا أعزاء لديها كذكريات . وشعرت انه

لم يعد هناك غير فكرة واحـدة ماثلة فى كل قبلة من القبـلات التى غمرت بها وجنتى : « لقد ذهبت • ماتت • ولن أراها مرة أخرى »

أما أبى الذى لم يكن لديه بعـدئذ شىء آخـر يفعله لنا فى موسكو ، وكان وجهه مهموماً على الدوام ، ويجىء الينا فى وقت الغداء فقط فى معطف اسود أو توب السهرة ، فانه فقد الشيىء الكثير فى نظرى كمـا فقدت بنيقاته الكبيرة الـلامعة ، وعباءته ، ورؤساء خدمه ، وكتبته ، وسعيه الى الجرن وصيده الشىء الكثير ، ثم كان هناك كارل ايفانتش الذى كانت تطلق عليه جدتى « ديادكا » والذى استقر فى ذهنه على حين فجأة أن يستبدل بصلعته المألوفة المحترمة، شعراً أحمر مستعاراً به فارق فى وسط رأسه تقريبا • والله يعلم السبب فى هذا • وقد بلغ مما بدا لى من غرابة هذا العمل ومانيطوى عليه من سخرية اننى تساءلت كيف فشلت فى ملاحظة ذلك من قبل•

ونشأ أيضا فيما بيننا وبين الفتيات حاجز غير مرئى • فقد كانت لهم أسرارهن وكانت لنا أسرارنا فكن فيمـا يبـدو يتظاهرن أمامنا بوزراتهن التى ازدادت طولا ، ونزهو نحن بسراويلنا ذات الأربطة عند القدمين • وظهرت ميمى فى غداء أول يوم أحد فى ثوب أنيق وأشرطة على رأسها وكانت من الجمال بحيث خيل الينا لأول وهلة اننا لسنا فى الريف ، وان كل شىء أصبح الآن مختلفاً •

(٣٣)

الأخ الأكبر

.. كنت أصغر من فولوديا بعام وبضعة أشهر فقط . نشأنا معا . ولم نفترق مطلقاً لا فى الدروس ولا فى الألعاب . ولم يحدث بيننا تمييز مطلقاً بين الأكبر والأصغر . ولكن قرابة الوقت الذى اتحدث عنه بالضبط بدأت اتحقق من اننى لم أكن متساوياً مع فولوديا لا فى السن ، ولا فى الميول والقدرات . بل بدأت أتصور ان فولوديا كان عارفا بتفوقه ، مزهوا به . ويحتمل ان يكون هذا اعتقادا خاطئا أثار فى حب الذات ، وكان يجرحه فى كل مقابلة معه .. لقد كان يبزنى فى كل شىء ـ فى اللعب والدراسة ، والمشاحنات وفى معرفته كيف يتصرف . كل هذا أبعده عنى ، وسبب لى تعذيبا عقلياً لم أعرف له سبباً . ولو قلت فى صراحة ، عندما ارتدى فولوديا فى أول مناسبة قميصاً من التيل ذا ثنيات ، اننى متضايق لأننى لا أملك قميصاً مثله ، لكان الأمر أهون من ذلك دون شك ، ولما ظننت فى كل مرة كان يصلح فيها من بنيقته ، انه يريد أن يفعل ذلك بمفرده لكى يؤذى شعورى .

ومما كان يعذبنى أكثر من كل شىء آخر ان فولوديا كان

يفهمني • وهذا ما كنت اتخيله في بعض الأحيـان ، ولكنـه كان يخفي ذلك عني •

من ذا الذي لم يلاحظ تلك العـلاقات الغامضة الصامتة التي تكشف عنها الابتسامة العارية المحسوسة ، أو الحركة ، أو النظرة، التي تنشأ بين اناس يعيشون معا أخوة وأصدقاء أو زوج وزوجه ، أو سيد وخادم ، وبخاصة حين لا يكون هؤلاء الناس غير صرحاء من كل الوجـوه مع بعضهم البعض !! • وكم من رغبـات وأفكار ومخاوف غير منطوقة ـ عن أشياء مفهومة ـ يعبر عنها بنظرة عارضة حين تلتقي العيون على استحياء وتردد ! •

ولكن لعـلي كنت مخـدوعاً في هذه الناحيـة نتيجة لشـدة حساسيتي وميلي الى التحليل • ولربما لم يشعر فولوديا البتة بما كنت اشعر به ، اذ انه كان مندفعاً صريحاً ، غير ثابت في نزعاته • وكان منساقاً لمطامحه ، مستسلماً لها بكل روحه •

كان يتملكه في وقت ما شـغف بالصـور • ثم راح يرسـم بنفسـه وكان يصرف على الرسم كل ما له الذي يلتمسـه من معلم الرسم ومن بابا ومن جدته ، ثم كان شغفه بالأدوات التي يزين بها منضدته • يجمعها من جميع أنحـاء المنزل • ثم غـرامه بالروايات التي يحصـل عليها خلسة ويعكف على قراءتها ليـلا ونهارا • وقـد جرفتني هواياته رغما عني • ولكني كنت أشد كبرياء من أن أترسم

خطاه ، وأكثر إعتماداً على الآخرين من ان اختار طريقى لنفسى • ولكن لم يكن هناك شىء بقدر ما كنت أغـار من اخـلاق فولوديا الراضـية الصريحة النبيلة ، التى كانت تتجلى بوضـوح عجيب عندما نتشاحن • وكنت أشعر انه يتصرف تصرفاً سـليما • ومع ذلك لم استطع حمل نفسى على تقليده •

حدث مرة حين بلغ شغفه بالتحف النادرة ذروته ان قصدت الى منضدته فكسرت مصـادفة قارورة عطر صـغيرة فارغة متعـددة الألوان •

وقال فولوديا حين دخل الحجـرة ولاحظ الاضطراب الذى احدثته فى تنسيق التحف المتنوعة الموضوعة على منضـدته : « من سمح لك ان تلمس أشيائى ؟ وأين قارورة العطر الصغيرة ؟ انك دائماً ــ » •

« لقد سقطت منى مصادفة وانكسرت فأى ضرر فى هذا ؟ »

فقال وهو يضع شظايا القارورة المكسـورة مع بعضها البعض ويتأملها بأسى : « أرجو الا تتجاسر على لمس أشيائى » •

فأجبته معترضاً : « وأرجو ألا تأمرنى ، لقد كسرت ، وهذا ما حدث ، فماذا تجدى الضجة ؟ » •

وابتسمت مع انه لم تكن لدى أية رغبة فى الابتسام •

واستمر فولوديا فى حديثه وهو يهز كتفيه استهجاناً ، وهى عادة أخذها عن أبى : « آه . انها قد لا تعنى شيئاً بالنسبة لك ، ولكنها تعنى عندى الشىء الكثير ... انت تروح فتكسر أشيائى ثم تضحك أيها الولد البذىء ! » .

« اننى ولد صغير . ولكنك غبى بقدر ما أنت كبير » .

وقال فولوديا وهو يدفعنى دفعة خفيفة : « اننى لا أنوى التشاحن معك . ابتعد من هنا ! » .

« لا تدفعنى ! » .

« ابتعد ! » .

« قلت لا تدفعنى ! » .

وأمسكنى فولوديا من يدى وحاول ان يجرنى بعيداً عن المنضدة . ولكنى كنت أتميز غضباً فأمسكت برجل المنضدة وأخذت التحف المصنوعة من الخزف والزجاج الصخرى وحطمتها على الأرض قائلا : « ها هى ! » .

وصرخ فولوديا وهو يحاول انقاذ بعض كنوزه المتساقطة : « يا لك من طفل صغير كريه !! »

وقلت لنفسى وانا أبارح الحجرة : « لقد انتهى الآن كل شىء بيننا ، واختصمنا الى الأبد » .

لم يتحدث احدنا الى الآخر حتى المساء . وشعرت انني مخطيء وخفت ان انظر اليه . ولم استطع ان اشغل نفسي بأي شيء طوال اليوم . ولكن فولوديا كان على العكس ، فقد أنجز دروسه على خير وجه وثرثر وضحك مع الفتيات بعد الغداء كعادته .

وحالما انتهى الدرس غادرت الحجرة . كنت في حالة من الخوف والارتباك وتأنيب الضمير لا تسمح ببقائي منفرداً مع أخي . وبعد درس المساء في مادة التاريخ تناولت كراسة مذكراتي واتجهت الى الباب . وعندما مررت بفولوديا عبست وحاولت اصطناع الغضب بالرغم من رغبتي في الذهاب اليه ومصالحته ، ورفع فولوديا رأسه في نفس تلك اللحظة ، ونظر الي بجسارة نظرة تكاد ان تكون ملموسة ، فيها رقة وسخرية . وتلاقت عينانا ، وعرفت انه يفهمني، بل تحققت أيضا انه يفهمني . ومع ذلك فان شعوراً أقوى مني جعلني أعرض عنه .

وقال بصوت ذي نغمة بسيطة للغاية ودون أقل انفعال : « نيكولنكا ! لقد غضبت مدة كافية ، فاغفر لي ان كنت قد أسأت اليك » .

ومد لي يده .

وخيل الي ان شيئاً يرتفع في صدري ويعلو شيئاً فشيئاً حتى كاد ضغطه يخنقني ولم يستمر ذلك غير لحظة . ثم طفرت الدموع

من عينى ، وشعرت بتحسن حالتى . وقلت وانا اضم على يده : « اننى آسف يا فولوديا » .

ولكن فولوديا نظر الى كأنه لم يستطع ان يفهم لماذا طفرت الدموع من عينى .

(٣٤)

ماشا

ومع ذلك لم يكن هناك تغير فى آرائى عن الأشياء أدعى الى دهشتى من ذلك الذى أدى بى الى الاقلاع عن النظر الى احدى فتياتنا كمجرد خادمة من الجنس الآخر ، والنظر اليها كامرأة قد يعتمد عليها فى سلامى وسعادتى الى درجة ما .

.. وبقدر ما أستطيع تذكر أى شىء مما مضى ، فاننى لأتذكر «ماشا» فى بيتنا تلك التى لم أعرها أقل اهتمام الى أن كانت المناسبة التى غيرت نظرتى اليها تغييرا تاما . وهى التى سأذكرها الآن .

كانت ماشا فى الخامسة والعشرين عندما كنت فى الرابعة عشرة ، وكانت رائعة الجمال ، ولكنى أخشى أن أصفها ، أخشى ان يستحضر خيالى مرة أخرى الصورة الفاتنة الخادعة التى كانت عليها فى عهد ولعى بها . ولكى لا أدع مجالا لأى خطأ فحسبى أن

أقول ان بشرتها كانت بيضاء بدرجة غير عادية وكانت مفرطة النضارة ـ كانت امرأة • وكنت فى الرابعة عشرة •

فى احدى تلك اللحظات ، حين يكون كتاب الدرس فى يدك وتنهمك فى المشى ذهابا وايابا فى الحجرة محاولا ان تخطو مترسما شقوق الأرض أو فى الترنم بنغمات متقطعة أو فى تلطيخ حافة المائدة بالحبر أو فى اعادة جملة ما بطريقة آلية ـ وقصارى القول فى احدى تلك اللحظات التى يرفض فيها العقل ان يعمل ، ويسود فيها الخيال باحثاً عن الانطباعات ـ خرجت من حجرة الدراسة وهبطت الى بسطة السلم دون هدف ما •

كان شخص ما ينتعل خفا • يصعد القلبة التالية من الدرج • وأردت •• بطبيعة الحال معرفة من هو • ولكن صوت وقع الأقدام توقف فجأة وسمعت صوت ماشا تقول : « اليك عنى ! ماذا تظن ماريا ايفانوفنا لو حضرت ؟ » •

وقال فولوديا هامسا : « ولكنها لن تحضر » ثم سمعت حركة • كما لو كان فولوديا يحاول ان يمسك بظهرها •

« عجباً ، عجباً• ارفع يديك يا نذل ! » وجرت ماشا مارة بى• وكان منديلها كله فى جانب واحد • يظهر من تحته عنقها الأبيض الممتلىء •

لا أستطيع ان أشرح كيف دهشت لهذا الاكتشاف ، ولكن

دهشتى سرعان ما أفسحت الطريق للعطف على طفرة فولوديا • لم يكن ما فعله هو الذى دهشت له ولـكن الذى أدهشـنى هو كيف خطر له ان يكون هذا العمل ساراً • وأخذت أشـعر دون قصـد بالرغبة فى تقليده •

كنت أقضى ساعات فى بعض الأحيان على تلك « البسطة » دون أن أفكر فى أى شىء اصغى بانتبـاه مرهف لأقل حـركة تأتى من أعلى • ولكننى لم اسـتطع حمـل نفسى على تقليد فولوديا • بالرغم من اننى كنت أرغب قبل كل شىء فى الدنيا ان أفعل مثله • وكنت اختبىء أحيانا خلف الباب وأتسمع بشعور آثم من الحقد والغيرة ، الى اللغط الذى يجرى فى حجرة الخادمات • رساورنى التفكير فيما يكون عليه موقفى ان صـعدت الى الطابق العلوى وحـاولت تقبيل ماشا كما فعل فولوديا ؟ وماذا أقول بانفى المفرطح وشعرى المتمرد اذا سألتنى عما أريد ؟ كنت اسمع ماشا أحياناً تقول لفولوديا : « يالك من طاعون ! لماذا تصر على مضايقتى ؟ اذهب عنى أيها المحتال ! لماذا لا يأتى نيكولاى بتروفتش الى هنـا مطلقـاً ويمـزح هـذا المزاح السخيف ؟ » وهى لم تكن تعلم ان نيكولاى بتروفتش كان فى تلك الآونة جالساً على السـلم ويود ان يعطى أى شىء فى الدنيا مقابل ان يكون فى مكان ذلك الفولوديا المحتال •

لقد كنت خجولا بطبيعتى ولكن خجلى ازداد كثيراً لاقتناعى بقبح شكلى ، واننى لأعتقـد انه لا يوجد شىء له هذا الأثر الحاسم

على مسلك الانسان مثل مظهره الشخصى • ولا يبلغ مظهره مبلغ اعتقاده فى جاذبية هذا المظهر أو عدم جاذبيته •

كانت كبريائى الذاتيـة أقوى من أن أعتـاد وضعى • فكنت أواسى نفسى لثقتى ان الوقت لم يحن بعد • اى اننى حاولت ازدراء جميع الملذات المستمدة من الظاهر السار الذى كان يتمتع به فولوديا فى نظرى ، والذى كنت أحسده عليـه من كل قلبى • وأجهدت خيالى للوصول الى السلوان فى عزلتى الأبية •

(٣٥)
طلقة

صاحت وهى تلهث خائفة : « يا الهى ، بارود !! ماذا تفعل ؟ أتريد ان تحرق البيت فينهار ونموت جميعاً ؟ » •

وأمرت ميمى ان يبتعد الجميع ، وقد بدت عليها سمات من التصميم يعجز عنها الوصف • وسارت بخطوات واثقة الى الطلقـة المتناثرة مزدرية بالخطر الذى يمكن ان ينجم عن انفجار لم يحن وقته بعد ، وأخذت تطأه بقدميها • وعندما ابتعد الخطر كما حسبت، نادت ميخى وأمرته بالقـاء « البارود » فى أقصى مكان يسـتطيع أو الأفضل أن يلقيه فى الماء • وسوت قبعتها فى كبرياء ، وقصدت الى

قاعة الاستقبال ، وتمتمت قائلة : « ان العناية بهم تامة . هذا شيء غير منكور » .

وعندما جاء والدى من الجناح وصحبناه الى حجرة جدتى ، كانت ميمى جالسة هناك قرب النافذة وهى تنظر نحو الباب متوعدة وعليها سمات معينة من التكلف الغامض وكان فى يدها شيء ملفوف فى ورقة . خمنت انه الطلقة . وان جدتى قد عرفت كل شيء .

وفى حجرة جدتى ، كانت تجلس بجوار ميمى ، الخادمة جاشا التى كان يبدو من وجهها الأحمر الغاضب انها متكدرة الى حد كبير جداً . وكان الطبيب بلومنتال ، وهو رجل صغير به آثار من الجدرى ، يحاول عبثاً تهدئة جاشا بايماءات مبهمة بواسطة عينيه ورأسه .

وكانت جدتى تجلس مجانبة الى حد ما وقد نفد صبرها ، مرتدية ثوباً بسيطاً . وهذه كانت دائماً دلالة على حالة نفسية مشئومة .

وسألها بابا وهو يقبل يدها باحترام : « كيف حالك اليوم يا أماه هل نمت نوماً مريحاً ؟ » .

وأجابت جدتى فى لهجة يدل ظاهرها على أن سؤال بابا لم يكن مناسبا بل كان مهيناً الى ابعد حد : « على ما يرام يا عزيزى ، وأعتقد أنك تعرف اننى دائماً بصحة جيدة » ثم تابعت حديثها ملتفتة الى جاشا : « حسن . أستحضرين لى منديلا نظيفاً ؟ » .

وأجابت جاشا مشيرة الى منديل من التيل الرفيع فى بياض الثلج موضوعاً على مسند المقعد : «لقد أعطيتك اياه » •

« ابعدى هذا المنديل القذر يا عزيزتى واعطنى آخر نظيفاً »•

وذهبت جاشا الى صوان الملابس ، وفتحت الدرج ، ثم صفقته ثانية صفقة شديدة اهتز لها جميع زجاج الحجرة • فنظرت جدتى الينا جميعاً نظرة تهديد واستمرت فى مراقبة حركات الخادمة بانتباه• وعندما ناولتها الأخيرة واحدا هو نفس المنديل فيما يبدو ، قالت جدتى : « متى تسحقين سعوطى ياعزيزتى » •

« سأسحقه عندما يتسع لى الوقت » •

« ماذا قلت ؟ » •

« سأسحقه اليوم » •

« اذا كنت يا عزيزتى غير راغبة فى البقاء فى خدمتى ، وكان يجب أن تقولى ذلك ، لأعفيتك منها منذ زمن طويل » •

وغمغمت الخادمة فى صوت خفيض قائلة : « لن أبكى ان أعفيتنى من الخدمة » •

وفى تلك اللحظة حاول الطبيب ان يغمز لها بعينه ، ولكنها نظرت اليه نظرة فيها من الغضب والتصميم ما جعله يرخى عينيه على الفور ، ويتشاغل بمفتاح ساعته •

وبينما كانت جاشا لا تزال تغمغم بعد مبارحتها الحجرة التفتت جدتى الى أبى قائلة : أترى ياعزيزى كيف يتحدث الناس الى فى قلب بيتى » •

وقال بابا الذى كان من الواضح انه تضايق كثيراً لهذا التصرف غير المنتظر : « اذا كنت تسمحين لى يا أمى فسأطحن لك سعوطك » •

« لا • أشكرك • انها وقحة ، لأنها تعرف أن أحداً غيرها لا يعرف كيف يسحق سعوطى مثلها » • وأضافت جدتى بعد برهة قليلة من الصمت : « اتعرف يا عزيزى ان اطفالك كانوا على وشك أن يحرقوا البيت اليوم ؟ » •

ونظر بابا الى جدتى مستفسرا نظرة ملؤها الاحترام •

والتفتت جدتى الى ميمى قائلة : « نعم • أريه ؟ اليك ما كانوا يلعبون به » •

وتناول بابا الطلقة فى يده ، ولم يستطع ان يمسك عن الابتسام وقال : « انها طلقة يا أمى • وهى ليست خطيرة بالمرة » •

« اننى شاكرة جدا لك يا عزيزى لتعليمك اياى ، غير اننى تجاوزت كثيراً سن التعليم » •

وهمس الطبيب : « الهدوء ، الهدوء » •

والتفت ابى الينا مباشرة .

من أين حصلتم على تلك الطلقة ؟ وكيف تجاسرتم على اللهو بمثل هذه الأشياء ؟ » .

وقالت جدتى : « ليسوا هم الذين ينبغى ان تسألهم ، سل خادمهم ديالكا » .

ونطقت جدتى كلمة ديالكا بنوع معين من الاحتقار، وأضافت: « ما الذى يهتم به ؟ » .

وقالت ميمى : « لقد قال فولديمار ان كارل نفسه هو الذى أعطاه البارود » .

وتابعت جدتى حديثها قائلة : « انظر ، ما أطيبه ! وأين هو ذلك الديالكا ، وما اسمه ؟ أرسله الى هنا » .

وقال بابا : « لقد منحته أجازة لكى يقوم بزيارة » .

« ان ذلك لا يفى بالغرض البتة ، بل ينبغى ان يكون هنا كل الوقت ، والأطفال أطفالك وليسوا أطفالى ، وليس لى الحق فى نصحك لأنك أحكم منى عقلا » ثم تابعت حديثها قائلة : « ويبدو ان الوقت قد أزف لتعيين مدرس خاص لهم لا خادماً ، فلاحاً ألمانياً ـ نعم فلاحا غبياً ، لا يستطيع تعليمهم شيئاً الا العادات السيئة وأغانى التيرول .

وانني لأسألك هل الأطفال حقيقة بحاجة الى انشاد الأغاني التيرولية؟ ومع ذلك فان أحدا لا يفكر في هذا الآن . فأنت تستطيع ان تفعل ما تشاء » .

وكانت كلمة « الآن » تعني انهم محرومون من الأم ، مما أيقظ في قلب جدتي ذكريات محزنة فأسدلت عينيها على علبة السعوط والصورة التي عليها ، وراحت في تفكير عميق .

وأسرع أبي يقول : « لقد كنت أفكر في ذلك منذ مدة طويلة ، وأردت أن أسألك النصيحة يا أمي . هل نسأل سان جيروم الذي يعطيهم الآن دروس الصباح ؟ » .

وقالت جدتي ، ولم يكن قولها بلهجة الساخط التي تحدثت بها من قبل : « ان سان جيروم مدرس خاص على الأقل ، ويعرف كيف ينبغي ان يتصرف أبناء » البيوتات الطيبة ، وليس خادماً تافهاً لا يصلح لشيء الا ان يأخذهم للنزهة .

وقال أبي : « سأتحدث معه غدا » .

والواقع ان كارل ايفانتش سلم مكانه بعد يومين من هذه المناقشة الى الشاب الفرنسي الأنيق .

(٣٦)

قصة حياة كارل ايفانتش

•• فى ساعة متأخرة من الليلة السابقة على رحيل كارل ايفانتش عنا الى الأبد ، وقف بجوار الفراش فى عباءته الفضفاضة وغطاء رأسه الأحمر ، منحنياً على حقيبته يحزم أمتعته بعناية •

كان موقف كارل ايفانتش ازاءنا فى المدة الأخيرة بنوع خاص جافاً : كان يبدو عليه انه يتحاشى كل اتصال بنا • وحين دلفت آنئذ الى حجرته رمقنى كذلك بنظرة كئيبة واستمر فى عمله • واضطجعت على فراشى ، ولكن كارل ايفانتش الذى كان يحرم هذا فى المرات السابقة تحريما قاطعا ، لم يقل لى شيئاً قط ، وكان تفكيرنا فى انه لن يمنعنا بعد الآن أو يزجرنا ولا يهتم بنا الآن فى شىء ، تذكرة قوية بقرب الانفصال • كنت آسفاً لانتهاء حبه لنا فأردت ان أعبر له عن شعورى فقلت وانا مقبل عليه : « اسمح لى بمساعدتك يا كارل ايفانتش » فنظر الى كارل ايفانتش ثم تحول عنى ثانية ، ولكنى لم أقرأ فى نظرته العابرة التى ألقاها على ، عدم المبالاة الذى كنت أفسر به فتوره ، بل كان حزنا حقيقيا •

وقال وهو يشد قامته ويقف منتصبا كل الانتصاب وينتهد

بحزن : « ان الله يرى كل شيء ، ويعلم كل شيء ، فلتكن مشيئته الصالحة في كل شيء » ، ثم راح يقول حين لاحظ تعبير العطف الخالص الذى انطوت عليه نظرتى اليه : « نعم ، يا نيكولنكا ، ان نصيبى هو ان أكون تعيساً من طفولتى الى قبرى ، لقد كنت أجازى دائماً بالشر لقاء ما أفعله من خير للناس » ثم قال وهو يشير الى السماء : « ان ثوابى ليس هنا ، ولكنه سيكون هنالك » .. وختم حديثه بقوله : « لو انك عرفت تاريخى فقط ، وكل ما صادفته فى هذه الحياة !! لقد كنت اسكافاً ، وكنت جندياً ، وكنت هارباً من الخدمة العسكرية ، وكنت عاملا فى مصنع ، وكنت مدرساً ، أما الآن فأنا لا شيء ، مثل ابن الانسان ، لا أجد مكاناً أضع فيه رأسى » ثم أغمض عينيه وغاص فى مقعده .

وعندما رأيت حالة كارل ايفانتش العقلية المؤثرة التى صرح فيها بأعز أفكاره ليفرج عن نفسه دون اكتراث بالسامع ، جلست على الفراش فى صمت ، دون ان احول عينى عن وجهه الحنون .

« انك لست طفلا ، وتستطيع أن تدرك ، وسأقص عليك قصتى وكل ما احتملته فى هذه الحياة . وستذكر يوما ما ، الصديق القديم الذى أحبكم حبا جما ايها الأطفال » .

وأسند كارل ايفانتش كوعه على المنضدة القريبة منه ، وتناول قبضة من السعوط ، وأدار عينيه الى السماء ، وبدأ يحكى قصته بذلك الصوت المعتدل الخاص الذى اعتاد ان يملى به علينا .

•• وقال فى تأثر عميق : « لقد كنت تعيساً حتى قبل ان أولد » •

ولما كان كارل ايفانتش قد روى لى قصة حياته أكثر من مرة بنفس العبارات ، ودائما بنفس النغمات ، فاننى آمل أن أستطيع اعادة روايتها كلمة بكلمة ، فيما عدا اخطاءه فى اللغة الروسية بطبيعة الحال• وسواء أكانت هذه قصة حياته حقيقية ، أم من تصوير خياله الذى توهمه أثناء حياته المنعزلة فى بيتنا ، أم أنه اقتصر على تلوين الوقائع الحقيقية ، بالحوادث المتخيلة ، فليس فى استطاعتى حتى اليوم القطع بشىء • فهو أولا روى قصته بشعور قوى ، وتتابع منتظم مما يكون الأدلة الأساسية للصدق ولا يسمح للمرء بالشك فيها ، ومن ناحية أخرى ، فان نفس الاسراف فى التفاصيل الشاعرية عن تاريخه تميل الى زيادة الشكوك •

« تجرى فى عروقى دماء كونت سومربلات النبيلة ، وكان زوج أمى (وكنت أدعوه بابا) مزارعا فى أرض الكونت سومر بلات ، ولم يستطع ان ينسى مطلقا عار أمى ، ولم يحبنى • وكان لى أخ صغير يدعى جوهان ، وأختان ، ولكنى كنت غريبا فى وسط أسرتى • واعتاد « بابا » حين كان جوهان يقترف حماقة ان يقول : « لا أجد مطلقا لحظة هدوء مع ذلك الطفل ، كارل ! ، وكنت أعنف وأعاقب • وعندما كانت اختاى تغضبان ، الواحدة من الأخرى ،

كان بابا يقـول : « لن يصبح كارل ولدا مطيعـاً البتـة » ثم أعنف وأعاقب •

« ولم يحبنى أحد غير أمى الطيبة دون غيرها • وكثيراً ماكانت تقول لى : « تعال هنا يا كارل الى حجرتى » ثم تقبلنى خلسة وتقول: « مسكين كارل ، لا يحبك أحد ، ولكنى لا أعدل بك واحدا ، كائناً من كان ، ان شيئاً واحداً فقط تطلبه منك امك ، هو ان تكون دائماً رجلا شريفا ، فلا يتخلى الله عنك ! وحاولت أن أكون كذلك •

وعندما بلغت الرابعـة عشرة ، واسـتطعت ان انتقـل بالمواصـلات وحـدى ، قالت أمى « لبـابا » ان كارل أصبح ولدا كبـيرا الآن يا جوستاف فماذا أنت فاعل ؟ » وقال بابا : « لا أدرى » ، وقالت أمى : « فلنرسله الى المدينة ، الى هر شولتز ، ليصبح اسكافا ، فقال بابا : « حسن جدا • وعشت فى المدينة ست سنوات وسبعة اشهر، مع معلمى الاسـكاف ، واحبنى معلمى ، وقـال مرة : « ان كارل صانع ماهر ، وسيكون قريباً صانعاً بأجر يومى ، ولكن الانسان يفكر والله يدبر ، وفى سنة ١٨٩٦* صدر الأمر بالتجنيد لكل من يصلح للخدمة العسكرية ، وبأن يذهب الى المدينة كل من كانوا فى الثامنة عشرة الى الواحدة والعشرين •

وقدم بابا وأخى جوهان الى المدينة ، وذهبا معا لسحب النصيب «القرعة» لمعرفة من سيكون جنديا ومن لا يكون • وسحب جوهان رقما منحوساً : فكان عليه ان يصبح جنديا ، وسحبت انا رقماً موفقاً،

* اعتقد ان [redacted] الصحيح ١٧٩٦م

فلم أكن مضطراً أن أصبح جنديا • وقال بابا : « ان لى ولدا واحداً ولا بد لى أن افارقه !! » •

تناولت يده وقلت : « لماذا قلت ذلك يا بابا ؟ تعال معى لأقول لك شيئاً ، وجاء بابا • جاء بابا وجلسنا سـويا الى مائدة صغيرة فى الحانة • وقلت : « احضر لنا كأسين من الجعة ، فقدمتا لنا ، وشربنا معا ، وكذلك شرب جوهان •

وقلت : « لا تقل يا بابا ان لك ولدا واحداً ، وانك لا بد ان تفترق عنه ، ان قلبى يريد ان يقفز خارج صدرى عندما اسمع ذلك •• ان أخى جوهان سوف لا يذهب الى الجيش : انا الذى سأصبح جنديا ، فلا يحتاج هنا أحـد الى كارل ، فكارل هو الذى سيصبح جنديا » •

وقال لى بابا : « انك رجل شريف النفس يا كارل » ، ثم قبلنى • وأصبحت جنديا •

(٣٧)

متابعة ما تقدم

•• تابع كارل ايفـانتش حديثـه قائلا : « كان ذلك الوقت عصيباً يا نيكولنكا ، اذ كان نابليون يعيش فى ذلك العهـد ، وأراد أن يقهر المانيا فدافعنا عن بلادنا لآخر قطرة من دمائنا ! •

وكنت فى «أولم» وفى «اوسترلتز» ، وكنت فى «واجرام» •

وسألته وأنا أتأمله فى دهشة : وهل قاتلت أنت أيضا ؟ وهل قتلت رجالا كذلك ؟ » •

وللحال هدأ كارل ايفانتش فكرى من تلك الناحية •

« حدث مرة أن سقط جندى فرنسى من رماة القنابل وراء زملائه وانقض على الطريق فأسرعت اليه ببندقيتى وكنت على وشك قتله ، ولكن الرجل الفرنسى رمى بندقيته وصاح طالباً الرحمة ، فأخليت سبيله (١) •

وفى واجرام طاردنا نابليون الى الجزيرة ، وطوقنا بحيث لم نستطع الفرار من أى مكان ، وظللنا ثلاثة أيام دون مؤن ، واقفين فى الماء حتى ركبنا •

فلم يأخذنا الوغد كأسرى حرب ، ولم يتركنا نهرب ! •

« وفى اليوم الرابع ، اقتادونا الى قلعة ، فحمدا لله على ذلك• وكنت ارتدى سروالا أزرق ، وحلة عسكرية من قماش جيد ، وكان معى خمسة عشر ريالا وساعة فضية ، وهدية من « بابا » فأخذها منى جميعاً جندى فرنسى • وبقى معى لحسن الحظ ثلاث قطع ذهبية

---

(١) قالها بالفرنسية •

من البنـدقى كانت أمى قد خاطتهـا بداخـل صـدريتى فلم يعثر عليها أحد .

ولم أرغب فى البقاء طويلا بالقلعة ، وصممت على الفرار . وفى أحد الأعياد الكبرى قلت للجاويش الذى يقوم على حراستى : « سيدى الجاويش ، انه احتفال مهيب ، وأود مشاهدته ، فأرجو ان تحضر زجاجتين من نبيذ ماديرا لنشربهما معا ، فقـال الجاويش : « حسن جدا ، سـأفعل » وعندما أحضر الجـاويش الماديرا وشرب كل منا كأسـاً ، امسـكت يده وقلت له : « أليس لك يا سـيدى الجـاويش أب وأم ؟ » فأجاب : « نعم ، يا سـيد موير » فقلت . « آه يا سيدى الجاويش ، ان أبى وأمى لم يريانى منذ ثمان سنوات، ولا يعرفان اذا كنت حياً أم ان عظامى راقدة فى الأرض الرطبة ! ان لدى قطعتين من البندقى كانا فى صـدريتى ، خذهمـا ودعنى أذهب ، قدم لى مكرمة ، وستصلى أمى لله القدير من أجلك طوال حياتها » .

فأجاب الجاويش : « انك رجل فقير وسوف لا آخذ نقودك ، ولكنى سأسـاعدك فعندما أذهب لأنام ، اشـتر دلوا من «البراندى» للجنود فينامون ، وسوف لا أراقبك » .

.. كان رجلا طيباً . واشتريت دلوا من البراندى . فلما ثمل الجنود لبست حذائى ومعطفى العسـكرى القـديم ، وخرجت من الباب ، وقصدت الى الحائط ، على أمل القفز من فوقه ، ولكن كان

هناك ماء ، ولا أريد اتلاف آخر ما بقى لى من الملابس ، فذهبت الى البوابة •

وشرب الجاويش كأساً من المديرا وقال : « انني يا سيد موير أحبك وأعطف عليك الى أقصى حد ، ولكنك سجين ، وأنا جندى » ثم ضغطت على يده وقلت « يا سيدى الجاويش !! » •

كان الديدبان يسير جيئة وذهاباً ببندقيته ونظر الى وسأل فجأة : « من يسير هناك ؟ ولكنى لم أجب • وسأل للمرة الثانية : « من هناك ؟ فلم أحر جواباً • وسأل للمرة الثالثة : « من هناك ؟ فأطلقت ساقى للريح ! واندفعت الى الماء ، وخرجت من الجانب الآخر ، وانطلقت أجرى •

ظللت أجرى طوال الليل فى الطريق ، ولكن عندما أخذ يتبلج الفجر خفت ان يعرفونى فاختبأت وراء نبات الجودار المرتفع، ثم ركعت على الأرض وشبكت يدى وشكرت أبانا السماوى لانقاذه اياى ، ثم رحت فى النوم بنفس هادئة •

وصحوت فى المساء ، فتابعت سيرى ، وباغتتنى عربة نقل المانية ضخمة ذات حصانين أسودين • كان يجلس فى العربة رجل حسن الملبس يدخن غليونا ونظر الى ، فسرت متباطئاً لكى تسبقنى العربة ، ولكنى عندما أبطأت السير، تباطأت العربة أيضاً ، وتفرس فى الرجل، فأسرعت السير ، ففعلت العربة كذلك • وأخذ الرجل يتفرس فى

وجهى طوال الوقت ، وجلست على جانب الطريق فأوقف الرجل جواده وأخذ يتطلع الى • وقال : « أنت أيها الشاب • الى أين تذهب فى هذه الساعة المتأخرة ؟ » فقلت : « اننى ذاهب الى فرانكفورت »• فقال : « أركب فى عربتى ، لدى متسع ، وسآخذك الى هناك ، وسألنى عندما جلست بجانبه « لماذا لا تحمل معك شيئا ؟ » ولماذا لم تحلق ذقنك ؟ ولماذا تلوثت ملابسك بالطين ؟ فقلت : « اننى رجل فقير ، وأريد أن أشتغل بالأجر كعامل ، أما ملابسى فقد تلوثت بالطين لأننى سقطت فى الطريق • فقال الرجل : «انك لاتصدقنى القول ، أيها الشاب ، فالطريق الآن جاف » • ولذت بالصمت •

وقال الرجل الطيب : « أذكر لى كل الحقيقة •• من أنت ، ومن أين أتيت ؟ ان شكلك يعجبنى ، فان كنت أميا فسأساعدك » •

وذكرت له كل شىء ، فقال : « حسن جدا أيها الشاب ، تعال معى الى مصنع الحبال ، فأعطيك عملا وملابس ونقودا ، وتعيش معى » •

فقلت : « حسن جدا » •

وذهبنا الى مصنع الحبال ، فقال الرجل لزوجته : « هاهو ذا شاب حارب فى سبيل بلاده ، وهرب من الأسر ، وهو لا يملك بيتا ولا ملابس ولا خبزا وسيعيش معى فاعطه ملابس بيضاء من الكتان وأطعميه •

وعشت فى مصنع الحبال عاما ونصف عام ، وأولع بى رئيسى

ولعا شديدا حتى انه لم يدعنى أتركه • وكنت آنئذ رجلا وسيما ، صغير السن ، طويل القامة ، لى عينان زرقاوان وأنف رومانى ، وكانت السيدة (ل) زوجة رئيسى (ولا أستطيع ذكر اسمها) امرأة صغيرة جميلة ووقعت فى حبى •

وعندما رأتنى قالت : « بماذا تدعوك أمك ياسيد موير ؟ فأجبتها » كارلتشن فقالت : « اجلس هنا بجانبى ياكارلتشن » •

وجلست بجانبها فقالت : « قبلنى ياكارلتشن ! » •

وقبلتها فقالت اننى أحبك ياكارلتشن كثيرا جدا ، حتى اننى لا أقوى على احتمال هذا الحب طويلا ثم ارتجفت من قمة رأسها الى أخمص قدميها •

وهنا توقف كارل ايفانتش طويلا ، وأدار عينيه الزرقاوين الحانيتين الى أعلى وهز رأسه وأخذ يبتسم كما يفعل الناس حين يقعون تحت تأثير ذكريات سارة •

ثم بدأ حديثه ثانية وهو يجلس على كرسيه ذى المسندين ، ويشد رداءه البيتى حول جسمه ، ويشير الى صورة المخلص ، المطرزة على الخيش المعلقة فوق فراشه قائلا : « لقد لقيت فى حياتى الشىء الكثير من الخير والشر ، ولكنه سبحانه وتعالى يشهد أن أحدا لا يستطيع القول بأن كارل ايفانتش كان رجلا غير أمين ، فلم أقابل عطف السيد (ل) الذى شملنى به ، بالنكران الأسود للجميل ،

فصممت على الهرب • وفى المساء ، عندما أوى الجميع الى فراشهم ، كتبت لرئيسى خطاباً وضعته بحجرتى على المائدة ، وأخذت ملابسى، وثلاثة ريالات ، ومشيت دون ضجة الى الشارع ، ولم يرنى أحد ، وسرت قدما فى الطريق •

(٣٨)

تتمة القصة

لم أكن قد رأيت أمى منذ تسع سنوات ، ولم أعرف ما اذا كانت حية أم ان عظامها راقدة في الأرض الرطبة ، وعدت الى مسقط رأسى ، وعندما بلغت المدينة سألت عن مكان جوستاف موير الذى كان يعمل مزارعاً عند الكونت سومر بلات ، فقالوا لى ان الكونت سومر بلات قد توفى ، وان جوستاف موير يسكن فىالشارع الرئيسى ويقتنى حانوتاً للمشروبات الروحية ، فارتديت صدريتى الجديدة ، ومعطفاً جميلا (كان هدية من صاحب المصنع) وفرشت شعرى جيدا وذهبت الى حانوت بابا للمشروبات الروحية وكانت أختى ماريتشن جالسة فى الحانوت ، فسألتنى عما أريد فقلت : أيمكننى الحصول على كأس من الخمر ؟ فقالت : « أبى ، ان شخصاً يطلب كأساً ، وقال بابا : « قدمى للشاب كأساً منها ، وجلست الى المائدة وشربت كأسى ، ودخنت غليونى ، وأخذت اتطلع الى بابا

وماريتشن ، وجوهان الذى دخل أيضاً الحانون . وقال لى بابا أثناء الحديث : « لعلك تعرف أيها الشاب مكان جيشنا الآن ؟ فقلت : « اننى قادم أنا نفسى من الجيش وهو بالقرب من فينا » ، فقال أبى : « ان ابننا كان جنديا ، وقد مضت تسع سنوات منذ ان كتب لنا ، ولا نعرف اذا كان حياً أم ميتاً ... ان زوجتى دائمة البكاء عليه ». ونفخت الدخان من غليونى وقلت : « ما اسم ابنكم ، وفى أية فرقة كان يعمل ؟ فلعلنى أعرفه ، فقال أبى : « ان اسمه كارل موير ، وكان يعمل بفرقة القناصة النمسوية . وقالت اختى ماريتشن : « كان طويلا وسيما مثلك » .

فقلت : « اننى أعرف ابنكم كارل . فقال والدى فجأة : « أماليا ! تعالى الى هنا ، يوجد شاب يعرف ابننا كارل . وتأتى أمى العزيزة من الباب الخلفى ، وعرفتها لتوى ، وقالت وهى تنظر الى وقد استحالت الى شحوب شديد وأخذت ترتجف فقالت : « أتعرف ابننا كارل ؟ » فقلت : « نعم ، لقد رأيته . ولم أجرؤ على رفع عينى اليها ، كان قلبى يريد أن يقفز ، وقالت أمى : « ابنى كارل على قيد الحياة ؟ شكراً لله ... أين هو حبيبى كارل ؟ سأموت فى سلام لو رأيته مرة أخرى ، ولدى المحبوب ، ولكنها ليست مشيئة الله ، ثم أخذت تنتحب ، ولم أقو على تحمل هذا فقلت : « امى ، انا ابنك كارل ، فارتمت بين ذراعى » .

وأغمض كارل ايفانتش عينيه ، وارتعشت شفتاه ، وكرر

عبارته ، وهدأ نوعاً ما ومسح الدموع الكبيرة التى هطلت على وجنتيه .

« ولكن لم يرض الله ان أقضى آخر أيامى فى بلادى ، كان مصيرى أن أكون تعيساً وطاردنى سوء الطالع فى كل مكان ، فلم أقض فى وطنى غير ثلاثة أشهر ، وفى أحد أيام الآحاد كنت فى مقهى وابتعت ابريقاً من الجعة وأخذت ادخن غليونى وأتكلم فى السياسة مع أصدقائى، عن الامبراطور فرانز ، وعن نابليون والحرب وكان يدلى كل واحد برأيه . وكان يجلس بالقرب منا سيد يرتدى معطفاً رمادياً ، ويشرب القهوة ، ويدخن غليوناً ولا ينطق بكلمة . وعندما اعلن الحارس الليلى عن الساعة العاشرة تناولت قبعتى وعدت الى المنزل . وفى نحو منتصف الليل طرق الباب شخص ما ، فاستيقظت وسألت : « من هناك ؟ » فأجاب : « افتح الباب » . فقلت : « اخبرنى من أنت فأفتح لك » ، فقال : « افتح باسم القانون » ، وفتحت الباب ، وكان هناك جنديان يحملان بندقيتين يقفان بالباب ، ودخل الغرفة ذلك الرجل الغريب ذو المعطف الرمادى ، الذى كان يجلس بجوارنا فى المقهى .. لقد كان جاسوساً . وقال الجاسوس « تعال معى » قلت : « حسن جدا ، فلبست حذائى وسروالى ، وحمالتى وأخذت أتجول ، فى الغرفة ، وكنت حانقاً فى صميم قلبى ، وقلت لنفسى : « انه وغد » . وعندما وصلت الى الجدار حيث كان السيف معلقاً ، قبضت على السيف فجأة

وقلت : « انك جاسوس ، دافع عن نفسك ! » وناولته ضربة من يمين وضربة من شمال ، وواحدة على الرأس ، وسقط الجاسوس، وتناولت حقيبتى وكيسى وقفزت من النافذة ، وذهبت الى « ابمز » وهناك تعرفت بالجنرال سازين فمال الى ، واستخرج لى من السفير جواز مرور وصحبنى معه الى روسيا لتعليم اطفاله • وعندما توفى الجنرال سازين ، استدعتنى والدتك اليها وقالت لى : « اننى أعهد اليك يا كارل ايفانتش بأطفالى ، فلتحبهم ، وسوف لا أعزلك ، وسأهيىء لك شيخوخة ميسرة ! • ولقد ماتت الآن ، وأصبح كل شيء منسياً • وبعد عشرين عاماً من الخدمة ، يجب أن أخرج الى الشارع فى سنى المتقدمة للبحث عن كسرة من خبز جاف ؛ ان الله يرى ويعلم ، ولتكن ارادته الصالحة ، غير اننى آسف لأجلكم يا أطفالى • وختم كارل ايفانتش قصته بأن جذبنى اليه من يدى ثم قبلنى على رأسى •

(٣٩)

درجات سيئة

•• انتهى عام الحداد ، وتخلصت جدتى من حزنها نوعا ما ، وأخذت تستقبل الضيوف بين وقت وآخر ، وبخاصة من الأطفال والأولاد والفتيات ممن فى مثل أعمارنا •

وفى اليوم الثالث عشر من ديسمبر ، وهو عيد ميلاد ليوبوتشكا ، وصلت قبل الغداء ، الأميرة كوناكوفا وبناتها فلاخينا وسونتشكا والينكا جراب ، واخوان صغيران من آل أيفين •

ومع اننا كنا نسمع الحديث والضحك والجرى فى قاعة الاستقبال من تحتنا ، فانا لم نستطع الاشتراك معهم حتى تنتهى دروسنا الصباحية • وكان جدول المواعيد بحجرة الدراسة ينص على ان : « الاثنين من الثانية الى الثالثة ، مدرس التاريخ والجغرافيا ، وكان مدرس التاريخ هو الذى نضطر الى انتظاره والاستماع اليه ، وتحيته تحية الانصراف قبل ان نصبح أحراراً • وكانت الساعة الثانية وعشرين دقيقة ، ولكن لم تكن هناك أية اشارة تدل على حضوره ، حتى فى الشارع الذى كنت أراقبه برغبة قوية فى ألا أراه البتة •

وقال فولوديا وهو يرفع عينيه لحظة من كتاب سماراجدوف الذى يعد منه دروسه : « أظن ان ليدوف سوف لا يأتى اليوم »•

وأضفت قائلا فى لهجة اليائس : « أرجو من الله ألا يأتى ، لأننى لا أعرف شيئاً •• ولكن ها هو ذا » •

ونهض فولوديا وتقدم من النافذة •

وقال : « لا ، ليس هو ، انه سيد آخر » ، ثم أضاف وهو يتمدد على الأرض ويحك رأسه ، على عادته حين يستريح دقيقة

من العمل : « اذا لم يحضر حتى الساعة الثانية والنصف ، فيمكننا أن نسأل سان جيروم ان يحفظ كراساتنا » .

وقلت وأنا أتمدد أيضاً وأهز كتاب كايدانوف فوق رأسى بكلتا يدى : « ولماذا يأتى اطلاقاً » .

ولحاجتى الى أى شىء أعمله ، فتحت الكتاب فى موضع الدرس وبدأت أقرأه ، وكان الدرس طويلا صعباً ، ولم أفهم منه شيئاً ، وتحققت من اننى سوف لا أنجح فى حفظ أى شىء ما دمت فى تلك الحالة من الانفعال التى يرفض فيها العقل التركيز على أى موضوع .

وبعد آخر درس لنا فى التاريخ (وكان يبدو لى انه أبعد الموضوعات عن الفهم وأدعاها الى الضجر) شكا منى ليدوف الى سان جيروم ، وأثبت درجتين فى تقريرى ، وكان ذلك يعتبر تقديراً سيئاً جداً ، وأخبرنى سان جيروم آنئذ اننى لو حصلت على أقل من ثلاث درجات فسيكون عقابى صارماً والآن وقد أصبح الدرس الثانى قريباً ، فاننى أعترف اننى كنت أشعر بخوف شديد .

وجرفتنى قراءة الدرس الذى لم أحفظه بحيث سبب لى صوت انتقال النعال بحجرة الاستقبال فزعا مفاجئا ، ولم يكد يتسع وقتى لرؤية ما حولى قبل ان يظهر عند باب المدخل ذلك الوجه المشوه بالجدرى ، الذى أبغضه كل البغض ، وجه ذلك المدرس الثقيل

ذى الهيئة المألوفة ، والمعطف الأزرق الذى تضمه بإحكام الأزرار التقليدية •

وضع قبعته على عتبة النافذة ببطء ، ومذكراته على المنضدة ، ونحى ذيل معطفه جانباً (كأن هذه العمليـة ضرورية جداً) ثم جلس فى مكانه وهو يلهث وقال وهو يدعك احدى يديه التى تنضح عرقاً باليد الأخرى : « والآن يا سادة فلنستعرض أولا ما رأينـاه فى الدرس السابق ، وحينئذ أحاول اطلاعكم على الحوادث اللاحقة فى العصور الوسطى •

وكان معنى ذلك : « أسمعنى درسك » •

وبينما كان فولوديا يجيبه بسهولة وثقة نتيجة لمعرفته بموضوعه معرفة تامة ، خرجت على غير هدى مصعداً على السلم ، ولما لم يكن من المسموح لى بالهبوط ، فقد كان من الطبيعى جـداً ، ان أجـد نفسى على « بسطة السلم » • دون أن أنتبه اليها ، واحتـل موقفى المعتاد الملائم خلف الباب ، جرت ميمى الى فجأة ، وهى التى كانت دائماً سبب نحسى ، وقالت وهى تتفرس فى متوعدة ، ثم فى باب حجرة الخادمات ، ثم تتفرس فى مرة أخرى : « انت هنا ؟ » •

وشعرت شعوراً قوياً بذنبى ، لأننى لم أكن بحجرة الدراسة، ولأننى كنت فى مكان ليس فيه أى عمل • ولذلك امسكت لسانى ، واستعرضت فى شخصى أقوى طابع مؤثر للصبر • وقالت ميمى :

« هذا عمل سيىء للغـاية ! ماذا تفعل هنا ؟ » وبقيت صـامتاً ...
وتابعت حديثهـا وهى تضرب بقبضتها على سـياج السلم قائلة :
« لا يمكن السكوت على ذلك ، سأخبر الكونتيسة عن كل هذا » .

.. كانت الساعة الثالثة الا خمس دقائق حين عدت الى حجرة الدراسة ، وكان المدرس يشرح الدرس التالى لفولوديا كأنه نسى حضورى . وعندما انتهى من عرضه أخذ يجمع مذكراته ، ودخل فولوديا الحجرة الأخرى لاحضار بطاقة الدروس وساورتنى فكرة هـدأت من انفعـالى وهى ان كل شيء قد انتهى ، واننى أصبحت منسيا .

ولكن المدرس التفت نحوى فجأة وعلى شفتيه شبه ابتسامة ماكرة :

وقال وهو يفرك يديه : « أرجــو ياسيدى أن تكون قد ألممت بدروسك » .

فأجبت : « نعم يا سيدى » .

فقال وهو يعتدل على مقعده ويتأمل قدميه باهتمام : « تستطيع اذن أن تذكر لى شـيئا عن حملة سـان لويس الصليبية » . ثم قال وهو يرفع حاجبيه ويشير بأصبعه الى قارورة الحبر : « اخبرنى أولا عن الأسـباب التى حملت الملك الفـرنسى على أخـذ الصليب » ثم أضاف وهو يقوم بحركة برسغه كمن يحاول ان يمسك بشيء ما : « ثم يمكنك توضيح الخصائص العـامة لتلك الحملة » ثم قال وهو يضرب بمذكراته على الجانب الأيسر للمنضدة : « وأخيراً أثر هذه

الحملة الصليبية على دول أوروبا عامة ، وعلى مملكة فرنسا خاصة ، ثم ختم اسئلته بضرب الجانب الأيمن من المنضـدة ، واماله رأسه الى اليمين .

وبلعت لعابى مرات قليلة وسعلت ، وأحنيت رأسى الى جانب ، وظللت صامتاً ثم أخذت أنقر على ريشة موضوعة على المنضدة وأنتفها قطعاً ، عاكفاً على صمتى .

وقال المدرس وهو يمـد يده : « أعطنى هذه الريشـة من فضلك ، انها تصلح لشىء ما ... » .

« حسن يا سيدى » .

« الملك ـ لو ـ كان ـ ســان لويس ـ كان ـ قيصراً طيبـاً وحكيماً » .

« ماذا يا سيدى ؟ » .

« قيصر ... فكر فى الذهاب الى أورشليم ، ونقـل مقـاليد الحكم الى أمه » .

« ماذا كان اسمها ؟ » .

« ب ـ ب ـ لانكا » .

« ماذا يا سيدى ؟ بولانكا » (١) .

---

(١) اسم لنوع معين من الجياد لونها أصفر باهت .

وضحكت ضحكة ملتوية مغتصبة •

وسألنى : « أتعرف شيئاً آخر غير ذلك ؟ » •

لم يبق لى الآن شيء أفقده ، ولذلك سعلت وأخذت أقول أى لغو من الكلام يطرأ على عقلى ، وأخـذ المدرس الذى جلس صامتاً ينفض التراب من على المنضدة بالريشة التى أخذها منى ، ويتفرس فيما وراء أذنى مباشرة ، ويقـول مردداً : « حسن ، حسن جداً يا سيدى » وكنت مدركاً اننى لا أعرف شـيئاً ، واننى لا أعبر عن نفسى البتة كما ينبغى ، وقد أزعجنى بدرجة فظيعة ان أجد المدرس لا يستوقفنى أو يصحح لى •

وكرر كلمـاتى متسـائلا : « لمـاذا فكر فى الذهـاب الى أورشليم ؟ » •

وقلت : « لأنه ـ لكى ـ بقصـد ان ـ لأنه » ـ ثم أخـذت أتخبط يائساً ، ولم استطع قول كلمـة أخرى • وشـعرت ان هذا المدرس المؤذى ، لو انه أمسك عن الكلام عاماً كاملا وتفرس فى وجهى متسائلا ، لبقيت عاجزاً عن التفوه بكلمة أخـرى وحدجنى المـدرس بنظرة دامت ثلاث دقائق ، ثم ظهر على وجهـه تعبير عن الأسف العميق ، ثم قال لفولوديا الذى دخل الغرفة لتوه ، فى نغمة جادة :

« ناولنى كراسة السجل من فضلك » •

وناوله فولوديا الدفتر ، ووضع البطاقة بعناية بجانبه •

وفتح المدرس الكراسة ، وغمس ريشته بحرص وكتب بخطه الجميل خمس درجات لفولوديا تحت عنوان المحفوظات والسلوك ، ثم ترددت ريشته فوق العمود الذى سجلت فيه درجاتى ، ونظر الى ، ثم نفض الحبر واستغرق فى التفكير •

وللحال تحركت يده حركة غير ملحوظة وظهر هناك رقم واحد رسم بخط جميل ، ونقطة وقف ، ثم حركة أخرى فى عمود السلوك ظهر رقم واحد ونقطة وقف •

ونهض المدرس بعد أن أقفل كراسة السجل واتجه الى الباب كأنه لم يلاحظ نظرتى المعبرة عن اليأس والتوسل والعتاب •

وقلت : « ميخائيل اللاريونوفتش » •

ولما كان قد عرف لساعته ماذا أردت أن أقول ، أجابنى : « لا ، ليست هذه هى طريقة الدراسة ، اننى لا أتقاضى أجرى دون مقابل » •

وانتعل المدرس خفية وارتدى معطفه الصوفى وعقد ربطة رقبته بعناية كبرى ، كأن أى شخص يستطيع أن يعنى بأى شىء بعد الذى حدث لى !! انها حركة من الريشة بالنسبة اليه ، ولكنها أسوأ كارثة بالنسبة لى •

واستفسر سان جيروم وهو يدخل الحجـرة : « هل انتهى الدرس ؟ » .

« نعم » .

« هل مدرسكما راض عنكما ؟ » .

وقال فولوديا « نعم » .

« ما الدرجة التى حصلت عليها ؟ » .

« خمس درجات » .

« ونيكولاس ؟ » .

ولم أحر جوابا .

وقال فولوديا « أظنه حصل على أربع درجات » .

كان يعرف ضرورة انقاذى ولو لذلك اليوم فقط ، فان كان لا بد ان أعـاقب ، فلا يكون فى ذلك اليـوم حيث يوجـد بالمنزل ضيوف .

•• اعتاد سان جيروم طريقة خاصة ، فهو يصدر كل ما يقوله بكلمة « هيا » فقال :

« هيا يا سـادة ، أصلحوا من هندامكم لكى نهبط الى الطابق السفلى » .

(٤٠)

المفتاح الصغير

•• ما كدنا نهبط الى الطابق السفلى ونحيى ضيوفنا حتى أعلن عن الغداء • وكان بابا فى حالة معنوية عالية ، (كان حظه مواتياً فى لعب الورق آنئذ) وأهدى ليوبتشكا طاقماً فضياً ، وتذكر بعد الغداء ان بمسكنه أيضاً علبة « ملبس » كان يريد اهداءها لها •

وقال لى بابا : « لماذا أرسل خادماً ؟ من الخير أن تذهب أنت يا كوكو ، والمفاتيح على المكتب الكبير فى المحارة كما تعرف ، فخذها وافتح الدرج الثانى الى اليمين بأكبر مفتاح فيها • وستجد هناك العلبة وبعض الفاكهة المسكرة ملفوفة فى ورقة ، فأحضرها جميعاً الى هنا » وسألته : « هل أحضر لك سيجارك ! » وذلك لأننى أعرف انه يرسل فى طلبها بعد الغداء •

ثم صاح بى قائلا : « أحضرها ، ولكن اياك أن تلمس أى شىء غيرها » •

ووجدت المفاتيح حيث قال لى ، وكنت على وشك أن أفتح الدرج حين توقفت تدفعنى الرغبة فى معرفة ماذا يتصل بالمفتاح الدقيق المعلق فى نفس الحزمة •

كان موضوعا على المكتب بين عدد من مختلف الأشياء ، وبالقرب من الحاجز ، محفظة مطرزة ذات قفل ، وطرأ على ذهنى أن أحاول تجربة المفتاح الصغير لعله يفتحها ، وتكللت المحاولة بنجاح تام ، وفتحت المحفظة فوجدت بداخلها كومة كاملة من الأوراق ، وكان فضولى من القوة بحيث دفعنى الى البحث عن كنه هذه الأوراق وأخمد صوت ضميرى ، وبدأت عملية الفحص فيما تحتويه المحفظة ...

.. ان شعور الطفل بالاحترام الذى لا يناقش ، وبخاصة نحو بابا كان من العمق فى دخيلة نفسى بحيث رفض عقلى بطبيعته الوصول الى أية نتائج مما رأيت ، وشعرت انه يجب ان يعيش أبى فى جو خاص ، جو جميل ، حريز غير مفهوم بالنسبة الى ، وأن أية محاولة للتغلغل فى أسرار حياته تكون بمثابة انتهاك للمقدسات من جانبى .

ولذلك فان الكشف الذى توصلت اليه عن غير قصد تقريباً فى محفظة أبى ، لم يترك فى نفسى أثرا واضحاً فقط ، بل ادراكاً لتصرفى الخاطىء ، وشعرت بالخجل والقلق .

وأدى بى شعورى هذا الى الرغبة فى اغلاق المحفظة بأسرع ما أستطيع ، ولكن قدر لى على ما يظهر أن أتحمل كل نوع ممكن من سوء الطالع فى ذلك اليوم المشهود وأدخلت المفتاح فى ثقب

القفل وأدرته بطريقة خاطئة ظناً منى بأن القفل مغلق ، ثم جذبت المفتاح ، ولكن ، آه ، يا للهول !! خرج رأس المفتاح فى يدى ، وكان من العبث محاولة وصله بالنصف الباقى فى القفل وتخليصه بنوع من السحر • واضطررت أخيراً الى الاستسلام الى فكرة مرعبة ، وهى أننى ارتكبت جريمة جديدة لا بد ان تكشف فى نفس اليوم عندما يعود بابا الى مكتبه •

شكوى ميمى ، والدرجة السيئة ، والمفتاح الصغير !! لا يمكن ان يحدث لى ما هو أسوأ من ذلك ، فجدتى بالنسبة لشكوى ميمى ، وسان جيروم بالنسبة للدرجة السيئة ، وبابا بالنسبة لذلك المفتاح ـ كل أولئك سينقضون على ، ولن يتأخر هذا عن تلك الليلة بالذات •

وقلت بصوت مرتفع وأنا أخطو على سجادة المكتب الناعمة : « ماذا سيحدث لى » ثم أسرعت بدخول البيت •

•• ان هذا المثل القدرى الذى سمعته فى طفولتى من نيكولاى كان يحدث أثرا نافعا ومهدئاً وقتياً فى جميع لحظات الشدة التى لقيتها فى حياتى • وعندما دخلت القاعة كنت مضطرباً وغير طبيعى الى حد ما ، ومع ذلك كنت فى أقصى حالات الابتهاج •

(٤١)

الغادرة

.. بدأت الألعاب الصغيرة بعد الغداء ، وأخذت بأنشط دور فيها . وبينما كنا نلعب « القط فى الركن » ارتطمت بقهرمانة كورناكوفا التى كانت تلعب معنا ، فدست على ثوبها مصادفة ومزقته ، وعندما لاحظت أن الفتيات جميعاً قد سررن سروراً عظيماً ، وبخاصة سونتشكا ، لرؤية القهرمانة تنسحب مقطبة الوجه الى حجرة الخدم لرتق ثوبها ، صممت على توفير ذلك السرور لهن مرة أخرى ، وكان من نتيجة هذا القصد الظريف ان أخذت أقفز حولها حالما عادت القهرمانة من الحجرة ، وداومت على هذه المناورة حتى وجدت فرصة مواتية ليمسك كعبى مرة أخرى بذيل ثوبها ويمزقه . ولم تقو سونتشكا والأميرة على حبس ضحكهما الذى تملق شعورى الى حد بعيد جداً ، ولكن سان جيروم الذى لا بد كان يلاحظ تهورى، جاءنى وقال لى بوجه عابس (الأمر الذى لم أستطع تحمله) انه يظهر ان مزاحى نذير سوء ، واننى اذا لم اتصرف بكياسة فسوف يجعلنى أندم على ذلك حتى لو كان فى يوم الأحتفال .

.. ولكنى كنت فى حالة رجل مهتاج قامر بأكثر مما فى جيبه، ويخشى أن يحصى حساباته ، فيستمر مغامراً فى مراهنة يائسة ،

لا يؤمل من ورائها استرداد خسارته ، ولكن لمجرد ابعاد عقله عن الحقيقة . وضحكت بوقاحة وانصرفت بعيداً عنه .

وبعد لعبة « القط فى الركن » بدأ شخص ما لعبة كنـا نطلق عليها « الأنف الطويل » وكانت الكراسى فى هذه اللعبة توضع فى صفين متقابلين ، وينقسم السيدات والرجال الى فريقين ، ويختار كل واحد زميله بالتناوب .

كانت أصغر الأميرات تختار فى كل مرة أصغر اخوة ايفين ، وكانت كاتنكا تختار اما فولوديا واما النكا ، وتختار سونتشـكا فى كل مرة سريوزا . ولشد ما كان يدهشنى انها لم يكن يعتريها أقل خجل حين كان سريوزا يذهب اليها ويجلس أمامها مباشرة كانت تضحك ضـحكتها الحلوة الرنانة ، وتومىء اليه لتريه أنه أحسن التخمين ، ولم تخترنى أية واحدة . ومما جرح كبريائى جرحـاً عميقاً ، أن أدركت أننى زائد عن الحاجة ، « طيشة » ؛ حتى انهم كانوا يقولون فى كل مرة : « من المتبقى ؟ نعم ؛ نيكولنكا ؛ حسن فلنأخذه » .

ولذلك ، فعندما جاء دورى لأخمن ، من التى اختارتنى ، كنت اذهب اما الى أختى واما الى أحـدى الأميرات القبيحات ، ولسـوء الطالع اننى لم أخطىء التقدير مرة . ويبدو ان سونتشكا اندمجت مع سريوزا ايفـن اندماجا كبيراً حتى أصبحت ولا وجـود لى فى

نظرها • ولست أعرف سببا لتسميتها « بالغادرة » ما دامت لم تعدنى مطلقاً بأن تختارنى دون سريوزا ، ولكنى كنت مقتنعاً كل الاقتناع انها سلكت سوكاً متمردا الى أبعد حد •

•• ولاحظت بعد اللعب أن « الغادرة » التى ازدريتها ـ وان لم أحول عينى عنها ـ كانت قد انسحبت الى ركن مع سريوزا وكاتنكا حيث اشتركوا فى مناقشة سرية ، فتسللت خلف «البيانو» لأكشف عن سرهم ، وكان هذا ما رأيت : كانت كاتنكا ممسكة بمنديل من زاويتيه ، ومن ثمة جعلت منه ستاراً بين رأس سونتشكا ورأس سريوزا ، وقال سريوزا : « لا ، لقد خسرت ، والآن يجب أن تدفعى الجزاء ! » ووقفت سونتشكا أمامه كالمذنبة ، وقد تدلى ذراعاها الى جانبيها ، وقالت فى خفر : « لا اننى لم أخسر ، هل خسرت يا آنسة كاترين ؟ » وأجابت كاتنكا : « أحب ان يكون اللعب عادلا ، لقد خسرت رهانك يا عزيزتى » •

ولم تكد تنطق كاتنكا بهذه الكلمات حتى مال سريوزا على سونتشكا وقبلها ، قبلها قبلة طويلة على شفتيها الورديتين ، وضحكت سونتشكا كأن شيئاً لم يحدث ، وكأن ذلك ليس الا لهواً • يا للفظاعة ! آه ، تباً للغادرة المحتالة ! •

(٤٢)

غموض

•• شعرت باحتقـار مفاجىء للجنس اللطيف بوجه عـام ، ولسونتشكا خاصة ، وأخذت أؤكد لنفسى ان ليس فى هذه الألعاب مايدعوه بالمرة الى المرح ، وأنها تليق بالبنـات ، ورغبت فى خلق جلبة لعمل شىء فيه من الجسـارة ما يدهش له الجميع ، ولم يطل الوقت على ظهور الظرف الملائم •

بعد ان تحـدث سـان جـيروم عن شىء ما غادر الحجـرة ، وسمعت صوت وقع أقدامه وهو يصعد السلم ، ثم وهو يسير فوقنا فى اتجاه حجـرة المكتب • وخطر لى ان ميمى أخبرته عن المكان الذى رآنى فيه أثنـاء ساعات الدرس ، وانه ذهب لكى يفحص السجل •

فى ذلك الوقت لم أكن أصدق ان « سان جيروم له أى هدف آخر فى حياته غير رغبته فى عقابى ، وكنت قد قرأت فى مكان ما ان الأطفال فيما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرهم ، أو بمعنى آخر أولئك الذين فى مرحلة الانتقال من الصبا يميلون بنوع خاص الى جريمة الحرق العمد بل الى القتـل • وعندما استعيد ذكريات طفولتى وبخاصة الحالة العقليـة التى كنت عليهـا فى ذلك اليـوم

المشئوم ، أقدر فى وضوح تام ان أبشـع جريمة يمكن أن ترتكب دون غاية أو بقصد الاضرار ، ولكن لمجرد حب الاستطلاع ، أو بسبب الحاجة الغريزية لبذل النشاط • وهنـاك أوقات يتمثل فيهـا المستقبل لشخص بألوان شديدة القتـامة حتى انه ليخاف ان يركز فيها نظرته العقلية ، فيتوقف عندها عقله عن التفكير ، ويحاول ان يقنع نفسه بأن المسـتقبل لن يكون ، وان الماضى لم يوجـد البتة ، ففى مثل هذه اللحظات ، حين لا يستطيع العقل ان يقدر سلفاً كل قرار للارادة ، وتبقى الغرائز البدنية المصدر الوحيد للحياة• أستطيع أن أفهم كيف ان الطفل نتيجة لعدم خبرته ، يميل بنوع خاص الى مثل هذه الحالة العقلية ، ولذلك فربما أشعل النار فى بيته نفسه حيث ينام أخوته ووالده وأمه الذين يحبهم بسخاء ، دون أدنى خوف أو تردد وبابتسامة فضول وذلك بتأثير عدم وجود التأمل نفسه ـ شرود العقل تقريباً ـ يفكر صبى فلاح فى السـابعة عشرة من عمره فى حافة فأس مشحوذة حديثـاً بجوار الأريكة التى ينـام عليها والده العجـوز ووجهـه الى تحت ، وفجـأة يدبر أمر استخدام الفـأس ويتفرس بفضول أحمق فى الدم المنبثق من الجرح فى عنق النائم ، وبتأثير انعدام نفس التأمل والفضول الفطرى ، يزاول رجل متعة معينة ، اذ يقف على شفا هاوية ويقول لنفسه : « ماذا يحدث لو أننى ألقيت بنفسى الى أسـفل ؟ » أو يضـع غـدارة مشحونة على جبهته ويتساءل : « ماذا يحدث لو أننى ضغطت على زند الغدارة ؟ » أو ان يقول لنفسه وهو يتطلع الى شخص ما يضمر له المجتمع كافة ،

احتراما خاصا : « ماذا يحدث ان ذهبت اليه ، وأمسكته من أنفه وقلت له : « تعال يا صاحبى العزيز ، فلنذهب » .

•• وتحت تأثير هذا النوع من الهياج وانعدام التأمل ، هبط سان جيروم السلم ، وأخبرنى ان ليس لى الحق فى البقاء هناك فى ذلك المساء لأننى أسأت التصرف ، وأسأت المذاكرة ، وأن على ان أصعد الى الطابق العلوى فوراً ، تحت هذا التأثير أخرجت له لسانى وأخبرته اننى لن أتحرك من مكانى .

ومنعت الدهشة والغضب سان جيروم لحظة من النطق بكلمة واحدة .

وقال متحاملا على : « لقد وعدت بمعاقبتك مرات عدة ، الا ان رغبة جدتك أنقذتك ولكنى أرى الآن ان العصا ستجعلك مطيعاً ، وانك تستحقها اليوم كل الاستحقاق » .

•• وكان صوته مرتفعاً جداً حتى لقد سمع الجميع ما قاله . وشعرت بالدم يندفع الى قلبى بقوة غير عادية جعلته ينبض بعنف حتى هرب اللون من وجهى ، وارتعشت شفتاى رعشة لا ارادية ، ولا بد ان كانت هيئتى فى تلك اللحظة مخيفة ، لأن سان جيروم تجاهل نظرتى ، وتقدم منى بسرعة وأمسكنى من يدى ، ولكن ماكدت أشعر بلمسة يده ، حتى استشطت غضباً ، وجذبت يدى منه وضربته بكل قوة الطفولة .

وقال فولوديا وهو يقترب منى متحيراً مفزعاً لتصرفى : « ماذا دهاك ؟ » .

وصرخت والدموع تسقط مدرارا : « دعونى وشأنى ! ليس بينكم من يحبنى ، ولا من يدرك مدى تعاستى ، ثم أضفت وأنا التفت الى المجموعة كلها فى نوبة غضبية : « انكم جميعاً خبثاء تعافكم النفس » .

وجاءنى فى أثناء ذلك سان جيروم بوجه شاحب فيه تصميم ، وقبل ان أتخذ موقفاً للدفاع ، أمسك بكلتا يدى كأنهما فى منجلة وبحركة قوية ، ثم جرنى ... كانت رأسى تدوم من الغضب ، ولا أذكر غير العراك اليائس برأسى وركبتى بقدر ما بقى لى من قوة ، وأذكر ان أنفى قد احتك بفخذ شخص ما ، وان معطف شخص ما كاد يدخل فى فمى ، وأذكر اننى كنت اشعر بوجود اشخاص من حولى ، وبرائحة تراب ، ورائحة البنفسج التى كان سان جيروم يتعطر بها .

وبعد خمس دقائق أغلق من دونى باب غرفة السطح .

وقال « هو » فى صوت الثائر الظافر : « فاسيلى ! أحضر العصا » ...

(٤٣)

هواجس

•• هل كان يمكن ان أتخيل فى ذلك الوقت اننى سأبقى حياً بعد النوائب التى حلت بى ، وأن يأتى اليـــوم الذى أتذكرها فيه برباطة جأش ؟

حين تذكرت ما فعلت لم أستطع أن أتصور ما اذا كان سينالنى، ولكن كان يخالجنى شعور بأننى هلكت الى الأبد •

ران سـكون مطلق على الطابق الأرضى ، ومن حـولى ، أو هكذا خيل لى على الأقل بسبب انزعاجى الداخلى الذى تسلط على ، ولكنى بدأت أميز شيئاً فشيئاً بين الأصـوات • لقد صعد فاسيلى ، وألقى بشىء يشبه المكنسة على افريز النـافذة ، ثم رقد يتثاءب • وكان يسمع فى الطابق السفلى صوت سـان جيروم المرتفع (لا بد أنه كان يتحدث عنى) ، ثم أصوات الأطفال ، ثم ضحك وجرى• وبعد دقائق قليلة جرى كل شىء فى المنزل مجراه السابق ، كأن أحداً لا يعرف أو يفكر فى اننى جالس فى غرفة السطح المظلمة•

•• لم أبك ، ولكن شيئاً ثقيلا كان يجثم على قلبى كالحجر ، وومضت الأفكار والرؤى أمـام خيـالى المشـوش ، ومع ذلك فان ذكرى المصـيبة التى حلت بى كانت تقطع سلسلتها الوهميـة دون

توقف ، وتغرقنى مرة أخرى فى متـاهة لا حد لهـا من الحيرة ازاء المصير الذى ينتظرنى بما فيه من الفزع واليأس •

وخطر لى آنئذ أنه لا بد من وجود سبب ما للنفور العام منى، بل لبغضى (كنت اعتقد فى ذلك الوقت اعتقاداً جازماً ان الجميع ، من جدتى حتى فيليب الحوذى كانوا يبغضوننى ويجدون فى شقائى لـذة) • وقلت لنفسى لعلنى لست ابن أبى وأمى ، ولسـت أخـا لفـولوديا ، بل مجـرد يتيم تعيس ، لقيط قاموا على تربيتـه بدافع الشفقة • ولم تقدم لى هذه الفكرة السخيفة نوعاً من الراحة الكئيبة وحسب ، بل انها كانت تبدو لى قوية الاحتمـال • وفرحت لفكرة اننى تعيس ، لا لسبب ألام عليه أنا نفسى ، ولكن لأن مصـيرى هو هذا منذ ولادتى نفسها ، وان نصيبى من الحيـاة شبيه بنصيب كارل ايفانتش التعيس •

وقلت لنفسى : « ولكن لماذا أخفى هذا السر بعد الآن ، مادمت قد كشفت عنه الستار ؟ سأذهب غداً الى بابا وأقول له : « من العبث يا بابا ان تخفى عنى سر مولدى فأنا أعرفه وسيقول لى : « حسن ـ ما دمت تعرفه ـ فعاجلاً أو آجلاً ، كان لا بد لك أن تعرف ، ••• انك لست ابنى ، ولكنى ربيتك ، فان برهنت على انك جدير بحبى، فلن أتخلى عنك مطلقاً » ، وسأقول له : « يا بابا ، وان كنت لا أملك الحق فى مناداتك بهذا الاسم ، فأنا أفعل ذلك الآن لآخر مرة ـ لقد أحببتك دائمـاً ، وسـأحبك دائماً ، ولن أنسى أبداً انك كنت ولى

نعمتى ، ولكنى لا أستطيع البقاء فى بيتك ، فليس هنا أحد يحبنى ، وسان جيروم أقسم على تدميرى ، فلا بد لأحدنا من ترك هذا البيت لأننى لا أستطيع أن أكون مسئولا عن نفسى •• اننى أكره هذا الرجل الى حد أتأهب فيه لعمل أى شىء ـ سأقتله ـ هذا ما سأقوله له ـ بابا انى سأقتله ويبدأ أبى فى استعطافى ولكنى سأنحيه جانباً وأقول لا يا صديقى « أبى لا يا ولى نعمتى ، اننا لا نستطيع العيش سويا ، دعنى أذهب » ، ثم أعانقه وأقول له بالفرنسية : « يا بابا يا ولى نعمتى !! باركنى للمرة الأخيرة ، ولتكن ارادة الله !! وبينما كنت جالساً على الصندوق فى حجرة المخزن المظلمة ، بكيت بكاء مراً عندما ساورتنى هذه الفكرة ، ثم سرعان ما تذكرت العقوبة المهينة المبيتة لى ، وتمثلت أمامى الحقيقة فى ضوئها ، فسرعان ما تبخرت أحلامى •

•• ثم تخيلت نفسى حراً ، بعيداً عن المنزل ، التحق بفرقة الهوسار (١) ، وأذهب الى الحرب ، ويحمل الأعداء على من كل جانب ، وأستل سيفى وأقتل واحداً وثانياً ، ثم ثالثاً ، وأخيراً ، تخور قواى نتيجة للجراح والتعب ، وأسقط على الأرض وأصيح « النصر ! » ويقترب القائد ويسأل : « أين منقذنا ؟ » فيدلونه على : ويرتمى على عنقى ويصيح بدموع الفرح « النصر ! » وأستعيد قواى ، وأتجول فى تفيرسكوى بوليفار بذراعى معلقة فى حمالة

---

(١) فرقة السوارى الخفيفة ٠

سوداء • أنا قائد !! وأقابل الامبراطور ، ويسأل : « من هذا الشاب الجريح ؟ » ويقولون له انه نيكولاى ، البطل المشهور • ويتقدم منى الامبراطور ويقول : « أشكرك ، اننى سأفعل أى شىء تسألنى أياه » فأنحنى له باحترام وأتوكأ على سيفى وأقول : « اننى سعيد أيها الامبراطور العظيم اذ استطعت ان أريق دمى فى سبيل وطنى ، ويسرنى أن أموت فى الذود عنه : ومع ذلك فما دمت سمحاً الى هذا الحد ، فاسمح لى أن أطلب منك شيئاً واحداً ـ دعنى أقضى على عدوى الأجنبى سان جيروم » وأقف أمام سان جيروم متوعدا ، فأقول له : « لقد تسببت فى تعاستى ••• اركع ! » ولكن تخطر لى فكرة على حين فجأة ، وهى ان سان جيروم الحقيقى قد يدخل بالعصا فى أية لحظة ، فأرى نفسى مرة أخرى ، لا قائداً ينقذ وطنه ، ولكن مخلوقاً ضئيلاً باكياً •

وتخطر لى فكرة الله ، فأسأله تعالى فى وقاحة عن سبب عقابه لى : « اننى لم أهمل صلواتى مطلقاً ، صباح مساء ، فلماذا اذن أتألم ؟ » أستطيع أن أؤكد دون أى شك ان أول خطوة نحو الشكوك الدينية التى أقلقتنى ابان مرحلة صباى قد بدأت فى ذلك الوقت ، لا لأن التعاسة أغرتنى بالتذمر والكفر ، ولكن لأن فكرة عدم عدالة العناية الالهية التى هيمنت على عقلى فى ذلك الوقت الملىء بالبلبلة الروحية وعزلتنى فى ذلك اليوم برمته ، سرعان ما نمت وأخرجت جذورا كالبذرة الضارة سقطت على أرض لينة بعد المطر ،

ثم تخيلت أننى سأموت ، ورسمت فى خيالى صورة حية عن حيرة سان جيروم عندما يجد بدلا منى جثة لا حياة فيها بحجرة السطح ، وتذكرت حكايات ناتاليا سافيشنا عن ان روح الشخص الميت لا تترك المنزل لمدة أربعين يوما ، وتخيلت نفسى أطير غير مرئى فى حجرات بيت جدتى جميعاً ، وأشاهد دموع ليوبتشكا المخلصة ، وحزن جدتى ، وحديث أبى مع سان جيروم . وقول بابا والدموع فى عينيه : « لقد كان ولدا لطيفاً » واجابة سان جيروم : « نعم ، ولكنه كان متهوراً » وقول بابا : « ينبغى أن تحترم الموتى » فقد كنت سبب موته ، لقد أفزعته ، ولم يستطع احتمال الاذلال الذى كنت تعد له .. اليك عنى أيها النذل ! » .

ولا بد أن يجثو سان جيروم على ركبتيه ويبكى ويلتمس المغفرة . وبعد نهاية الأربعين يوماً ستطير روحى الى السماء ، وهناك سأرى شيئاً رائع الجمال ، أبيض شفافاً ، وطويلا ، وأشعر انه أمى . وهذا الشىء الأبيض سيضمنى ويدللنى ، ولكنى أشعر بالضيق كما لو كنت أعرفها . وأقول لها : « ان كنت أنت حقيقة فدعينى أتطلع اليك فى صورة أكثر وضوحاً » ويجيبنى صوتها « نحن جميعا هكذا هنا ، فلا أستطيع أن أعانقك خيراً من هذا ، ألا تشعر بالسعادة على هذا الوجه ؟ » .

« آه ، نعم أشعر بالسعادة ! ولكنك لا تستطيعين مداعبتى ، ولا أستطيع تقبيل يديك » وتقول : « لا حاجة الى ذلك ، ان الحياة

هنـا جميلة كما هى » • وأشعر انهـا جميلة حقيقة ، وانا سنحلق سوياً ونرتفع ، ونرتفع الى ما لا نهـاية • ثم يبدو لى فجـأة أننى مستيقظ ، وأجدنى جالساً على الصندوق بحجرة السطح المظلمة ، وقد بللت وجنتى الدموع ، وعقلى صفحة خاوية وأنا أكرر عبـارة « سنحلق ونرتفع ، ونرتفع الى ما لا نهـاية » • لقـد ركزت كل قوتى ، وقتـا طويلا ، فى محـاولة تفســير موقفى ، ولكن كل ما استطاع عقلى أن يتخيله فى تلك اللحظة كان مدى غير محدود ، لا يمكن اختراقه ، مخيف فى كآبته • وحاولت استرجاع الأحلام البهيجة الهانئة التى وضع الشعور بالحقيقة لها حـداً ، ولكن لشد ما كانت دهشتى ، أننى سرعان ماوطئت دروب هواجسى الأولى حتى رأيت ان استمرار السير فيها أمر مستحيل ، بل ان ما هو أدعى الى الدهشة ، انها لم تعد تبعث فى نفسى سروراً •

(٤٤)

لا دقيق بلا طحن

قضيت ليلتى بحجرة السطح ، ولم يقترب منى أحد • ولم يحـدث شىء حتى اليوم التـالى ، أى يوم الأحـد حين نقلونى الى حجرة صغيرة ملحقة بحجرة الدراسة وحبست فيها مرة أخرى • وبدأت أؤمل فى أن عقوبتى ستقتصر على حبسى ، وأخذت أفكارى

تطمئن تحت تأثير النعاس اللذيذ المنعش ، وضوء الشمس الساطع يخادع نماذج الجليد فوق النوافذ ، والضوضاء المألوفة نهاراً في الشوارع •

ومع ذلك فان عزلتي كانت عسيرة الاحتمال • أردت ان اتنقل ، وأن أقص على شخص ما كل ما يتأجج في روحي ، ولم يكن هناك أي كائن بشري بالقرب مني ، وكان موقفي مكدراً الى أقصى حد ، وبالرغم من انه كان ثقيلا علي ، فانني لم أستطع تحاشي سماع سان جيروم وهو يصفر نغمات مرحة في هدوء تام ويدور في حجرته • وكنت مقتنعاً تماماً انه لم يكن يرغب في الصفير البتة ، بل كان يصفر لكي يعذبني وحسب •

في الساعة الثانية هبط سان جيروم وفولوديا الى الطابق السفلي ، وأحضر لي نيكولاي غدائي • وعندما تحدثت معه عما فعلته وعما ينتظرني قال :

« لا عليك يا سيدي ! لا تحزن لأنك لا تستطيع الحصول على دقيق بلا طحن » •

•• ان هذا القول المأثور الذي ساعد على صلابة روحي فيما بعد أكثر من مرة ، قد أراحني الى حد ما ، ولكن حقيقة الواقع ، وهي انهم لم يرسلوا لي مجرد خبز وماء ، بل غداء كاملا يشمل الكعك المزخرف ، أفسحت التفكير في الشيء الكثير • فلو كانوا لم

يرسلوا الى الكعك ، فان معنى هذا اننى سأعاقب بالحبس ، أما الآن فان عقـابى لا بد آت ، واننى عزلت عن الآخـرين لأننى كنت ذا تأثير سيء . وبينما كنت مشغولا فى حل هذه المشكلة دار المفتاح فى قفل سجنى ، ودخل سان جيروم بملامحه الجامدة الرسمية .

وقال دون ان ينظر الى : « انزل وقابل جدتك » .

وأردت تنظيف كمى سترتى الملطخين بالطباشير قبل مغادرتى الحجرة ، ولكن سـان جيروم قال لى ان ذلك لا ضرورة له البتـة كأننى فى مثل هذه الحالة المعنوية الهابطة لا أستحق الاهتمام بمظهرى الخارجى .

وتفرست فى كاتنكا وليوبتشـكا وفولوديا عنـدما كان سـان جيروم يقودنى ممسكاً بيدى ونحن نجتاز القـاعة ، تماماً كما كنـا نتطلع الى المسجونين الذين يقادون من أمام نوافذنا كل يوم اثنين . وعندما اقتربت من مقعد جدتى بقصـد تقبيـل يدها ، أشـاحت عنى وأخفت يدها تحت وشاحها .

وبعد صمت طويل نوعا ما ، تفحصتنى خلاله من قمة رأسى الى قدمى فى أسلوب من التعبير لم أعرف معه الى أين انظر ، أو ماذا أفعل بيدى ، ثم قالت : « حسن يا عزيزى ، يجب أن أقول انك تقدر حبى ، وانك عزائى الحقيقى » ثم أضافت وهى تتأنى عند كل كلمة » وان السيد سان جيروم الذى أخذ على عاتقـه أمر تعليمك

استجابة لرجائى لا يريد البقاء فى منزلى بعد الآن • ولماذا ؟ بسببك يا عزيزى ، وكنت آمل ان تحمد له عنايته وتعبه » ثم تابعت حديثها بعد فترة صمت قصيرة وفى نغمة كشفت عن أن حديثها كان معدا من قبل : « وان تفهم قيمة خدماته ، ولكنك ، وأنت صبى صغير تجاسرت على رفع يدك ضده ، حسن جداً ! حسن جداً فى الحقيقة ! لقد بدأت •• أفكر فى انك لا تقدر المعاملة الكريمة ، وان وسائل أخرى أكثر فظاظة هى التى تلزمك » ، ثم قالت بلهجة أمر جافة وهى تشير الى سان جيروم « التمس صفحه حالا ، ألا تسمع ؟ » •

ونظرت الى الناحية التى فيها يد جدتى ووقع نظرى على سترة سان جيروم فأشحت عنه ولم أتحول عن موقفى ، وللمرة الثانية بدأت أشعر بقلبى يتجمد •

« حسن ، ألا تسمع ما أقوله لك ؟ » •

وارتعد كل جسمى ، ولكنى لم أتحرك •

وقالت جدتى ، التى لا بد قد أدركت عذابى الداخلى الذى كنت أقاسيه : « كوكو ! ثم قالت فى صوت أقرب الى الحنان منه الى الأمر » : « كوكو ! أهذا أنت ؟ » •

فقلت : « لن التمس صفحه يا جدتى عن أى شىء » ثم انفجرت بالبكاء فجأة ، اذ شعرت ان الدموع التى كانت تغصنى ستنهمر من عينى لو نطقت بكلمة أخرى •

« انني آمرك : اطلب منك ••• الآن حالا » •

وقلت لاهثاً : « انا ـ أنا ـ لا أريد ـ لا أستطيع » ثم انفجر فجأة البكاء الذى حبسته طويلا فى فيض من اليأس •

وقال سان جيروم بصوت مؤثر : « أهذه هى الطريقة التى تطيع بها أمك الثانية ؟ أهذه هى الطريقة التى تقابل بها حنانها ؟•• اركع !! » •

وقالت جدتى وهى تتحول عنى وتكفكف دموعها : « يا الهى، لو رأته الآن على هذا الحال ! لو رأته ـ ان كل هذا بقصد الخير • لا ، لم تكن لتتحمل هذا الحزن ، أبداً » •

وظلت جدتى تبكى بكاء مفرطاً ، وبكيت أنا أيضاً ، ولكن لم يكن فى قصـدى طلب الصفح • وقال سـان جيروم : « هدئى من ثائرتك بحق السماء يا سيدتى الكونتيسة » •

ولكن جدتى لم تلتفت اليه ، وغطت وجهها بيديها ، وسرعان ما تحول بكاؤها الى قواق ونوبات هستيرية • واندفعت ميمى وجاشا الى الغرفة بوجوه مفزعة وسرعان ما سمع الهمس فى جميع أرجاء البيت •

وقال سان جيروم وهو يقتادنى الى الطابق العلوى : « هناك شيء ما يمكنك أن تفخر به » •

« يا الهى ، ماذا اقترفت ؟ يا لى من ولد شرير ! » •

وما كاد سان جيروم يأمرنى بدخول حجرتى ويعود أدراجه الى جدتى حتى أطلقت ساقى الى السلم الكبير المؤدى الى الشـارع دون أن أعرف ماذا كنت أفعل •

لا أذكر ما اذا كنت أقصد : الهرب أم اغراق نفسى ، وكل ما أعرفه اننى كنت أخفى وجهى بيدى لكى لا أرى أحداً، واندفعت اندفاعاً أعمى أهبط السلم •

وسـألنى صـوت مألوف لدى : « الى أين تذهب ؟ انت هو الشخص الذى أريده بعينه يا بنى » •

وحاولت المضى مسرعاً ، ولكن بابا أمسـكنى من يدى وقال فى حزم :

« تفضل بالحضـور معى ، كيف تجاسرت على لمس المحفظة التى فى مكتبى ؟ » وصحبنى وراءه الى غـرفة الجلوس الصـغيرة ، وأضاف وهو يشد أذنى « حسن ! لماذا لا تجيب ؟ » •

فقلت : « اننى آسف ، لا أدرى ماذا دهانى » •

« آه ، لا تعرف ماذا دهاك ! اذن أنت لا تعرف ، ألا تعرف ؟ لا تعرف ، آه حقاً انك لا تعرف ! » وأخذ يكرر هذه العبارة ويشد على أذنى عند كل كلمة •

« هل ستدس أنفك حيث لا يعنيك الأمر فى المستقبل ؟ هل تفعل ؟ هل تفعـل ؟ » وآلمتنى أذنى كثيراً ، ولكنى لم أبك ، وكان

الشـــعور الذى خبرته لذيذاً ، فسرعـان ما أطلق بابا أذنى حتى أمسكت بيده وأخذت أغمرها بدموعى وقبلاتى •

وقلت له من خلال دموعى : « أضربنى ثانية ، أضربنى بشدة حتى تؤلمنى ، اننى ولد شرير ، ولد شقى بائس » •

وقال لى وهو يدفعنى دفعة خفيفة : « ما قصتك ؟ » •

فقلت وأنا أتشبث بســـترته : « لا ، لا أريد الذهـاب ، ان الجميع يكرهوننى ، وأنا أعرف ذلك ، ولكن بحق الله ، اصغ الى ، أحمنى ، أو اطردنى من البيت ، لا أستطيع الحياة معه ، انه «يفعل» كل ما يستطيع لاذلالى ، ويجعلنى أركع أمامه ، ويريد أن يضربنى، وأنا لا أحب ذلك فلست صبياً صغيراً ، لا أستطيع تحمل هذا ، اننى سأموت سأقتل نفسى • لقـــد قال لجدتى اننى شرير ، وهى الآن مريضة ، وستموت بسببى ـ انت ، استحلفك بالله ، اجلدنى ! لماذا يعذبوننى جميعاً ؟ » •

وكنت أغص بالبكاء ، فجلست على الأريكة وألقيت برأسى على ركبتيه ، وأخذت انشج حتى خيل الى اننى سأموت للتو والساعة •

وسألنى بابا فى تأثر وهو ينحنى فوقى : « ما سبب بكائك ، أيها الطفل ؟ » •

« انه ظالمى ـ ومعذبى •• اننى سأموت ، لا يحبنى أحد ! » واستطعت بشق النفس التفوه بهذه الكلمات ، ثم رحت فى رجفـة تشنجية •

وأخذنى بابا بين يديه الى حجرة النوم ، ورحت فى نعاس • وعندما استيقظت كان الوقت متأخراً جداً ، كان هناك قنديل مشتعل بالقــرب من فراشى ، ويجلس بالحجــرة طبيب الأسرة وميمـــى وليوبتشكا • وكان واضحاً على وجوههم انهم يخشون على صحتى ، ولكنى كنت أشعر اننى على خير حال من الصحة والنشاط بعد نوم استغرق اثنتى عشرة ساعة ، حتى لقد كنت استطيع القفز من فراشى لولا نفورى من زعزعة اعتقادهم فى أننى مريض جداً •

(٤٥)

كراهية

•• حقاً ، لقد كان شعوراً بالكراهية الحقيقية ، ليست الكراهية التى يكتب عنها فى القصص ، والتى لا أعتقد فيها ـ وهى الكراهية التى تنشرح لعمـــل الســـوء ، ولكنها الكراهيـــة التى توحى اليك باشـــمئزاز لا يقـــاوم من شخص ما ، على الرغم من انه يستحق احترامك ، بل الكراهية التى تجعل شعره وعنقه ، وصدى صوته ، وكل عضو فيه ، وكل حــركة بغيضـــة لديك ، وفى نفس الوقت تجذبك اليه قوة غامضة ، وتضطرك الى مراقبة أتفه عمل من أعماله باشتياق • ولقد خبرت هذا الشعور نحو سان جيروم •

لقد بقى معنـــا ســـان جيروم عـــاماً ونصف عام ، ولو حكمت

على الرجل الآن دون تأثر فانني أجده شاباً فرنسياً لطيفاً ، ولكني روسي لحماً ودماً ، ولم يكن غبياً ، بل كان متعلماً تعليماً بين بين ، وكان يؤدي واجباته نحونا بضمير حي ، ولكن كانت فيه الخصائص المميزة لبني وطنه والتي تخالف الخلق الروسي ، التردد والأنانية والخيلاء والوقاحة ، والثقة العمياء بالنفس ، كل هذه كانت تثير استيائي كثيراً •

لقد أوضحت له جدتي بطبيعة الحال وجهة نظرها في مسألة العقوبة البدنية ، فلم يجرؤ على ضربنا بالسوط ، ولكنه برغم هذا كثيراً ماكان يهددنا بالعصا ، وبخاصة أنا ، ويتفوه بكلمة «الجلد» (١) (كما لو كنت آثماً) وبصورة كريهة جداً وبنغمة يبدو منها ان الجلد يبعث في نفسه أعظم الرضا •

لم أكن أخشى ألم العقاب مطلقاً ، ولم أجربه البتة ، ولكن مجرد التفكير في أن سان جيروم قد يضربني كان يجرني الى حالة من الغضب واليأس المكبوتين •

كان كارل ايفانتش أحياناً ، في لحظة ضيقة ينفس عن سخطه بضربنا بالمسطرة أو بحزامه ، ولكني أتذكر هذا دون أقل غضب • وحتى لو كان كارل ايفانتش قد ضربني في الوقت الذي اتحدث عنه (أي حين كنت في الرابعة عشرة) لاحتملت ذلك بغاية

---

(١) نطق هذه الكلمة بالفرنسية نطقا خاطئا • فبدلا من كلمة fouatter نطقها كأنها fouetter

الهدوء • كنت أحب كارل ايفانتش ، وأستطيع ان أتذكره كما أتذكر نفسى ، واعتقدت ان أعتبره كشخص من أفراد أسرتى ، ولكن سان جيروم ، كان رجلا متعجرفاً متعالياً ، لم أشعر نحوه بميل ، ولكن بالاحترام المغتصب الذى كان يوحى به الى جميع الكبار • كان كارل ايفانتش رجلا يثير السخرية ، من نوع من الخدم الذين أحببتهم من كل قلبى ، ولكنى كنت أضعه فى مرتبة اجتماعية أقل منى في تصورى الطفولى •

•• أما سان جيروم فقد كان على العكس ، شاباً صغيراً جميلا متعلما حاول ان يقف على قدم المساواة مع كل شخص • وكان ايفانتش ينتهرنا ويعاقبنا دائما بهدوء ، ومن الواضح أنه كان يعتبر ذلك واجبا ضروريا وان كان مؤلماً ، بينما كان سان جيروم من ناحية أخرى يحب التفاخر بدوره كمعلم ، وكان واضحاً حين كان يعاقبنا انه انما يفعل ذلك ارضاء لذاته أكثر منه لصالحنا • وكانت أوداجه المنتفخة بعظمته ، وتحذلقه فى تعبيراته الفرنسية التى كان ينطق بها مشدداً على المقطع الأخير بنبرات ممدودة ، تنفرنى منه نفوراً يجل عن الوصف • كان كارل ايفانتش يقول حين يغضب : « مهزلة صبيانية ، ولد خبيث ، أو ذبابة هندية !! » • وكان سان جيروم يطلق علينا اسماء مثل « وغد ، ونصاب خبيث » وما الى ذلك مما كان يجرح كبريائى •

•• وكان كارل ايفانتش يجعلنا نركع ووجوهنا فى الركن ،

وكانت عقوبتنا تقتصر على الوضع البدنى غير المريح ، اما سان جيروم فكان ينفخ صدره ويصيح ملوحاً بيده فى تعاظم ويقول بصوت مفزع : « اركع ايها الوغد » ويجعلنا نركع أمامه ونلتمس منه المغفرة ، فكانت العقوبة تنطوى على اذلالنا •

•• اننى لم أعاقب • ولم يذكر لى أحد شيئاً مما حدث ، ومع ذلك لم أنس كل ما قاسيته من اليأس ، والعار ، والفزع والكراهية فى هذين اليومين • وبالرغم من ان سان جيروم لم يقطع كل أمل فى منذ ذلك الوقت ، وقلما كان يضايقنى ، فاننى لم أستطع أن أحمل نفسى على معاملته دون اكتراث ، وكنت أشعر فى كل مرة تتقابل فيها عينانا ، ان نظرتى كانت صريحة العداء له ، وأسرع باتخاذ مظهر عدم الاهتمام ، ولكن كان يخيل لى آنئذ انه يفهم ريائى ، فأخجل وانصرف عنه كلية •

•• وقصارى القول ، لا أستطيع أن أصف الى أى حد كانت تشمئز نفسى من أى شىء يتصل به •

(٤٦)

حجرة الخادمات

•• شعرت بتزايد الوحدة شيئاً فشيئاً ، وتكونت مسراتى الأساسية من تأملاتى وملاحظاتى فى عزلتى ، وسأتحدث عن

موضوع تأملاتى فى فصل لاحق ، والمسرح الهام لملاحظاتى كان حجرة الخادمات ، حيث تجرى القصة التى كانت تهمنى وتثيرنى من الأعماق ، وبطلة هذه القصة كانت ماشا بطبيعة الحال . كانت تحب فاسيلى الذى عرفها مذ كانت تعيش من الخدمة ، ووعدها بالزواج فى ذلك الحين ، ومع ذلك فان القدر الذى فرق بينهما منذ خمس سنوات ، ثم جمع بينهما فى بيت جدتى ، وضع بينهما حاجزاً فى شخص نيكولاى (عم ماشا) الذى لا يحب أن يسمع عن زواج ابنة أخيه من فاسيلى الذى كان يطلق عليه (الرجل الغبى الداعر).

وكان من تأثير هذه العقبة ان وقع فاسيلى الهادىء الطبع الذى لا يهتم لشيء ، فى حب ماشا حباً جارفاً ، بقدر ما يستطيع أن يحب رقيق خياط يرتدى قميصاً وردى اللون مصقول الشعر بالدهان .

وبالرغم من ان دلائل حبه كانت غريبة وسيئة الاختيار الى حد بعيد ، (فمثلا كان حين يقابل ماشا يحاول دائما ان يسبب لها ألما ، اما يقرصها أو يصفعها أو يحتضنها بعنف بحيث لا تستطيع أن تتنفس الا بشق النفس) وكان حبه حقيقياً ، والدليل على ذلك أنه منذ أن أنكر نيكولاى على فاسيلى يد ابنة أخيه ، انكب على الشراب لشدة حزنه ، وأخذ يغشى حانات الشرب ويخلق الاضطرابات . وقصارى القول ، أخذ يسلك سلوكاً غير حميد حتى أنه تصرف تصرفاً مشيناً عاقبه عليه رجال الشرطة . غير ان سلوكه

هذا ونتائجه جعلته أكثر استحقاقاً فى نظر ماشا فازداد حبها له ، وفى أثناء حبس فاسيلى كانت ماشا تبكى أياماً برمتها دون أن تجف لها عين ، وتشكو مصيرها المؤلم الى جاشا (التى كانت تروقها كثيراً شئون المحبين التعساء) وتنسل خلسة الى مركز الشرطة مستهينة بتحقير عمها وتعنيفه لها ، لزيارة صديقها والترفيه عنه .

لا تحقر من شأن المجتمع الذى أقدمه لك أيها القارىء ، فان لم تكن أوتار الحب والعطف قد ضعفت فى روحك ، فانك لواجد الأصوات التى تتجاوب معها فى حجرة الخادمات . وسواء أكان يروقك أو لا يروقك أن تتبعنى ، فاننى سأعمد الى « بسطة » السلم التى أستطيع أن أرى منها كل ما يجرى فى حجرة الخادمات : هناك اريكة عليها مكواة الثياب ، والعروسة المصنوعة من الورق المقوى ذات الأنف المكسور ، وقصعة الاغتسال الصغيرة ، ومغسل اليد ، وهناك عتبة النافذة التى يتكوم عليها خليط يتكون من كتلة شمعية سوداء ، وحزمة خيط من الحرير ، وخيارة خضراء مقضومة ، وعلبة للملبس ، ويوجد كذلك المائدة الكبيرة الحمراء ، عليها قطعة قرميد ملفوفة بقماش من « البفتة » موضوعة على رقعة من شبكة متقاطعة ، ومن خلفها تجلس « هى » فى ثوبها الكتانى الوردى المفضل عندى ومنديلها الأزرق الذى يجتذب انتباهى بنوع خاص ، وهى تطرز وتتوقف بين وقت وآخر لكى تحك رأسها بابرتها أو لتقص فتيل شمعة وأنا أتطلع وأفكر : لماذا لم تولد سيدة

بهاتين العينين الزرقاوين اللامعتين ، وتلك الجديلة الذهبية الضخمة، وذلك الصدر الناهد ؟ كيف كانت تصبح حالتها لو جلست فى حجرة الجلوس وعلى رأسها غطاء ذو أشرطة وردية فى ثوب أحمر قاتم ، لا كثوب ميمى ، ولكن كالثوب الذى رأيته فى تفرسكوى بوليفار ! ... لكانت تطرز على اطار وأرقبها فى المرآة ، ولكنت أفعل أى شىء تطلبه . كنت أناولها وشاحها وأقدم لها طعامها بنفسى .

وبأى وجه مخمور وخلقة تشمئز منها النفس ، يبدو فسيلى فى سترته المحبوكة ، وقميصه الوردى القذر الذى يكشف عما تحته !! ان فى كل حركة من جسمه ، وفى كل انحناءة من ظهره ، أرى فيما يبدو علامات لا نزاع فى انها عقوبات العصيان التى لحقت به .

قالت ماشا متعجبة وهى تغرز ابرتها فى الوسادة دون أن ترفع رأسها لتحية فاسيلى عند دخوله : « آه ، فاسيا ، مرة أخرى ـ

وأجاب فاسيلى : « نعم ، وما فى ذلك ؟ وأى خير كنت تتوقعين منه ؟ فلو انه يستطيع لدبر الأمر بصورة ما ! ولكن هذه جهودى كلها تضيع سدى ، وكل ذلك بسببه » .

.. وسألته نادزدا ، وهى خادمة أخرى : « أتريد بعض الشاى ؟ » .

وقال فاسيلى : « اشكرك بكل تواضع » ثم أتم حديثه وهو

يلوح بيده : « ولماذا يكرهنى عمل اللص ؟ لأن لدى ملابس خاصة بى ، بسبب كبريائى ، بسبب هيأتى • آه ، اللعنة على كل هذا !! » •

•• وقالت ماشا وهى تقضم الخيط : « يجب أن يكون المرء مطيعاً ، وانت ••• « اننى لا أستطيع احتمال هذا بعد الآن ، وذلك لأن ! » •

وفى تلك اللحظة صفق باب حجرة جدتى بشدة ، وسمع صوت جاشا وهى تصعد السلم تقول : « واذن !! أحاول ان أرضيها حين لا تعرف هى نفسها ماذا تريد • يا لها من حياة لعينة ـ انها مجرد اشغال شاقة !! ثم همست وهى تلوح بيديها : « آه أرجو ـ الله أن يغفر لى » •

وقال فاسيلى وهو ينهض لتحيتها : « أقدم تحياتى الى أجافيا ميخايلوفنا » •

فأجابته عابسة وهى تحدجه بنظراتها : « آه ، فلتنصرف ! اننى لا أريد تحياتك ••• لماذا تأتى الى هنا ؟ هل حجرة الخادمات مكان يأتى اليه الرجال ؟ » •

وقال فاسيلى فى خجل : « أردت السؤال عن صحتك » •

وصاحت أجافيا ميخايلوفنا بأعلى صوتها وهى لا تزال غاضبة : « سألفظ آخر أنفاسى وشيكا ، هذا هو حالى » •

وضحك فاسيلى .

« ليس هناك ما يدعو الى الضحك ، واذا قلت لك اخرج من هنا فيجب أن تخرج ! ، حسبكم أن تنظروا اليه ! هل يتزوجها ؟ الوغد القذر ! هيا اخرج من هنا ! » .

وخرجت أجافيا ميخايلوفنا من الحجرة وهى تضرب الأرض بقدميها ، وقصفت الباب بعنف قصفة هزت النوافذ .

وظلت برهة تشتم كل شيء وكل شخص بصوت مسموع من وراء الحاجز ، وتلعن حياتها وتلقى بأمتعتها ، وتشد أذنى قطتها الصغيرة ، وأخيرا فتح الباب بالقدر الذى يسمح فقط بمرور القطة مروراً خاطفا ، معلقة من ذيلها وهى تصرخ صراخاً محزناً .

وقال فاسيلى هامساً : « ويظهر أن من الأفضل ان أحضر مرة أخرى لشرب الشاى .. الى اللقاء فى مناسبة أفضل » .

وقالت نادزدا وهى تغمز بعينها : « لا ضير ، سأذهب لألقى نظرة على الغلاية » .

وتابع فاسيلى حديثه وهو يجلس بالقرب من ماشا حالما غادرت نادزدا الحجرة : « اننى أقصد أن أضع حداً لهذا مرة واحدة فقط . فاما أن أذهب الى الكونتيسة مباشرة ، وأشرح لها كيف تجرى الأمور ، واما أن أترك كل شيء وأهرب الى آخر الدنيا ، وسأفعل والله ! وكيف أعيش هنا وحدى ؟ » .

انك الشخص الوحيد الذى آسف له ، فلو لم يكن من أجلك ، لهربت منذ زمن ط ـ طو ـ يل وأقسم بالله .

وقالت ماشا بعد قليل من الصمت : « لماذا لا تحضر لى ملابسك لكى أغسلها يا فاسيا ؟ » ثم أضافت وهى تمسك بنيقة القميص : « انظر مقدار سواد هذه » .

وفى تلك اللحظة سمع جرس جدتى يصلصل من تحت ، وخرجت جاشا من حجرة نومها ، وقالت وهى تدفع فاسيلى نحو الباب وهو ينهض مسرعاً عند رؤيتها : « أنت السبب فيما صار اليه أمرها ، ولا تفتأ تضايقها ، وأظنك تريد أن تراها باكية أيها الوحش السليط الوجه ! انصرف ! اغرب عن نظرى !» ثم مضت تقول ملتفتة الى ماشا : « ماذا وجدت فيه ؟ ألم يضربك عمك بسببه اليوم ؟ ولكن لك طريقتك الخاصة : « انا لا أتزوج أحدا غير فاسيلى جروسكوف » ياللك من غبية ! » .

وصاحت ماشا ، وانفجرت بالبكاء فجأة : « ولا أنا أريد أن أحب أى شخص آخر ، ولو ضربت حتى الموت بسببه » .

وتفرست طويلا فى ماشا التى اضطجعت على الصندوق ، وكفكفت دموعها بمنديلها وقد بذلت أقصى ما أستطيع لأغير رأيى فى فاسيلى ، وحاولت الوقوف على وجهة النظر التى استطاع من

خلالها ان يجتذبها • ولكن بالرغم من عطفى الخالص على حزنها فقلما استطعت أن أفهم كيف أن فتاة تبدو لى فاتنة مثل ماشا يمكن ان تحب فاسيلى •

وقلت فى نفسى وأنا أصعد الى مسكنى الخاص : « ان بتروفسكى عندما أكبر ستكون ملكى ، وماشا وفاسيلى سيكونان رقيقين فى أرضى • سأجلس فى مكتبى أدخن غليونى ، وتذهب ماشا الى المطبخ بمكواتها • وسأقول له : « ارسل الى ماشا » ثم تأتى حيث لا يكون أحد بالحجرة ، ويأتى فاسيلى فجأة ، وعندما يرى ماشا سيقول : « لقد ضعت الآن » • وتبكى ماشا ، وسأقول : « أنا أعرف يافاسيلى انك تحبها وهى تحبك ، هذه مائة روبل لك تزوجها ، والله يمنحك السعادة » ، واذهب عندئذ الى حجرة الجلوس ، ومن بين الأفكار التى لا حصر لها والتى تومض فى العقل والخيال فلا تترك أثراً ، توجد أخرى تترك ثلمة عميقة حساسة ، حتى انك ، ودون ان تسترجع الشىء الذى فكرت فيه تتذكر انه كأن شيئاً ساراً ، وتشعر بأثر الفكرة ، وتحاول بعثها مرة أخرى• ومثل هذا الأثر العميق هو ما تركه فى نفسى التفكير فى تضحية شعورى الخاص فى سبيل السعادة التى قد تجدها ماشا فى زواجها من فاسيلى •

(٤٧)

الصبا

•• ربما لا يصـدقنى النـاس حين أذكر لهم ماذا كانت أعز تأملاتى وأكثرها ثباتاً ابان مرحلة صباى ـ وهى أبعد ما تكون ملائمة لسنى ومركزى ـ ولكن التفاوت بين مركز •• الانسـان ونشاطه الخلقى لهو فى رأيى أضمن دليل على سلامة طويته •

فى خلال العام الذى عشته فى حياة أخلاقية انفرادية محصوراً فى داخل نفسى كنت تواجهنى كل المسائل العويصة المتعلقة بمصير الانسان وحياته المستقبلة وخلود الروح ، فيحـاول عقلى الصبيانى الضعيف بكل ما فيه من قوة تنقصها الخبرة ، حل هذه المسائل التى يشكل تفسيرها أعلى مرتبة يمكن للعقل البشرى أن يبلغها ، ولكن حلها لا يوهب له هبة •

•• ويخيل الى ، أن العقل عند كل فرد ، يتبع فى نموه نفس الطريق الذى تتبعه الأجنـاس جميعـاً ، وان الأفكار التى تستخدم كأساس للنظريات الفلسفية المختلفـة تشـكل الملكات الموقوفة على العقل ، ولكن كل انسان كان يدركها بوضوح كبير أو صغير حتى قبل أن يعرف شيئاً من النظريات الفلسفية •

طرأت هذه الأفكار على ذهنى فى ضوء بلغ من الوضوح ومن القوة حداً حاولت معه تطبيقها على الحياة ، متصوراً اننى كنت «أول» من كشف عن مثل هذه الحقائق العظمى النافعة •

وحدث أن خالجتنى فكرة ان السعادة لا تعتمد على الظروف الخارجية ، بل على موقفنا منها ، وان الانسان الذى اعتاد تحمل الألم لا يكون غير سعيد ، ولكى أعـود نفسى على الكدح ؛ كنت أحمل معجم تاتشيف بين يدى ممـدودتين لمـدة خمس دقائق بالرغم من الألم الفظيع ، أو أدخل الى غرفة السـطح وأجلد ظهرى العريان بحبل جلدا شديداً حتى تفيض عينى بالدموع رغماً عنى •

وخطر لى فجأة فى احـدى المرات ، ان الموت ينتظرنى فى أية ساعة وأية لحظة وأخذت أفكر دون أن أفهم كيف أخفق الناس حتى الآن فى ادراك ذلك ، وان الانسان يمكن ان يكون سعيدا اذا ما استفاد وحسب من حاضرة دون أن يفكر فى المستقبل • وقضيت ثلاثة أيام مذعناً لتأثير هذه الفكرة ، فأهملت دروسى ولم أفعل شيئاً غير الرقاد فى فراشى والاستمتاع بقراءة قصة، وأكل كعك الزنجبيل الذى كنت قد اشتريته بآخر ما كان معى من نقود •

وفى مناسبة أخرى ، حين وقفت أمام السـبورة أرسم عليهـا أشـكالا مختلفة بالطباشير خطرت ببالى فكرة ، وهى : لماذا يروق التناسق للعين ؟ وما هو التناسق ؟

وكانت اجابتى ، انه شـعور فطرى • ولـكن ما أسـاسه ؟

هل هناك تناسق فى كل شىء فى الحياة ؟ على العكس فها هنا الحياة • ورسمت شكلا بيضاويا ، فالروح بعد الحيـاة تمضى الى الأبدية • ورسمت من أحد جانبى الشـكل البيضـاوى خطا يمتد الى حـافة السبورة نفسها • ولماذا لا يكون هنـاك خط على الجنب الآخر ؟ الواقع اننى عدت الى التفكير فيها ، فما نوع هذه الأبدية ذات الجانب الواحد فقط ؟ لأننا وجدنا بالتأكيد قبل هذه الحياة ، بالرغم من اننا نسينا هذا الوجود السابق •

•• وقد سرنى هذا التعليل العقلى الذى بدا لى جديدا متألقاً الى أقصى حد ، والذى أستطيع الآن ان أمسك فقط بخيطه فى صعوبة وتناولت صحيفة من الورق بقصد الكتابة عليها ، ولكن مثل هذه المجمـوعة من الأفكار ازدحمت فى ذهنى أثنـاء العمليـة ازدحاماً اضطرنى الى النهوض والمشى• فى الحجرة وعندما اقتربت من النافذة، تحول انتباهى الى الحصان الذى كان الحوذى يشـد عدته فى تلك اللحظة ، وتركزت كل أفكارى حول حل مسألة هى : ـ الى جسم أى حصان أو انسان ستنتقل روح هذا الحصان عندما تتحـرر من الجسد ؟ وفى هـذه اللحظة مر فولوديا بالحجـرة ، فابتسم عندما لاحظ اننى أحاول حل مشـكلة ما ، فكانت هذه الابتسـامة كافية لأن توضح لى ان ما كنت افكر فيه ليس الا محض هراء •

•• ولقد رويت هذا ـ وهو فى نظرى مناسبة تستحق الذكر ـ لمجرد اعطاء القارىء الفرصة لفهم طبيعة تأملاتى •

ولكنى لم أكن مفتونا بأى نوع من أنواع الاتجاهات الفلسفية جميعا بقدر ماكنت مفتونا بالتشكك الذى جعلنى فى وقت ما أقف على حافة الجنون • وتخيلت أنه لا يوجد شيء أو انسان فى العالم برمته عدا نفسى ، وان الأشياء لم تكن أشياء ، بل هى مجرد صور تتراءى لى اذا ما وجهت اليها انتباهى ، وان هذه الصور ستختفى حالما أكف عن التفكير فيها •

وقصارى القول أننى أتفق مع تشلنج فى فكرة أن الموجود ليس الأشياء وانما هو علاقتى بها • وهناك لحظات كنت أصل فيها حين أكون واقعا تحت تأثير هذه « الفكرة الثابتة » ، الى مرحلة من الخبل بحيث كنت أحيانا ألتفت بسرعة الى الاتجاه المضاد على أمل أن أفاجيء العدم (اللاشيء) حيث لم أكن •

ياللعقل البشرى من مصدر ضئيل تافه بالنسبة للعمل الأخلاقى !! •

لم يستطع عقلى الضعيف التغلغل فى هذا العمل العويص ، ولكنى فى هذا العمل الذى يفوق قدرته فقدت معتقداتى التى لم يكن ينبغى أن أتجاسر مطلقا على أن أمسها حرصا على سعادة حياتى الخاصة ، معتقدا بعد معتقد •

ولم أحصل على شيء من كل هذا العناء الأخلاقى الشاق الا دهاء

العقل الذى قلل من قوة ارادتى ، والا عادة التحليل الأخلاقى الدائم الذى حطم جدة الشعور ووضوح الحكم •

ان الأفكار المجـــردة ، كنتيجة للطاقة العقلية عند الانسان ، تتشكل بحيث تفهم حالة روحه فى أية لحظة معينة وتنقلها الى ذاكرته• ولقد قوى ميلى الى التعليل المجرد من قدرتى على الادراك الحسى الى درجة غير طبيعية ، حتى أننى عندما كنت أبدأ فى التفكير فى أبسط وجه للأشياء ، كثيرا ماكنت أقع فى تحليل لأفكارى لا ينتهى عند حد ، فلا أعود أعير المسألة التى كانت تشغلنى من قبل اهتماما ، بل أفكر فيما أفكر فيه • وحين كنت أسأل نفسى : فيما أفكر ؟ كنت أجيب : أننى أفكر فيما أفكر فيه • وفيما أفكـــر الآن ؟ أظننى أفكـــر فيه وهكذا • ولا أستطيع أن أجد سببا لتعليلى العقلى •

ومع ذلك فان كشوفى الفلسفية التى وصلت اليها كانت تتملق غرورى الذاتى الى أقصى حد • وكثيرا ماكنت أتخيل نفسى رجــلا عظيما يكشف عن حقائق جديدة لنفع الجنس البشرى ، وأنظر الى المخلوقات الأخرى شاعرا بقيمتى ، ومن العجيب أن أقول اننى عندما اتصلت بتلك المخلوقات كنت أشعر بالخجل فى حضرة كل واحد منهم ، وكلما ازداد تقـــديرى الشخصى لذاتى عجـزت عن اظهار الشعور بجدارتى أمام الآخرين ، بل لم أستطع حتى تعويد نفسى على عدم الشعور بالخجل من كل كلمة وكل حركة مهما كانت بسيطة •

(٤٨)

فولوديا

نعم ، كلما تقدمت فى وصف هذه المرحلة من حياتى ، أصبحت أكثر ايلاما لى وعنفا على ، فقلما أجد بين ذكرياتى عن هذه المرحلة ، لحظات من الشعور بالدفء الحقيقى شديدة التألق ، والنورانية الدائمة كما كان الحال فى مستهل حياتى • وبقدر مايفرحنى المضى بأسرع ما أستطيع مجتازا صحراء صباى ، يسعدنى بلوغ هذه الفترة السعيدة التى تضيئها الصداقة بحنانها الحقيقى وشعورها النبيل فى أخريات هذا العهد وتفتح عهدا جديدا مليئا بالسحر والشعر ـ الشباب •

ولن أتتبع ذكرياتى ساعة بساعة ، بل ألقى نظرة سريعة على الذكريات الأساسية منذ ذلك الحين الى أن اتصلت برجل بارز أثر تأثيرا راسخا ومفيدا فى خلقى وتقدمى •

سيلتحق فولوديا بالجامعة بعد أيام قلائل ، ويأتى اليه معلمون خصوصيون ، وأصغى بحسد واحترام غير ارادى وهو ينقر على السبورة بالطباشير بجسارة ويتحدث عن الوظائف والتجاويف والأبعاد والأحداثية وما الى ذلك ، مما يبدو أنه تعبير عن حكمة منيعة المنال • وأخيرا ، فى يوم أحد بعد الغداء اجتمع مدرسان وأستاذان بحجرة جدتى ، فى حضرة بابا وعدة ضيوف ، فوضعوا فولوديا موضع

اختبار تجريبى لامتحان الجامعة • ولشد ماكان سرور جدتى عندما أظهر فولوديا أثناء ذلك تفهما واضحا • كما وجهت الى أيضا أسئلة فى مختلف الموضوعات ، ولكنى قدمت عرضا متواضعا جدا ، وواضح أن الأساتذة حاولوا اخفاء جهلى أمام جدتى الأمر الذى زاد من ارتباكى • ومع ذلك فان الالتفات الذى وجه الى كان ضئيلا جدا ، فقد كنت فى الخامسة عشرة فقط ، واذن ، لايزال أمامى عام أستعد فيه لامتحانى ، ويهبط فولوديا الى الطابق السفلى للغداء فقط ، ويقضى كل النهار بل والأمسيات مكبا على دراساته بالطابق العلوى لا لضرورة ذلك ، ولكن لرغبته الخاصة • فهو شديد الغرور لا يرضيه مجرد النجاح فى الامتحان ، بل يرضيه الامتياز •

وأخيرا يحل يوم الامتحان الأول • ويرتدى فولوديا سترته الزرقاء ذات الأزرار النحاسية ويضع ساعته الذهبية وينتعل حذاءه الجلدى الحديث الطراز • وتحضر مركبة بابا المكشوفة الى الباب ، ويزيح نيكولاى الغطاء جانبا ويركب فولوديا وسان جيروم الى الجامعة • وتطل الفتيات وبخاصة كاتنكا من النافذة على منظر فولوديا اللطيف وهو يركب العربة ، بوجوه مبتهجة يستخفها الطرب ، ويقول أبى : « بمشيئة الله ! بمشيئة الله ! » وكذلك جدتى التى جرت نفسها الى النافذة تبارك فولوديا والدموع فى عينيها الى أن تتوارى المركبة عند منحنى الشارع وتقول شيئا ما هامسة •

ويعود فولوديا ويحيط به الجميع فى لهفة : « حسن ؟ جيد ؟

ماهى الدرجة ؟ » ولكن وجهه المشرق كان اجابة فى ذاته • لقد حصل فولوديا على الدرجات النهائية • وفى اليوم التالى أسرع فولوديا فى طريقه مودعا بنفس الاهتمام والتمنيات بالنجاح ، •• واستقبل بنفس اللهفة والفرح • ومضت تسعة أيام ، وكان فى اليوم العاشر آخر وأشق امتحان ينتظره ، وهو امتحـان المعلومات الدينيـة • ونقف جميعـاً عند النـافذة وننتظره بصبر نافد أكثر من ذى قبـل • ولم يحضر فولوديا حتى الساعة الثانية •

وتصيح ليوبتشكا وقد ألصقت وجهها فى لوح الزجاج : « يالله! يا أعزائى ! انهم قادمون ! انهم قادمون ! » •

حقيقة كان فولوديا يجلس بجـانب سـان جيروم بالمركبة المكشوفة ، ولم يعد يرتدى سترته الزرقاء والقبعة الرمادية ، ولكنه كان يرتدى حلة الطلبة الرسـمية ذات البنيقة الزرقاء المطرزة ، والقبعة المثلثة الزوايا ، والخنجر المذهب على جنبه •

وتبكى جدتى عندما تشاهد فولوديا فى حلته الرسمية قائلة : « آه ، لو كانت الآن على قيد الحياة ! » ثم تروح فى اغماءة •

ويجرى فولوديا فى صحن الدار بوجه مشرق فيقبلنى ، أنا وليوبتشكا وميمى وكاتنكا التى يعتريها حمرة الخجل حتى أذنيها • ويكاد فولوديا يطير من الفرح •• كم كان مليحا فى حلته الرسمية ، وكم تلائم بنيقته الزرقاء شاربه النـامى الأسود ! ياخصره الطويل

النحيل ، ومشيته اللطيفة ! وفى ذلك اليوم المشهود يتناول الجميع الغداء بحجرة جدتى ويشع الفرح من جميع الوجوه • وبعد الغداء ، فى وقت تناول الحلوى ، يقـــدم رئيس الخدم زجاجة من الشمبانيا ملفوفة بمشـــوش وقد ارتسمت على وجهه ابتســامة مهيبة ولكنهـــا ضاحكة • وتشرب جدتى الشمبانيا لأول مرة منذ وفاة أمى ، فتشرب زجاجة كاملة لتهنئة فولوديا ، ثم تعـــود فتبكى ثانية وهى تتأمله • وينصرف فولوديا ويخرج الآن من الغناء مع بطانته ، ويستقبل معارفه فى مسكنه الخاص • يدخن ويغشى المراقص ••• بل لقد رأيته فى مناسبة ما يشـارك فى شرب زجاجتين من الشمبانيا مع اثنين من الضيوف فى حجرته ، وكانت الجماعة كلها تشرب مع كل زجاجة نخب بعض الشخصيات الغامضـــة ، ثم يتناقشون فيمن يتناول آخر جرعة من الزجاجة •• ولكنه يتناول غداءه بانتظام فى البيت ويقضى فترة مابعد الظهر بحجرة الجلوس كعادته من قبل ، ينشغل دائما فى مناقشات غامضة مع كاتنكا ، ولكن بقدر ما أستطيع أن أسمع لأننى لا أشترك فى محادثتهما ـ يدور الحديث عن أبطال وبطلات القصص التى يقرآنها ، وعن الحب والغيرة • ولا أستطيع استنباط مدى التسلية التى يجدانها فى مثل هذه المناقشـــات ، أو لماذا يبتسمان بهذه الرقة ويتباحثان بهذه الرغبة •

انني ألاحظ بوجه عام أنه بالاضافة الى الصداقة الطبيعية ، توجد بين كاتنكا وفولوديا بعض العلاقات الغريبة التى تعزلهما عنا وتربط أحدهما بالآخر بطريقة غامضة •

(٤٩)

كاتنكا وليوبتشكا

كاتنكا الآن فى السادسة عشرة ، فهى ناضجة ، وقد أفسح الخجل وارتباك الحركة الخاصان بالفتيات فى مرحلة انتقالهن من الصبا الى العذرة ، الطريق للنضارة المنسقة ، ورشاقة الزهرة الحديثة المولد • ولكنها لم تتغير : نفس العينين الزرقاوين اللامعتين ، والنظرة الباسمة ونفس الأنف الصغير المستقيم الذى يكون مع جبينها بمنخريه القويين خطا واحدا تقريبا • والفم الدقيق بابتسامته المشرقة ، و « الغمازتين » على وجنتيها الورديتين الشفافتين ، ونفس اليدين الصغيرتين البيضاوين • ولسبب ما ، لاتزال عبارة « فتاة متكلفة » تلائمها بنوع خاص كل الملاءمة • والأشياء الجديدة الوحيدة فيها هى طريقة تصفيف شعرها الأشقر الغزير الذى تجعل منه ضفيرة على غرار ماتفعل المرأة الكبيرة ، وصدرها الصغير الذى لا يخفى ابتهاجها به وان كان يخجلها •

وبالرغم من أن ليوبتشكا قد نشأت وتربت معها ، فهى فتاة تختلف عنها كل الاختلاف ، وليوبتشكا أقصر منها نوعا ما • ونتيجة لكساح الأطفال لاتزال ساقاها معوجتين ، ووجهها قبيحا جدا ، والشىء الوحيد الجميل فى وجهها هو عيناها ، فهما جميلتان جدا فى الواقع ـ

كبيرتان داكنتان فيهما تعبير جذاب عن الكرامة والبساطة يجل عن التعريف حتى أنهما ملفتتان للانتباه •

ان ليوبتشكا طبيعة بسيطة فى كل شيء ، فى حـــين يبدو على كاتنكا أنه تريد تشكيل نفسها على نمط شخص آخر •

ونظرة ليوبتشكا مستقيمة دائماً ، وهى تثبت عينيها الداكنتين الواسعتين أحيانا على شخص ولا تحولهما عنه لمدة طويلة ، حتى لقد يعاب عليها ذلك ويقال لها أنه مجاف للأدب •

وكاتنكا من ناحية أخرى تسدل جفنيها ، وتدير عينيها ، وتقول ان نظرها قصـير ، فى حين أننى أعرف جد المعـرفة أن نظرها على أحسن ما يكون ، وليوبتشكا لا تحب التودد الى الغرباء ، واذا مابدأ أى شخص فى تقبيلها وهى بين جماعة فانها تتجهم وتقول انها لا تحمل « العواطف » وكاتنكا على العكس تتودد بنوع خاص الى ميمى فى حضرة الضيوف، وتحب أن تسير متشابكة الذراعين مع فتاة ما بالقاعة• ويسهل استثارة الضحك عند ليوبتشـكا ، وعندما يستخفها الطرب أحيانا تلوح بيديها وتجرى فى الحجرة ، أما كاتنكا فعلى العكس ، تغطى فمها بيديها أو بمنديلهـــا عندما تأخذ فى الضحك ، وتجلس ليوبتشكا دائما معتدلة ، وعندما تسير ترفع يديها الى جنبها ، أما كاتنكا فتميل برأسها جانبا وتسير مشبكة اليدين ، وتفرح كاتنكا أشد الفرح عندما تقتنص فرصة للتحدث الى رجل من الكبار ، وتعلن أنها ستتزوج بالتأكيد من أحد رجال الســوارى ، ولكن كاتنكا تقول ان جميع

الرجال مزعجون ، وانها لن تتزوج أبدا ، وتصبح فتاة مختلفة كل الاختلاف عندما يتحدث اليها رجل كما لو كانت تخاف شيئا ما • وليوبوتشكا مغتاظة على الدوام من ميمى لأنها تحزمها باحكام شديد بالمشدات حتى انها تقول : « لا أستطيع أن أتنفس » ثم انها مغرمة بالأكل ، ولكن كاتنكا من ناحية أخرى كثيرا ماتدفع باصبعها تحت صدريتها لترينا مدى اتساعها ، وهى تأكل قليلا جدا • وليوبوتشكا تحب اجتذاب العقول ، ولكن كاتنكا تجتذب الأزهار والفراشات فقط ، وتعزف ليوبوتشكا « كونسرتوفيلد » باتقان ، وبعضا من سوناتا بتهوفن ، وتعزف كاتنكا منوعات ومقطوعات من موسيقى الفالس ، وتستمسك بنغماتها مدة أطول مما يجب ، وتدق على المفاتيح بقوة شديدة ، وتستعمل « الدواسة » دون انقطاع • وقبل أن تعزف أى شيء تدق ثلاثة أصوات سريعة التتابع •

وكنت أرى كاتنكا آنئذ أقرب ماتكون الى الراشدات ولذلك كانت تروقنى كثيرا •

(٥٠)

أبى

كان بابا مرحا بنوع خاص منذ أن التحق فولوديا بالجامعة ، فهو يأتى لتناول الغداء مع جدتى أكثر من المعتاد ، ومع ذلك فان سبب

ابتهجه كما سمعت من نيكولاى يرجع الى أنه كسب أخيرا قدرا كبيرا من المال • وكان يأتى أحيانا لرؤيتنا فى المساء قبل ذهابه الى النادى ، ويجلس الى البيانو ونحن مجتمعون حوله ، ويغنى أغانى غجريه ويدق بحذائه الرقيق للتوقيت الموسيقى (لا يتحمل الحذاء ذا الكعب ولا يلبسه مطلقا) • وينبغى أن ترى فرحة محبوبته ليوبتشكا العارمة التى تهيم به • وهو يأتى أحيانا الى حجرة الدراسة ويستمع الى عند القائى دروسى بملامح عابسة ، ولكنى أدرك من كلماته العرضية حين يحول توجيهى الى الصواب أنه لا يعرف الكثير مما أتعلم • وأحيانا يغمز لنا بعينه غمزة ماكرة ، ويومىء الينا باشارات عندما تبدأ جدتى فى التذمر وتغضب مع الجميع دون سبب ، ثم يقول بعد ذلك « حسن » ، لقد عرفنا هذا يا أطفال « وقصارى القول ، ان منزلته هبطت قليلا فى نظرى من قمتها التى لا تدانى والتى كان خيالى الصبيانى قد وضعها فيها ، فألثم يده الكبيرة البيضاء بنفس شعور الحب الحقيقى والاحترام ، ولكنى أسمح لنفسى الآن بالتفكير فيه ، واصدار حكم على أعماله ، وتخطر على ذهنى أفكار تفزعنى ، ولا أنسى البته حدثا واحدا أثار فى نفسى أفكارا كثيرة سببت لى ألما معنويا شديدا •

في ساعة متأخرة من احدى الأمسيات دخل حجرة الاستقبال بسترته السوداء وصديرته البيضاء لكى يصحب فولوديا الى قاعة الرقص ، وكان الأخير يرتدى ملابسه فى حجرته ، وكانت جدتى فى حجرة نومها تنتظر مثول فولوديا أمامها قبل ذهابه الى المرقص ،

(كانت عادتها أن يمثل أمامها قبل كل حفلة راقصة لتفحصه وتمنحه بركتها وتزوده بتوجيهاتها) وكانت ميمى وكاتنكا تروحان وتجيئان فى القاعة التى كانت مضاءة بشمعة واحدة فقط ، بينما كانت ليوبتشكا تجلس الى « البيانو » تتعلم كونسرتوفيلد الثانية وهى قطعة أمى المفضلة •

لم يقابلنى البتة تشابه بين أى شخصين مثل هذا التشابه ، بين أختى وأمى ، ولم يكن التشابه فى الوجه ولا فى القوام ، ولكن فى صفة دقيقة ـ فى اليدين وطريقة المشى ، وخصائص الصوت وبعض العبارات ، فحين كانت ليوبتشكا تغضب فتقول : « لن يسمح بهذا لطول العمر » كانت تنطق كلمتى « طول العمر » اللتين جرت عادة أمى أيضاً على استعمالهما ، حتى ليبدو لك أنك تسمع طولهما فى صوتها ، ولكن التشابه يكون أكثر وضوحا عندما تعزف على البيانو جميع أنواع العزف ، فهى تعدل وضع ثوبها عندما تجلس بنفس الطريقة تماما ، وتقلب صفحاتها من أعلى بيدها اليسرى ، وتدق المفاتيح بقبضتها وهى عابسة ، وذلك اذا لم تستطع أداء مقطوعة صعبة كما يجب ، وتقول : « آه ، يا الهى ! » وكانت تمتاز بتلك النعومة التى تجل عن الوصف ، ودقة التنفيذ ، وطريقة فيلد الجميلة التى تسمى بجدارة ، « المعزوفة النفيسة » التى لا يستطيع واحد بين جميع عازفى البيانو المحدثين الأدعياء أن ينسى سحرها •

ودخل بابا الحجرة فى خطوات سريعة قصيرة ، وقصد الى

ليوبتشكا ، التى توقفت عن العزف عندما رأته • وقال بابا وهو يعيدها الى جلستها ثانيا : « لا ، •• استمرى فى العزف ، فأنت تعلمين كم أحب سماعك ، واستمرت ليوبتشكا فى العزف ، وجلس بابا مواجها لها وقتا طويلا مسندا رأسه بيده ، ثم هز كتفيه هزة خاطفة على حين فجأة ، ونهض وأخذ يسير ذهابا وايابا ثم جلس • وكان فى كل مرة يقترب من البيانو يتوقف ويتأمل بامعان فى ليوبتشكا • وقد تبينت من حركاته وطريقة مشيته أنه كان شديد الاضطراب • وبعد سيره حول الحجرة عدة مرات ، وقف وراء مقعد ليوبتشكا وقبل شعرها الأسود ثم عاد أدراجه واستأنف سيره • وعندما أتمت ليوبتشكا عزف مقطوعتها وأقبلت عليه تسأله « هل تحبها ؟ » تناول رأسها بين يديه ، صامتا دون أن ينطق بكلمة واحدة وأخذ يقبل حاجبيها وعينيها فى حنان لم أره يظهر مثله تماما •

وقالت ليوبتشكا فجأة وهى تدلى سلسلة ساعتها وتثبت على وجهه عينيها الشديدتى الدهشة : « لماذا تبكى ! اغفر لى يا بابا العزيز ، لقد نسيت تماما آن هذه كانت مقطوعة ماما » •

وقال فى صوت يتهدج بالانفعال : « لا ياعزيزتى ، اعزفيها كثيرا ، انك ستفعلين اذا ماعرفت فقط كم يريحنى أن أبكى معك » •

وقبلها مرة أخرى محاولا التغلب على أنفعاله ، وهز كتفيه وخرج من الباب المؤدى الى الدهليز وحجرة فولوديا • وصاح وهو يقف فى منتصف الدهليز : « والديمار ! أيمكن أن تستعد بسرعة ؟»

وفى تلك اللحظة مرت الخادمة ماشا فغضت من بصرها حين رأت سيدها وحاولت أن تتحاشاه • فاستوقفها وقال لها وهو ينحنى عليها : « ان جمالك ليتزايد كل يوم » •

وخجلت ماشا وأحنت رأسها أكثر من ذى قبل ، وقالت هامسة « اسمح لى » •

وقال بأبا مرة أخرى وهو يهز كتفيه ويسعل عندما مضت ماشا ووقع نظره على والدمار : «هل أوشكت على التأهب يا والدمار ؟ » •

لقد أحببت بابا ، ولكن عقل الانسان لا يستشير قلبه ، وكثيرا مايخفى الأفكار التى تهين مشاعره ، فهو لا يدركها كما يجب ، ويتجهم لها • ورغما عن ذلك فقد جاهدت لكى أطرد مثل هذه الأفكار بعيدا عنى ولكنها ظلت تساور عقلى •

(٥١)

جدتى

ازدادت جدتى ضعفا يوما بعد يوم ، وكثيرا ماكان يسمع فى حجرتها صوت جرسها وصوت جاشا المتذمر ، وصفق الأبواب • ولم تعد تستقبلنا فى المكتبة وهى فى مقعدها الكبير المريح ، ولكن فى حجرة نومها ، فى سريرها المرتفع بوسائده المزركشة الطرفين بالمخرم

« الدانتلا » • وعندما كانت تحيينا كنا نلاحظ انتفاخا باهتا ضاربا الى الصفرة بارزا على يدها ، ونشم تلك الرائحة الخانقة فى حجرتها التى لاحظتها منذ خمس سنوات فى حجـــرة أمى • وكان يحضر الطبيب ثلاث مرات فى اليوم ويتشاور مع زملائه عدة مرات ، ولكن خلقها وعاداتها الرفيعة المتكلفة مع جميع أفراد البيت وبخاصة مع أبى لم تتبدل أقل تبدل ، فهى لاتزال تمد كلماتها وترفع حاجبيها وتقول « ياعزيزى » بنفس طريقتها السابقة تماما •

ثم لم يسمح لنا بزيارتها لأيام قليلة • واقترح سان جيروم فى صباح أحد الأيام أنأخرجللتنزه مع ليوبتشكا وكاتنكا راكبين، وكان ذلك فى ساعات الدراسة • وبالرغم من أننى لاحظت أثناء ركوبى مركبة الجليد أن الشارع المقابل لنوافذ حجرة جدتى كان مفروشـا بالقش وأن أناسا كثيرين يرتدون معاطف زرقاء يقفون على مقـربة من بابنا ، الا أننى لم أفهم لماذا أرسلونى فى نزهة راكبة فى مثل هذه الساعة غير العادية • كنا ليوبتشكا وأنا طوال نزهتنا ، ولسبب ما ، على تلك الحالة النفسية المرحة الغريبـة حتى أنه كان يثير ضحك الواحد منا كل مصادفة ، وكل كلمة وكل حركة •

لقـد أثار ضحكنـا بائع متجـول عبر الطريق بصـــندوقه ركضا • وجعلنا نضحك بصوت صاخب حوذى لحق بمزلقتنا رامحا وهو يلوح بأعنته ، واشتبك سوط فيليب فى زلاقتى مركبة الجليد فالتفت خلفه وقال : « شيء يضايق !! » فكدنا نموت من فرط الضحك

ورمقتنا ميمى بنظرة امتعاض وقالت ان « البلهاء » من الناس فقط هم الذين يضحكون بلا سبب على الاطلاق ، أما ليوبتشكا فقد احتقن وجهها بالضحك المكبوت وألقت على نظرة جانبية طويلة • وتقابلت عينانا ، ثم انفجرنا فى ضحك طائش حتى طفرت الدموع من أعيننا ، ولم نستطع ضبط انفجارات المرح التى كانت تخنقنا • وما كدنا نهدأ حتى رمقت ليوبتشكا بنظرة ونطقت بكلمة غامضة كانت فى وقت ما دارجة بيننا ، وتحرضنا دائما على الضحك ، حتى انفجرنا بالضحك مرة أخرى •

وعندما وقفنا عند بابنا ، كنت على وشك افتعال حركات بوجهى لليوبتشكا بصورة مضحكة جدا حين أفزعنى منظر غطاء أسود لتابوت مسند الى الباب ، فتجمدت الحركة على وجهى •

وخرج الينا سان جيروم بوجه شاحب وقال لنا : « لقد ماتت جدتكم ! » •

لقد كنت طوال الوقت الذى بقيت فيه جثة جدتى بالمنزل أعانى خوفاً لا يحتمل من الموت كما لو كان الجسم الميت حياً ، وذكرنى ذلك بصورة كريهة ، وهى أننى لابد أن أموت فى يوم ما ــ وهو شعور جرت العادة لسبب ما ، أن يختلط بالحزن • لم أشعر بالحزن على جدتى • وبالرغم من أن البيت كان فى الواقع مليئاً بالزائرين المحزونين فلا يكاد يكون هناك شخص بينهم شعر بحزن خالص عليها

سوى شخص واحد حيرني حزنه الشديد أعظم حيرة ، وكانت الخادمة جاشا هي ذلك الشخص ، اذ حبست ، نفسها في حجرة السطح على الدوام ، وسبت نفسها ، وقطعت شعرها ، ورفضت تقبل أي عزاء ، وقالت ان سيدتها الآن قد ماتت ، وانها لا تريد الا أن تموت هي نفسها •

وأكرر مرة أخرى ان عدم اليقينية في مسائل الشعور هو دلالة الصدق التي يعول عليها أكبر تعويل •

وبالرغم من أن جدتنا لم تعد معنا ، فان الذكريات والاشارات الخاصة بها ظلت في البيت كما هي ، وكانوا قلقين بنوع خاص على الوصية التي كتبتها قبل وفاتها ، والتي لا يعرف أحد شيئا من محتوياتها باستثناء منفذها ، الأمير ايفان ايفانتش • وقد لاحظت بعض الهياج بين أهل جدتي ، وكثيرا ماترامت الى سمعي ملاحظات عمن ستؤول اليه ممتلكاتها ، ويجب أن أعترف أنني سررت رغما عني لفكرة أننا سنرث شيئا ما •

وفي نهاية ستة أسابيع أخبرني نيكولاي الذي كان يقوم بوظيفة الصحيفة اليومية في مسكننا ، أن جدتي تركت جميع ممتلكاتها لليوبوتشكا ، وان الذي يقوم بالوصاية عليها لحين زواجها ليس بابا ، بل هو الأمير ايفان ايفانتش •

(٥٢)
أنا

لم يبق غير شهور قليلة على التحاقى بالجامعة ، أجيد الدرس ، ولا أنتظر معلمى دون وجل وحسب ، بل أجــد لذة محققة فى دراستى .

وأستمتع بالقاء الدرس الذى تعلمته بوضوح ودقة ، وأستعد لكلية الرياضيات ، وأقرر الحقيقة أننى اخترتها لمجرد حبى غير العادى للكلمات ، مثل الجيوب ، والمستقيمات المماسة ، والتفاضل والتكامل وما الى ذلك .

اننى أقصر قامة من فولوديا ، عريض الكتفين وأكثر امتلاء ، بسيط دائما ، أهتم بالبساطة كالمعتاد ، وأحاول أن يبدو مظهــرى مبتكرا ، ويغرينى شيء واحد : هو أن بابا قال لى مرة ان لى « وجها حساسا » واننى لأصدقه كل التصديق .

وسان جيروم راض عنى ، ولا أحمل له كراهية بعد ، والواقع أنه حين يوجه الى ملاحظته أحيــانا بأنه من العــار « مع مواهبى وذكائى » أن أفعل هذا أو ذاك ، يبدو لى أننى أحبه .

وتوقفت مراقبتى لحجرة الخادمات منذ أمد بعيد ، وأشــعر بالخجل من الاختفاء وراء الباب ، ويجب أن أعترف فوق ذلك أن

اقتناعى بأن ماشا تحب فاسيلى قد هدأ بعض الشىء من ثائرتى ، وزواج فاسيلى الذى استخلصت الموافقة عليه من أبى ، نتيجة لرجائه ، قد شفانى نهائيا من غرامى التعيس •

وعندما يأتى العروسان ، ومعهما صحفة عليها الحلوى المسكرة لتقديم الشكر الى بابا •• وتلبس ماشا قبعة ذات أشرطة زرقاء ، وتقبل كل واحد منا على كتفه ، ثم تعود فتشكرنا جميعا عن شىء أو آخر ، لا أعى من ذلك شيئا غير الدهان الوردى على شعرها ، ولكن دون أقل عاطفة •

وقصارى القول ، آخذ فى سبيلى الى الشفاء تدريجيا من قصورى الصبيانى ، ولكن مع استثناء القصور الأساسى الذى لايزال يسبب لى كثيرا من الأذى فى حياتى ـ ميلى الى التفلسف •

(٥٣)

أصدقاء فولوديا

بالرغم من أننى كنت أقوم بدور فى جماعة فولوديا يجرح كبريائى ، فقد كنت أحب الجلوس فى حجرته عندما يكون لديه ضيوف فأراقب فى صمت كل مايجرى هناك •

وكان أكثر ضيوف فولوديا ترددا عليه ضابط اتصال يسمى دوبكوف ، وتلميذ هو الأمير نخليودوف وكان دوبكوف صغيرا قوى العضلات أسمر الوجه ، ولم يعد فى مستهل شبابه ، تميل ساقاه الى القصر ، ولكنه ليس سيء المنظر • وهو مرح على الدوام ، من أولئك الأشخاص المحدودى التفكير الذين يلقون قبولا بنوع خاص ، بسبب هذا التحديد نفسه ولا يقدرون على تأمل الأشياء من مختلف الجوانب، ويسمحون لأنفسهم على الدوام بالانسياق مع شيء ما • وحكم أناس كهؤلاء يكون من جانب واحد ويتسم بالخطأ ، ومع ذلك فقلوبهم خالصة ويخلبون اللب دائما • ولسبب ما تبدو حتى أنانيتهم الضيقة مغتفرة ، وجذابة • وبالاضافة الى هذا ، فان لدوبكوف سحرا مزدوجا ازاء فولوديا وازائى ـ هو مظهر البسالة ، وأكثر من هذا كله السن التى يميل فيها الصغار من الناس الى الأخذ بالوقار ـ وهو ماكان يطلق عليه « كما ينبغى » ـ الشيء الذى يقدره الناس ممن فى مثل عمرنا أسمى تقدير ـ يضاف الى ذلك أن دوبكوف كان حقيقا بأن يطلق عليه « كما ينبغى » • والشيء الوحيد الذى لم أكن أحبه هو أن فولوديا فى بعض الأحيان كان يبدى خجله فى أثناء وجوده من أعمالى البالغة السذاجة ، ومن حداثة سنى فوق كل شيء •

لم يكن نخليودوف وسيما : عينان صغيرتان رماديتان ، وجبهة منخفضة غير مستوية ، ذراعان وساقان طويلة غير متناسقة ، وتقاسيم لا يمكن وصفها بالجمال • والشيء الجميل الوحيد فيه هو قامته

الطويلة بصورة غير عادية ، ولون وجهــه الرقيق وأسنانه الفائقة الجمال • ولكن تقاسيم وجهه اكتسبت طابع الجدة والحيوية ، من عينيه الضيقتين اللامعتين ، وتعبير ابتسامته الذى كان يتغير من التجهم الى غموض صبيانى لا يسعك الا أن تلتفت اليه •

كان يبدو عليه الخجل الشديد من كل تافهة حتى ليتورد وجهه الى أذنيه ، ولكن خجله لم يكن كخجلى، فكلما ازداد وجهه احمرارا ازداد تعبيره قوة اصرار ، وكان يبدو حانقا على نفسه بسبب ضعفه •

وبالرغم مما كان يبديه من شدة الود لدوبكوف وفولوديا ، فمن الواضح أن المصادفة كانت قد وجدت بينهم ، لأنهم كانوا مختلفين كل الاختــلاف ••• كان يبدو على فولوديا ودوبكوف الخــوف من كل شىء ، حتى مايشبه النقاش الجاد والشعور • وكان نخليودوف على العكس ، حاد الطباع الى أقصى حد ، وكثــيرا ماينغمس فى مناقشة مسائل فلسفية ومشــاعر مهملا الأمور الهــازلة • وكان فولوديا ودوبكوف مغرمين بالتحدث عن موضوعات حبهما (وكانا يقعان فى الحب فجــأة مع الكثيرات ، وكل منهــما مع نفس الأشخاص) أما نخليودوف فكان على العكس ، يسخط دائما على نفسه ســخطا حقيقيا عندما يشيران الى حبه لفتاة معينة « فتاة حمراء الشعر » •

كان فولوديا ودوبكوف كثيرا مايسمحان لنفسيهما بالسخرية من أقاربهما ، بينما كان نخليودوف على العكس ، كان ينساق رغم أنفه الى تلميحات خالية من المجاملة الى عمته التى يضــمر لها نوعا من

الاحترام المذهل • واعتاد فولوديا ودوبكوف الذهاب الى مكان ما بعد العشاء بدون نخليودوف ، وكانا يطلقان عليه « الفتاة الظريفة » •

وقد أثر الأمير نخليودوف في نفسي منذ الوهلة الأولى بحديثه وكذلك بمظهره • وبالرغم من أنني وجدت كثيرا من طبعه مشتركا معي ـ ولعل ذلك كان هو السبب ـ فان الشعور الذي أوحى به الى عندما رأيته لأول مرة ، لم يكن غير شعور الاستحسان •

كنت أكره لفتته المتعجلة وصوته الحاسم ، وهيئته المتعالية ، وفوق ذلك كله ، عدم الاهتمام الكلي الذي كان يبديه نحوي • وكثيرا ماكنت أتحرق شوقا في أثناء الحديث ، الى معارضته والتغلب عليه كي أعاقبه بالرغم من اهماله لي ، ولكن خجلي كان يمنعني •

(٥٤)

المناقشات

عندما ذهبت الى حجرة فولوديا كالمعتاد بعد دروس المساء ، كان مضطجعا وقد أسند قدميه على الأريكة ، معتمدا كوعه ، يقرأ قصة فرنسية ، وتطلع الى لمدة ثانية ثم استأنف القراءة ، وهو أمر بسيط وطبيعي الى أقصى حد ، ومع ذلك تسبب في صعود الدم الى وجهي •

وكان يبدو أن نظرته تتساءل عن سبب مجيئى ، والسرعة التى طأطأ بها رأسه كأنها كانت تفسر الرغبة فى اخفاء معنى هذه النظرة عنى (ان هذا الميل الى ايجاد معنى لأبسط حركة كان خاصة بارزة عندى في تلك السن) وسرت الى المائدة وتناولت كتابا ، ولكنى قبل أن أبدأ القراءة خطر لى مدى السخرية التى ينطوى عليها عدم تحدث أحدنا الى الآخر فى أى شىء ، فى حين أن أحدنا لم يكن قد رأى الآخر طوال اليوم .

« هل ستكون بالبيت هذا المساء ؟ » .

« لا أدرى ، ولماذا ؟ » .

قلت : « اننى أتساءل وحسب » واذ رأيت أننى لا أستطيع بدء مناقشة ما ، تناولت كتابى وأخذت أقرأ .

ومن العجيب حقا أن فولوديا وأنا كنا نستطيع قضاء ساعات برمتها صامتين وحيدين . ولكن مجرد وجود شخص ثالث معنا ، حتى اذا لم يتكلم ، كان كافيا لبدء أكثر الأحاديث تنوعا وأدعاها الى الاستغراق . وشعرنا كأن أحدنا عرف الآخر جد المعرفة ، فزيادة المعرفة بشخص ما تمنع الألفة الحقيقية بقدر ماتمنعها قلة المعرفة به .

وسمع صوت فى الدهليز يقول : « هل فولوديا بالبيت ؟ » .

فأجاب فولوديا وهو ينزل قدميه ويضع كتابه على المائدة : « نعم » .

ودخل دوبكوف ونخليودوف الغرفة فى سترتيهما وقبعتيهما •

« هل ستأتى الى المسرح ؟ »

وأجاب فولوديا وقد احمر وجهه : « لا ، ليس لدى متسع من الوقت » •

« يالها من فكرة ! أرجو أن تحضر »

« وفوق ذلك فاننى لم أشتر تذكرة »

« يمكنك شراء أى عدد من التذاكر عند الدخول »

وقال فولوديا مراوغا : « انتظر ، سأحضر على التو » ثم غادر الحجرة وهو يهز كتفيه •

كنت أعرف أن فولوديا شديد الرغبة فى الذهاب الى المسرح ، ولكنه رفض لعدم وجود نقود معه ، وذهب ليقترض خمسة روبلات من الساقى لحين تسلمه راتبه التالى •

وقال دوبكوف وهو يناولنى يده : « كيف حالك أيها الدبلوماسى ؟ »

وكان أصدقاء فولوديا يطلقون على السياسى ، لأن جدتى تحدثت مرة بعد الغداء عن مستقبلنا ، وانها تتمنى أن ترانى دبلوماسيا فى حلتى ذات السترة السوداء ، وشعرى المصفف على طراز « عرف الديك » وكانت تعد ذلك أمرا ضروريا فى وظيفة السلك السياسى •

وسأل نخليودوف : « الى أين ذهب فولوديا ؟ »

فأجبته : « لا أدرى » واعترانى الخجل حين فكرت فى أنهم قد يخمنون سبب مغادرة فولوديا للحجرة .

وأضاف : « ليس لديه نقود فيما أظن ، أليس كذلك ؟ » ثم أضاف بالايجاب مفسرا ابتسامتى : « وليس لدى أنا أيضا ــ ألديك نقود يادوبكوف ؟ »

وأجاب دوبكوف على نفسه وهو يخرج كيس نقوده ويتحسس بعناية قطعا صغيرة قليلة بأصابعه القصيرة : « سوف نرى » . وقال وهو يشير بيده اشـــارات مضحكة : « هذه قطعة من ذات الخمسة كوبكات ، وهذه قطعة ذات عشرين كوبك ــ أف » .

ودخل فولوديا فى تلك اللحظة .

« حسن ، أسنذهب ؟ » .

« لا » .

وقال نخليودوف : « يالك من أضحوكة ! لماذا لا تقول ان ليس لديك نقود ؟ خذ تذكرتى ان شئت » .

« ولكن ماذا يكون من أمرك ؟ » .

فقال ديبكوف : « سنذهب الى مقصورة ابن عمه » .

« لا ، سوف لا أذهب البتة » .

« لماذا ؟ » .

« لأننى لا أحب أن أجلس فى مقصورة كما تعلم » .

« لا أحب ذلك ، لأنها تجعلنى أشعر بالحرج » .

« نفس الفكرة القـديمة تعود مرة أخرى !! » اننى لا أفهم كيف تشعر بالحرج فى حين أن كل شخص يسره أن تكون معه ، انه شىء غير معقول ياعزيزى » .

قال : « وماذا أفعل اذا كنت خجولا ؟ اننى متأكد من أنك لم تخجل فى حياتك البتة ، ولكننى لا أزال أخجل من أقل التوافه » وقد احمر وجهه خجلا فى الواقع وهو يتكلم .

وقال دوبكوف بلهجة مشجعة : « أتعرف مصدر خجلك ؟ ... انه من المبالغة فى الاعتزاز بالنفس ياعزيزى » .

وقال نخليودوف وقد تأثر فى الصميم : « حقاً ، المبالغة فى الاعتزاز بالنفس !! على العكس ، لست أحمـــل غير قليل جـدا من الكبرياء ، وأشعر دائما كأننى غير مقبول ، وأبعث على الملل » .

وقال دوبكوف وهو يمسك فولوديا من كتفيه ويسحب سترته : ارتد ملابسك يافولوديا ، وأنت يا « اجنات » ، دع سيدك يستعد » .

وراح نخليودوف يقول : « وهكذا يحدث لى كثيرا جدا » .

ولكن دوبكوف لم يعد يصـــغى اليه وأخـذ يترنم متمتما : « ترا ـ لا ـ لا ـ لا » .

وقال نخليودوف : « آه ، انك لا تستطيع المضى طويلا على هذا المنوال ، وسأبرهن لك أن الخجل لا ينجم مطلقا عن حب الذات » .

« انك ستبرهن عليه ان أتيت معنا » .

« لقد قلت اننى لست بذاهب » .

« حسن ، ابق اذن وبرهن عليه للدبلوماسى ؛ وسيخبرنا بكل ذلك عند عودتنا » .

وجاوب نخليودوف فى عناد صبيانى : « وأنا كذلك ؛ فهيا أسرعوا بالعودة » .

وقال وهو يجلس بجانبى « وماذا تظن ؟ هل أنا متكبر ؟ » .

ومع أنه كان لى رأى فى تلك النقطة ، فقد أذهلنى هذا السؤال غير المتوقع ، حتى لقد انقضت فترة قبل أن أتمكن من اجابته » .

وقلت : « وأنا أشعر بصوتى يتهدج ووجهى يحمر ؛ عندما ساورتنى فكرة أن الوقت قد حان لأريه أننى ذكى ـ : « أظن أن كل انسان متكبر ؛ وأن كل شىء يفعله الانسان انما يفعله بدافع الكبرياء» .

وقال نخليودوف وهو يبتسم ابتسامة أظن فيها شيئا من الاستخفاف : « وما الكبرياء فى رأيك ؟ » قلت : « الكبرياء ـ هو اعتقاد الشخص بأنه أفضل وأعقل من أى شخص سواه » .

« ولكن كيف يستطيع كل شخص قبول ذلك الاعتقاد » .

« لست أعرف ما اذا كان محقا أم لا ، ولكن لا يعترف بذلك أحد ، وأنا مقتنع الآن أننى أعقل من أى شخص آخر فى العالم ، وواثق من أنك مقتنع بنفس الشىء » •

وقال نخليودوف : « لا ؟ أستطيع على الأقل أن أقول لنفسى ؟ أننى قابلت أناسا أعترف أنهم أعقل منى » •

وأجبت فى اقتناع : « هذا مستحيل » •

وقال نخليودوف وهو يمعن فى النظر : «هل تظن ذلك حقا ؟»•

ومن ثمة خطرت لى فكرة صرحت بها على التو •

وأضفت قائلا بابتسامة لا ارادية مهذبة : « سأثبت لك هذا • لماذا نحب أنفسنا أكثر من الآخرين ؟ ذلك لأننا نعتبر أنفسنا أفضل من الآخرين، وأجدر منهم بالحب ، فاذا اعتبرنا الآخرين أفضل منا ، فينبغى اذن أن نحبهم أكثر من أنفسنا ، وهذا مالا يحدث مطلقا ، وحتى اذا كان يحدث فأنا على حق أيضا » •

وظل نخليودوف صامتا برهة •

وقال فى ابتسامة فيها من العذوبة والرقة ما جعلنى أشعر فجأة بالسرور التام : « اننى لم أشك مطلقا فى أنك ذكى جدا » •

ان المديح يؤثر تأثيرا قويا جدا ، لا فى شعور الانسان وحسب، بل فى عقله ، الذى يبدو لى أننى أصبحت أكثر ذكاء تحت تأثيره السار ، وان الأفكار تخطر على ذهنى الواحدة بعد الأخرى بسرعة

غير عادية • ومن الكبرياء انتقلنا الى الحب دون أن نلاحظ ، وتناقشنا في هذا الموضوع الذى لا ينضب له معين فيما أظن • وبالرغم من أن أحكامنا ربما بدت محض هراء للسامع الذى لا يهمه الأمر ــ وبالرغم من غموضها وانها ذات جانب واحد ــ الا انها كانت ذات دلالة سامية بالنسبة لنا • وكانت أرواحنا متوافقة في انسجام كبير حتى لقد كانت أقل لمسة على أى وتر في واحد منا تجد لهـــا صدى عند الآخر • واستمتعنا بهذا الصـدى المتبـادل في مختلف الأوتار التى لمسـناها في نقاشنا •

وخيل الينا أن الوقت والكلمات كانت بحاجة الى أن تفسر بها لبعضنا البعض الأفكار التى ننشد النطق بها •

(٥٥)

بداية الصداقة

منذ ذلك الوقت نشأت بينى وبين ديمترى نخليودوف علاقات غريبة نوعا ما ، ولكنها مرضية جدا • وقلما كان يوجه الى اهتماما في حضرة الغرباء ، ولكن حالما يتصادف وجودنا وحيدين ، كنا نجلس في ركن هادىء ونأخذ في المناقشة ساهين عن الوقت وعن كل شىء حولنا •

كنا نتحدث عن حياتنا المستقبلة ، وعن الفنـــون ، وعن خدمة الحكومة ، والزواج وتعليم الأطفال، ولم يخطر لأذهاننا أن كل ماقلناه كان هراء فظيعا ، ولم يخطر لنا هذا البتة لأن اللغو الذى كنا نتحدث فيه كان حكمة وهراء لطيفا ، اذ يظل المرء فى شبابه يرفع من قـدر الحكمة ويعتقد فيها • وفى الشباب تتجه كل قدرات الروح نحـــو المستقبل ، ويتخذ ذلك المستقبل لنفسه مثل هذه الأشـــكال الزاهية الفاتنة تحت تأثير الأمل ـ لا الأمل المؤسس على تجربة الماضى ، ولكن على الاحتمالات المتخيلة لسعادة مقبلة ـ حتى لتشكل مجرد أحـلام المستقبل سعادة حقيقية فى تلك المرحلة من العمر عندما نشترك فيها• وفى المناقشات التى كانت تدور حول ماوراء الطبيعة ، والتى تكون واحدا من أهم موضوعات مناقشاتنا ، كنت أحب اللحظة التى تتوالى فيها الأفكار فى تعاقب سريع بعضها اثر بعض ، ويزداد غموضها على الدوام ، ثم تبلغ درجة من الابهام بحيث لا تجد وسيلة للتعبير عنها ، وبالرغم من ظنك أنك تقول ماتعنيه ، فانك تقول شـــيئا مختلفا كل الاختلاف • كنت أحب التحليق الى أعلى فأعلى فى عوالم الفكر الى حيث تدرك فجأة لا نهائيتها كلها ، وتعترف بتعذر التقدم الى أبعد من ذلك •

حدث أن كان نخليودوف أثنـــاء الكرنفال مستغرقا فى أنواع اللهو ،وبالرغم من حضوره الى المنزل عدة مرات كل يوم لم يتحدث الى مرة واحدة ، وقد ضايقنى هذا منه كثيرا حتى لقد خيل الى مرة

أخرى أنه متعال بغيض ، غير أننى كنت أنتظر الفرصة لأريه على الأقل أننى لم أكن أقيم لعشرته وزنا وأننى لا أحتفظ له بود خاص •

وفى أول مناسبة بعد الكرنفال أراد أن يتحدث الى قلت له ان لدى دروسا يجب أداؤها ، ثم صعدت الى الطابق العلوى ، ولكن شخصا ما فتح باب حجرة الدراسة ، ودخل نخليودوف •

وسألنى : « هل أزعجتك ؟ » •

فأجبت : « لا » وان كنت أريد أن أقول له اننى مشغول فى الحقيقة •

واذن لماذا غادرت حجرة فولوديا ؟ » اننا لم نتحدث منذ وقت طويل ، ولقد تعودت ذلك الى الحد الذى أتخيل معه أننى افتقدت شيئا » •

واختفى كدرى فى لحظة ، وبدا ديمترى فى عينى نفس طراز الرجل الساحر كما كان من قبل •

قلت : « لعلك تعرف سبب ابتعادى » •

فأجاب وهو يجلس بجانبى : « ربما يكون ذلك ، ولكن حتى لو كنت أخمن فلا أستطيع أن أقول لماذا ولكنك تستطيع أنت ذلك» •

« سأخبرك » : لقد ابتعدت لأننى كنت حانقا عليك ـ لست

حانقاً ، ولكن متكدر . وأصارحك القول أننى أخشى على الدوام أن تستهين بى لأننى لا أزال صغيرا جدا » .

وقال مجيبا على اعترافى بمزاج باش وابتسامة صريحة ـ « هل تعرف لماذا أصبحت مخلصا لك الى هذا الحد ؟ ولماذا كان حبى لك يفوق حبى للناس الذين عرفتهم وألفتهم أكثر منك ؟ لقد اكتشفت السبب .. لأنك تمتاز بصفة نادرة جدا ـ الصراحة » .

فقلت مؤمنا على قوله : « نعم ، اننى أقول دائما نفس الأشياء التى أخجل من الاعتراف بها ، ولكنى أعترف بهــا لأولئك الذين أثق بهم » .

« نعم ، ولكن لكى يثق المرء بشخص ما ، يجب أن يخلص له حقيقة ونحن لسنا أصدقاء بعد يانيكولاى ، وأنت تذكر أننا بحثنا فى الصـداقة ، فلكى نكون صـديقين مخلصـين يجب أن يثق أحـدنا بالآخر » .

فقلت : « ولـكى آمن على ما أقوله لك ، يجب ألا تذكره لأى شخص آخر ، ولكن أهم الأفكار وأكثرها فائدة هى تلك الأفكار التى لا يخبر بها أحدنا الآخر لأى سبب ! » .

فقال : « ويالهــا من أفكار تعافها النفس ! ان أفكارا كتلك ، لو عرفنا أننا يجب أن نرغم على الاعتراف بها ، كان يجب ألا نتجاسر مطلقا على التفكير فيها » .

وأضاف قائلا وهو ينهض من على مقعده ويفرك يديه مبتسما : « أتعرف ماذا حدث لى يانيكولاى ؟ دعنا « نعمله » وسترى كم هو مفيد لكلينا • فلنتعاهد على أن يعترف كل لصاحبه بكل شيء : سيعرف كل منا الآخر ، ولن نخجل ، ولكن لكى لا نخشى الغرباء فلنتعاهد « ألا » نقول « أى شيء » عن بعضنا البعض « لأى شخص » وذلك ماسنفعله » •

« ولقد فعلنا ذلك حقيقة ، اما مانتج عن هذا ، فهو ماسأرويه لك فيما يلى :

قال كارل ان لكل اتصال وجهين : واحد يحب ، فى حين يسمح الآخر لنفسه بأن يحب، وواحد يقبل ، والآخر يقدم الوجنة• وهذا صحيح تماما • وفى صداقتنا ، أنا الذى قبلت وديمترى قدم وجنته ، ولكنه كان مستعدا أيضا لتقبيلى ، حتى لقد أحببنا أحدنا الآخر على قدم المساواة ، لأن كلينا عرف الآخر وقدره ، ولكن هذا لم يمنعه من فرض تأثيره على وخضوعى له •

وتحت تأثير نخليودوف تبينت رأيه دون وعى منى بطبيعة الحال، وجوهر هذا الرأى هو العبادة الحارة للفضيلة المثالية والاعتقاد فى أن الانسان يهدف على الدوام الى تكميل نفسه ، ثم يبدو اصلاح النوع

البشري كله ، والقضاء على رذائل الانسان ، وتعاسته ، شيئاً سهلا ، فاصلاح المرء لنفسه ، والحصول على كل الفضائل ، والتمتع بالسعادة ، كل ذلك كان يبدو أمرا يسيرا •

ولكن الله وحده يعلم ما اذا كانت آمال الشباب السامية هذه هزلا ، ومن هو الملوم على عدم تحقيقها •

الشباب

(٥٦)

الوقت الذى أعتبره بداية لشبابى

قلت ان صـــداقتى مع دمترى كشفت لى صـورة جديدة من الحياة ... أهدافها واتجاهاتها . وتتكون هذه الصورة فى جوهرها من الاعتقاد بأن مصير الانسان هو الكفاح فى سبيل الكمال الخلقى ، وأن هذا الكمال سهل وممكن ودائم . ولكننى كنت استمتع قبل الآن بكشف الأفكار الجديدة التى تنبثق من هذا الاعتقاد ، ومن تكوين خطط رائعة لمستقبل أخلاقى نشيط ، بينما كانت حياتى تسير على أسلوبها المشوش العقيم ـ وكانت الأفكار المختلفة التى بحثتها فى أحاديثى مع صديقى المحبوب دمترى ـ (أو متيا المدهش) كما كنت أدعوه أحيانا فيما بينى وبين نفسى ـ لاتزال ترضى عقـــلى فقط ، لا مشاعرى . ومع ذلك فان الوقت قد حان لظهور أفكار أخلاقية كهذه فى عقلى ، فيها من العذوبة والجدة ماجعلنى أنزعج حين تأملت مدى الوقت الذى ضيعته ؛ وأردت أن أطبق هذه الأفكار مباشرة ،

وفى نفس اللحظة ، على الحياة ، بقصد راسخ وألا أتنكر لها •

ذلك هو الوقت الذى أؤرخ به بداية « شبابى » • كنت آنئذ أناهز السادسة عشرة، واستمر المدرسون فى تلقينى الدروس، وكان سان جيروم لايزال مشرفا على دراساتى ، وكنت مضطرا الى الاعداد للجامعة على غير رغبة منى ، وكانت مشاغلى خارج الدراسات تتضمن العزلة ، والهواجس والتأملات المتقطعة ، وتدريبات الألعاب الرياضية ، لكى أجعل من نفسى أقوى رجل فى العالم ؛ وفى التجول على غير هدى بجميع حجرات المنزل ، وبخاصة فى دهليز حجرة الخادمات ، والتفرس فى وجهى عرضا فى المرآة • وكنت أنصرف عن هذا الانشغال دائما بشعور من القنوط لا يحتمل ، بل بشعور الامتعاض • ولم يقتصر الأمر على سذاجة مظهرى ، كما كنت أعتقد، بل كنت عاجزا عن التسرية عن نفسى بضروب التسلية المعتادة فى مثل هذه الأحوال ، فلم أستطع القول بأن وجهى معبر أو مفكر أو نبيل ؛ لم يكن فيه شىء ينطوى على تعبير ، فالتقاسيم من الطراز البسيط المعتاد ، وعيناى الصغيرتان الرماديتان أقرب الى الغباء منهما الى الذكاء وبخاصة حين كنت أتفرس فى المرآة ، كان شكلى لايزال ينقصه شىء من سمات الرجولة؛ وبالرغم من أننى لم أكن صغير القامة، وكنت قويا جدا بالنسبة الى سنى ، فان جميع تقاسيم وجهى كانت

رخوة مترهلة ، سيئة التحديد ، بل لم يكن فيها شىء نبيل ، على العكس ، كان وجهى أشبه بوجه الفلاح الروسى ، وكانت يداى وقدماى كبيرتان مثله ، وخيل الى فى ذلك الوقت أنه شىء مهين •

(٥٧)

الربيع

فى السنة التى التحقت فيها بالجامعة ، وقع عيد القيامة فى تاريخ متأخر جدا من شهر ابريل حتى ان الامتحانات عقدت فى أسبوع كواسيمودو (١) ، وكان على أن أتناول القربان المقدس أثناء أسبوع الآلام وبذلك يتم اعدادى •

كان الطقس رخواً ، حاراً صافياً لثلاثة أيام بعد الجليد الرطب الذى كان يسميه كارل ايفانتش عادة « الابن أعقب الأب » • ولم تعد ترى فى الشوارع كتلة واحدة من الثلج ، وكان الوحل القذر قد أفسح الطريق للبلل ، والأرصفة اللامعة والجداول السريعة •

---

(١) هو الأسبوع التالى لعيد القيادمة عند الكنيسة الغربية ، ويعرف الأحد التالى لعيد الفصح «بأحدتوما» فى الكنيسة الشرقية ولا يقدم القربان المقدس فى اسبوع القيامة عادة الا للضرورة القصوى •

(المترجم)

كانت القطرات الأخيرة من ذوب الجليد تتساقط من الأسطح تحت الشمس ، والبراعم تزدهر على الأشجار فى الحديقة الأمامية ؛ وكان الممر فى الفناء جافاً • وبدأت الحشائش الشبيهة بالطحلب بالقرب من مرابط الماشية ، وفيما وراء أكوام السماد المتجمدة ، وبين الأحجار عند السقيفة تتحول الى الخضرة • ان هذه الفترة الخاصة من الربيع هى التى تؤثر تأثيرا قويا فى نفس الانسان ـ الشمس صافية ، مكتملة، لامعة ، ولكنها ليست حارة • والجداول ومساحات الجليد المكشوفة تهمس للهواء بالنضارة ، والسماء ذات الزرقة الرقيقة المعرقة بالسحب الطويلة الشفافة ••• لست أعرف السبب ، ولكن يخيل الى أن تأثير هذه الفترة الأولى من مولد الربيع تكون أشد قوة وأدعى الى الشعور بها فى مدينة كبرى ـ ان المرء ليرى القليل ولكنه يدرك الكثير • كنت واقفا أمام النافذة التى تنسكب أشعة الشمس المرقطة من اطاراتها المزدوجة على أرض حجرة الدراسة التى ضقت بها ضيقا لا يحتمل ، وأنا أحل على السبورة معادلة طويلة فى الجبر • كنت ممسكا باحدى يدى نسخة بالية ضعيفة من كتاب فرانكر فى علم الجبر ، وبالأخرى قطعة صغيرة من الطباشير كنت قد لوثت بها يدى الاثنتين ووجهى وكتفى سترتى • وكان نيكولاى يرتدى ميدعة ويكشط المعجون ويخلع المسامير من النافذة المطلة على الحديقة الأمامية ، فأدى عمله هذا ، والضجة التى أحدثها الى تشتيت انتباهى ، بالاضافة الى حالتى العقلية السيئة الساخطة • لم تجر الأمور معى على وجه مرض ، فقد ارتكبت غلطة فى أول عملية الجمع ، ولذا

كان لا بد لى أن أبدأها من جديد • وأسقطت قطعة الطباشير مرتين، وكنت عارفاً بتلوث يدى ووجهى ، واختفت الاسفنجة فى مكان أو آخر ، وكانت الضجة التى يحدثها نيكولاى قد أتت على أعصابى ، وشعرت كأننى أثور غضبا وأتذمر من شخص ما ؛ فألقيت بالطباشير والجير جانبا وأخذت أذرع الحجرة • وتذكرت حينئذ أننى يجب أن أذهب اليوم للاعتراف ، وأننى يجب أن أكف عن ارتكاب أى خطأ ؛ ثم انتهيت فجأة الى مزاج لطيف ، واقتربت من نيكولاى •

وقلت محاولا أن أضفى على صوتى أرق تنغيم : « دعنى أساعدك يانيكولاى ، ولاعتقادى أننى أتصرف تصرفاً سليما ، وأننى كظمت غيظى وأخذت فى مساعدته ، فقد رفعت هذه النزعة اللطيفة من حالتى العقلية أكثر من ذى قبل •

ونزع المعجون ، وأزيلت المسامير ، وبالرغم من أن نيكولاى قد شد على الاطار المعاكس بكل قوته فانه لم يذعن له •

وقلت فى نفسى : « اذا انخلع الاطار الآن مباشرة عندما نشده سويا ، فمعنى هذا أننى أرتكب اثما لو ذاكرت اليوم أكثر من ذلك ، ولذا فلن أذاكر » • ومال الاطار على أحد الجانبين ثم انفصل •

وقلت : « الى أين سيحمل ؟ » •

وأجاب نيكولاى وقد ظهرت عليه الدهشة ، وامتعض فيما يبدو لحماستى هذه : « اسمح لى أن أدبر هذا بنفسى ، سأحتفظ بها جميعا مرقمة فى حجرة السطح •

وقلت وأنا أرفع الاطار : « سأرقمه » •

يخيل الى أنه لو كانت حجرة السطح على مسافة فرسخين ، واطار النافذة ضعف وزنه ، لسرني هذا كثيرا جدا • ولأردت أن أتعب نفسي في أداء هذه الخدمة لنيكولاى • وعندما عدت الى الحجرة كانت القراميد وأقماع الملح (١) قد أعيد رصها على عتبات النوافذ ، وكنس نيكولاى الرمل والذباب المستكين وقذف به من النافذة المفتوحة • وملأ الحجرة هواء جديد لذيذ ، ونفذ منها أيضا طنين المدينة وزقزقة العصافير •

كان كل شيء يسبح في الضوء ، وأصبحت الحجرة مبهجة ، ونسيم الربيع الهادىء يهز أوراق كتاب الجبر وشعر نيكولاى • وسرت الى النافذة ، وجلست على الافريز ، وانحنيت مطلا على الحديقة وأخذت أفكر •

وللحال تغلغل في روحى شعور جديد سار بالغ القوة : الأرض الرطبة التي تتدافع فوقها النصال الخضراء اللامعة من الحشائش ذات السيقان الصفراء وتشق طريقها ، والجداول تتلألأ تحت أشعة الشمس ، وتدوم بالمدر الترابي الصغير وشرائح الخشب ، وتحمل معها عساليج الزنبق الآخذة في الاحمرار ببراعمها المنتفخة التي كانت تتمايل تحت النافذة مباشرة ؟ والزقزقة القلقة التي تصدر عن

(١) أقماع الملح الصغيرة توضع في النوافذ المزدوجة لامتصاص الرطوبة ، أما القرميد أو قوالب الطوب الصغيرة فانها تضاف غالبا للزينة •

الطيور المزدحمة فى هذه الحرجة ، والسياج الضارب الى السواد المبلل بذوب الجليد ، بل الهواء الندى المعطر والشمس الضاحكة بنوع خاص ـ كانت تتحدث الى فى صراحة وصفاء عن شىء جديد بالغ الجمال ، ان كنت لا أستطيع تصويره كما حدثنى عن نفسه ؟ فاننى سأحاول أن أعيده كماتلقيته. كل شىء تحدث الى عن الجمال والسعادة والفضيلة ، وقال كل منها انها ميسرة لى وممكنة ، حتى أن الواحدة لا يمكن أن توجد من دون الأخرى ، بل ان الجمـــال والسعادة والفضيلة كل واحـــد ونفس الشىء . وقلت فى نفسى : « كيف أخفقت فى فهم هذا ؟ وكم كنت شريراً قبل الآن !! وكم كان يمكن أن أكون سعيداً ، وكم ستكون سعادتى فى المستقبل !! » يجب أن أصبح بسرعة رجلا آخر ، بأسرع مايمكن ، وفى نفس هذه اللحظة؟ وأبدأ حياة مختلفة » . ولكنى برغم ذلك ظللت جالساً وقتاً طويلا عند النافذة أحلم ولا أفعل شيئا . ألم يحدث لك مطلقا أن اضطجعت فى الصيف لكى تنام ابان النهار فى جو مقبض مطير ، ثم تستيقظ عند غروب الشمس ، لتفتح عينيك ، فترى من خلال النافذة المربعة الواسعة ، ومن تحت الستار الكتانى الذى ينتفخ بالهواء ، ويضرب بعوده عتبة النافذة من الجانب الظليل الأرجـوانى لممشى الزيزفون المبلل بالمطر ، وممرات الحديقة المنداة التى تضيئها أشعة الشمس اللامعة المائلة ، ولتسمع على حين فجأة صوت الحيـــاة المرحة بين العصافير فى الحديقة ، ولترى الحشرات تدوم عند فتحة النافذة فى الشمس الشفافة ؟ ثم تتنبه الى رائحة الهواء العطرة بعد المطر وتقول

فى نفسك : « ياله من عار أن أنام فى أمسية كهذه !! » وحينئذ تقفز متعجلا لكى تذهب الى الحديقة وتبتهج بالحياة ؟ اذا كان هذا قد حدث لك ، فلابد أن هناك نوعا من الشعور القوى الذى خبرته آنئذ .

(٥٨)

هواجس

قلت لنفسى : « سأذهب اليوم الى الاعتراف ، ولن أقترف خطيئة مرة أخرى (وهنا تذكرت جميع ذنوبى التى كانت تؤلمنى الى أقصى حد) ؛ وسوف أذهب الى الكنيسة دون انقطاع كل يوم أحد ، ثم سأقرأ فى الانجيل فيما بعد ساعة كاملة . ومن الورقة ذات الخمسة والعشرين روبل التى سأتناولها كل شهر عندما ألتحق بالجامعة سأعطى بكل تأكيد روبلين ونصف روبل (وهو عشر المبلغ) للفقراء ، وبوسيلة لا يعرفها أحد قط ـ وليست للمتسولين ، بل سأبحث عن أناس فقراء ، يتيم أو امرأة عجوز لا يعرف أحد عنهما شيئاً .

« وستكون لى حجرة خاصة بى (يحتمل أن تكون حجرة سان جيروم) وسأعنى بها بنفسى ، وسأحافظ على نظافتها بصورة مدهشة ، ولن أترك للخادم شيئاً يفعله ، لأنه كائن بشرى مثلى . ثم سأمشى الى الجامعة (واذا أعطونى دروشكا (عربة صغيرة)

فسأبيعها وأعطى هذا المال أيضا للفقراء) ، وسأفعل كل شيء بأعظم قدر من التدقيق (أما هذا « الكل شيء » فلم يكن لدى فكرة عنه آنئذ) ، ولكننى كنت مدركا وشاعراً بهذا « الكل شيء » فى الحياة الحسية والعقلية المستقيمة ، وسأعد محاضراتى بل سأقرأ الموضوعات مقدماً لكى أكون على رأس المرحلة الدراسية الأولى •

وأكتب بحثاً ؛ وسأعرف كل شيء مقدماً فى المرحلة الثانية ، ولربما انقل مباشرة الى المرحلة الدراسية الثالثة ، وبذلك أتخرج فى الثامنة عشرة بوصفى الطالب الأول مع وسامين من الذهب ، وحينئذ أستعد لامتحان درجة أستاذ ، ثم لدرجة دكتور ، وأصبح المتعلم الرائد فى روسيا ، ولربما أصبح أعظم عالم فى أوربا ، وتساءلت : « ثم ماذا بعد ذلك ؟ » ، ولكنى تذكرت هنا أن هذه أحلام ـ كبرياء ، اثم ، يجب أن أعترف بها للكاهن فى ذلك المساء ، وعدت الى أول تأملاتى : « ولاعداد محاضراتى سأسير الى تلال سبارو ، وهناك سأتخير بقعة تحت شجرة حيث أقرأ الدرس • وسآخذ شيئاً أطعم به فى بعض الأحيان مثل الجبن أو فطائر اللحم من محل « بيدوتى » أو شيئاً آخر • وأستريح ، ثم أقرأ كتاباً ممتعاً ، أو أرسم منظراً طبيعياً أو أعزف على آلة موسيقية (يجب أن أتعلم بلا شك العزف على الناى) ، ثم تذهب « هى » أيضاً للنزهة الى تلال سبارو سيراً على الأقدام ، وستقبل علىّ يوماً وتسألنى عمن أكون وسأتفرس فيها •• آه ، فى أسى ، وأقول لها اننى ابن

كاهن ، وأننى أشعر بالسعادة هنا فقط حين أكون وحدى ، وحيداً تماماً . ثم تناولنى يدها وتقول شيئاً ما ، ثم تجلس الى جانبى ، ومن ثمة نذهب الى هنالك كل يوم ونصبح أصدقاء ، وسأقبلها . لا ، ليس هذا صواباً ، بل على العكس ، فلن أتطلع البتة الى امرأة من هذا اليوم فصاعداً . ولن أدخل أبداً حجرة الخادمات ، بل سأحاول ألا أمر بها . وبعد ثلاث سنوات سأتحرز من الوصاية وأتزوج دون ابطاء . وسأقوم بالتدريبات الرياضية كل يوم قدر ما أستطيع ، وبذلك عندما أبلغ العشرين سأكون أقوى من « رابو » ؛ سأرفع فى أول يوم نصف بود بيدى ممدودة لمدة خمس دقائق ، وفى اليوم التالى واحداً وعشرين رطلا ، وفى اليوم الثالث اثنى وعشرين رطلا وهكذا بحيث استطيع رفع أربعة أبواد فى كل يد ، وأصبح أقوى من أى رجل عرفته ، فاذا ما تجاسر أى شخص على اهانتى ، أو تحدث « عنها » بلا تبجيل ، فاننى أمسكه من صدره وأرفعه ذراعاً أو ذراعين عن الأرض بيد واحدة ، وأمسك به فقط مدة كافية لأجعله يشعر بمدى قوتى ، ثم أخلى سبيله . ولكن هذا ليس صواباً أيضاً ، آه ، لا أهمية لذلك ، فلن أصيبه بأى أذى ؛ انما سأريه فقط » .

لا يعيرنى أحد لأن أحلام شبابى كانت طفولية كأحلام طفولتى وصباى ، وأعتقد أننى لو عشت الى أرذل العمر ، لأواصل قصة حياتى على الأيام ، أنا ، الرجل العجوز ذو السبعين عاما ،

لوجدتنى أرى أحلاما طفولية متعذرة الحدوث كتلك التى أحلم بها الآن ، سأحلم بفاتنة ما اسمها ماريا ، تحبنى ، أنا العجوز العاطل من الأسنان كما أحبت ماريا (١) ، وأحلم بابنى الضعيف العقل كيف سيصبح وزيراً على حين فجأة فى ظرف غير عادى ، أو أحلم كيف سيهبط على كنز من الملايين فجأة ، واعتقـادى أنه لا يوجـد كائن بشرى ، أو عمر من الأعمار محروم من هذه القدرة الخيرة المعزية ، وهى القدرة على الحلم • ومع ذلك ، ففيما عدا ما يميز الأحلام من طابع الاستحالة بوجه عام ـ أى طبيعتها السحرية ـ فان أحلام كل انسان فى كل أعمار الحياة لها معالمها الخاصـة المميزة • وفى خلال تلك الفترة الزمنية التى اعتبرها ختاماً لصباى وبداية لشبابى، تكونت أربع عواطف هى أساس أحلامى : عاطفة حب موجه « اليها » ، الى امرأة وهمية كنت أفكر فيها دائمـاً بنفس الانفعـال ، وأتوقع مقابلتها فى مكان ما ، فى أية لحظة • وهذه هى ال « هى » كانت تشبه سونتشكا قليلا ، وتشبه ماشا زوجة فاسيلى قليلا ، عندما كانت تقف تغسل منحنيـة فوق القصعة ، وتشـبه قليلا تلك المرأة ذات اللآلىء حول عنقها الأبيض ، التى رأيتها بالمسرح منذ أمد طويل ، فى المقصورة الملاصقة لمقصـورتنا • والعاطفـة الثـانية كانت الحب للحب • كنت أريد أن يعرفنى كل شخص ويحبنى • كنت أريد أن أكون قادراً على النطق باسمى ، نيكولاى ارتنييف ، وأن يأتى

---

(١) اشارة الى قصيدة بوشكين المسماة «بولتافا» •

الجميع وقد أفزعهم هذا النبأ ، فيحتشدون حولى ويشكروننى على شيء ما • والشعور الثالث كان الأمل فى سعادة ما بارزة باهرة — سعادة فيها من العظمة والثبات ، ما يجعلها تشرف على حافة الجنون• كنت واثقاً تماماً أننى سأصبح وشيكاً جداً أبرز رجل فى العالم نتيجة لظرف أو لآخر غير عادى حتى أننى كنت أعيش فى توقع مهزوز دائم لغبطة ساحرة فى صورة ما • كنت دائم التوقع أنها « على وشك البداية » وأننى سأحصل على كل ما يتمناه انسان ، وكنت أتعجل دوماً فى كافة الاتجاهات مفترضا أنها « بدأت » فعلا فى مكان تصادف أننى لم أكن فيه • والشعور الرابع والأساسى كان تقززى من نفسى وندمى ، ولكنه ندم يمتزج بالأمل فى النعيم امتزاجاً كبيراً بحيث لم يكن يعتوره أى شيء يدعو الى الأسى• كان يبدو لى من اليسير والطبيعى جداً ، انتزاع نفسى من الماضى برمته ونسيان كل شيء كان فى الماضى ، وأن أفعل كل شيء من جديد ، وأنسى كل ما كان ، وأبدأ حياتى مرة أخرى بكل علاقاتها وأن الماضى لا يثقل على ولا يقيدنى • بل اننى وجدت لذة فى نبذ الماضى، ورأيته ذا ألوان أشد كآبة مما كانت • وكلما يشتد سواد ذكريات الماضى ، كلما تزداد نقطة الحاضر النقية اللامعة ، نقاء ولمعانا ، وتبرز ألوان قوس قزح المستقبل على نقيضها • ان صوت تأنيب الضمير ، والرغبة المتحمسة التى تطلب الكمال ، كانت هى العاطفة الأساسية الجديدة فى تلك المرحلة من مراحل النمو ، وكان هذا الصوت هو الذى هيأ مبادىء جديدة لآرائى عن نفسى وعن الناس وعن دنيا

الله . آه ، أيها الصوت الحنون المعزى ـ فى الأيام الحزينة التى تنوء فيها الروح مذعنة لثقل بطلان الحياة ورذيلتها ـ الذى كثيراً ما ارتفع فجأة بالاحتجاج على كل شيء كاذب ، كاشفاً عن الماضى ، مشيراً الى النقطة اللامعة فى الحاضر ، دافعاً للمرء على حبها ، واعداً بالخير والسعادة فى المستقبل ـ آه ، ياللك من صوت مبارك مغر !! أسمعت فى يوم من الأيام ؟

(٥٩)

دائرة أسرتنا

قلما كان يأتى والدى الى البيت فى هذا الربيع ، ولكنه كلما أتى كان يمرح الى أبعد حد ، ويعزف قطعه المفضلة على البيانو ، وينظر الينا متخابثاً ، ويمازح ميمى ويمازحنا جميعاً ، فيقول ان ابن قيصر جورجيا رأى ميمى تجيد الركوب فوقع فى حبها ، حتى أنه أرسل التماساً الى مجمع رؤساء الطائفة يطلب الطلاق ، أو أننى عينت سكرتيراً مساعداً للسفير فى فينا ـ وكان يذيع هذه الأخبار بوجه جاد تماماً ، وبعد ذلك يخيف كاتنكا بالعناكب ، التى كانت تفزع منها . كان ودودا جيدا لصديقينا دوبكوف ونخيلودوف ، ويخبرنا على الدوام مع زائرينا بمشروعاته عن السنة المقبلة . وبالرغم من أن هذه المشروعات كانت تتغير كل يوم تقريباً ، ويناقض بعضها

البعض ، الا أنها كانت جذابة جداً حتى لقد كنا نصغى اليها باشتياق، وتتفرس ليوبتشكا فى فم أبى دون أن تطرف لها عين خشية أن تفوتها كلمة . ومشروعه الآن هو أن يتركنا فى موسكو بالجامعة ، ويذهب مع ليوبتشكا لمدة عامين ، ثم يشترى ضيعة بالقرم على الشاطىء الجنوبى ، ويذهب الى هناك كل صيف . ومرة أخرى أيضا ، ينتقل الى سان بترسبورج مع كل الأسرة ، وهكذا . ومع ذلك ، فبالاضافة الى مرح والدى الملحوظ ، فقد حدث فيه تغير آخر سبب لى أعظم الحيرة ، ذلك أنه أحضر لنفسه بعض الملابس على أحدث طراز ـ سترة زيتونية اللون ، وسروالاً من الطراز الحديث ذا أحزمة للقدمين ، ومعطفاً طويلا ملائما له الى أقصى حد ـ وكثيراً ما كان يتعطر بأذكى العطور عندما يذهب الى مكان ما، وبخاصة الى السيدة التى لم تتحدث عنها ميمى قط الا وهى تتنهد ، ويتسم وجهها بلمحة كأن لسان حالها يقول : « أيها الأيتام المساكين ! انه لحب تعيس ، ومن الخير أنها « ليست على قيد الحياة » وهكذا . وقد علمت من نيكولاى (لأن أبى لم يقل لنا شيئا قط عن مغامراته) أنه كان موفقا جدا فى لعب الورق ابان ذلك الشتاء ، فقد ربح مبلغاً هائلا جدا وضعه كله فى المصرف ، ولم يرغب فى اللعب مرة أخرى فى ذلك الربيع ؛ ومن المحتمل أن يكون هذا هو سبب اهتمامه بالذهاب الى الريف بأسرع ما يستطيع خشية ألا يستطيع كبح جماح نفسه ، بل انه صمم على ألا ينتظر دخولى

الجامعة ، وعلى أن يذهب مع الفتيات الى بتروفسكوى بعد عيد القيامة مباشرة ، حيث نلحق به ، فولوديا وأنا هناك فيما بعد .

لم يفترق فولوديا عن دوبكوف طوال الشتاء ، بل الى الربيع (ولكن علاقته فترت كثيراً مع ديمترى) وكانت متعهما الأساسية، بقدر ما أستطيع الحكم من خلال الأحاديث التى سمعتها ، تتضمن شرب الشمبانيا دون انقطاع ، والسير بمركبـة جليد تمر من تحت نوافذ السيدات الصغيرات اللائى وقع كلاهما فى حبهن ، والرقص وجها لوجه ـ لا فى حفلات الرقص الخاصة بالأطفـال ، ولكن فى مراقص حقيقية .

ان هذه الحالة الأخيرة سببت نفوراً بين فولوديا وبينى بالرغم من ودنا المتبادل ؛ وكنا ندرك أن هناك بوناً كبيراً جـداً بين صبى لا يزال تحت اشراف معلمين خصوصيين ، ورجل يرقص فى حفلات الرقص الكبرى ، بحيث يتعذر ربط أفكار أحدنا بالآخر . كانت كاتنكا قد نضجت تماماً ، وقرأت طائفة كبيرة جداً من الروايات ، ولم تعد فكرة زواجها وشيكاً مجرد مزاح فى نظرى بعد الآن ، ومع ذلك ، فبالرغم من أن فولوديا قد اكتمل نموه أيضـاً ، فانهما لم يكونا متلازمين ، لا بل كان يستخف أحدهما بالآخر فيما يظهر . ولم يكن لدى كاتنكا وهى فى البيت ما يشغلها غير الروايات ، وكانت تضيق بالوقت كل الضيق ، ولكن حين كان يزورنا الرجال تصبح فى غاية النشاط والفتنة ، وترمقهم بنظرات الغرام ، ولم أستطع فهم

أقل شيء مما تعنيه هذه النظرات • وأخيراً فقط ، حين عرفت من حديثها أن الغزل الوحيد المباح لفتاة ، هو غزل العيون ، استطعت أن أفسر لنفسي حركات العين الغريبة المصطنعة التي لم تبد غريبة البتة في أعين الآخرين • وأخذت ليوبتشكا ترتدي ملابس معظمها طويل لكي تخفي ساقيها السيئي التكوين فلا يكاد يظهر منهما شيء البتة ، ولكنها ظلت كثيرة البكاء ، كما كانت دائماً ولم يعد حلمها الآن الزواج من أحد رجال السواري ، بل من مغن أو موسيقي ، وبناء على ذلك عكفت على موسيقاها بنشاط أوفر من ذي قبل • أما سان جيروم ، الذي كان يعلم أنه سيبقى بالمنزل فقط حتى تنتهي امتحاناتي ، فقد وجد وظيفة عند « كونت » فكان منذ ذلك الوقت ينظر الى بيتنا في شيء من الازدراء • وقلما كان يبقى في البيت ، وعكف على تدخين السجائر التي كانت تمثل قمة الأناقة ، ويصفر انغاماً مرحة دون انقطاع • وأخذت ميمي تزيد صرامة يوماً بعد يوم ، والآن ، وقد بدأنا نكبر ، لم يعد ينتظر ، فيما يبدو ، من أحدنا أي خير •

عندما نزلت لتناول الغداء ، وجدت ميمي وكاتنكا وليوبتشكا ، وسان جيروم وحدهم في حجرة الطعام ، ولم يكن أبي بالمنزل ، وكان فولوديا يستعد لامتحانه مع زملائه بحجرته ، وأمر بتقديم الطعام لهم هناك • وأخيرا جاءت ميمي التي لم يكن بيننا من يحمل لها احتراماً ، فجلست على رأس المائدة ، وبذلك فقد الغداء كثيراً من

جماله • لم يعد الغداء كما كان على أيام أمى وجـدتى ، نوعاً من الاحتفال يوحد الأسرة كلها فى ساعة معينـة ، ويقسم اليوم الى نصفين ؛ وكنا نسمح لأنفسنا بالتأخر ، والحضور فى شطره الثانى ، وبشرب النبيذ من اكواب غير الأكواب العادية (وضع سان جيروم بنفسه مثالا فى هذه النقطة) ، وبأن نسترخى على مقاعدنا ، ونترك المائدة قبل أن ينتهى الطعام ، وما الى ذلك من الحريات • ومنذ تلك الآونة لم يعد للغداء كما كان من قبل ، مرحه ووقاره العائلى اليومى •

تعودنا فى أيامنا السالفة فى بتروفسكى ، أن يأتى كل منا الى الطعـام وقد استحم وارتدى ملابسـه من جديد ، وأن يذهب الى حجرة المائدة فى الساعة الثانية ، ويجلس هنـاك يثرثر مغتبطاً فى انتظار الساعة المعينة • وفى الوقت الذى تبدأ فيه ساعة مخزن رئيس الخدم فى الطنين التمهيدى لتعلن عن السـاعة الثـانية ، كان يدخل فوكا دون جلبة والفوطة على ذراعه بوجـه مهيب عابس نوعاً ما ، ويعلن فى صـوت مرتفع وقور أن « الغـداء جاهز !! » • ويذهب الجميع الى حجرة الطعام ، الكبار فى المقدمة والصغار من ورائهم بوجوه مرحة راضية ، قمصـانهم المنشـاة تخشخش ، وأحذيتهم تحدث صريراً ، فيجلسون فى أماكنهم المألوفة يتحدث فى أصوات خفيضة •

وكنا فى موسكو أيضا نقف أمام المائدة نتحدث فى هدوء فى انتظار جدتى ؛ ويكون جافريلو قد ذهب ليبلغها أن الغداء معد ، فيفتح الباب فى الحال ، وهنا يسمع حفيف ثوب خافت ، وصوت أقدام •

وتخرج جدتى من حجرة نومها وعلى رأسها غطاء مزركش بأنشوطة قديمة بنفسجية ، باسمة أو متجهمة (حسبما يتفق مع حالتها الصحية) ـ ويندفع جافريلو الى مقعدها ، وتصرف المقاعد الأخرى فتشعر بقشعريرة تجرى فى عمودك الفقرى ـ تبشر بشهية للأكل ـ وتتناول « فوطتك » الرطبة المنشاة نوعاً ما ، وتطعم قضمة أو قضمتين من الخبز ، وتفرك يديك تحت المائدة بشراهة متعجلة هائئة • وتتأمل جفنة الحساء التى يتصاعد منها البخار ، التى يوزعها رئيس الخدم وفقاً للمركز والسن والحظوة عند جدتى •

ولكنى لم أعد أتذوق مثل هذا الابتهاج أو الاثارة التى تجرى بين ميمى وسان جيروم والفتيات حول الحذاء الفظيع الذى ينتعله المدرس الروسى وملابس الأميرة كورناكوفا ذات الأذيال وهكذا ـ هذه الثرثرة التى كانت توحى الى من قبل بالاحتقار الحقيقى الذى لم أكن حتى أحاول اخفاءه بقدر مايتصل الأمر بلوبتشكا وكاتنكا ـ أخفقت فى ازعاج حالتى العقلية الجديدة الخيرة ، وكنت لطيفا على غير العادة ، وأصغيت اليهم بابتسامة مجاملة خاصة ، وطلبت بأدب أن يناولونى « الكفاش » (١) • ووافقت سان جيروم حين أصلح لى العبارة التى كنت قد استعملتها قبل الغداء وأخبرنى أن قولى : « أستطيع » خير من قولى : « يمكننى » (٢) • ومع ذلك فيجب أن

---

(١) نوع من الجعة الروسية ، وتصنع عادة من الجاودار •

(٢) قيلت هذه العبارة باللغة الفرنسية ، وهى فى الأصل Je puis بدلا من Je peu •

أعترف أنه ساءنى نوعاً ما أن أحداً لم يلاحظ أية ملاحظة خاصة على كياستى وظرفى • وأرتنى ليوبتشكا بعد الغداء ورقة كانت قد كتبت عليها ذنوبها ؟ فقلت لها كل شىء على خير مايكون ، ولكن الأفضل أن يكتب المرء ذنوبه فى روحه ، أما الذى فعلته فانه « لم يكن المطلوب »

وسألتنى ليوبتشكا : « ولم لا ؟ » •

« لا ضير ـ وذلك أيضا حسن جدا ، انك لا تستطيعين فهمى »
ثم صعدت الى حجرتى بالطابق العلوى ، وأخبرت سان جيروم أننى ذاهب للمذاكرة ، ولكننى فى الحقيقة أردت قضاء الوقت الباقى على الاعتراف الذى كان سيتم فى مدى ســـاعة ونصف ، وكتبت قائمة بواجباتى ومشاغل حياتى كلها ، وعرضت على ورقة هدف حياتى والقواعد التى ينبغى العمل بمقتضاها دون أى انحراف •

(٦٠)

قواعد

أخذت رقعة من الورق ، وحاولت قبل كل شىء كتابة قائمة بواجباتى وفروضى فى السنة القادمة ، ولما كان يجب أن تسطر هذه الورقة ، فى حين أننى لم أجد مسطرة ، فقد استخدمت قاموس اللغة اللاتينية • وعندما أجريت الريشة على طول القاموس ، ثم رجعت

بها ثانية ، ظهر لى أننى تركت على الورقة بقعة طويلة من الحبر بدلا من السطر ، هذا بالاضافة الى أن القاموس كان أقصر من الورقة ، فدارت الريشة حول زاويته اللينة. وتناولت قطعةأخرى منالورق، وبتحريك القاموس تمكنت الى حد ما أن أرسم خطا معينا . وبعد أن قسمت واجباتى الى ثلاثة أقسام ـ نحو نفسى ، ونحو جارى ونحو الله ـ بدأت أكتب واجبات القسم الأول ، ولكنهـــا أصبحت كثيرة جدا ، وتعددت أنواعها وأقسامها الفرعية حتى أصبح من الضرورى أن أكتب أولا « قواعد الحياة » ثم أشرع عندئذ فى عمل بيان بها . فتناولت ست قطع من الورق ، خططتها فى شكل كراسة وكتبت فى أعلاها « قواعد الحيـــاة » وظهرت هاتان الكلمتان فى شكل متعرج مشوش حتى أننى فكرت برهة طويلة فيما اذا كان ينبغى أن أكتبها ، وانزعجت طويلا وأنا أتأمل هذا البيان المهلهل وهذا العنوان الذى لا شكل له ... لماذا يتحول كل شىء كان جميلا ونظيفا جدا فى روحى الى شىء كريه على الورقة ، وفى الحياة بوجه عام حين أرغب فى التطبيق العملى لأى شىء من الأشياء التى أفكر فيها ؟

وجـــاء نيكولاى ينبئنى قائلا : « لقد حضر الكاهن ، فتفضل بالهبوط الى الطابق السفلى لسماع توجيهاته » :

خبأت كراستى فى المـــائدة ، ونظرت فى المرآة ، وفرشت شعرى الذى أكسبنى فى رأيى مظهر المفكر ، وذهبت الى حجرة الجلوس حيث جهزت منضدة بالصور المقـــدسة والشموع الموقدة .

ودخل أبى من باب آخر فى نفس الوقت الذى دخلت فيه ، ومنح الكاهن بركته لأبى ، وهو راهب رمادي الشعر ، متقدم السن، عابس الوجه ؛ ولثم أبى يده القصيرة العريضة اليابسة ، وفعلت مثله .

وقال أبى : « نادوا فالديمار ، أين هو ؟ آه ، حقاً انه يتناول القربان فى الجامعة » .

وقالت كاتنكا ونظرت الى ليوبتشكا : «انه يدرس مع الأمير» . واحمر وجه ليوبتشكا لسبب ما ، وفزعت متظاهرة بأن شيئا ما آلمها ، وغادرت الحجرة فتبعتها ، وتوقفت فى حجرة الاستقبال ، وكتبت شيئا آخر فى ورقتها .

وسألتها : « ماذا ، هل ارتكبت خطيئة جديدة ؟ » .

فأجابت وقد احمر لونها : « لا ، لا شيء من هذا »

وفى هذه اللحظة سمعنا صوت ديمترى فى حجـرة الانتظار وهو يودع فولوديا .

وقالت كاتنكا مخاطبة ليوبتشكا وهى تدخل الحجرة : « ان كل شيء يوسوس لك » .

لم أعرف ماذا حدث لأختى : لقد كانت بالغة الارتباك حتى أن الدموع طفرت من عينيها ، وتزايدت حيرتها حتى صارت غضبا ، من نفسها ، ومن كاتنكا ، التى كان من الواضح أنها تغيظها .

انه ليسهل على المرء أن يرى أنك « أجنبية » (لم يكن هناك شيء أكثر اهانة لكاتنكا من أن يقال لهـــا « أجنبية » وكان هذا هو السبب فيما فعلته ليوبتشكا) ثم مضت تقـــول فى صوت فيه تعال : « انك قبل تناول سر مقدس كهذا تروحين فتزعجينني ؟ ينبغي أن تفهمى أن هذا ليس مزاحاً قط » •

وسألت كاتنكا وقد ساءتها كلمة أجنبية : « أتعرف ماذا كتبت يانيكولاى ؟ لقد كتبت ••• »

وقلت ليوبتشكا متلعثمة وهى تبتعد عنا : « لم أتوقع أن تكونى حقودة الى هذا الحد ••• انها تدفعنى الى الخطيئة عامدة فى مثل هذه الآونة • اننى لا أثير مشاعرك وآلامك ، هل فعلت هذا ؟ » •

(٦١)

اعتراف

بهذه الأفكار وما شابهها من الأفكار الأخرى المحيرة ، رجعت الى حجرة الجلوس ، وكان الكل قد اجتمعوا هناك ، ونهض الكاهن ليتلو الصـــلاة قبل الاعتراف ؛ ولكن ما أن جلجل صوت الراهب الوقور المعبر بين الصمت الشامل ، وبخاصة عندما وجه الينا الكلمات التالية ، « اعترفوا بكل ذنوبكم دون خجل ، أو اخفاء أو تخفيف ،

فتصفو روحكم أمام الله ، ولكن ان أخفيتم أى شىء فانكم تقترفون اثما أعظم » حتى عـــاودنى القلق الورع الذى كنت قد شعرت به صباح اليوم السابق عند تفكيرى فى العشاء الربانى القادم • بل لقد وجدت لذة فى فهم حالتى وحاولت المحافظة عليها ، ووضعت حداً لجميع الأفكار التى ساورتنى محاولا أن أخاف شيئا ما •

كان أبى أول من ذهب للاعتراف ، ومكث وقتا طويلا جداً فى حجرة جدتى وبقينا نحن جميعا فى نفس الوقت بحجرة الجلوس صامتين ، أو أخذنا نتناقش هامسين فى من ينبغى أن يذهب أولا ــ وأخيراً سمع صوت الكاهن مرة أخرى من وراء الباب وهو يقرأ صلاة ، ثم سمع وقع أقدام أبى • وصرف البـــاب ، وخرج وهو يسعل ، رافعاً أحد كتفيه أعلى من الآخر كما كانت عادته ، دون أن ينظر الى أحد منا •

وقال أبى فى ابتهاج وهو يقرص وجنة ليوبتشكا : « اذهبى أنت الآن يا لوبا ، وأعلمى أنك ســتقولين كل شىء • انك مذنبتى الكبرى كما تعلمين » •

واحمر وجه ليوبتشكا ثم شحب على التوالى ، وأخرجت قائمتها من مئزرتها ثم أخفتها مرة أخرى ، وغاص رأسها بين كتفيها كمن تتوقع ضربة من فوق ، ومرت من الباب • ولم تمكث طويلا ، ولكنها عندما خرجت كان كتفاها يهتزان بالنشيج •

وأخيرا جاء دورى بعد كاتنكا الجميلة التى خرجت مبتسمة • دخلت الحجـــرة نصف المضيئة بنفس الخـــوف الكئيب ، والرغبة المقصودة فى مضاعفة الخـوف • ووقف الكاهن أمام المنبر ، وأدار وجهه نحوى فى بطء •

لم أمكث أكثر من خمس دقائق فى حجرة جدتى ، ولكنى حين خرجت ، كنت سعيدا ؛ ووفقا لمعتقداتى فى ذلك الوقت ، كامل النقاء ، وتغيرت الى أقصى حد ، وأصبحت رجلا جديدا • وبالرغم من أن كل ملابسات الحياة القديمة كانت تصدمنى بصورة كريهة•• نفس الحجرات ، ونفس الأثاث ، ونفس وجهى أنا ، (لابد أننى قد رغبت فى تغيير مظهرى ، تماماً كما فكرت من قبل فى أن كل مافى طويتى قد تغير) ـ ومع ذلك ، فقد بقيت على هذه الحـــالة العقلية المنعشة الى أن ذهبت للنوم •

كنت من قبل وسناناً أستعرض فى خيـالى جميع الآثام التى تطهرت منها ، عندما تذكرت على حين فجأة خطيئة مخجلة احتفظت بها ولم أذكرها فى اعترافى ؛ وعادت الى ذهنى كلمات الصلاة التى تليت قبل الاعتراف وتردد صداها فى أذنى دون انقطاع ، واختفت كل رصانتى فى لحظة واحدة ، وظللت أسمع دون توقف : « ولكن ان أخفيتم أى شىء فانكم تقترفون اثماً أعظم » • ورأيت أننى أثيم فظيع بحيث لا توجـد عقـوبة تلائمنى • وظللت أتخبط من جنب الى جنب بينما كنت أتأمل موقفى وأتوقع عقاب الله ، بل الموت من

لحظة الى لحظة وهى الفكرة التى قــذفت بى الى فزع يجل عن الوصف • ولكن ساورتنى على حين فجأة الفكرة الموفقة ، وذلك أن أذهب ماشيا أو فى عــربة الى الكاهن فى الدير حالما يبزغ الضوء وأعترف اليه مرة أخرى ، وأستعيد هدوئى •

(٦٢)

الرحلة الى الدير

استيقظت عدة مرات فى تلك الليــلة ، خشية أن أتأخر فى النوم : وفى الساعة السادسة كنت واقفاً على أهبة الاستعداد • ولم يكد الضوء يظهر فى النوافذ بعد ؛ فارتديت ملابسى وانتعلت حذائى، الذى كان مكوماً بالقرب من فراشى غير ممسوح ، لأن الوقت لم يتسع لنيكولاى لنقله بعيدا عن الفراش ، وخرجت الى الشارع وحدى لأول مرة فى حياتى دون أن أغتسل أو أتلو صلواتى •

ومن وراء المنزل الكـبير ذى السقف الأخضر ، على الجانب الآخر من الشارع بزغ الفجـر البــارد الكئيب ذو اللون الأحمر الوردى ، وكان جليد الصباح الربيعى القــارس يحتجز الوحل والجداول ويتهشم تحت الأقدام ويلفح وجهى ويدى •

لم يكن هناك حوذى واحد فى شارعنا حتى ذلك الوقت ، وان

كنت قد عولت على واحـــد ينقلنى فى الذهـاب والعودة فى وقت أسرع ••• لم يكن هناك غير عربات قليلة تسير متثاقلة على امتداد الـ « أربات » واثنين من بنائى الأحجـــار يمــران على الرصيف يتحادثان• وبعد أن قطعت نحو ألف خطوة بدأت أقابل رجالا ونساء يحملون سلالا فى طريقهم الى السوق ، أو براميل فى طريقهم الى الماء ؛ وظهر بائع « بقلاوة » عند ناصية الشارع ، وكان دكان واحد لبائع خبز الكلاتش (١) مفتوحاً ، ومررت عند « أرباتسكى جيت » بحوذى عجوز نائم على مركبته (دروشكى) الممــزقة المرقعــة • ويحتمل أنه كان لايزال نائماً حين طلب منى عشرين كوبك ليحملنى الى الدير ويعود بى ثانية ، وكاد يسير مبتعدا ، وقال مزمجرا : « ان حصانى بحاجة الى طعام ولا أستطيع أن أحملك ياسيدى » •

وكان أن أغريته بصعوبة على الوقوف بمنحه أربعين كوبك ، فجذب حصانه وتأملنى باهتمام وقال : « أدخل ياسيدى » وأعترف أننى خفت ، الى حد ما ، أن يحملنى الى طريق منعــزل ويسلبنى مامعى • وأمسكت ببنيقته البالية بقوة ، وكان عنقه المجعد نحيلا فوق ظهره المقوس ، وصعدت الى المقعد الأزرق المائل المتأرجح ، وسار يقعقع الى فوزدفيزنكا • ولاحظت أثناء الطريق أن ظهر الدروشكى مبطناً من القمــاش الأخضر ، الذى صنعت منه ســترة الحــوذى ،

(١) الكلاتشى نوع معين من الخبز الأسطوانى الشكل أو الرغيف الصغير •

وطمأنتنى هذه الحقيقة لسبب ما ، ولم أعد خائفا من أن يحملنى الى طريق مظلم ويسلبنى .

كانت الشمس قد ارتفعت تماما وكست قباب الكنائس بلونها الذهبى اللامع حين وصلنا الى الدير . وكان الصقيع لايزال باقيا فى الظل ، ولكن الطريق كان يفيض بمجارى الميـــاه العكرة ، وكان الحصان يرشش وهو يجتاز ذوب الجليد الموحل . ولـــدى دخولى سياج الدير ، استفسرت من أول شخص رأيته ماراً عن المكان الذى أجد فيه الكاهن .

وقال الراهب المار بعد أن توقف هنيهة وهو يشير الى مسكن صغير ذى رواق صغير : « هنالك توجد صومعته » .

قلت : « اننى شاكر لك كل الشكر » .

وهنا رحت أتساءل عما يظنه بى الرهبان (الذين كانوا فى تلك اللحظة يخرجون من الكنيسة) ويتطلعون جميعا ناحيتى . لم أكن كبيرا ولا طفلا ، كان وجهى غير مغسول وشعرى غير ممشط وملابسى غير مهندمة ، وحذائى غير مصبوغ وملوث بالطين ... لابد أنهم كانوا يحاولون تعيين الطبقة من الناس التى أنتسب اليها ـ لأنهم تفرسوا فى تفرسا شديدا جدا . ومع ذلك فقد سرت الى الناحية التى عينها لى الكاهن الشاب .

قابلنى رجل عجوز فى ثوب أسود ، ذو لحية رمادية غزيرة ، فى الممر الضيق المؤدى الى الصومعة وسألنى عما أريد .

وبقيت لحظة أريد أن أقول « لا أريد شيئاً » وأعـود مسرعاً الى العربة ، وأركب الى البيت ، ولكن وجه الرجل العجوز أوحى الى بالثقة بالرغم من حـــاجبيه المعقودين ، فقلت لابد لى من مقابلة الكاهن ، وذكرت له اسمه .

فقال وهو يتلفت وراءه : « تعال ياسيدى الشاب فأرشدك الى الطريق . ومن الواضح أنه تكهن لساعته عن سبب زيارتى فقال : « ان الأب يؤدى صلاة الصباح وسيكون هنا حالا .

وفتح الباب ، وتقدمنى عبر دهـــليز وحجرة استقبال كليهما نظيف ، أرضهما مغطاة بفرش من الكتان النقى ، ثم الى الصومعة .

كانت الغـــرفة التى وجدت نفسى فيها صغيرة الى أبعد حد ، ومنظمة بدقة كبرى ، يتكون أثاثهـــا فقط من منضدة صغيرة مغطاة بمشمع ، موضوعة بين نافذتين مزدوجتى المصاريع ، عليها آنيتان من أزهار الخبيزى الافرنجية (الجيرانيوم) ، وقاعدة تحمل الصور ، يتدلى أمامها مصباح . بها مقعد واحد ذو مسندين ومقعدان عاديان . وفى الركن ساعة معلقة رسمت على مزولتها أزهـــار ، مع أثقالها النحاسية ، ذات الســـلاسل التى تلف نصف دورة ، وهناك ثوبان للكاهن معلقان بمسمارين على الحـــاجز الذى يغلب على الظن أن

الفراش من ورائه والذى يتصل بالسقف بألواح خشبية مطلية باللون الأبيض •

كانت النوافذ تطل على جدار أبيض على مسافة (أرشين) تقريبا بينها وبين الجدار تنمو حرجة صغيرة من شجيرات السوسن، ولا يصل الى الغرفة أى صوت من الخارج ، ولذلك كانت تسمع دقات خطار الساعة الرتيبة عالية فى هذا الصمت ، وحالما أصبحت وحيداً فى ركنى الهادىء هجرتنى تماماً أفكارى وذكرياتى السابقة على حين فجأة كأنها لم تكن ، واستغرقت تماما فى هواجس لذيذة يتعذر التعبير عنها : ذلك الثوب الكهنوتى القطنى الحائل ، وأغلفة الكتب الجلدية السوداء الممزقة ، ومشابكها النحاسية ، وخضرة النباتات القاتمة ، والأرض التى رويت بعناية والأوراق التى أحسن غسلها ، وبنوع خاص ، صوت خطار الساعة الرتيب المتناوب ، كلها كانت تتحدث الى بجلاء عن حياة جديدة كانت مجهولة عندى حتى آنئذ ـ حياة عزلة وصلاة ، وسعادة ساكنة هادئة •

وقلت فى نفسى : « تمضى الشهور ، وتمضى السنون ، وهو وحيد دائما ، هادىء دائما ، وهو يشعر دائما أن ضميره نقى أمام الله ، وأن صلواته مسموعة عنده تعالى » وجلست على ذلك المقعد نصف ساعة ، أحاول ألا أتحرك ، وألا أتنفس بصوت مرتفع حتى لا أشوش ذلك التناسق فى الأصوات التى كانت تتحدث الى بالشىء الكثير • وكان الخطار يدق كما كان من قبل ، •• دقة عالية الى اليمين وأخرى أكثر رقة الى اليسار •

اعتراف ثان

ونبهني وقع أقدام الكاهن من هواجسي .

وقال لى وهو يصلح شعره الرمادى بيده : « مرحباً ، ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟ » .

فطلبت منه أن يباركنى ، ولثمت يده القصيرة الصفراء برضاء غريب .

وعندما شرحت له التماسى ، لم يجب ، بل ذهب الى الأيقونة وبدأ فى سماع اعترافى .

وحين تغلبت على خجلى ورويت له كل شىء فى نفسى وانتهى الاعتراف ، وضع يديه على رأسى وقال بصوته الهادى العذب : « لتباركك يابنى نعمة أبينا السماوى ، وليحفظ عليك ايمانك وسلامك ووداعتك الى الأبد ، آمين » .

كنت سعيدا تماما ، وارتفعت دموع الغبطة فى حلقى ، وقبلت ثنايا ثوبه الكهنوتى ذا القماش الرقيق ، ورفعت رأسى ، وكان وجه الراهب هادئا تماما .

شعرت أننى أستمتع بغبطة فى احساسى بالانفعال ؛ وخوفى من طردها من ذهنى لسبب ما ، سارعت بوداع الكاهن ، وغادرت السياج

دون أن أتطلع يمينا أو شمالا حتى لا ألفت الانتباه ، وجلست ثانية في الدروشكي المبرقشة المتأرجحة ، ولكن اهتزاز المهمات ، وتباين الأشياء التي كانت تتراءى أمام عيني، سرعان ماقشعت ذلك الاحساس، وبدأت لساعتي أفكر في أن الكاهن كان في أغلب الظن ، يفكر في نفس الوقت في أنه لم يقابل البتة روحا لطيفا كروح شاب مثلي ، بل لن يقابلها من بعد •• طوال حيـــاته ، وأنه لا يوجد آخرون على شاكلتي • كنت مقتنعا بذلك ، وبعث في هذا الاقتناع شعور الابتهاج بمثل هذه الطبيعة ، حتى أنني احتجت الى الاتصال بشخص ما •

كنت بحاجة ملحة الى التحدث الى شخص ما ، ولما لم يكن في متناولي أحد غير الحوذي فقد التفت اليه •

سألته : « هل تركتك مدة طويلة جدا ؟ » •

فأجابني ، وكان يبدو عليه الآن الابتهاج أكثر من ذي قبل ، لأن الشمس كانت قد ارتفعت في السماء : « لقد حان وقت اطعام حصاني منذ وقت طويل ، وأنا كما ترى حوذي ليلي » •

قلت : يخيل الى أنني لم أتغيب أكثر من دقيقة » ، ثم أضفت وأنا أغير مقعدي ، وأنتقل الى المكان الخالي بجانب الحوذي : « وهل تعرف لماذا ذهبت الى الدير ؟ » •

فأجاب : « حسن ، ليس هذا من شأني ، أليس كذلك ؟ انني أحمل ركابي الى حيث يأمرونني » •

وقلت فى اصرار : « ولكن ، ماذا تظن ؟ » •

فقال : « حسن ، ربما هناك من هو بحاجة الى الدفن فذهبت تشترى له مكانا » •

« لا ياصديقى ، هل تعرف سبب ذهابى ؟ » •

فأجاب : « لا يا سيدى ، لا أستطيع أن أعرف » •

وخيل الى أن صوته بالغ الرقة حتى أننى صممت على أن أقص عليه سبب رحلتى ، بل والشعور الذى كابدته وذلك بقصد تهذيبه•

« سأقص عليك ان شئت • أنت تعرف ••• » •

ورويت له كل شىء ، ووصفت له كل عواطفى الجميلة ، حتى أنى لأخجل الآن عندما أتذكر هذا •

وقال بارتياب : « نعم ياسيدى » •

وظل صامتا بعد ذلك وقتا طويلا دون أن يتحرك ، غير أنه كان بين حين وآخر يصلح من ذيل سترته ، فقد ظل يجنبه قدمه المبرقشة التى تهتز صاعدة هابطة فى حذائها الكبير على سلم العربة • وظننت أن رأيه فى كرأى الكاهن تماما ــ أى أنه لا يوجد شاب لطيف مثلى فى العالم • ولكنه التفت ناحيتى فجأة وقال لى :

« حسن ياسيدى ، ذلك هو شأنكم يامعشر الأعيان » •

فقلت مستفسراً : « ماذا ؟ » •

« انه تماما شأن الأعيان » •

وقلت فى نفسى : « لا ، انه لم يفهمنى » ولكنى لم أقل شيئا أكثر من ذلك حتى وصلنا المنزل •

ومع أن شعور الحماسة والورع لم يبق طوال الطريق ، فقد بقى الرضاء الذاتى عن التجربة التى خبرتها بالرغم من الناس الذين رقطوا الشوارع المشمسة بالألوان فى كل مكان • ولكن حالما وصلت الى المنزل اختفى هذا الشعور تماما • لم يكن لدى القطعتين من فئة العشرين كوبك لأدفع للحوذى ، ولم يقرضنى جافريلو رئيس الخدم مرة أخرى لأنه أقرضنى من قبل • ولابد أن يكون الحوذى الذى رآنى أجرى مرتين مجتازا الفناء للحصول على نقود ، قد خمن السبب ، لأنه هبط من الدروشكى ، وبالرغم من أنه كان قد أظهر نحوى رقة بالغة ، فقد بدأ يتكلم بصوت مرتفع وعداء واضح نحوى ، عن النصابين الذين لا يدفعون أجر ركوبهم •

كان الجميع نائمين فى المنزل ، ولذلك لم يكن هناك أحد أستطيع أن أقترض منه أربعين كوبك ، فيما عدا الخدم • وأخيرا ، دفع فاسيلى أجره نيابة عنى بناء على كلمة الشرف المقدسة ، بل المقدسة الى أبعد حد من التقديس ، والتى لم يثق فيها أقل ثقة (بقدر ماتبينت من وجهه) ، ولكنه فعل ذلك لأنه كان يحبنى ، ولأنه تذكر الخدمة التى قدمتها له • وعندما ذهبت لأرتدى لباس الكنيسة لأتناول القربان المقدس مع الباقين ، ولما وجدت أن ملابسى الجديدة لم تصل

بعـد ، أثارنى ذلك كثيراً • وارتديت حلة أخـرى وذهبت لتناول القربان فى حالة غريبة من التشوش العقلى ، مليئا بالتشكك فى كل دوافعى السامية •

(٦٤)

اعددت نفسى للامتحان

فى يوم الجمعة ، التـالى لعيد الفصح ذهب أبى وأختى وميمى وكاتنكا الى الريف ، وبذلك بقى فى بيت جدتى الكبير ،فولوديا وأنا وسان جيروم وحسب •• واختفت حالتى العقلية التى كنت عليها فى يوم الاعتراف ، حينما ذهبت الى الدير اختفاء تاما ، وتركت مجرد ذكرى معتمة وان كانت سارة ، أغرقتها شيئا فشيئا الانطباعات الجديدة التى تتسم بها الحياة الحرة •

وكذلك اندست الكراسة المعنونة « قواعد الحياة » فى كومة المذكرات ذات الخط المهوش • وبالرغم من سرورى لفكرة امكان وضع قواعد لجميع أحداث الحياة والاسترشاد بها دائما ، وما بدا لى من أنها فكرة بسيطة جداً ، وعظيمة جداً فى نفس الوقت ، عمدت الى تطبيقها على الحيـــاة ، الا أننى نسيت أيضا فيما يظهر ضرورة تطبيقها فوراً ، وظللت أؤجلها الى وقت غير محدد ، ولكنى اغتبطت لحقيقة واحدة هى أن كل فكرة طرأت على ذهنى آنئذ ، كانت تندرج

مباشرة تحت قسم من أقسام قواعدى وواجبــاتى ـ تحت عنوان الواجب ، اما نحو جارى أو نحو شخصى أو نحو الله • وكنت أقول لنفسى :

« سأصفها كغيرها من الأفكار الكثيرة التى ستطرأ على ذهنى فى هذا الموضوع فيما بعد » وكثيرا ما أســأل نفسى الآن : متى كنت أحسن حالا وأكثر صوابا ؟ أعنــدما كنت أعتقد فى قـدرة العقل البشرى ، أم الآن بعد أن فقدت القدرة على النمو ، وتشككت فى قوة العقل البشرى ودلالته ؟ لا أستطيع أن أجيب على نفسى بأية اجابة مؤكدة •

ان الشعور بالجريمة ، وذلك الشــعور الربيعى بحدوث شىء منتظر ، الشىء الذى وصفته فوراً ، أثارنى الى الحد الذى لم أستطع معه السيطرة على نفسى سيطرة ايجابية ، اذ كان استعدادى للامتحان سيئا ، فلتفرض أنك مشغول فى حجرة الدراسة وقت الصباح ، وأنت تعرف أنك يجب أن تعمل ، لأنه سيعقد فى اليوم التالى امتحان فى موضوع معين لم تقرأ منه مسألتين كاملتين • وتهب عليك فجأة من النافذة هبات نسيم معطرة، ويخيل اليك أنك لا بد أن تتذكر شيئاً ما ، وتسقط يداك تلقائيا ، وتأخذ ساقاك فى الاهتزاز بمحض رغبتهما الخاصــة ، وتخطو الى خلف والى أمام ، ويخيل اليك أن « يايا » مضغوطاً مثبتا فى رأسك ، وتشعر بالخفة والمـرح وتبدأ الهواجس المتألقة تسرى فى عقلك بسرعة فائقة ، ومن ثمة تمضى ساعة وساعتان

دون أن تنتبه لذلك ، أو الى أنك جالس الى كتابك تركز انتباهك الى حد ما على ماتقرأ ، ثم تسمع على حين فجـــأة صوت وقع أقدام سيدة وحفيف ثوبهـــــا فى الدهليز فيهـــرب كل شىء من عقلك ولا تستطيع الجلوس ساكناً بالرغم من أنك تعرف جد المعرفة أن أحدا لا يمكن أن يمر فى ذلك الدهليز الا جاشا ، خادمة جدتى القديمة ، وتقول لنفسك : « ومع ذلك أفترض أنها لابد أن تكون « هى » • وهب أنها يجب أن تبدأ الآن ، وأننى أضيعها •• وتندفع الى الدهليز فتجد أنها جاشا فعلا ، ومع ذلك لا تستطيع السيطرة على عقلك وقتا طويلا ـ ويضغط « الياى » مرة أخرى ، ويبدأ الاضطراب المخيف مرة أخرى • أو أنك تجلس فى غرفتك فى المساء وحيـدا ومعك شمعة من الشحم ، فتنصرف عن كتابك برهة لكى تقرض ذبالة الشمعة ، أو لتستقر فى مقعدك فى وضع أبعث الى الراحة ـ ان الظلام يسود كل مكان ••• الأبواب والأركان ؟ والهدوء يشمل كل شىء فى البيت ، فكذلك من المحال ألا تقف وتصغى الى ذلك الصمت، وألا تتفرس فى حلكة الباب المفتوح ، وألا تمكث هناك وقتا طويلا جدا دون حركة وفى نفس الوضع ، أو لا تهبط الى الطابق السفلى ، أو لا تسير فى الحجرات الخـــاوية • وكثيرا أيضا ماكنت أجلس لا يدرى بى أحد ، أصغى فى القاعة الى صوت معزوفة « العندليب » التى كانت تعزفها جاشا على البيانو بأصبع واحـدة ، وهى جالسـة وحدها على ضوء شمعة من الشحم فى المسكن الفسيح • وعندما كان يضىء القمر لم يكن باستطاعتى أن أقاوم النهـــوض من فراشى ،

والوقوف الى النافذة المشرفة على الحديقة والنظر الى سقف بيت شابوسنيكوف المضيء ، وبرج كنيسة الأبروشية الرشيق ، وفى الليل الى ظلال السياج والحرجات مبسوطة على ممرات الحديقة . كنت أجلس هناك وقتاً طويلا حتى لقد تحل الساعة العاشرة صباحاً قبل أن أستطيع فتح عينى .

ولذلك ؛ فلو لم يكن بسبب المدرسين الذين استمروا فى الحضور الى ، وبسبب سان جيروم الذى أصبح بين حين وآخر يستنهض خيلائى كارها ، ولرغبتى فى أن أبدو قبل كل شيء فى عينى صديقى نخيلودوف ذلك الشاب الكفؤ ، أى بالحصول على امتياز فى الامتحان وهذا شيء يعتبر فى رأيه على جانب عظيم من الأهمية : لو لم يكن بسبب هذا كله ، لكان للربيع والحرية تأثير على نسيان كل شيء عرفته من قبل ، ولما استطعت بحال من الأحوال اجتياز الامتحان .

(٦٥)

امتحان التاريخ

فى السادس عشر من ابريل دخلت القاعة الكبرى بالجامعة لأول مرة فى حياتى برعاية سان جيروم . ووصلنا الى هناك فى مركبتنا المكشوفة الأنيقة الى حد ما ؛ وكنت أرتدى سترة السهرة الطويلة . وكانت جميع ملابسى حتى الداخلية البيضاء منها والجوارب ، جديدة

تماماً ومن أجود نوع . وعندما ساعدني « الحاجب » على خلع معطفي ووقفت أمامه بكل جمال زيبي شعرت بالخجل الى حد ما لكوني أبهر البصر الى حد كبير ، ولكن ما أن دخلت القاعة المتألقة بأرضها المصقولة التي كانت ملأى بالناس ، ورأيت مئات من الشبان في زي الجمنازيوم (١) وسترة السهرة ، وتطلع الى عدد قليل منهم في غير اهتمام ، وكان الأساتذة الأجلاء في الطرف البعيد من القاعة يمشون في حرية بين المكاتب ، أو يجلسون في مقاعد ضخمة ذات مساند ، وما أن رأيت هذا حتى زال أملي الواهم في جذب الانتباه العام الى شخصي ؛ وأن تعبير وجهي الذي كان يدل في البيت ، بل وفي حجرة الانتظار على أني ذو مظهر نبيل ممتاز رغما عني ، قد تحول الى تعبير عن أقصى حد للخجل ، والى كآبة الى حد ما ، بل انتهى الأمر الى النقيض ، وفرحت كثيراً حين رأيت سيداً بالغ القبح مهمل الثياب ، لم يكن كبير السن ، ولكنه أشيب الشعر تقريباً ، يجلس على الأريكة الأخيرة على مبعدة من الباقين جميعاً ، فجلست الى جواره مباشرة ، وأخذت أراقب المرشحين للامتحان وأصور استنتاجاتي عنهم ـ هناك وجوه كثيرة ومتباينة ، ولكنها جميعاً ،

---

(١) مدارس ثانوية راقية تهيىء الطلبة للدراسات الجامعية ، وتعرف في أوربا وبخاصة في ألمانيا بالجمنازيوم ورأينا الاحتفاظ بالاسم في الترجمة العربية لأنه ذو مفهوم معين (المترجم) .

وبناء على رأيى فى ذلك الحين ، كان يمكن أن تقسم بسهولة الى ثلاث فئات :

أولا ، كان هناك من هم على غرارى ، قد حضروا الى الامتحان بصحبة مدرسيهم الخصوصيين أو مع آبائهم ، وقد رأيت من بين هؤلاء ايفن الصغيرمع فروستالمعهود، والنكا جراب مع والده العجوز ، وكانت ذقونهم جميعاً زغباء ، يزدهون فى ملابسهم الكتانية المتفخة ، يجلسون فى هدوء دون أن يفتحوا الكتب أو الكراسات التى أحضروها معهم ، ويتطلعون فى تهيب واضح الى الأساتذة ومناضد الممتحنين . والفئة الثانية من المرشحين هم الشبان فىملابس الجمنازيوم الرسمية ، وكثيرون منهم حديثو الحلاقة ، ومعظم هؤلاء يعرف بعضهم البعض ، ويتحدثون بصوت مرتفع ، ويذكرون الأساتذة بأسمائهم وأسماء عائلاتهم ومعظم هؤلاء يعرف بعضهم البعض ، ويتحدثون بصوت مرتفع ، ويذكرون الأساتذة بأسمائهم وأسماء عائلاتهموكانوا يعدون الأسئلةلساعتهم ويناول بعضهم البعض الكراسات ، ويصعدون فوق الأدراج ، ويحضرون بأنفسهم الفطائر والشطائر ، ويلتهمونها فى التو واللحظة ، ولا يفعلون أكثر من طأطأة رءوسهم بمحاذاة الأدراج . وأخيراً ، الفئة الأخيرة من المرشحين ، ومع أن المتقدمين منهم فى السن تماماً قليلون ، الا أن بعضهم يرتدون معاطف السهرة ، ولكن الأغلبية يرتدون أعطفة ، ولم يتظاهروا بأية ملابس كتانية ، وهؤلاء حافظوا على التصرف

الجاد ، وجلسوا وحدهم ، وكان يبدو عليهم الاكتئاب الشديد • أما الشخص الذى بعث فى نفسى العـزاء لكون ملابســه كانت بالتأكيد أسـوأ من ملابسى فينتسب الى هذه الفئـة ، وبينما كان متكئاً على مرفقيه ، يجرى أصابعه بين شعره الأشعث ويقرأ كتاباً ، ألقى على نظرة عـابرة من عينيــه المتألقتين ـ ولم تكن نظرة ودية ـ وتجهم تجهماً مبهماً ، ومد مرفقه ناحيتى حتى لا أقترب منه بحال • وكان طلبة الجمنازيوم من ناحية أخرى ودودين جداً ، وكنت أخشـاهم قليلا • قال أحدهم وهو يدفع بكتاب الى يدى : « أعط هذا الى ذلك الزميل الذى هناك » وقال آخر وهو يمر بى : « معذرة أيها الفتى العجوز » واتكأ ثالث وهو يصعد فوق الدرج على كتفى كأنه المقعد• كل ذلك كان مشيناً وكريهاً بالنسبة الى ؛ وكنت أعتبر نفسى أفضل من طلبة الجمنازيوم هؤلاء ، ورأيت أن ليس من شأنهم أن يسمحوا لأنفسهم بمثل هذه الحريات معى • وأخيراً بدأوا فى نداء الأسماء : وتقدم تلاميذ الجمنـازيوم بشـجاعة وكانت اجـابة معظمهم حسنة وعادوا مبتهجين • وظهر أن مجموعتنا أكثر حياء وأسـوأ اجابة • وأجاب بعض الرجال المتقدمين فى السن اجابات ممتـازة ، وأجاب بعضهم اجابات سيئة حقيقيــة • وعندما نودى اسم سيمينوف نهض جـارى ذو الشـعر الأشيب والعينين البراقتين ، ووخـزنى بكوعه بشدة ، وعبر من على ساقى ، وقصد الى احدى مناضد الممتحنين • واتضح من وجوه الأساتذة أنه أجاب على وجه حسن وفى ثقة • ولدى رجوعه الى مكانه تناول كراساته ومضى بهدوء دون أن يعرف

الدرجة التى حصـل عليهـا • وكنت قد ارتعـدت عدة مرات لدى سماعى نداء الأسماء ، ولكن دورى لم يكن قد حل بعد ، فقد كانت القائمة مرتبة بحسب الحروف الأبجدية ، مع أن بعض الأسماء التى تبدأ بحرف (ك) كانت قد نوديت بالفعل • ونادى واحد من ركن الأساتذة على حين فجـأة : « اكونين بارتنييف » وسرت فى ظهرى وشعرى قشعريرة •

وأخذوا يقولون فيما حولى : « من الذين ينادونهم ؟ من هو بارتنييف ؟ » •

وقال جمنازى طويل ذو وجـه أحمـر كان يقف ورائى : « اذهب يا اكونين ، انهم ينادونك ؟ ولكن من هو هذا البارتنييف أو المردينييف ؟

وقال سان جيروم : « لا بد أن تكون أنت »

وقلت للجمنـازى ذى الوجـه الأحمـر : « هل ينـادون ارتنييف ؟ » •

فقال : « نعم ، لماذا بالله لا تذهب ؟ » ثم أضاف بصوت غير مرتفع ، ولكنى سـمعت كلماته وأنا أغـادر مقعدى : « يا له من متحذلق ، يا الهى ! » •

كان ايكونين يسير أمامى ، وهو شاب طويل يناهز الخامسة والعشرين ، يتبع أولئك الذين أدرجتهم بين فئـة كبـار السن من

المتنافسين • وكان يرتدى سترة محكمـة زيتونية اللون ، ورباط رقبة أزرق من الأطلس ، يتدلى من ورائها شعره الطويل الخفيف المقصوص على طريقة الفـلاح الروسى (١) • وقد اجتذب مظهره نظرى عندما كنا جالسين الى أدراجنا ، فقد كان حسن المنظر كثير الكلام ، وأخص ما لفت نظرى اليه شـعره الأحمر الغريب الذى تركه يستطيل على عنقه ، وأغرب من هذا عادة فك أزرار صدريته باستمرار ، وحك صدره من تحت قميصه •

كان يجلس ثلاثة أساتذة الى المنضدة التى ذهبنا اليها ، اكونين وآنا ، ولم يرد أحد منهم تحيتنـا • كان أصـغرهم يخلط بطاقات شبيهة بحزمة ورق اللعب ، والثانى الذى يضع نجمة على سترته ، كان يتفرس فى الجمنـازى الذى كان يثرثر بشيء عن شـارلمان ، ويضيف الى كل كلمة « وأخيراً » • والثالث رجل عجوز نظر الينا من خلال نظارته وأشـار الى البطاقات • وشـعرت أن نظرته كانت موجهة الى ايكونين والى سويا ، وأن فى مظهرنا شيئاً لا يعجبه (ربما يكون لحية ايكونين الحمراء) ، لأنه بينما كان يعيد النظر الينا بنفس الطريقة أشار الينا بحركة من رأسه تدل على نفاد صبره لكى نسرع بسحب بطاقتنا • وشعرت قبل كل شيء بالغيظ والاهانة لأن أحداً لم يرد تحيتنا ، وثانياً لأنه من الواضح أنهم كانوا يضعون ايكونين وأنا فى نفس الفئـة من المرشحين للامتحـان ، وكانوا مجحفين لى

---

(١) مقصوص على شكل مربع من كل جهة •

بسبب لحية ايكونين الحمراء • وتناولت بطاقتى دون تهيب ، وتأهبت للاجابة ، ولكن الأستاذ وجه نظرته الى ايكونين • وقرأت بطاقتى ، وعرفت فحواها • وفى أثنــاء انتظار دورى فى هدوء كنت أراقب ما يدور أمامى ، ولم يرتبك ايكونين أقل ارتباك ، بل كان شديد الجرأة لأنه حالما حصل على بطاقته ، مال جانباً على المنضدة ، وأزاح شــعره الى الخلف ، وقرأ المطبــوع عليهــا بسرعة ، وأظنــه كان على وشك أن يفتح فمه بالاجابة حين صرفه الأستاذ صاحب النجمة ممتدحاً وهو يرمقه بنظرة ، ويبدو أن ايكونين تذكر شيئاً وتوقف ، وساد صمت شامل لمدة دقيقتين •

وقال الأستاذ ذو النظارة : « حسن ؟ » •

وفتح ايكونين فمه مرة أخرى ولكنه ظل صامتاً •

وسأله الأستاذ الشاب : « هيا ، انك لست الوحيد ، هل تريد الاجــابة أم لا ؟ » ، ولكن ايكونين لم ينظر اليه مجــرد النظر ، وتفرس فى البطاقة ولم ينطق بكلمة • ونظر اليه الأستاذ ذو النظارة من خــلال نظارته ، ومن فوق النظــارة ، وبدون نظارة ، اذ كان الوقت يتسع لخلعها ، وتنظيفها بعناية ، ثم اعادتها مرة أخرى ••• ولم ينطق ايكونين بكلمة ، وشملت وجهه ابتسامة مفاجئة ، وأزاح شعره الى الخلف ، ثم استدار تماما نحو المنضدة ، وتفرس فى جميع الأساتذة كل بدوره ، ثم تفرس فى ، واستدار ، وسار فى مرح الى مقعده وهو يلوح بيديه • وتبادل الأساتذة النظرات •

وقال الأستاذ الشاب : « أنعم به من فتى ! انه يرغب فى الدراسة على نفقته الخاصة » •

واقتربت من المنضدة ، ولكن الأساتذة ظلوا يتحدثون بأصوات خافتة فيما بينهم كأن أحداً منهم لم يتنبه حتى لوجودى • وقد اقتنعت اقتناعاً جازماً بأن الأساتذة الثلاثة كانوا آنئذ مشغولين غاية الانشغال بمسألة اجتيازى الامتحان وخروجى منه بسلام ؛ ولكنهم كانوا يتظاهرون بذلك حفظاً لكرامتهم ، وأن الأمر لم يكن يهمهم فى شىء مطلقاً وأنهم حتى لم يلاحظوا وجودى •

وعندما التفت الى الأستاذ صاحب النظارة دون اهتمام ، ودعانى الى الاجابة عن الأسئلة نظرت الى عينيه مباشرة ، وكنت خجلا له الى حد ما ؛ اذ كان يتصنع كثيراً أمامى ، وترددت بعض الشىء فى بدء اجابتى ، ولكن الأمر أصبح أكثر سهولة فأكثر • ولما كان السؤال من التاريخ الروسى الذى كنت أعرفه كل المعرفة ، فقد أجبت بأسلوب رائع ، بل بلغت بى الثقة فى نفسى حداً جعلنى أقترح سحب بطاقة أخرى وذلك لرغبتى فى أن يشعر الأساتذة أننى لست من طراز ايكونين ، وأن من المستحيل الخلط بينى وبينه ، ولكن الأستاذ هز رأسه وقال : « هذا يكفى يا سيدى » وأثبت شيئاً ما فى سجله • وعندما رجعت الى المقاعد علمت على التو من الجمنازيين الذين كانوا يعرفون كل شىء ، ـ ولسبب يعرفه الله ـ أننى حصلت على الدرجة النهائية •

امتحان العلوم الرياضية

كونت كثيراً من المعارف الجدد فى الامتحانات التالية بالاضافه الى جراب الذى كنت أعتبره غير جدير بمعرفتى ، وايفن الذى كان يتجنبنى لسبب ما ، وتبادل معى التحيات كثيرون ، حتى ايكونين ابتهج عندما رآنى وأسر الى أنه سيعيد امتحانه فى التاريخ ، وأن أستاذ التاريخ حاقد عليـه منذ الامتحان الأخير الذى أوقعـه أثناءه أيضاً فى ارتباك • أما سيمينوف الذى كان سيدخل كلية الرياضيات مثلى ، فقد كان يخجل من كل شخص وظل حتى نهاية الامتحانات يجلس صامتاً وحيداً ، متكأ دائماً على مرفقيـه ، يجـرى يديه فى شعره الأشيب ، وأنجز امتحاناته بأسلوب ممتاز وكان ترتيبه الثانى ، وكان الأول طالب من مدرسة الجمنزيوم الأولى ، وكان الأخير شاباً طويلا نحيلا شاحب اللون الى أقصى حد ، أسمر الوجه ، ذا عنق من حوله رباط رقبة أسـود وجبين تغطيـه البثـور • كانت يداه نحيلتـان حمـراوان ، أصابعهما طويلة ملفتة للنظر ، وفى أظافره كدمات كثيرة حتى لتبدو أطراف أصابعه كأنها ملفوفة بخيط • كان يبدو لى كل هذا رائعاً ، وكما ينبغى تماماً أن يكون عليه الفتى الأول بالجمنازيوم • كان يتحدث الى كل انسان كأى شخص سواه حتى أننى تعرفت به ، ولكن كان يبدو لى أن هنـاك شيئاً شاذاً غير عادى وجذاباً فى هيئته وحركات شفتيه وعينيه السوداوين •

نودى على فى امتحـان الرياضيات مبكرا عن المعتـاد ، وكنت ملماً بالموضوع بدرجة ملائمة ، ولكن كانت هناك مسألتان فى الجبر دبرت أمر اخفائهما عن مدرسى بطريقة ما ، ولم أكن أعرف عنهما شيئاً البتة ، وهما فيما أتذكر الآن ، نظرية التبـادل والنظرية ذات الحدين لنيوتن • جلست على مقعد فى المؤخرة ، وتأملت المسـألتين المجهولتين ، ولكن لما كنت لم أتعود العمـل فى حجـرة صاخبة ، وشعرت أن وقتى أضيق مما ينبغى ، فقد رأيت من العسير أن أفهم ما كنت أقرأه •

وسمعت صوت فولوديا المألوف من ورائى يقول : « من هذا الطريق يا نخيلودوف » •

والتفت فرأيت أخى ودمترى ـ ستراتاهما مفكوكتان وأيديهم تلوحان لى بالتحية ـ وهما يشقان طريقهما نحوى من بين المقاعد، وكان من الواضح لأول وهلة أنهما من طلبة السنة الثانية ، وأنهما يرفعان الكلفة فى الجامعـة كأنهما فى بيتهما الخـاص ، وكان منظر ستراتيهم المفكوكتين وحده يدل على ازدراء لنا نحن الجدد ويوحى الينا بالحسـد والاحترام • وزهوت كثيراً جـداً حين فكرت فى أن جميع من سيرون أننى أعـرف طالبين من السـنة الثانية ، ونهضت مسرعاً للقائهما ولم يستطع فولوديا الا أن يتفاخر قليلا بسبقه •

فقال : « آه ، أيها الشقى المسكين ، ألم تمتحن بعد ؟ » •

ـ لا •

ـ ماذا تقرأ ؟ ألم تستعد ؟

ـ نعم ، ولكنى لم أستعد تماماً فى مسألتين لم أفهمهما •

وقال فولوديا : « ماذا !! هذه واحدة » ثم أخذ يشرح لى نظرية « ذى الحدين » لنيوتن ، ولكن بسرعة كبيرة وبطريقة مهوشة ، حتى لقد قرأ فى عينى تشككى فى معلوماته فنظر الى ديمترى ، ويرجح أنه قرأ فى عينيه هو الآخر نفس التشكك ، فاحمر وجهه ، ولكنه مع ذلك راح يقول شيئاً لم أفهمه •

ـ وقال دمترى وهو ينظر الى ركن الأساتذة : « لا يا فولوديا، انتظر ، دعنى أراجعها معه ، فقد يكون لدينا الوقت الكافى » ثم جلس بجانبى •

ـ وعرفت مباشرة أن صديقى كان فى تلك الحالة من الانبساط الهادىء التى يكون عليها دائما حين يصل الى درجة الوثوق من نفسه ، والتى أحبها فيه بنوع خاص • ولما كان يجيد معرفة الرياضيات ، ويتحدث بوضوح فقد شرح لى المسألة شرحاً دقيقاً حتى أننى لا أزال أتذكرها حتى اليوم • ولم يكد ينتهى حتى همس لى سان جيروم بصوت مرتفع قائلا : «جاء دورك يا نيكولاس» فنهضت وتبعت ايكونين دون أن تتسع لى الفرصة لمراجعة المسألة

الأخرى التى لم أفهمها • واقتربت من المنضدة التى يجلس اليها الأستاذان ، وأحد الجمنازيين واقفاً أمام السبورة يوضح معادلة ، وكان قد كسر هذا الجمنازى قطعة طباشيره بنقرة خفيفة على السبورة واستمر فى الكتابة بالرغم من قول الأستاذ له « هذا كاف !! » ، وأمره لنا بأخذ بطاقتينا • وقلت فى نفسى : « والآن ، ماذا يحدث لو حصلت على نظرية التوافيق وسحبت بطاقتى بأصابع مرتعشة من الورق الناعم المقطع • وأخذ ايكونين البطاقة العلوية دون أى انتقاء وبنفس الحركة الجريئة والاندفاع جانباً بكل جسمه كما حدث فى الامتحان السابق •

ـ وزمجر قائلا : « أيلازمنى دائماً هذا الحظ السىء ! » •

ـ ونظرت الى بطاقتى •

ـ آه ، يا للفزع ! انها نظرية التوافيق •

ـ وسألنى ايكونين : « ماذا أخذت ؟ » •

ـ وأريته اياها •

فقال : « اننى أعرفها » •

ـ هل تبادلنى ؟ » •

ـ واختلق ايكونين حيلة بسيطة عندما استدعانا الأستاذ الى السبورة فقال : « لا ، أشعر اننى كفء لها » •

ـ وقلت لنفسى : « حسن ، لقد فقدت كل شىء ! فبدلا من الامتحان الباهر الذى كنت أحلم باجتيازه ، تكسونى مهانة أبدية

بأسوأ مما حدث لايكونين • ولكن ايكونين التفت نحوى فجأة وتحت أنظار الأساتذة ، وخطف البطاقة من يدى وأعطانى بطاقته• وألقيت نظرة على بطاقته ، فاذا بها نظرية ذى الحدين لنيوتن •

ـ لم يكن الأستاذ رجلا عجوزاً ، وكان تعبيره لطيفاً صريحاً ، وساعد على ذلك بنوع خاص بروز الجزء السفلى من جبهته بروزاً كبيراً للغاية •

ـ ما هذا يا سادة ؟ هل تتبادلان البطاقات ؟

وقال ايكونين اختلاقاً : لا ، انه أعطانى بطاقته لأراها وحسب ، يا أستاذ ـ وكانت أيضا كلمة أستاذ هى آخر ما نطق به فى ذلك المكان ، ومرة أخرى بينما كان يتراجع ماراً بى ، ونظر الى الأساتذة والى ، وابتسم وهز كتفيه بطريقة خاصة كأنه يقول: « ماذا يهم !! » •

وعرفت فيما بعد أن هذه كانت ثالث مرة يدخل فيها ايكونين الامتحان •

ـ وأجبت عن المسألة التى كنت قد راجعتها مراجعة جيدة ـ بل خيراً من المطلوب ـ كما قال لى الأستاذ ـ وحصلت على الدرجات النهائية •

امتحان اللاتينية

جرى كل شيء على ما يرام حتى امتحان اللغة اللاتينية ، والى هنا كان فتى الجمنازيوم بعنقه الأفطس هو الأول ، وسيمنوف الثانى ، وأنا الثالث ، بل بدأت أشعر بالزهو ، وفكرت فى أننى برغم صغر سنى أصبحت رجلا له وزن •

كان الجميع يتحدثون برعب منذ اليوم الأول للامتحـــان عن أستاذ اللاتينية ، الذى ظهـــر أنه شرس ، يجـد اللذة فى اخفاق الشباب ، وبخاصة أولئـــك الذين يتعلمون على نفقتهم الخاصـــة ، ولا يتكلم أية لغة سوى اللاتينية أو اليونانية • وشجعنى سان جيروم الذى كان معلمى الخاص فى اللاتينية • وقد بدا لى فى الحقيقة أننى مادمت أستطيع الترجمة عن شيشرون وعن عدة قصائد من هوراس بدون قاموس ، ومادمت أعرف (زومب) معرفة جيدة ، فاننى لم أكن أسوأ استعداداً من الباقين • ولكن الذى حدث أثبت غير هذا ؛ ولم يكن يسمع شيء طوال الصباح غير قصص الرسوب من أولئك الذين سبقونى : فأحدهم نال صفراً ، وآخـر حصـل على درجة واحدة ، وآخـــر أيضا زجر بعنف ، وكان على وشك أن يطرد ، وهكذا ، وهكذا • وذهب سمنوف والطالب الجمنازى الأول وحدهما وعادا كالمعتاد فى حـــالة طيبة ، اذ حصل كل منهما على الدرجة

النهائية • وكان يساورني شعور سابق بالخيبة عندما استدعيت مع ايكونين الى المنضدة الصغيرة حيث نواجه الأستاذ جالساً وحده تماما • كان رجلا صغيرا نحيلا أصفر البشرة ذا شعر زيتي اللون وتقاسيم تدل على شدة التفكير •

وناول ايكونين مجلداً يضم خطب شيشرون وجعله يترجم •

والشيء الذى أدهشني أن ايكونين لم يكن يقرأ وحسب ، بل ترجم عدة سطور بمعاونة الأستاذ • ولشعورى بتفوقى على مثل هذا المنافس الضعيف لم أستطع مقاومة الضحك بازدراء الى حد ما عندما جاء سؤال الاعراب وغرق ايكونين كما حدث من قبل فى صمت عنيد • وأردت ارضاء الأستاذ بتلك الابتسامة الذكية ذات التهكم الطفيف ، ولكنها أحدثت عكس التأثير •

وقال لى الأستاذ بلغة روسية رديئة : « يبدو أنك تعرف خيراً منه مادمت تبتسم ••• حسن ، سنرى • أذكر لى الاجابة اذن » •

وعرفت بعدئذ أن أستاذ اللاتينى كان معاوناً لايكونين ، بل ان ايكونين كان يعيش فى بيته ؛ ولم أضيع وقتا فى الاجابة عن سؤال الاعراب الذى وجه لايكونين ، ولكن الأستاذ تظاهر بالكدر وأشاح بوجهه عنى •

وقال دون أن ينظر الى : « حسن جداً ياسيدى ، سيأتى

دورك ، وسنعرف مدى علمك » ثم أخذ يشرح لايكونين موضوع سؤاله •

وقال له : « يمكنك أن تنصرف » • ورأيته يضع فى سجله أربع درجات لايكونين ، وقلت فى نفسى : « حســـن ، انه ليس بالدقة التى تحدثوا عنها » • وبعد مغادرة ايكونين ، بما لا يقل عن خمس دقائق ـ خلتها خمس ساعات ـ رتب كتبه وبطاقاته ، واعتدل فى مقعده ذى المساند ، واضطجع فيه ، وتطلع فيما حوله بالحجرة وفى كل ناحية الا ناحيتى ، ولكن كل هذا التصنع لم يكن كافيا فى نظره ، ففتح كتابا وتظاهر بقراءته كأننى غير موجود ، فاقتربت منه وسعلت •

فقال وهو يناولنى كتاباً : « آه ، حقاً ! وأنت أيضاً بالطبع •• ترجم شيئا من هذا » ثم قلب صفحات من نسخة لهوراس وفتحه عند قطعة خيل الى أن أحـــداً لم يستطع ترجمتها وقال : « لا ، الأفضل أن تأخذ هذا » •

فقلت له : « اننى لم أستعد لهذا » •

وأنت تريد أن تلقى ماحفظته عن ظهر قلب ، أليس كذلك ؟ حسن جدا ! لا ، ترجم هذا » •

حاولت أن أصل الى المعنى بصورة ما ، ولكن الأستاذ كان يهز رأسه وحسب عند كل نظرة استفسار ، ويكتفى بكلمة « لا »

مع التأوه • وأخيرا أقفل كتابه بسرعة عصبية بالغة حتى لقد ضغط على أصابعه بين الأوراق وجذبها غاضبا ، ووجه الى سؤالا فى قواعد اللغة واضطجع فى مقعده ، واستمر فى صمته المتعمد • وكنت على وشك الاجابة ، ولكن تعبير وجهه ألجم لسانى ، وخيل لى أن كل شىء قلته كان خاطئا •

وانفجر فجأة يقول بطريقة نطقه الفظيعة وهو يغير من وضعه بخفة ، ويتكىء بمرفقيه على المنضـــدة ، ويلعب بالخـاتم الذهبى الواسع المعلق بأصبع نحيلة بيده اليسرى : « ليس كذلك !! ليس كذلك مطلقاً ••• ليست هذه طريقة الاستعداد لمؤسسة تعليم عـال ياسـيدى •• ان كل ماتطلبونه هو ارتداء الزى الرســمى بنيقته الزرقاء ، والحصول على خليط من المعرفة ، وتظنون أنكم تسمون طلبة ••• لا يا سـادة ، يجب أن تتثبتوا من موضـوعكم » وهكذا وهكذا ••

وابان هذا الحديث كله الذى كان يقوله بلغة مهلهلة ، كنت أتفرس بانتباه متبلد فى عينيه المثبتتين على الأرض • كان انقشـاع الوهم فى حصولى على المركز الثـــالث يعذبنى فى أول الأمر ، ثم أصبح الخوف من عدم نجاحى البتة فى الامتحان ، وأخيراً أضيف شعورى بالظلم ، وبكبريائى المجروح وبالاذلال دون مبرر ؛ يضاف الى ذلك ، احتقارى للأستاذ لأنه فى رأيى لم يكن رجلا « كما ينبغى أن يكون » ، وهو الشىء الذى فطنت له عند رؤيتى أظافره القصيرة

القـوية المستديرة ـ كل ذلك أثر فى نفسى كثـيرا حتى الآن ، وأفسد كل هذه المشاعر ، ورمقنى بنظرة ، وعنـدما شاهد شفتى المختلجتين ، وعينى تفيضـان بالدموع ، لابد أنه فسر انفعالى الى التماس لرفع درجتى ، قال كأنه يرأف بحـالى (قبل أن يحضر أيضا أستاذ آخر ، كان مقبلا علينا) :

« حسن جداً يا سيدى ، بالرغم من أنك لا تستحق فسأمنحك درجة النجاح ، تقديرا لحداثة سنك ، وعلى أمل ألا تكون متهورا الى هذا الحد فى الجامعة » .

وهذه العبارة الأخيرة التى قيلت فى حضور الاستاذ الأجنبى الذى نظر الى كأنه يقول : « أترى أيها الشاب ! » أكملت ارتباكى ، وأسدلت على عينى غشاء من الضباب لحظة واحدة ، فخيل الى أن الاستاذ المخيف بمنضدته ، كان جالسا على مسافة بعيدة ، وساورتنى فكرة طارئة وضحت من جانب واحد وضوحاً شديداً : « ماذا لو ـ ماذا يحدث لو ؟ » ولكننى لم أفعل شيئا لسبب ما ؟ بل على العكس ، انحنيت للأستاذين بطريقة آلية ومجاملة خاصة . وغادرت المنضدة وأنا أبتسم ابتسامة خفيفة ، هى نفس الابتسامة التى كان ايكونين قد أبداها .

لقد أثر فى هذا الظلم تأثيرا قويا فى ذلك الوقت ، حتى أننى لو كنت سيد نفسى ، لما اشتركت فى امتحانات بعد ذلك . وفقدت

وهمى (مادمت لم أستطع أن أكون الثالث) وتركت الامتحانات الباقية تمر دون أى اجهاد ، بل دون قلق من جانبى ، ومع ذلك فقد كان مستواى بعـــد الرابع بقليل ، ولكننى لم أهتم بذلك على الأقل • وفكرت ، وأثبت لنفسى فى وضوح تام ، أن من خطل الرأى أن يحاول الانسان أن يكون الأول ، وأنه ينبغى ألا يكون حسناً جداً ولا رديئاً جداً ، مثل فولوديا • وقصدت أن أحافظ على ذلك فى الجامعة وان كنت قد اختلفت فى هذه النقطة لأول مرة عن صديقى دمترى •

ان كل ماكنت أفكر فيه هو حلتى الرســمية ، وقبعتى المثلثة الزوايا ، وعربتى الخاصة ، وحجرتى الخاصــة ، وفوق هذا كله استقلالى •

(٦٨)

مرحلة الرشد

وحتى هذه الأفكار كان لها سحرها •

عند عودتى من آخر امتحان فى المعلومات الدينية ، فى الثامن من مايو ، وجدت بالمنزل صبى خياط من محل « رزانوفا » الذى عرفت أنه استدعى لاعداد حلتى الرسمية وسترتى ذات القماش

الأسود اللامع المفتوحة عند العنق ، وكان قد وضع علامات على الثنيات بالطباشير وقد أحضر الآن الحلة كاملة بأزرارها المذهبة اللامعة ملفوفة بالورق •

وارتديت الحلة ، وأظنها كانت أنيقة جدا ، (وان كان سان جيروم قد قرر أنها واسعة من الخلف) • وهبطت الى الطابق السفلى بابتسامة الرضاء عن نفسى التى شملت كل وجهى دون أية رغبة منى ، حيث وجدت فولوديا • كنت شاعراً بالنظرات المتحمسة التى كان يصوبها الى الخدم من حجرة الانتظار والدهليز ، ومع ذلك تظاهرت بعدم الانتباه اليها • ولحق بى رئيس الخدم جافريلو فى القاعة فهنأنى على دخولى الجامعة ، وناولنى ، بأمر أبى أربع ورقات من فئة الخمسة والعشرين روبل ، وكذلك بناء على توجيه أبى ، أخبرنى أن الحوذى كوزما ، والدروشكى ، والحصان البنى «بيوتى» تحت تصرفى التام منذ اليوم وقد ابتهجت أيما ابتهاج لهذه السعادة التى لم تكن متوقعة تقريبا ، حتى أننى لم أستطع تجاهلها أمام جافريلو ، فقلت فى شيء من الارتباك واللهفة أول شيء خطر على ذهنى ، وهو أن « بيوتى » بديع جداً فى الركض • ولدى رؤيتى الرءوس المطلة من الأبواب المؤدية الى حجرة الانتظار والدهليز لم أستطع ضبط نفسى ، واندفعت مجتازا القاعة فى سترتى ذات الأزرار النحاسية اللامعة • وبينما كنت أدخل حجرة فولوديا سمعت أصوات دوبكوف ونخليودوف اللذين قدما لتهنئتى وليقترحا أن نذهب الى

مكان ما لتناول الغداء وشرب الشمبانيا تكريما لمناسبة دخولى الجامعة. وأخبرنى دمترى أنه بالرغم من عدم اهتمامه بشرب الشمبانيا ، فانه سيذهب معنا فى ذلك اليوم لكى يشرب معى تذكارا لبداية صداقتنا . وقرر دوبكوف أننى أشبه عقيداً (أميرالاى) بوجه ما . ولم يهنئنى فولوديا بل قال لى فقط ، وفى كثير من الخشونة اننا الآن نستطيع الذهاب الى الريف بعد غد ، ويخيل الى أنه فى الوقت الذى فرح فيه لدخولى الجامعة ، لم يسره كثيراً أننى أصبحت الآن راشداً مثله تماما .

وقال سان جيروم الذى كان قد وصل كذلك الى البيت لساعته ، فى لهجة متعالية ان واجباته قد انتهت الآن ، ولا يعرف ان كان قد أداها على وجه حسن أم سىء ، ولكنه قد فعل كل مايستطيع ، ويجب أن يذهب الى صاحبه الكونت فى اليوم التالى . ورداً على كل ماقيل لى ، شعرت بابتسامة معسولة سعيدة ، بل ابتسامة رضاء ذاتى حمقاء تداعب وجهى رغماً عنى ، وأدركت أن هذه الابتسامة كانت تنتقل الى جميع من تحدثوا معى .

هأنذا أصبحت بدون مدرس خاص ، ولدى دروشكى خاصة بى ، وأدرج اسمى فى سجل الطلبة ، وعندى خنجر فى حزامى ؛ وقد يحيينى الحارس أحيانا ، لقد أصبحت راشدا وسعيدا فيما كنت أظن .

قررنا تناول الغداء بمطعم « يار » فى الساعة الخامسة ، ولكن

بينمـا انصرف فولوديا مع دوبكوف ، واختفى دمترى أيضاً فى مكان ما كعادته قائلا ان لديه عملا سيعنى به قبل الغداء ، كان فى استطاعتى التصرف فى ساعتين كما يحلو لى ، وتجولت فى جميع الحجرات برهة طويلة ، أشاهد نفسى فى جميع المرايا ، مرة بسترتى مزررة ومرة مفكوكة الأزرار ، ومرة مشبوكة بالزر العلوى فقط ، وكانت تبدو رائعة فى نظرى فى جميع الأحوال ، وحينئذ اعترانى الخجل لفرط ما أظهرت من مرح ، ولم أستطع الامتناع عن الذهاب الى الاسطبل، وحظيرة العربة لأعاين «بيوتى» وكوزما والدروشكى، ثم رجعت وأخذت أطوف بالحجرات مرة أخرى أتطلع الى المرايا ، وأعد النقود التى فى جيبى ، وابتسم بنفس المزاج المنبسط طوال الوقت • ولكن قبل أن تمضى ســاعة شعرت بالضيق نوعاً ما ، أو بالأسف لعدم وجود أحد يرانى فى هذه الحالة التى تبهر العيون ، واشتقت الى الحركة والنشــاط • وأمرت نتيجـة لذلك باحضـار الدروشكى وقررت أن أفضل ما أفعله هو الذهاب الى « كوزنتسكى موست » لشراء بعض الأشياء •

تذكرت أن فولوديا عندما دخل الجامعة اشترى لنفسه صورة « جياد فيكتور آدم » مطبوعة بالحجر وبعض التبغ ، وغليونا ؟ وخيل الى أنه لا مفر من أن أفعل مثله •

ركبت الى كوزنتسكى موست ، وتلفتت الى الأنظار من جميع الجهات ، وضوء الشمس يلمع على أزرارى وعلى الشارة ، فى قبعتى

وعلى خنجرى ، ووقفت بالقرب من متجر صور داتسيارو وتلفت حولى ودخلت • لم أرغب فى شراء صورة جياد فيكتور آدم خشية أن أتهم بتقليد فولوديا • ولشدة رغبتى فى الاسراع بالاختيار قدر ما أستطيع ؛ وبسبب خجلى مما سببته من عناء للبائع ، اشتريت صورة بالألوان المائية لرأس امرأة تطل من النافذة ، ودفعت عشرين روبل ثمنا لها • ولكنى بعد أن صرفت عشرين روبل شعرت بتعذيب الضمير لما سببته لبائعين حسنى الهندام من متاعب لأجل شراء أشياء تافهة كهذه ، ومع ذلك خيل الى أنهما ينظران الى عفوا وبمحض المصادفة ، ولكنى أريهما أى نوع من الرجال أنا ، وجهت انتباهى الى قطعة فضية صغيرة موضوعة تحت زجاجة ، وعرفت أنها يد قلم ثمنها ثمانية عشر روبل فأمرت بلفها ، ودفعت ثمنها • وعرفت أيضا أن الغلايين الجيدة والتبغ الفاخر توجد بمتجر التبغ المجاور ، فانحنيت بأدب للبائعين وسرت فى الشارع بصورتى تحت ذراعى • وفى المتجر المجاور الذى توجد على لافتته صورة زنجى يدخن سيجارا ، اشتريت التبغ السلطانى لا تبغ روكوف وذلك أيضاً لعدم رغبتى فى تقليد أى شخص ، وغليونا تركياً وقصبتين للتدخين احداهما من خشب الزيزفون والأخرى من خشب الورد ، وعند مغادرتى المتجر فى طريقى الى الدروشكى ، رأيت سيمنوف يسير بخطوات واسعة فى الطريق الجانبية مرتديا ملابس مدنية ، مطأطأ الرأس ، وقد تكدرت لأنه لم يعرفنى • فقلت فى صوت مرتفع تماما « هيا أسرع بالمسير ! » وجلست فى الدروشكى ولحقت بسيمنوف •

قلت له : « كيف حالك ؟ »

فأجاب وهو يتابع سيره : « أقدم احترامى »

وسألته : « لماذا لا ترتدى حلتك الرسمية ؟ »

وتوقف سيمنوف ، وزر عينيه وكشف عن أسنانه كأن رؤية الشمس تؤذيه ، ولكنه كان فى الواقع يعبر عن عدم اهتمامه بالدروشكى وبحلتى الرسمية • وتفرس فى وجهى وتابع سيره •

ومن كوزنتسكى موست ، سرت الى محل للحلوى عند تفرسكايا ، ومع أننى حاولت التظاهر بأن الصحف التى فى المحل هى التى تهمنى قبل كل شىء ، فاننى لم أستطع كبح جماح نفسى ، وأخذت فى التهام الكعك ، الواحدة بعد الأخرى • وبالرغم من الخجل الذى شعرت به أمام بعض السادة الذين كانوا ينظرون الى فى دهشة من وراء صحفهم ، فقد أكلت ثمان كعكات من جميع الأصناف الموجودة بالمحل ، وبسرعة كبيرة جداً •

وعند وصولى الى المنزل شعرت بقليل من عسر الهضم ، ولكنى لم أعر ذلك التفاتاً وشغلت نفسى بفحص مشترياتى • أما الصورة ، فلم يقتصر الأمر على أنها لم ترقنى بحيث أصنع لها اطارا وأعلقها فى حجرتى كما فعل فولوديا ، بل أخفيتها فى درج حيث لا يراها أحد ؛ ولم ترقنى كذلك يد القلم فى المنزل ، فوضعتها على المنضدة معزيا نفسى بأنها مصنوعة من الفضة ، فهى ذات قيمة وذات فائدة قصوى للطالب •

أما عن الأشياء الخاصة بالتدخين ، فقد صممت على استعمالها مباشرة وتجربتها •

وما أن فضضت حزمة تزن نصف رطل وملأت غليونى التركى بعناية بشرائح التبغ السلطانى الأصفر الضارب الى الحمرة ، ووضعت عليها قطعة مشتعلة من الفحم حتى تناولت واحدة من قصبتى غليونى بين أصبعى الثالث والرابع (الوضع الذى يروقنى الى أبعد حد) ثم بدأت فى التدخين •

كانت رائحة التبغ مقبولة جداً ولكن طعمه كان لاذعاً ، وقطع التدخين أنفاسى ، ومع ذلك عكفت عليه مدة طويلة ، أشهق الدخان وأحاول أن أنفثه فى دوائر ، وسرعان ما امتلأت الحجرة بأكملها بسحب من الدخان الأزرق •ثم أخذ الغليون يبقبق والدخان الساخن يتطاير ، وشعرت بمرارة فى فمى ودوار خفيف فى رأسى ••• حاولت النهوض والتطلع الى وجهى فى المرآة مع غليونى ؛ وقد أدهشنى أننى أخذت أترنح ، وتدور بى الحجرة ، وبينما كنت أتطلع الى المرآة التى وصلت اليها بصعوبة رأيت وجهى أبيض كصحيفة الورق ، وما كدت أنجح فى الارتماء على الأريكة ، حتى شعرت بمرض وهزال جعلانى أتخيل أن الغليون كان شؤما علىّ ، وظننت أننى موشك على الموت • لقد خفت حقيقة ، ورغبت فى طلب المعونة واستدعاء الطبيب •

ولكن هذا الفزع لم يدم طويلا ، فقد عرفت بسرعة موضع

التعب ، ورقدت وقتا طويلا على الأريكة ، هزيلا أشعر بألم فظيع فى رأسى ، وأتطلع بغباء الى شعار بوستانزوجولو الدال على النبالة المرسوم على حزمة ربع الرطل ، والى الغليون ، وبقايا كعك بائع الحلوى التى تتدحـــرج على الأرض ، وقلت فى نفسى وأنا أفكر باكتئاب : « اننى لم أنضج بالتأكيد حتى الآن ما دمت لم أستطع أن أدخن كالآخـرين ، وواضح أنه ليس من المقـدر لى أن أمســك بغليونى بين أصبعى الوسطى والثالث ، وأن أبتلع الدخان وأنفثه من تحت شاربى الأشقر » •

وعندما سأل عنى دمترى فى الساعة الخامسة وجدنى على هذه الحالة المؤسفة ، ولكنى بعد أن شربت كوباً من الماء أصبحت بحالة طيبة تقريبا ، مستعدا للذهاب معه •

وقال وهو يتفرس فى بقايا تدخينى « من أغراك بالتدخين ، انه عبث فى عبث ، ومضيعة للمال دون فائدة ، لقد عاهدت نفسى ألا أدخن أبداً • ولكن هيا ، أسرع ـ علينا أن نستدعى دوبكوف •

(٦٩)

كيف كان فولوديا ودوبكوف يشغلان نفسيهما ؟

حالما دخل دمترى الحجرة عرفت من وجهه ومن مشيته ، ومن حركة خاصة به عندما يكون منحـرف المزاج ـ وهى غمزة بعينيه

وطريقة مضحكة يهز بها رأسه الى أحد الجانبين ـ أنه في الحالة النفسية المستعصية الفاترة التي كانت تتسلط عليه عندما يكون غير راض عن نفسه ، وهي الحالة التي كانت ترطب شعوري نحوه على الدوام • وكنت قد بدأت ألاحظ أخيرا وأحكم على أخلاق صديقي، ولكن صداقتنا لم يعتورها أي تغير نتيجة لذلك ، بل كانت لاتزال من الشباب والقوة ، بحيث كنت من أي جانب أنظر الى دمترى ، لا أرى فيه الا الكمال • لقد كان ينطوى على رجلين ، كل منهما في نظرى بالغ الرقة ، أحدهما الذي أحببته أشد الحب ، كريم طيب ، رقيق مرح ، شاعر بهذه الصفات الحميدة • فهو اذا ما كان معتدل المزاج يبدو كل مظهره ، وجرس صوته ، وكل حركة فيه كأنها تقول : « انني لطيف وصالح ، وانني لأتمتع بلطفي وصلاحي كما ترون جميعا » • أما الرجل الآخر ـ فقد بدأت الآن فقط في ادراكه ، وفي الانحناء أمام عظمته ـ فكان فاتراً جافاً نحو نفسه ونحو الآخرين ، متديناً الى حد التعصب ، متحذلقا في الأخلاقيات• وفي هذه الآونة الحاضرة ، كان الرجل الثاني •

ومع الصراحة التي نظمت حالة علاقاتنا الضرورية قلت له حين كنا في الدروشكي ، انني تألمت وحزنت لرؤيتي اياه في مثل هذه الحالة النفسية الكئيبة الكريهة في يوم سعيد كهذا بالنسبة الى•

وسألته : « لابد أن شيئا ما قد أزعجك ، لماذا لم تخبرني ؟ »

فأجاب بترو وقد أدار رأسه في توتر الى جهة واحدة

وارتعشت وجنتاه : « ما دمت قد عاهدتك يانيكولنكا ألا أخفى عنك أى شىء ، فليس هناك مبرر لكى تشك فى كتمانى ، ومن المحال أن أكون دائما فى نفس الحالة النفسية ، ولو كان هناك ما أزعجنى ، فانى لا أستطيع حتى أن أعلله لنفسى » .

وقلت فى نفسى : « ياله من خلق صريح نبيـــل يدعـو الى الدهشة ! » ولم أقل له شيئا أكثر من ذلك .

وقطعنا بقية الطريق الى بيت دوبكوف صامتين . كان مسكن دوبكوف لطيفا بدرجة ملحوظة ، أو خيل الى أنه كذلك حينئذ . كانت هناك سجاجيد وصـــور وأستار ، ومعلقات ملونة وصور ، ومقاعد ذات مســـاند مقوسة فى كل مكان ، معلقة على الجدران ، بنادق وغدارات ، وأكياس تبغ ؛ وفى خزانة بعض رءوس حيوانات متوحشة . وقد نبهـــنى منظر هذا المكتب الى الشخص الذى كان فولوديا يقلده فى تزيين حجرته الخاصة . ووجدنا فولوديا ودوبكوف يلعبان الورق . وكان يجلس الى المائدة يشاهد اللعب بانتباه كبير ، سيد لم أعرفه من قبل (وهو لابد أن يكون قليل الأهمية اذا حكمنا عليه من هيئته المتواضعة) . وكان دوبكوف يرتدى عباءة حريرية وخفاً رقيقاً . وكان فولوديا يجلس أمامه على الأريكة خالعاً سترته ؛ وقد حكمت على استغراقه فى اللعب الى أقصى حد ، من تورد وجهه ونظرته المتبرمة الخاطفة التى ألقاها علينا من فوق الأوراق . وعندما رآنى ازداد وجهه احمراراً .

وقال لدوبكوف : « تعال ، لقد جـــاء دورك فى التوزيع »

ورأيت أنه امتعض لأننى عرفت أنه يلعب الورق ، ولكنه لم يكن فى نظرته ارتباك ملموس حتى لكأنه يقول لى : « نعم ، اننى ألعب وأن الذى يدهشك فقط هو أنك لا تزال صـغيراً ، وليس فى هذا خطأ ـ بل انه ضرورى فى سننا » .

لقد شعرت بهذا مباشرة وفهمته .

ومع ذلك فان دوبكوف نهض بدلا من التوزيع ، فسلم علينا وأجلسنا على المقاعد ، وقدم لنا الغلايين التى انصرفنا عنها .

وقال ديبكوف : هـــاهو ذا صاحبنا الدبلوماسى اذن ـ بطل اليوم ؟ انك لتبدو بحق السماء مثل العقيد » .

وغمغمت ، عندما شعرت بتلك الابتســـامة الخرقاء ، ابتسامة الرضا عن النفس تنتشر على وجهى .

وتهيبت دوبكوف ذلك التهيب الذى لا يشعر به غير صبى لم يتجاوز السادسة عشرة نحو ضابط اتصال فى السابعة والعشرين يقول عنه كل من يكبرونه سنا أنه شاب لطيف جدا ، يرقص ويتكلم الفرنسية ؟ وان كان يستخف بحـداثتى سراً ، فمن الواضح أنه يكافح فى سبيل اخفاء الحقيقة .

ولكن بالرغم من كل احترامى له ، فيعلم الله أننى كنت ابان فترة تعارفنا كلها ، أجد دائما أن التحديق فى وجهه صعبا ومدعاة للحرج . وقد لاحظت منذ ذلك الحين أن هناك ثلاث فئات من الناس

يصعب على النظر اليهم وجها لوجه ـ أولئك الذين هم أسوأ منى حالا ، وأولئك الذين يفضلوننى قدرا ، وأولئك الذين لا أستطيع أن أفكر حين أكون معهم أن أذكر أشياء نعرفها على السواء ولا يذكرونها لى هم • ولا أعرف ما اذا كان دوبكوف أحسن أو أسوأ منى ، ولكنى كنت متأكداً من شيء واحد ، هو أنه كان يكذب فى كثير من الأحيان دون أن يعرف بذلك ؛ ولاحظت فيه هذا الضعف بطبيعة الحال ، ولكنى لم أتحدث عنه مطلقا •

وقال فولوديا وهو يهز أحد كتفيه مثل أبى ويخلط الورق : « فلنلعب دوراً آخر » •

وقال دوبكوف : « لا نستطيع أن نفلت منه !! سننتهى منها بعد قليل ، آه ، حسن ، دورة واحدة ، عليك توزيع الورق » •

وبينما كانوا يلعبون كنت أراقب أيديهم • كانت يد فولوديا ضخمة جميلة ، يرفع ابهامه وحده ويثنى الأصابع الأخرى عندما يمسك أوراقه بطريقة كثيرة الشبه جدا بطريقة أبى ، حتى لقد خيل الى مرة أن فولوديا رفع يديه بهذه الطريقة لكى يبدو أكثر شبها بالكبار ، ولكنه فى اللحظة التالية ، حين تفرست فى وجهه رأيت أنه لم يفكر فى شيء قط الا اللعب • وكانت يدا دوبكوف على العكس صغيرتين ممتلئتين ، مطبقتين ، أصابعهما بالغة النعومة والمهارة، تماما كالأيدى التى تلائم الخواتم ، والتى يمتاز بها الناس الذين يميلون الى الأشغال اليدوية ، ويغرمون باقتناء الأشياء الجميلة •

لابد أن يكون فولوديا قد خسر ، لأن السيد الذى كان ينظر من فوق أوراقه لاحظ أن فلاديمير بتروفتش كان حظه سيئا للغاية ؛ وأخرج دوبكوف دفتر الجيب ، وسجل فيه شيئا ما وقال وهو يطلع فولوديا على ماكتبه ، « أحقيقة ؟ » .

وقال فولوديا وهو يتفرس فى دفتر الجيب فى شرود ذهن مصطنع : « نعم ، ولنذهب الآن » .

وحث فولوديا ، دوبكوف على المسير ، وأخذنى دمترى فى مركبته المكشوفة .

واستفسرت من دمترى قائلا : « ماذا كانوا يلعبون ؟ » .

« لعبة الأثنتين وثلاثين ورقة ، وهى لعبة سخيفة ، ولعب القمار شىء سخيف على أى حال » .

« هل يلعبون بمبالغ كبيرة ؟ » .

« ليست كبيرة جدا ، ولكنه خطأ على السواء » .

« وهل لا تلعب أنت ؟ » .

لا ، لقد تعهدت ألا ألعب ، ولكن دوبكوف لا يمكنه تجنب اللعب مع أى شخص يستطيع أن يتشبث به ، وهو يكسب فى غالب الأحيان » .

وقلت : « ولكن هذا ليس صوابا من جانبه ، فمن المحتمل أن فولوديا لا يجيد اللعب مثله » .

انه ليس صوابا بطبيعة الحال ، ولكن ليس هناك مايشينه خاصة؛ ودوبكوف يحب الورق ، ويجيد اللعب ، ولكنه مع ذلك شــخص ممتاز » •

قلت : « حسن ، انني خالى الذهن » •

يجب ألا تظن به السوء ، لأنه فى الواقع رجل لطيف جدا ، وأنا أحبه كثيرا جدا ، وسأحبه دائما بالرغم من سخافاته •

وخيل الى بسبب دفاع دمترى عن دوبكوف بهـــذه الحماسة الشديدة ، لغرض ما ، أنه لم يعد يحبه أو يحترمه ، ولكنه لا يعترف بذلك ، بسبب عناده ، ولكى لا يعيب عليه أحد تقلب رأيه ، فقد كان من أولئك الذين يحبون أصدقاءهم مدى الحيـاة ، لا لأن هؤلاء لا يزالون أعزاء عندهم وحسب ، ولكن لأنهم اذا ما أحبوا شخصاً مرة ولو عن طريق الخطأ ، فانهم يعتبرون انهـاء حبهم له مجافيـا للشرف •

(٧٠)

الاحتفال بالنجاح

كان دوبكوف وفولوديا يعرفان جميع الناس الذين فى مطعم « يار » بأسمائهم ، ويبدى لهما كل شخص ، من البواب الى المالك أعظم احترام • وقادونا مباشرة الى حجرة خاصة وقدموا لنا غداء

فاخراً اختاره دوبكوف من ألوان الأطعمة الفرنسية : أعدت زجاجة من الشمبانيا الباردة التى حاولت قدر طاقتى النظر اليها بأقل اهتمام ، وانقضت فترة الغداء فى سرور ومرح بالرغم من أن دوبكوف كان يروى أغرب الأحداث المشكوك فى صحتها ـ بين الآخرين ـ وكيف أن جدته أطلقت النار من بندقية قصيرة على ثلاثة لصوص هاجموها (وعند ذلك أرخيت عينى ، وحولت عنه وجهى) ـ وبالرغم من أن فولوديا كان يبدو عليه خوف واضح كلما فتحت فمى (ولم يكن لهذا أية ضرورة لأننى لم أقل أى شىء بسبب الخجل خاصة ، على قدر ما أتذكر) • وعندما قدمت الشمبانيا هنأنى الجميع وشربت « والأيدى متصالبة » مع دوبكوف ودمترى ، وتبادلت معهم القبلات التى استطعنا بعدها مخاطبة أحدنا للآخر بالضمير « أنت » • ولما كنت لا أعرف من هو صاحب زجاجة الشمبانيا (فقد كانت مشاعاً بين الجميع كما قالوا لى فيما بعد) ، وأردت الاحتفاء بأصدقائى من مالى الخاص الذى ظللت أتحسسه بأصابعى فى جيبى ، وأخرجت خلسة ورقة من ذات العشرة روبلات ، وناديت النادل ، وأعطيتها له ، وقلت له هامساً ، ولكن بصوت سمح للجميع بسماعه ، بأن يتفضل باحضار نصف زجاجة أخرى من الشمبانيا • واحمر وجه فولوديا وأخذ يهز كتفه بشدة وينظر الى والى الآخرين فى رعب شعرت معه أننى لابد أن أكون قد ارتكبت خطأ ؛ بالرغم من أن الزجاجة أحضرت وشربناها فى انبساط عظيم • وخيل الى أن الأمور ستسير فى مرح • كان دوبكوف يكذب دون انقطاع ، وكان فولوديا أيضا يروى

حكايات مضحكة جدا بطريقة لم أكن أعتقد أنه يتقنها ، وضحكنا كثيراً جداً • ان طبيعة ملحهما ـ أي ملحة دوبكوف وفولوديا ـ تتكون من التقليد والمبالغة لقصة مشهورة جدا : يقول واحد : « حسن ، هل كنت بالخارج ؟ » ويجيب الآخر : « ولكن أخي يعزف على الكمنجة » وكانا يتقنان مثل هذا النوع من اللغو المضحك واستطاعا أن يقصا هذه الحكاية الآتية : « ان أخي لم يعزف على الكمنجة كذلك هو الآخر » وكان كل منهم يجيب على أسئلة الآخر على هذا النحو • وكانا يحاولان أحيانا دون أسئلة ربط شيئين متنافرين ـ وكانا يقولان هذا اللغو بوجوه جادة ـ وثبت أنها مضحكة الى أبعد حد • وبدأت أفهم الفكرة ، وحاولت كذلك قول شيء مضحك ، ولكن بدا عليهم جميعاً الخوف ، أو حاولوا عدم النظر الى أثناء كلامي ، ولم تكن قصتي ناجحة • وقال دوبكوف : « انها غليظة أكثر من اللازم أيها الدبلوماسي العزيز » ، ولكنى شعرت أننى على خير حال لما شربته من الشمبانيا ، وفي صحبة هؤلاء الكبار ، حتى أن هذه الملاحظة لم تجرح شعوري البتة• ومع أن دمتري وحده هو الذي شرب معنا بالتساوي ، فقد استمر على حالته الهادئة الجادة مما أدى الى شيء من كبح المرح العام •

وقال دوبكوف : « والآن ، أصغوا أيها السادة ، يجب أن نتكفل بالدبلوماسي بعد الغداء ، فلنفرض أننا ذاهبون الى منزل عمتنا ؟ فسيهيىء له الراحة بسرعة هناك » •

وقال فولوديا : « لن يذهب نخليودوف » .

وقال دوبكوف وهو يلتفت اليه : « الساذج الذى لا يحتمل ! انك ساذج غير محتمل ! تعال معنا ، وسترى أية سيدة ساحرة هذه العمة » .

وأجاب دمترى وقد احمر وجهه خجلا : « اننى لن أذهب بالتأكيد ، وأكثر من هذا لن أسمح له أيضاً » .

« من ؟ الدبلوماسى ؟ أتريد الذهاب أيها الدبلوماسى ؟ لماذا ، أنظروا لقد تألق كله حالما ذكرنا العمة » .

وتابع دمترى حديثه وهو ينهض من مقعده ويأخذ فى ذرع الحجرة دون أن ينظر الى : « لست أقصد أننى لن أدعه يذهب، انه لم يعد طفلا ، فاذا كان يريد ، فانه يستطيع الذهاب وحده . ان ماتفعله يادوبكوف ليس صوابا ، وتريد الآخرين ان يفعلوه » .

وسأله دوبكوف وهو يغمز فولوديا : « وما الضرر اذا دعوتكم جميعاً الى منزل عمتى لتناول فنجاناً من الشاى ؟ حسن ، اذا كان لا يلائمكما أن تذهبا معنا ، فسنذهب ، فولوديا وأنا ، هل ستأتى يافولوديا ؟ » .

وأجاب فولوديا بالايجاب : « سنذهب الى هناك ثم نأتى الى مسكنى ونستمر فى لعبة الاثنتين والثلاثين ورقة » .

وقال دمترى وهو مقبل على : « حسن ، هل تريد الذهاب معهم أم لا ؟ » .

وأجبت وأنا أتحرك لأفسح له مكانا بجانبى على الأريكة : « لا ، لا أريد الذهاب بحال من الأحوال ، ولو لم تنصحنى بعدم الذهاب لما ذهبت لأى داع » .

وأضفت بعد ذلك : « لا ، لا أستطيع أن أقول صادقاً اننى لا أحب الذهاب معهم ، ولكنى سعيد لأننى سوف لا أذهب » .

فأجاب : «هذا صـواب ، يجب أن تعيش بطريقتك الخاصة ، ولا ترقص لأى زمار ، هذه أمثل الطرق » .

ولم تفشل هذه المناقشة فى تعكير سرورنا وحسب ، بل زادته قوة . وراح دمترى لتوه فى حالته المعنوية التى أحببتها فيه أكثر من كل شيء ـ فلقد كان لشعوره بالعمل الطيب تأثير عظيم عليه (وهذا ما لاحظته أكثر من مرة فيما بعد) . كان راضياً عن نفسه آنئذ لأنه صدنى عن الذهاب ، وشمله فرح غير عادى ، وطلب زجاجة أخرى من الشمبانيا (وكان ذلك يخالف قواعده) ودعا شخصا غريبا الى الحجرة ، وزوده بكثير من الخمر ، وغنى أغنية «جوديالموس ايجتور» وطلب منا جميعاً الاشتراك فيها ، واقترح أن نركب الى سوكولنيكى التى قال عنها دوبكوف انها شاعرية جداً .

وقال دمترى مبتسما : « فلنمرح فى هذا اليـــوم ؟ وتكريما

لدخوله الجامعة سأشرب لأول مرة ، هل أستطيع أن أمتنع ، أيمكن هذا ؟ » ومن العجيب أن يصبح دمترى فى هذه الحالة من الابتهاج. كان يشبه المعلم الخاص أو الأب الحنون القانع بأطفاله الراغب فى إسعادهم ، والذى يستطيع فى نفس الوقت أن يبتهج بطريقة شريفة محترمة ؛ ومع ذلك يظهر أن هذا الفرح غير المنتظر انتقل الينا بالعدوى ، وبالتالى شرب كل منا نحو نصف زجاجة شمبانيا .

وبهذه الحالة النفسية خرجت الى الحجرة العامة لأدخن السيجارة التى أعطانى اياها دوبكوف .

وعندما نهضت من مقعدى لاحظت أن رأسى يدور قليلا ، وأن قدمى ويدى كانت فى حالة طبيعية ، وذلك حين كنت أركز انتباهى عليها بقوة . أما فيما عدا ذلك فان قدمى كانتا تزحفان الى جانب واحد ، وتشير يداى اشارات مختلفة . وركزت كل انتباهى على أطرافى ، فأمرت يدى أن ترتفعا وتزررا سترتى ، وتصففا شعرى (وفى خلال ذلك كان مرفقاى يهتزان الى أعلى بصورة مخيفة) والى ساقى لكى تحملانى الى الباب ، وقد امتثلتا لهذا الأمر ولكنهما ظلتا مقيدتين ، اما بمشقة كبرى واما فى يسر شديد ، وكانت القدم اليسرى بخاصة تقف على أطراف أصابعها . وناداني شخص ما يسألنى : « الى أين تذهب ؟ انهم سيحضرون مصباحا على التو » وخمنت أنه صوت فولوديا ، وأمدنى تفكيرى فى صواب تخمينى بالرضا ، فكانت اجابتى مجرد ابتسامة ، ثم مضيت فى طريقى .

(٧١)

المشاحنة

كان يجلس الى مائدة صغيرة بالحجرة العامة سيد قصير قوى البنية فى ملابس مدنية ، ذو شارب أحمر يتناول طعامه . وجلس بجانبه رجل طويل أسمر الوجه حليق الشارب ، وكانا يتحدثان بالفرنسية ، وأربكتنى نظراتهما ، ومع ذلك صممت من أجل ذلك أن أشعل سيجارتى من الشمعة القائمة أمامهما ، ونظرت جانباً لأتحاشى نظرتهما ، وقصدت الى المائدة ، ووضعت سيجارتى فى اللهب ، وعندما اشتعلت تقريباً لم أستطع أن أتحاشى التفرس فى السيد الذى كان يتناول الطعام فوجدت عينيه الرماديتين مثبتتين على بامعان واستنكار . وبينما كنت على وشك الانصراف تحرك شاربه الأحمر وقال بالفرنسية : « لا أحب أن يدخن الناس أثناء طعامى ياسيدى العزيز » .

وتمتمت باجابة غير صريحة .

ومضى صاحب الشارب يقول فى اصرار : « لا ياسيدى ، لا أحب هذا » ورمق السيد الحليق الشارب بنظرة سريعة كأنه يدعوه الى استصواب الطريقة التى كان يوشك أن يفصل بها الخلاف معى . وراح يقول : « ولا أحب ياسيدى العزيز الناس الوقحاء ، الذين يأتون لينفخوا دخانهم فى أنف الآخرين ، لا أحبهم البتة » . وفهمت

على التو أن السيد كان ينتهرني ، وخيل الى في باديء الأمر أنني أخطأت خطأ جسيما جداً .

وقلت : « لم أفكر في أن ذلك يقلقك » .

وصاح السيد : « حسن ، ولم تفكر في أنك كنت قليل التربية ، لم تفكر أنت ولكنني فكرت ! » .

وقلت متسائلا ، وقد شعرت أنه يهينني وبدأ يساورني الغضب : « بأي حق تصرخ في بهذا الشكل ؟ » .

لي كل الحق ، فأنا لا أسمح مطلقا لأي شخص أن يكون وقحاً نحوي ، ولسوف ألقن هؤلاء الشبان من أمثالك طريقة سلوكهم . ما اسمك ياسيدي ، وأين تقيم ؟ » .

بلغ بي الغضب أقصاه ، وارتعشت شفتاي ، وأصبح تنفسي لهاثاً ، ومع ذلك شعرت بنوع من الذنب ، ربما يكون السبب هو الكمية الكبيرة التي شربتها من الشمبانيا : لم أقل شيئاً مهيناً للسيد ، بل على العكس نطقت شفتاي باسمي وعنواننا بطريقة بالغة الاستسلام .

وختم حديثه كله الذي جرى بالفرنسية بقوله : « اسمي كوليكوف ، ياسيدي العزيز ، وسوف أضايقك لكي تكون في المستقبل أكثر مجاملة .. وسوف تسمع عن أخباري » .

واقتصرت على قولى : « يسعدنى ذلك » محاولا أن أجعل صوتى حازماً قدر المستطاع ، ثم قفلت راجعاً الى حجرتنا بسجارتى التى كانت السبب فى خروجى •

لم أذكر ماحدث ، لا لأخى أو لصديقى (وبخاصة أنهما كانا مشتركين فى نقاش حام) ولكنى جلست وحدى فى ركن لاتأمل هذا الحادث الغريب • وكانت الكلمات « سيء التربية ياسيدى » ترن فى أذنى وتثير غضبى أكثر وأكثر • وأفقت آنئذ من ثملى تماما ، وفى أثناء تأمل سلوكى فى الموضـــوع ، صدمت بفكرة فظيعة هى أننى تصرفت كجبان : « بأى حق يهـاجمنى ؟ لماذا لم يقل اننى أزعجته وحسب ؟ لابد أنه كان مخطئ ••• ولماذا اذن لم أقل له انك أنت السيىء التربية يا سيدى حين قال لى أننى سيىء التربية ، ومن ذا الذى يسمح لنفسه بالوقاحة : أو لماذا لم أصرخ فى وجهه وحسب : (أمسك لسانك !) لابد أن ذلك خطأ فظيع • لماذا لم ادعه للمبارزة ؟ لا ، لم أفعل شيئا من هذه الأشياء ، بل ابتلعت الاهانة كجبان دنيء » • ورنت فى أذنى دون انقطاع وفى صورة غاضبة عبارة : « انك سيء التربية ، ياســـيدى » فقلت فى نفسى : « لا ، لا أستطيع أن أقف عند هذا الحد » فنهضت فى ثبات مصمما على العودة الى الســـيد ، لأقول له شيئا يفزعه ، ولربما ضربته على أم رأسه بالشمعدان اذا كان هذا مـــلائما • فكرت فى هذا التصميم الأخير بأشد سرور ، ولكن دخولى الحجرة العامة مرة أخرى لم

يكن يخلو من خوف عظيم • ومن حسن الحظ أن كوليكوف لم يكن هناك ، ولكنى وجدت نادلا فقط ينظف المائدة • وأردت أن أخبر النادل بما حدث وأشرح له أننى لم أكن ملوما البتة ، ولكنى غيرت رأيى وعدت ثانية الى حجرتنا فى أسوأ حال من الكآبة •

وقال دوبكوف : « ماذا يضايقك أيها الدبلوماسى ، لعله يقرر الآن مصير أوربا » •

وقلت متجهما وأنا أشيح بوجهى : « آه ، دعنى وحدى » •

وبينما كنت أتجول فى الحجرة ، بدأت أفكر ، لسبب ما ، أن دوبكوف ليس شخصا لطيفا بالمرة ، وأقول فى نفسى : « أما عن حركاته الدائمة ، وتلك التسمية « دبلوماسى » فليس فيها مايستحب، وكل مايصلح له هو كسب المال من فولوديا ، والذهاب الى عمة ما من عمـاته ، وليس فى كل هذا ما يسر • كان كل شىء يقـوله ، اما كذباً ، واما تهكماً ، وكان يضحك دائما على حساب غيره • وقصارى القول كان أحمق ، وخبيثا فوق ذلك » • وقضيت خمس دقائق فى هذه التأملات ، وتزايد شعورى العدائى شيئا فشيئا نحو دوبكوف • أما من جانب دوبكوف ، فانه لم يعرنى أى اهتمام ، وقد أغضبنى هذا كثيرا ، بل غضبت من فولوديا ودمترى لأنهما كانا يتحدثان اليه •

وقال دوبكوف على حين فجأة وهو يرمقنى بنظرة خيل الى

أنها مقرونة بالسخرية ، بل وبابتسامة خبيثة : « أتعرفون ماذا ياسادة ؟ يجب أن نسكب بعض الماء على الدبلوماسى ، انه فى حالة سيئة ، وأقسم بالسماء انه فى حالة سيئة ! » •

فأجبت بابتسامة شريرة » انك بحاجة الى اغراقك لأنك أنت نفسك فى حالة سيئة » •

ورددت الاهانة بابتسامة متخابثة ، بل متناسيا أننى خاطبته بضمير المفرد ، وقلت : « انك بحاجة الى أن تغرق فى الماء ، فأنت نفسك فى حالة سيئة » •

ولابد أن تكون هذه الاجابة قد أذهلت دوبكوف ، ولكنه تحول عنى دون اهتمام ، وتابع حديثه مع فولوديا ودمترى •

كان يمكن أن أحاول الاشتراك مع فولوديا ودمترى ، ولكن شعرت بأننى غير قادر على التظاهر ، فانسحبت الى ركنى حيث مكثت الى أن غادرنا المكان •

وبعد أن دفعنا قائمة الحساب ، وارتدينا معاطفنا قال دوبكوف لدمترى : « حسن الى أين سيذهب أورستس وبلايدس ؟ ربما الى البيت للتحدث عن « الحب » • والآن من الأفضل أن نذهب لزيارة عمتنا العزيزة ، فهى أكثر تسلية من صداقتكم المشاكسة » •

وانفجرت قائلا وأنا أتقدم نحوه مشيرا بيدى : « كيف تجرؤ

على توجيه مثل هذا الحديث الينا وتضحك منا ؟ وكيف تجرؤ على الضحك من مشاعر لا تفهمها ؟ اننى لا أسمح بذلك • أمسك لسانك ! » قلت ذلك بصوت مرتفع ثم رحت فى صمت ، لا أعرف ماذا أقول بعد ذلك وأخذت ألهث من فرط الانفعال • وتراجع دوبكوف الى الوراء فى بادىء الأمر ، ثم حاول أن يبتسم ، ويحمل الأمر محمل المزاح ، ولكنه ارتعد خوفا فى النهاية وغض من بصره، مما دهشت له أشد الدهشة •

وقال مراوغاً : « اننى لا أسخر منكم ولا من مشاعركم أقل سخرية ، انها طريقتى فى الحديث وحسب » •

فصحت قائلا : « يحسن ألا تفعل » ولكنى كنت خجلا فى نفس الوقت من نفسى وآسفا لدوبكوف الذى كشف وجهه الجميل المتعب عن حزن حقيقى •

وسألنى فولوديا ودمترى معاً : « ماذا دهاك ؟ لم يقصد أحد اهانتك » •

« نعم ، انه قصد اهانتى » •

وقال دوبكوف وهو ينصرف حتى لا يسمع ماعساى أقول له : « ان أخاكم سيد متهور » •

كان يمكن أن أندفع وراءه وأقول له أشياء وقحة ، ولكن فى

تلك اللحظة بالضبط ، ناولنى معطفى ذلك النادل الذى كان موجودا أثناء مشكلتى مع كوليكوف • وهدأت ثائرتى على التو ، وتظاهرت فقط بالغضب الشـديد فى حضور دمترى اذ كان لا مفر من ذلك حتى لا يبدو هدوئى المفـاجىء غريبا • وتقابلنا فى اليوم التالى ، دوبكوف وأنا فى حجرة فولوديا ، ولم نشر الى هذا الموضوع ومع ذلك ظل كل منا يخاطب الآخر بضمير المفرد « أنت » ، وكان من العسير علينا أكثر من أى وقت مضى أن يحـدق أحدنا فى وجه الآخر •

ان ذكرى مشاحنتى مع كوليكوف ، الذى لم يدعنى «أسمع منه» فى ذلك اليوم ولا فيما بعد ، ظلت صـعبة الاحتمال شـديدة الوضوح لسنوات عدة ؛ بقيت خمس سنوات كاملة أتلوى وأصرخ كل مرة أتذكر فيها ، تلك الاهانة التى لا تغتفر ، وواسيت نفسى بأن تذكرت وأنا راض عن نفسى كيف كنت شهما فى معاملتى مع دوبكوف فيما بعد • ولم أبدأ التفكـير فى الأمر فى ضوء مختلف كل الاختلاف الا أخيراً جـداً ، فأتذكر مشـاحنتى مع كوليكوف باقتناع ماجن ، وأندم على الجرح الذى أحدثته بغير حق فى ذلك الشخص الطروب الطيب دوبكوف •

عنـدما رويت لدمترى فى نفس ذلك اليوم قصة مقابلتى مع كوليكوف الذى وصفت له شكله بالدقة دهش كثيرا جدا •

وقال : « نعم ، انه هو نفس الشـــخص ، تخيل !! ان ذلك الكولبيكوف وغد معروف جدا ، ومحتال فى لعب الورق ، ولكن أهم من ذلك كله أنه جبان فصل من فرقته العسكرية بواسطة زملائه لأن شخصاً ما لطمـــه على وجهه فلم يقـــاتله ، فمن أين يستمد جسارته ؟ ثم أضاف بابتسامة رقيقة وهو يتفرس فى : « ولذلك لم يقل أى شىء أكثر من « سىء التربية ؟ »

فأجبت : وقد احمر وجهى : « لا » .

وقال دمترى مواسيا : «هذا شىء سىء ، ولكن لم يسبب ضرراً بليغاً » .

وبعد ذلك بمـــدة طويلة فكرت فى هذا الأمر فى هـدوء ، وانتهيت الى أنه من الممكن جـــداً أن يكون كوليكوف اقتنص الفرصة فى حضور ذلك الرجل الحليق الشارب ذى الوجه الأسمر، فأخذ بثأره للصفعة التى تلقاها على وجهه منذ سنوات عدة ، تماما كما ثأرت أنا لنفسى عن عبارة « سىء التربية » التى قالها دوبكوف البرىء .

(٧٢)

كانت أول فكرة طرأت على ذهنى بعد يقظتى فى اليوم التالى هى مغامرتى مع كولبيكوف ، وزمجـرت فى سرى مرة أخـرى

واندفعت نحو الحجرة ، ولكنى لم أستطع عمل شىء ازاءها ، هذا بالاضافة الى أنه كان اليوم الأخير الذى سأقضيه فى موسكو ، وكان على ، تنفيذا لأوامر أبى ، أن أقوم ببعض الزيارات التى اختارها لى هو بنفسه ، لم يكن اهتمام والدى كبيراً بنا فى الناحية الأخلاقية والتعليمية بقدر ماكان من ناحية علاقاتنا الدنيوية ، فكتب على الورقة بخطه السريع المدبب : « (١) زيارة للأمير ايفان ايفانتش ، لابد منها ، (٢) زيارة آل ايفن ، (لابد منها) (٣) زيارة للأمير ميخائيلو (٤) زيارة للأميرة نخليودوفا ومدام فالاخينا (اذا أمكن) ، وبالطبع لولى الأمر والعميد والأساتذة » .

لقد ردنى دمترى عن هذه الزيارات الأخيرة قائلا انها ليست غير ضرورية وحسب ، ولكنها قد تكون غير لائقة ، ولكن جميع الزيارات البـــاقية يجب أن تتم فى ذلك اليوم . وكنت أخشى من القيام بالزيارتين الأولين الموضحتين بعبارة « لابد منها » بنوع خاص . كان الأمير ايفان ايفانتس قائداً عاما ، رجـــلا عجوزا غنيا يعيش وحيداً ؛ ثم أنا ، وكنت طالبا فى الســـادسة عشرة ، مضطراً الى التحدث معه حديثا مباشرا ، وكنت أحس احســـاساً باطنا بأن هذا الحديث ليس فيه مايرضينى . وآل ايفنز كانوا أغنياء كذلك ، وكان والدهم قائداً ذا أهمية لم يزر بيتنا غير مرة واحدة يوم عيد جدتى . وقد لاحظت بعد موت جدتى أن ايفان الصغير كان يتجنبنا ، ويظهر تعاليا . أما الأكبر فقد سمعت أنه أتم دراسة القانون وعين فى سان

بترسبورج ؛ أما الثانى (سيرجى) الذى كنت أهيم به فى وقت ما ، فكان أيضا فى سان بترسبورج ـ تلميذاً ، كبيرا سمينا بالمدرسة الحربية فى « سلاح صغار الفرسان » •

لم أكن فى شبابى أبغض الاختلاط الا بالناس الذين يعتبرون أنفسهم أسمى منى مكانة ؛ لأن هذا الاتصال كان يسبب لى ألما لا يحتمل ، لخوفى الدائم من الاهانة ، ولتوتر جميع وظائفى العقلية لأبرهن لأمثال هؤلاء الناس على استقلالى • ولكن لما كنت سأعصى أوامر والدى الأخيرة ، فقد شعرت أننى يجب أن أيسر الأمور باطاعة أوامره الأولى • وأخذت أذرع حجرتى وأتأمل ملابسى المنشورة على المقاعد ، وخنجرى وقبعتى • وكنت على أهبة الاستعداد حين جاء جراب العجوز لتهنئتى مصطحبا النكا معه • والأب جراب ألمانى المولد روسى الجنسية زلق اللسان متملق ، ويغلب كثيراً أن تسوى حالته بالادمان • وكان يأتى الينا عادة بقصد طلب شىء وحسب ، ومع أن والدى كان يستقبله أحيانا فى مكتبه الا أنه لم يدعه مرة لتناول الطعام معنا • وكان من شأن ضعته والحافه فى التسول وامتزاج هاتين الصفتين بنوع معين من دماثة الخلق الشكلية، ودالته على منزلنا أن ظن الجميع أن هذا يجعله جديرا بالاتصال بنا جميعا ، ولكن لسبب ما لم أحمل له حبا مطلقا ، وحين كان يتكلم كنت أشعر بالخجل من أجله •

امتعضت كثيرا جداً لوصول هذين الضيفين ، ولم أبذل أى جهد لاخفاء امتعاضى • لقد تعودت أن أنظر باحتقار الى النكا ،

وتعودت اعتبار عملنا هذا سليما جدا ، حتى أنه كان من غير المقبول عندى أن يكون طالبا مثلى تماما ، وكان يؤلمنى كذلك خجله بنوع ما من هذه المساواة أثناء وجودى، حييتهما بفتور، ولم أدعهما للجلوس، لأننى خجلت أن أفعل ظناً منى أنهما يستطيعان أن يفعلا ذلك دون دعوة منى ، وأمرت باعداد عربتى ـ كان النكا شابا رقيقا شريفا جدا، وماهرا للغاية ، ومع ذلك كان من النوع الذى يطلق عليه رجلا متقلب الأهواء ، وكانت تتسلط عليه دائما نزعة متطرفة ، دون أى سبب ظاهر مهما كان : فالآن حالة بكاء ، ثم ميل الى الضحك ، وثالثة شعور بالامتعاض لكل شىء تافه . ويبدو أنه كان آنئذ فى هذه الحالة العقلية الأخيرة . لم يقل شيئا ، وينظر الى والى والده بغضب ؛ ولا يبتسم الا حين يوجه اليه الكلام ، ابتسامة خضوع مغتصبة اعتاد أن يخفى وراءها مشاعره ، وبخاصة شعوره بالخجل لوالده الذى يحسه رغما عنه فى حضورنا .

وقال الرجل العجوز وهو يتبعنى فى الحجرة أثناء ارتداء ملابسى ، ويقلب صندوق السعوط الصغير الذى أعطته اياه جدتى ، فى بطء ووقار بين أصابعه الغليظة : « ما أن علمت من ابنى بنجاحك فى الامتحان نجاحا ممتازا ـ وان كانت مهارتك معروفة بطبيعة الحال عند الجميع ـ حتى سارعت بالحضور لكى أهنئك يابنى العزيز ... لقد حملتك على كتفى ، ويعلم الله أننى أحب أهلك كأقاربى ، وقد ألح ابنى النكا على يطلب باستمرار أن أحضر لرؤيتك ، فقد أصبح هو أيضا يألفك كثيرا » .

وفى نفس الوقت جلس النكا صامتا بالقرب من النافذة ، وكان من الواضح أنه غارق فى تأمل قبعتى المثلثة الأركان يغمغم بشىء فى صوت خفيض غاضب •

وتابع الرجل العجوز حديثه قائلا : « والآن أردت أن أسألك يانيكولاى بتروفتش ، هل اجتاز ولدى النكا الامتحان بنجاح؟ يقول انه سيلتحق بنفس القسم مثلك ــ ولذلك أرجو أن تتكرم بمراقبته ، ونصحه اذا لزم الأمر » •

فأجبت وأنا أنظر الى النكا الذى احمر وجهه حين شعر بنظرتى ، وأوقف تحريك شفتيه : « لقد أحسن الاجابة » •

وسألنى الرجل العجوز بابتسامة هيابة كما لو كان يخافنى كثيرا : « وهل يستطيع قضاء اليوم معك ؟ » ومع ذلك فقد كان شديد القرب منى يلازمنى أينما انتقلت حتى أن رائحة الخمر والتبغ التى كان غارقا فيها ، لم ينقطع شعورى برائحتها ثانية واحدة ، وشعرت بامتعاض نحوه اذ وضعنى فى مثل هذا الموقف ازاء ابنه ، كما أنه صرف انتباهى عن عمل كان بالنسبة الى ذا أهمية كبرى ، وهو ارتداء ملابسى ، ولكن أهم من كل شىء رائحة « البراندى » القوية الدائمة التى أزعجتنى حتى قلت بفتور شديد اننى لن أحظى بصحبة النكا لأننى لن أكون بالمنزل طوال النهار •

وقال النكا وهو يبتسم ولكن دون أن ينظر الى : « انك ذاهب

لزيارة أختك يا أبى ، وسيكون لدى عمل أهتم به » . كنت لا أزال متضايقا ، كما كان تأنيب الضمير يخزنى ، فلكى أخفف من وقع رفضى ، أسرعت فقلت لهما اننى سوف لا أكون بالمنزل لأننى مضطر الى زيارة الأمير ايفان ايفانتش والأميرة كوناكوفا ، ثم ايفن الذى يلى منصبا ذا نفوذ كبير ، ومن المحتمل أن أتناول الطعام مع الأميرة نخليودوفا . وظننت أنهم حين يعلمون أى المنازل الشهيرة سأزورها، سوف لايسألوننى مطالب أخرى . وعندما تأهبوا للانصراف دعوت النكا الى زيارتى مرة أخرى ، ولكن النكا غمغم فقط بعبارة ما ، وابتسم ابتسامة مغتصبة . وكان من الواضح أن قدميه لن تعبرا مطلقا عتبة بابى مرة أخرى .

وبدأت بعد رحيلهما القيام بجولة زياراتى . وكان فولوديا الذى دعوته فى ذلك الصباح الى مرافقتى لكى لا أشعر بخجل شديد عندما أكون وحيدا قد رفض بحجة أن ركوب أخين ودودين معاً فى عربة جميلة صغيرة ـ شىء يثير العواطف .

(٧٣)

آل فالاخين

وهكذا انطلقت وحدى ، وكانت أول زيارة فى طريقى لدى ال فالاخين فى سيفتسيف فرازك ، ولم أكن قد رأيت سونتشكا منذ

ثلاث سنوات ، وأصبح حبى لها بطبيعة الحال منذ أمد بعيد أثراً من الماضى ، ومع ذلك كانت لاتزال تتمهـــل فى روحى ذكرى بهيجة مؤثرة عن ذلك الحب الصـبيانى الماضى • وكنت أتذكرها فى بعض الأحيان خلال هذه الأعوام الثلاثة بنفس القوة والوضوح حتى أن الدموع كانت تطفر من عينى وأشعر كأننى عدت ثانية الى الحب ، ولكن هذا لم يكن يدوم غير دقائق قليلة ، وقد مضى أمد طويل على عودتى •

عرفت أن سونتشكا كانت فى الخارج مع أمها حيث قضتا عامين، وهناك فيما يقال عرض لهما حادث عربة ، وقد أحدث الزجاج فى وجه سونتشكا جرحاً بليغاً وبذلك فقدت سونتشكا جمال طلعتها الى حد كبير • وبينما كنت راكبا فى طريقى الى البيت ، تذكرت صورة واضحة لسونتشكا السـابقة ، وتخيلت ماذا سيكون شكلها فى هذه المرة • وبعد مكثها عامين فى الخارج كنت أتخيلها بالغة الطول ، ذات وجه جميل جـــدا ، جاد جليل ، ولكنه جذاب بصورة ملحوظة • ورفض خيالى أن يصورها بوجه شوهته الندبات ، بل على العكس ، سمعت فى مكان ما عن حبيب ملتهب العاطفة ظل مخلصـاً لمعبودته بالرغم من ندباتها • والواقع أننى عندما سرت الى بيت آل فالاخين لم أكن أحب ، ولكنى أثرت ذكريات قديمة للحب ، وكنت متأهبا كل التأهب للوقوع فى الحب ، وكنت تواقا جدا لعمل ذلك ، وبخاصة

لأننى أشعر بالخجل منذ وقت طويل كلما نظرت الى أصدقائى المغرمين وأننى متخلف عنهم بمسافة طويلة .

كان آل فلاخين يعيشون فى بيت أنيق صغير من الخشب ، يتصل بفناء . وفتح لى الباب عند سماع صوت الجرس صبى صغير جدا أنيق الملبس ، وكان الجرس آنئذ نادرا جداً فى موسكو ، وهو اما لم يفهمنى ، واما أنه لم يرغب فى أن ينبئنى عما اذا كانت الأسرة بالمنزل ، وتركنى فى صحن الدار المظلم ، وجرى فى الدهليز المظلم الصامت .

وبقيت وحدى برهة طويلة فى تلك الحجرة المظلمة التى كان بها باب مغلق واحد ، بالاضافة الى الباب المؤدى الى الدهليز . وقد دهشت من ناحية للطابع المظلم الذى يمتاز به البيت ، وافترضت من الناحية الأخرى انه لابد أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لأناس كانوا فى الخارج . وبعد مرور خمس دقائق فتح نفس الصبى الباب المؤدى الى القاعة من الداخل ، وقادنى الى حجرة استقبال ذات أثاث أنيق ولكنه ليس بالثمين ، وتبعتنى اليها سونتشكا .

كانت فى السابعة عشرة ، قصيرة القامة ، نحيلة الجسم جدا ، لون وجهها الضارب الى الصفرة ، لا ينم عن صحة ، وليس فى وجهها ندبات ظاهرة ، وكانت عيناها الساحرتان الكبيرتان ، وابتسامتها المشرقة اللطيفة المرحة ، كما عهدتها وأحببتها فى طفولتى . ولم

أكن أتوقع أن أراها على هذه الصورة البتة ، ولذلك لم أستطع أن أغدق عليها لساعتى المشاعر التى أعددتها فى الطريق • وناولتنى يدها على الطريقة الانجليزية التى كانت آنئذ نادرة ندرة الجرس ، وهزت يدى فى صراحة ، وهيأت لى مكانا بجانبها على الأريكة •

قالت وهى تتأمل وجهى بنفس التعبير الحقيقى عن الفرح الذى تضمنته كلماتها : « آه ، كم أنا سعيدة لرؤيتك ياعزيزى نيكولاس » قيلت بلهجة ودود لا بلهجة التشجيع • وقد أدهشـــنى أنها أكثر بساطة وعذوبة وأقـــرب الى الطبيعة فى أسلوبها بعد رحلتهـا الى الخارج • ولاحظت ندبتين صغيرتين بالقـرب من أنفهـــا ، وعلى جبينها ، ولكن عينيها وابتسامتها الرائعة كانت مصداقاً تاما لذكرياتى عنها ، مشرقة على عادتها القديمة •

قالت : « كم تغيرت ! لقـد كبرت الآن تماماً ••• حسن ، وأنا ــ مارأيك عنى ؟ » •

فأجبت ، « آه ماكنت لأميزك » وكنت رغم ذلك أفكر فى نفس الوقت فى أننى كنت أميزها أينما كانت • وكنت أشعر أيضا أننى كنت فى حالة نفسية من خلو البال والبهجة قبل خمس سنوات حين رقصت معها « الجد » فى حفلة جدتى الراقصة •

وسألتنى وهى تهز رأسها : « ولماذا أصبحت دميمة جداً ؟ » •

وأسرعت بالاجابة : « لا ، أبداً ، لقد كبرت قليلا ، انك أكبر سنا ، ولكنك على العكس ــ بل انك ـــ » •

« حسن ، لا أهمية لذلك . هل تذكر رقصنا وألعابنا ، وسان جيروم والسيدة دورات (ولم أتذكر أية سيدة باسم دورات ، ومن الواضح أنها كانت مسوقة بمتعة ذكريات طفولتها ، فخلطت بينها) وتابعت حديثها قائلة : « آه ، كم كان وقتا لطيفا ! » وكانت نفس الابتسامة ، بل أجمل من تلك الابتسامة التى كنت أحملها فى مخيلتى ، ونفس العينين ، المشرقتين أمامى . وفى أثناء حديثها استطعت ادراك الموقف الذى وجدت نفسى فيه ، فى اللحظة الراهنة ، وقررت أننى كنت فى اللحظة الراهنة واقعاً فى الحب . وحالما فكرت فى هذا اختفت لتوها حالتى النفسية السعيدة اللاهية ، وخيل الى أن ضبابا يرتفع أمامى ـ ويحجب حتى عينيها وابتسامتها ـ وشعرت بالخجل من شيء ما فانعقد لسانى واحمر وجهى .

وراحت تقول وهى تتنهد وترفع حاجبيها قليلا : « لقد تغير الزمن الآن ، كل شيء يبدو أسوأ كثيراً مما كان ، ونحن أسوأ مما كنا ، ألسنا كذلك يانيكولاس ؟ » .

لم أستطع أن أجيب ، وتفرست فيها صامتا .

وتابعت حديثها وهى تتأمل وجهى الأحمر الخائف فى شيء من الفضول : « أين جميع آل ايفن وآل كورناكوف الآن ؟ هل تتذكر ... لقد كان وقتا رائعاً ! » .

ولم أحر جوابا كذلك .

وأنقذني من هذا الموقف الشاق وقتا ما ؛ دخول السيدة فالاخينا فنهضت وانحنيت بالتحية ، واستعدت قدرتي على الحديث ؛ ومن ناحية أخرى شمل سونتشكا تغير غريب لدى دخول أمها ، فقد اختفى فجأة كل مرحها وودها ، واختلفت ابتسامتها ، وحدث كل ذلك بسرعة ، باستثناء قامتها الطويلة ، وأصبحت تلك السيدة الشابة العائدة من الخارج كما تخيلتها أن تكون بالضبط • وخيل الى كأن هذا التغير لم يكن له سبب مادامت أمها قد ابتسمت بابتهاج ، وكانت كل حركاتهـا تعبر عن الرقة كما كانت قديما • وجلست فالاخينا على مقعد ذي مساند وأشارت الى مكان لى بجانبها ، وتحدثت الى ابنتها عن شيء بالانجليزية ، فغـادرت سونتشـكا الحجرة لتوها ، فمنحنى هذا شيئاً من الارتياح • وسألتنى فالاخينا عن أقاربى ، أخى وأبى ، ثم تحدثت الى عن أحزانها الخاصة ـ موت زوجها ـ وأخيراً عندما شعرت أنه لم يعد هناك ماتقوله ، تطلعت الى فى صمت كأنها تقول : « ان كنت تريد أن تنهض وتنحنى بالتحية لتنصرف فحسناً ما تفعل يازميلى العزيز » ولكن شيئاً غريباً حدث لى : عادت سونتشكا ومعها شغلها وجلست فى ركن الحجرة وشعرت بنظرها مثبتا على • وبينما كانت فالاخينا تروى لى عن موت زوجها ، تذكرت مرة أخرى أننى وقعت فى الحـــب ، وحسبت أن الأم قد تكون خمنت هذا ، وعاودتنى نوبة أخرى من الخجل بالغة الشدة حتى أننى لم أستطع تحريك طرف واحد من أطرافى بحالة طبيعية • كنت أعرف اننى لكى أنهض وأستأذن فى الانصراف ، يلزمنى أن أفكر فى موضع

قدمى ، وفيما أفعل برأسى ، وبيدى ؛ وقصارى القول شعرت كما سبق أن شعرت تماما فى الليلة السابقة بعد أن شربت نصف زجاجة من الشمبانيا ، كان شعورى الداخلى يوحى الى بعجزى عن السيطرة على نفسى فى كل هــذا ، ولذلك لم أتحـــرك ، وفى الحقيقة « لم أستطع » • ولربما اندهشت فالاخينــا عندما رأت وجهى القرمزى وجمودى التام ، ولكنى قررت أن الجلوس فى ذلك الوضع السخيف أفضل من المغـــامرة بالنهوض على صــــورة خرقاء والاستئذان فى الانصراف ، ومن ثمة بقيت جالساً مدة طويلة جداً على أمل أن تحدث مناسبة تنقذنى من ذلك الموقف • وقد حدثت هذه المناسبة فى شخص شاب لا يعتد به دخل الحجرة فى هيئة من يألف المنزل وانحنى لى باحترام ؛ ونهضت فالاخينا معتذرة بحجة أنها مضطرة الى التحدث مع « رجل أعمالها » ونظرت الى وعليها سمات الدهشة كأنها تقول : « ان كنت تقصد الجلوس هناك الى الأبد ـ فسوف أطردك » وبذلت جهداً كبيراً لكى أنهض ، ولكن لم أعد فى حالة تسمح لى بالانحناء • وبينما كنت ذاهبا مصحوبا بنظرات الاشفاق من الأم والابنة ، اصطدمت بمقعد لم يكن يعترض طريقى البتة ، ولكنى صدمته لأن كل انتباهى كان موجهاً الى عدم التعثر فى البساط تحت قدمى • ولكن ما أن خرجت الى الهواء الطلق ـ بعد مضى لحظة من التبرم والزمجرة بصوت مرتفع جدا حتى لقد استفسر منى كوزما عدة مرات قائلا « نعم ، ياسيدى ؟ » ـ الى أن اختفى هذا الشعور ، وبدأت أتأمل فى هدوء تام حبى لسونتشكا وموقفها من أمها ، الذى

صدمنى صدمة غريبة . وعندما أطلعت أبى على ملاحظاتى فيما بعد ـ من أن السيدة فالاخينا وابنتها لم يكونا على وفاق ـ قال :

« نعم ، انها بتقتيرها تجعل ابنتها المسكينة تحيا حياة فظيعة ، وهذا شىء مستهجن جداً » ثم أضاف بانفعال أقوى من أن يحمله لشخص قريب وحسب : « لقد تعودت أن تكون المرأة الساحرة الرقيقة !! ولست أعرف سبب تغيرها الى هذا الحد . ألم تر أى سكرتير هنـــاك ؟ أرأيته ؟ » ثم قال وهو يسير مبتعـداً وقد تملكه الغضب : « من أى طراز هذه السيدة الروسية حتى يكون لديهـــا سكرتير ؟ » .

فقلت : « لقد رأيته بالفعل » .

« حسن ، وهل هو جميل المنظر على الأقل ؟ » .

« لا ، البتة ! » .

فقال أبى وهو يسعل ويهز كتفيه بحركة انفعالية : « هذا غير معقول » .

وقلت فى نفسى بينما كنت أســـير فى عربتى الدروشكى : « هل أنا واقع فى الحب هنا أيضا » .

آل كورناكوف

كانت الزيارة الثـــانية فى طريقى لآل كورناكوف ، وكانوا يسكنون الطابق الأول من منزل كبير فى « أربات » • وكان الدرج حسن المنظر ونظيفا الى حد بعيد ـ مفروشاً ببساط مثبت بقضبان من النحاس المصقول ، ولكن لم يكن هنـــــاك أزهار ولا مرايا • وكانت القاعة التى مررت على أرضها المصقولة اللامعة لكى أصل الى حجرة الجلوس ، تتسم بالوقار ، باردة ، مرتبة بأناقة ؛ كل شىء فيها لامع ، ويبدو أنه متين بالرغم من أنه ليس جديدا • ولكن لم تكن هناك صور ولا أستار ، ولا أى نوع آخر من أنواع الزينة ظاهرة فى أى مكان • وكانت بعض الأميرات فى حجرة الاستقبال ، كن جالسات فى وضع بالغ الأناقة والتكاسل بحيث كان واضحا أنهن لا يجلسن على هذه الهيئة اذا لم يتوقعن مجىء ضيوف •

وقالت لى أكبرهن سنا حين قدمت لتجلس بالقرب منى : « ان أمى ستأتى حالا » وشغلتنى هذه الأميرة مدة ربع ساعة فى حديث هين جدا ، وقد أدارته بقدر كبير من المهارة حتى أن هذا الحديث لم يضعف لحظة واحدة ، بل كان واضـــحاً جدا أنها تحتفى بى ، ولذلك لم تعجبنى • ومن بين الأشياء الأخرى التى حدثتنى عنها ، أن أخاها ستيبان الذى يطلقون عليه اتيين • والذى كان قد ألحـق

بمدرسة أبناء النبلاء ، قد رقى الى رتبة ضابط • وعندما كانت تتحدث عن أخيها ، وبخاصة حين تذكر أنه دخل فرقة الخيالة ضد رغبة أمه ، تتظاهر بالخوف ، ويتظاهر جميع الجالسات فى صمت بنفس الوجوه الخائفة ، وحين كانت تتحدث عن موت جــدتى تتظاهر بالحزن ، وتفعل جميع الأميرات كذلك ، وعندما تتذكر كيف ضربت سان جيروم ، وكيف اقتادونى ، كانت تضحك وتكشف عن أسنانها التالفة ، وكانت جميع الأميرات يضــحكن ويكشفن عن أسنانهن التالفة •

ودخلت الأميرة ؛ وكانت نفس المــرأة القميئة العجفاء ذات العينين القلقتين ، وعادة التفرس فى شخص ما وهى تتحــدث الى شخص آخر ـ وناولتنى يدها ورفعتها الى شفتى لكى ألثمها ، وهو شىء لم يكن ينبغى أن أفعله لو لم تفعل هى ذلك ، بفرض أنه شىء لا مفر منه •

كم أنا سعيدة اذ أراك ! » ثم بدأت تتحــدث بذلاقة لسانها المعهودة وهى تتطلع الى بناتها قائلة : « آه ، ما أشد شبهه بأمه ! أليس كذلك ياليزى ؟ » •

وقالت ليزى اننى لكذلك ؛ مع أننى أعرف على وجه التحقيق أننى لا أشبه أمى أقل الشبه •

كم كبرت ! وولــدى اتين ، لعلك تذكره هو ابن عمك ـ

لا ليس ابن ابن عمك ، ولكن ما هي قرابته ياليزى ؟ ان أمى فارفارا دمتريفنا ، ابنة دمترى نيكولايفتش ؛ وكانت جدتك هى ناتاليا نيكوليافينا » •

وقالت الأميرة الكبرى : « واذن فهو ابن ابن عمنا من الدرجة الثالثة يا أمى » •

وصاحت الأميرة غاضبة : « انكن تخلطن جميع الأشياء بعضها فى بعض ، انه ليس ابن عم من الدرجة الثالثة البتة ـ بل من أبناء أبناء العم ، هذه هى قرابتك لصغيرى العزيز اتيين •• انه ضابط الآن ، أتعرف هذا ؟ ولكنه ليس كما ينبغى أن يكون من ناحية واحدة : انه يتمتع بقسط كبير من الحرية ، انكم يامعشر الشبان يجب أن تكونوا تحت أنظارنا •••نعم ، لا تغضب من عمتك العجوز عندما تذكر لك الحقيقة الواضحة • لقد ربيت اتيين تربية دقيقة ، وأظن أنها الطريقة الملائمة التى يجب اتباعها •

ثم راحت تقول : « نعم ، تلك هى القرابة بيننا : ان الأمير ايفان ايفانتش كان عمى ، وعم أمك ، نعم ، هو ذلك •• والآن ، أخبرنى ، هل زرت منزل الأمير ايفان ؟ » •

فقلت اننى لم أزره بعد ، ولكن يجب أن أزوره اليوم •

وقالت متعجبة : « آه ! كيف فعلت هذا ! لقد كان ينبغى أن تكون أول الزيارات جميعا ، فأنت تعلم أن الأمير ايفان مثل والدك

تماما ، ولم يرزق أبناء ، ولذلك فأنت وأبنائى الذين سترثونه دون غيركم ، فيجب أن تبجله من أجل سنه ومركزه فى العالم ، ومن أجل كل شيء. اننى أعرف أنكم معشر شبان الجيل الحالى لا تفكرون فى القرابة البتة ، ولا تحبون المسنين من الناس ؟ ولكن اصغ الى عمتك العجوز لأننى أحبك ، وكنت أحب أمك وجدتك كذلك ، وأحترمها الى حد كبير جداً . يجب أن تذهب دون تأخير ... لابد أن تذهب » .

فقلت اننى ذاهب بكل تأكيد ، ولما كانت الزيارة قد استغرقت مدة طويلة جدا فى رأيى ، فقد نهضت ، وتحركت للانصراف ، ولكنها استوقفتنى .

ومضت فى حديثها وهى تلتفت الى قائلة : « لا ، انتظر دقيقة، أين والدك ياليزى ؟ استدعيه الى هنا ، انه سيسر كثيرا لرؤيتك » .

ودخل الأمير ميخائيلو بعد دقيقتين فى الواقع ـ كان رجلا قصيرا قوى البنية ، شديد الاهمال لملابسه غير حليق ، عليه سمات من عدم المبالاة تقرب من البلاهة ، ولم يك سعيداً برؤيتى على كل حال ، وان لم يقل ذلك . ولكن الأميرة التى كان من الواضح أنه يخافها الى حد كبير جدا قالت له :

« فالديمار (ومن الواضح أنها نسيت اسمى) كثير الشبه بأمه ، أليس كذلك ؟ » وأومأت بعينيها للأمير بحيث لابد يكون قد

تكهن برغبتها ، لأنه تقدم منى بملامح بالغة البلادة بل والتبرم ، وعرض لى خده غير الحليق الذى اضطررت الى تقبيله •

وسرعان ماقالت له الأميرة بلهجة غاضبة من الواضح أنها كانت اللهجة التى تستخدمها عادة مع أفراد منزلها : « انك لم ترتد ملابسك بعد ، مع أنك مضطر الى الذهاب بسرعة ؟ انك تريد أن يتحامل عليك الناس ثانية ، وتغضب منك الناس ثانية ! » •

وقال الأمير ميخائيلو : « لحظة واحدة ياعزيزتى » ثم انصرف، وانحنيت أنا وانصرفت •

كنت قد سمعت لأول مرة أننا ورثة الأمير ايفـان ايفانتش ، وكان هذا الخبر مفاجأة غير سارة لى •

(٧٥)

آل ايفن

كان تفكيرى فى تلك الزيارة الوشيكة التى لا مفر منها لاتزال تقلقنى ، ومع ذلك فان ترتيب مسيرتى يضع زيارتى لآل ايفن أولا• كانوا يسكنون فى تفرسكوى بوليفار فى بيت واسع وجميل جدا ، ولم أكن خالياً من التوتر العصبى لدى اجتيازى المدخل الذى وقف عنده بواب يحمل هراوة •

وسألته عما اذا كانت الأسرة بالمنزل ؟

وقال البواب : « من تريد مقابلته ياسيدى ؟ ان ابن القائد فى البيت » •

« والقائد نفسه ؟ » •

وقال البــواب : « سأستفسر • وأى اسم سأذكر ؟ » ثم دق الجرس •

وظهرت قدما خادم على السلم ، وقد شملتنى الى حد ما نوبة من التوتر ، حتى أننى طلبت من الخادم ألا يذكر اسمى للقائد ، وأننى سأذهب أولا لمقابلة ابنه • وعندما صعدت الدرج على ذلك السلم الفخم خيل الى أننى صغير بشكل فظيع (لا بالمعنى المجازى بل بالمعنى الحقيقى للكلمة) • ولقد خبرت نفس التجربة عندما سارت الدروشكى عبر المدخل العظيم ، فقد خيل الى آنئذ أن الدروشكى والحصان والحوذى جميعا أصبحت أشياء صغيرة • كان ابن القائد مستغرقا فى النوم على أريكة وكتابه مفتوح أمامه عندما دلفت الى الحجرة • وتبعنى معلمه الخاص ، هر فروست الذى كان لايزال مقيما بالمنزل الى الحجرة بخطوته المرحة فأيقظ تلميذه • ولم يظهر ايفن ابتهاجاً خاصاً لرؤيته اياى ، ولاحظت أنه يتفرس فى حاجبى وهو يتحدث • وبالرغم من أنه كان مؤدباً جداً ، خيل الى أنه كان يرحب بى على غرار مافعلت الأميرة تماماً ، وأنه لم يشعر مطلقا بأية جاذبية نحوى ، ولم يكن بحاجة الى معرفتى ، مادامت له دائرته

الخاصة من مختلف المعارف على أرجح الظن • تخيلت كل هذا ، وبخاصة لأنه كان يتفرس فى حاجبى • وقصارى القول كان موقفه منى مع ذلك غير ملائم ، فاننى أعترف مع ذلك أنه كان مطابقاً تقريباً لموقفى من النكا • وبدأت أشعر بالانفعال ، وكنت ألاحق كل نظرة من نظرات ايفن الخاطفة ، وعندما كانت تتقابل نظراته مع نظرات فروست كنت أترجم سؤاله : « ولماذا جاء ليزورنا ؟ » •

وبعد أن تحدث الى ايفن وقتا قصيرا قال ان أباه وأمه بالمنزل، وسألنى عما اذا كنت أحب أن أصحبه اليهما ؟ •

وأضاف : « سأرتدى ملابسى فوراً » ثم دخل حجرة أخرى، بالرغم من أنه كان حسن الهندام تماما ـ كان يرتدى سترة وصدرية بيضاء • وعاد بعد دقائق قليلة فى حلته الرسمية ، مزررة تماما ، وهبطنا الى الطابق السفلى معا • كانت حجـــرات الاستقبال التى اجتزناها فاخرة الى أقصى حد ، ويبدو على أثاثها الثراء العريض ، ففيها الرخام والتمـويه بالذهب ، وشىء مغطى بالحرير الموصلى ، وفيها المرايا • ودخلت ايفينا الحجرة الصغيرة خلف حجرة الجلوس من باب آخر ـ فى وقت دخولنا نفسه • واستقبلتنى استقبالا ودياً جداً كأحد الأقارب ، وقدمت لى مقعداً بالقرب منها ، واستفسرت باهتمام عن كل أفراد أسرتها • وقد أعجبتنى كثيرا السيدة ايفينا التى رأيتها مرتين عابرتين قبل هذه المرة ، حتى أننى تأملتها بكل انتباه • كانت طويلة نحيلة ، شديدة البياض ، يبدو عليها الاكتئاب

والوهن على الدوام • كانت ابتسامتها حزينة ، ولكنها بالغة الحنان ، عيناها واسعتان جـــدا ، ومتعبتان ، نظراتهما غير مستقيمة تماما ، مما كان يضفى عليها ملامح أكثر كآبة وجاذبية • كانت جالسة غير منحنية تماما ، ولكنهـــا كانت مائلة بكل جسمها ، وكل حركاتها مسترخية • كانت تتحدث بوهن ، ونغمـــة صوتها ، ونطقها لحرفى الراء واللام غير الواضح كان يلذ السمع كثيراً جداً • لم تكن ترحب بى • وواضح أن اجاباتى عن أقاربى كانت تمدها بتسلية حزينة كأنها وهى تنصت الى كانت تتذكر فى أسى أياماً أسعد • وذهب ابنها الى مكان ما ، وتأملتنى مدة دقيقتين فى صمت، ثم أخذت تبكى على حين فجأة ، وجلست هناك لا أستطيع أن أقول أو أفعل أى شىء ، وظلت هى تبكى دون أن تنظر الى البتة • أسفت لها فى أول الأمر ثم قلت لنفسى : «ألا ينبغى لى أن أواسيها ، وكيف أستطيع أن أفعل ذلك ؟» وأخيرا غضبت منها لأنها وضعتنى فى هذا الموقف المحرج • وقلت « هل يستحق شكلى الرثاء الى هذا الحد ؟ أو أنها تفعل ذلك بقصد أن ترى كيف سأتصرف ازاء هذه الظروف ؟ » •

وتابعت تأملاتى : « ليس من اللائق أن أستأذن فى الانصراف الآن ـ فقد يبدو هذا كأننى أهرب من دموعها » وتحركت فى مقعدى لأذكرها بوجودى •

فقالت وهى تنظر الى وتحاول الابتسام : « آه ، يالبلاهتى ! توجد أيام يبكى فيها المرء لغير ماسبب » •

وأخذت تبحث عن منديلها على الأريكة بجوارها ، ثم انفجرت فجأة فى البكاء أكثر من ذى قبل .

« آه ياعزيزى ، انه لمن السخرية أن أبكى على هذه الصورة! لقد كنت أحب أمك كثيرا ، كنا صديقتين و ـــ » .

وعثرت على منديلها ، وغطت به وجهها ، وراحت تبكى . وتحرج موقفى للمرة الثانية وظللت على هذه الحال برهة طويلة ، وشعرت بالامتعاض ، ولكن شعور الاشفاق عليها كان أقوى . كانت تبدو دموعها حقيقية ، وظللت أفكر فى أنها لم تكن تبكى بسبب أمى بقدر ماكانت تبكى لكونها كانت تعيسة آنئذ، وقد عرفت أياما أسعد. ولست أعرف كيف كانت ستنتهى لو لم يدخل ايفن الصغير ويقول ان ايفن الكبير كان يسأل عنها ؟ فنهضت وتأهبت للذهاب اليه حين دخل الحجرة ايفن نفسه . كان سيدا صغير الجسم ، قوى البنية ، أشيب الشعر ، ذا حاجبين غزيرين أسودين ، وشعر رمادى تماما قصته منخفضة ، وفى تعبير وجهه عبوس وثبات فائقين .

نهضت وانحنيت له ، ولكن ايفـــن ، الذى يضع على سترته الخضراء ثلاثة نجوم لم يقتصر فقط على عدم الاستجابة لتحيتى ، ولكنه لم يكد ينظر الى ، حتى لقد شعرت فجأة أننى لست كائنـــا بشريا ، بل مجرد شىء ما لا يستحق الملاحظة ـ مقعد ذى مساند ، أو نافذة ، أو اذا كنت كائنا بشريا فانه لا يمكن تمييزى بحال من الأحوال من المقعد ذى المساند أو النافذة .

وقال لزوجته بالفرنسية ، وكان تعبير وجهه جامداً ولكن في حزم : « انك لم تكتبي ياعزيزتي للكونتيسة حتى الآن » .

وقالت لي السيدة ايفنا : « صحبتك السلامة ياسيد ارتنييف » وهي تميل رأسها دفعة واحدة في تعال نوعاً ما ، وتتفرس في حاجبي كما فعل ابنها . وانحنيت لها ولزوجها مرة أخرى ، وأثرت تحيتي مرة أخرى في ايفن الكبير كما يؤثر فيه تماما فتح النافذة أو غلقها ، ولكن ايفن الصغير صحبني حتى الباب . (وقال لي وهو في الطريق انه سينتقل الى جامعة بيترسبرج لأن والده حصل على وظيفة هناك، وذكر لي مركزا هاماً جدا) .

وغمغمت أقول لنفسي وأنا أركب عربتي الدروشكي : «حسن، قد يرضى أبي عن هذا أو لا يرضى ، ولكنني لن أضع قدمي مطلقا في هذا البيت مرة أخرى . ان ذلك النشيج العاوي عندما تنظر الي كما لو كنت مخلوقا تعيساً ؛ وذلك الخنزير ايفين الذي لا ينحني لي. سأردها له » أما كيف قصدت أن أردها له ، فلا أعرف في الحقيقة ، ولكن هذه هي الكلمة التي طرأت على ذهني .

وكثيرا ماكنت أضطر فيما بعد الى تحمل تحذيرات أبي ، وقال لي انه لا مفر من « تهذيب » هذه المعرفة ، وأنني لا أحتاج الى رجل في مركز كهذا مثل ايفن ليرعى صبياً مثلي ، ولكنني احتفظت بتصميمي مدة طويلة .

الأمير ايفان ايفانتش

قلت لكوزما بينما كنـــا نتدحرج نحـــو بيت الأمـير ايفان ايفانتش : « والآن ، الى آخر زيارة لنا فى نيكيتسكايا •

بعد أن خبرت عدة تجارب فى القيام بالزيارات حصلت بالمران على الاعتماد على النفس ، وكنت الآن على وشك الذهاب الى بيت الأمير فى حالة نفســية محتملة من رباطة الجـأش ، عندما تذكرت فجأة كلمات الأميرة كورناكوفا من أننى وريثه ، وفوق ذلك وقع نظرى على عربتين تنتظران عند المدخل فغلبنى الخجل مرة أخرى •

وخيل الى أن البواب العجوز الذى فتح لى البـــاب ، والخادم الذى ساعدنى على خلع معطفى ، والسـيدات الثـلاث والسيدين اللذين وجدتهم فى حجرة الاستقبال ، والأمير ايفان ايفانتش نفسه بخاصة ، الذى كان جالساً على الأريكة مرتديا سترة بسيطة ــ خيل الى أنهم جميعا نظروا الى بوصفى وريثا • واذن فنظرتهم عدائية • كان الأمير ودودا جدا معى : قبلنى ، أى أنه وضع شفتيه الناعمتين الجافتين الباردتين على خدى لحظة واستفسر عن مشاغلى وخططى ، ومازحنى ، وسألنى عما اذا كنت لا أزال أكتب شعراً كالذى كتبته لجدتى يوم عيدها ، وقال لى انه يجب أن أحضر فأتناول معه الطعام فى ذلك اليوم • ولكن بقدر ماكان مضيافا ، بقدر ماكان يخيل الى

أنه يريد تدليـــلى فقط حتى لا أدرك مدى كراهيته لفكـرة أننى وريثه • لقد كانت فيه عادة ـ نشأت من وجود الأسنان الصناعية التى كانت تملأ فمه ـ وهى رفع شفته نحو أنفه بعد أن يقول أى شىء ، ويحدث صوتا ضعيفا كأنه يجر شفته الى داخل خياشيمه ، وعندما فعل هذا فى المناسبة الحاضرة خيل الى كأنه يقول لنفسه : « أيهـا الصبى ، لست بحاجة الى أن تقول لى : انك وريثى ، نعم ، وريثى » وهكذا •

عندما كنا أطفالا كنا نطلق على الأمير ايفان ايفانتش « جدنا » ولكن الآن ، بصفتى الوريث ، لا أستطيع ان يرد على لسانى هذا التعبير ، بينما خيل الى أن وصفه « بصاحب السعادة » كما فعل واحد من الزائرين الآخرين فيه تحقير ، ولذلك فاننى حاولت أثناء الحديث كله ألا أطلق عليه أية صفة كلية ، ولكنى كنت متضايقا أكثر من أى شىء آخر ، من الأميرة العجوز التى كانت هى الأخرى من ورثة الأمير ، وكانت تعيش تحت سقف بيته • وفى وقت الغداء الذى كنت أجلس أثناءه بجانب الأميرة ، تخيلت أن الأميرة لم تتحدث الى لأنها كانت تبغضنى لأننى وريث للأمير مثلها ، وأن الأمير لم يعر هذا الجانب من المائدة التفاتا لأننا ـ الأميرة وأنا ـ وريثان بغيضان لديه على السواء •

وقلت فى نفس ذلك المسـاء لدمترى رغبـة منى فى التفاخر أمامه بنفورى من أننى وريثه : « نعم ، انك لا تستطيع أن تصدق

مدى كراهيتى لهذه الفكرة » (وكان هذا الشعور يلذ لى كثيراً) وقلت : « وكم كان منفراً لى قضاء ساعتين كاملتين بمنزل الأمـــير اليوم ••• انه رجل لطيف جداً وكان مؤدباً جدا معى » وقلت ذلك مع أشياء أخرى لرغبتى فى التأثير على صديقى بأن ماقلته لم يكن نتيجة لشعورى بالمذلة أمام الأمير ، وتابعت حديثى « ولكن ، فكرة أنهم ربما ينظرون الى كما ينظرون الى الأميرة التى تعيش فى بيته ، وتسلك أمامه هذا المسلك الذليل لهى فكرة تبعث على الفزع • انه رجل عجوز مدهش ، شديد الحنان والرقة مع الجميع ، ولكن من المؤلم أن أرى كيف يسيء معـــاملة تلك الأميرة • ان هذا المال الممقوت ليفسد جميع العلاقات ! » •

وقلت : « أتعرف ، أننى أرى من الأفضل كثيراً أن أشرح للأمير موقفى بجلاء ، فأخبره أننى أحترمه كرجل ولكنى لا أفكر فى وراثته ، وألتمس منه ألا يترك لى أى شيء ، وأننى تحت هذا الشرط وحده أذهب الى بيته » •

ولم يضحك دمترى حين ذكرت له هذا ، بل على العكس ، راح يمعن التفكير ، وبعد صمت دام بضع دقائق قال لى :

« أتعرف ماذا ؟ انك غير محق ، فاما أنك لا تفترض مطلقـا أن الناس يمكنهم أن يظنوا فيك كما يظنون فى الأميرة ؟ واما ، فلو افترضت هذا ، فحينئذ ينبغى أن تحمل افتراضاتك الى أبعد من ذلك : أى أنك تعرف ماقد يظنه النـــاس فيك ، ولكن مثل هذه

الأفكار بعيدة جدا عن نواياك ، الى حد أنك تحتقرها ، ولا تفعل شيئا يقوم عليها • والآن ، افترض أنهم يفترضون أنك تفترض هذا ـ ثم أضاف ، وقد شعر أنه مستغرق فى تأملاته « ولكن قصارى القول » من الأفضل كثيرا ألا تفترض شيئاً على الاطلاق » •

لقد كان صديقى محقاً تماما ، غير أن الأمر جاء متأخراً جدا ، وأننى كنت مقتنعاً من تجربتى فى الحيـــاة بمدى مافى التفكير من ضرر ، ومايتطوى عليه النطق من أذى أكبر ، فكثير من الأشياء التى تبدو نبيلة جداً ، بل يجب أن تظل الى الأبد خافية عن الجميع ، مخبأة فى قلب الشخص ، وما أندر ماتصحب الكلمات النبيلة الأعمال النبيلة • واننى لمقتنع أن القصد الطيب نفسه اذا ما أذيع ، فانه يجعل « تنفيذ هذا القصد الطيب أكثر صعوبة ، بل مستحيلا بوجه عام • ولكن كيف تكبح النطق ببواعث الشباب ذات الاشباع الذاتى النبيل؟ ان المرء يتذكرها فقط فيما بعد ، ويحزن عليها كما يحزن على زهرة لم تعمر طويلا ، قطفها شخص قبل أن تتفتح ، ثم يجدها مطروحة على الأرض ، محطمة ذابلة •

أنا ، الذى قلت لصـــديقى دمترى الآن فقط ان المال يفسد العلاقات ، قد اقترضت منه خمسة وعشرين روبل منحنى اياها فى صباح اليوم التالى قبل رحيلنا الى الريف ، حين وجدت أننى أضعت كل نقودى الخاصة فى شراء الصور المختلفة وسيقان الغليون ، ثم بقيت مدينا له بعد ذلك وقتا طويلا حقا •

(٧٧)

حديث ودى مع صديقى

بدأ هذا الحديث فى المركبة المكشوفة فى الطريق الى كنتسيفو . وكان دمترى قد أقنعنى ، بالعدول عن زيارة أمه فى الصباح ولكنه جاءنى بعد طعام الغداء ليعوضنى عنها بكل فترة العصر ، بل بقضاء الليلة فى المنزل الريفى حيث تعيش أسرته . عندما طلعنا فقط من المدينة واستعضنا بالشوارع القذرة الكثـيرة الألوان ، وضجيج الأرصفة غير المحتمل الذى يصم الآذان ، مناظر الأشجار الفسيحة المكشوفة فى الحقول ، وصلصلة العجـلات الهادئة على الطريق الترابى ، وهواء الربيع المعطر ، والشعور بالفضاء يغلفنى من جميع الجوانب ــ آنئذ فقط استعدت حـواسى لدرجة ما ، من الانفعالات الجديدة المختلفة ، والاحساس بالحرية الذى أربكنى طوال اليومين الماضيين . كان دمترى لطيفا عطوفا ، لم يكن ينسق رباط رقبته مع رأسه ، ولم يكن يطرف بعينيه فى توتر أو يلوى عينيه الى أعلى . كنت راضياً عن المشاعر السامية التى أطلعته عليها، معتقداً أن مراعاته لها ستجعله يغتفر لى تماما العمل المشين الذى حدث مع كولبكوف ولا يزدرينى بسببه . وتحدثنا بطريقة ودية عن أشياء كثيرة خاصة لا يتحدث دائما عنها حتى الأصدقاء . وحدثنى دمترى عن أسرته التى لم أكن قد عرفتهـا بعد ــ عن أمه وعمته وأخته ، ثم عن

الشخص الذى اعتبره فولوديا ودوبكوف هيـــام صديقى وأطلقوا عليها « الصغيرة ذات الرأس الأحمر » • كان يتحدث عن أمه فى شيء من المديح الهادىء المزهو كما لو كان يحول دون أى اعتراض على ذلك الموضوع ، ويظهر الحماس فيما يتصل بعمته ، ولكن فى شيء من التلطف ، أما عن أخته فكان يقول الشيء القليل للغاية ، ويظهر أنه كان يخجل أن يتحدث الى عنها • أما عن « الصغيرة ذات الرأس الأحمر » التى كان اسمها الحقيقى ليوبوف سرجيفنا ، وهى فتاة غير متزوجة متقدمة السن ، وكانت تعيش فى بيت آل نخليودوف لعلاقة عائلية أو أخرى ، فقد حدثنى عنها بحماسة •

قال وقد احمر وجهه خجلا ، ولكنه كن فى نفس الوقت ينظر الى بجسارة : « نعم انها فتاة مدهشة ، وهى لم تعد فتاة صغيرةـ بل انها لكبيرة نوعاً ، وليست جميلة بحال ؟ ولكن ، يالغباء المرء وفقدان شعوره اذ يحب الجمال ! اننى لا أفهم هذا ، انه لغباء مطبق (كان يتكلم كأنه كشف لساعته عن حقيقة جديدة جديرة تماما بالاعتبار) ولكنها تحمل روحاً وقلبا ومبادىء لا تشبهها فى ذلك أية فتاة أخرى فى هذه الأيام (ولست أعرف لماذا اكتسب دمترى عادة التعبير عن كل شيء طيب بأنه نادر فى هذه الأيام ، وكان مغرما بتكرار هذا التعبير ويظهر أنه ملائم له) •

وتابع حديثه فى هدوء بعد أن تعب من ادانة الناس الذين يمتازون بغباء حب الجمال : « اننى لأخشى فقط ، أخشى أن يقتضيك

فهمها ومعرفتها بعض الوقت • انها محتشمة بل كتوم ، ولا تحب التظاهر بصفاتها اللطيفة المدهشة ؛ فمثلا أمي ، وهى امرأة رقيقة جدا وذكية ، كما سترى ، قد عرفت ليوبوف سرجيفنا منذ سنوات عدة ، ولم تستطع ، ولن تستطيع فهمها ؛ بل سأقص عليك لماذا كنت منقبض النفس عندما سألتنى فى الليلة الماضية - • أرادت ليوبوف سرجيفنا أمس الأول أن أذهب معها الى ايفان باكوفلفتش - وقد سمعت بالتأكيد عن ايفان باكوفلفتش - الذى يقال انه مجنون ، ولكنه في الحقيقة رجل شهير ، ويجب أن أخبرك أن ليوبوف سرجيفنا متدينة جدا ، وتفهم ايفان باكوفلفتش تمام الفهم ، وكثيرا ماتذهب لزيارته والتحدث اليه ، وتعطيه نقودا من كسبها الخاص لقومه من الفقراء ، فهى كما ترى امرأة مدهشة ، ولذلك ذهبت معها الى ايفان باكوفلفتش وشكرتها كثيرا لأنها هيأت لى رؤية ذلك الرجل الشهير ، ولكن أمي لا تريد أن تفهم هذا البتة وتعده خرافة • ولقد تشاحنت فى الليلة الماضية مع أمي لأول مرة فى حياتى ، وكانت مشاحنة حامية الى حد ما » ثم ختم حديثه بحركة تشنجية فى عنقه كأنها تذكار للشعور الذى عاناه أثناء تلك المشاحنة •

وقلت مستفسرا رغبة منى فى صرفه عن هذه الذكريات الكريهة : « حسن ، وما رأيك ؟ أى كيف تتصور نتيجة ذلك ؟ أو هل تتحدث اليها عما سيئول اليه الموقف ؟ وكيف ينتهى حبكما وصداقتكما ؟ »

واستفسر منى وقد احمر وجهه مرة أخرى ، ولكنه التفت الى وتفرس فى وجهى بجسارة : « تقصد أن تسألنى عما اذا كنت أفكر فى الزواج منها ؟ » .

وقلت لنفسى مرة أخرى فى تعاظم : « حسن ، ان هذا عين الصواب ، اننا راشدان ، نحن الصديقين الراكبين فى هذه العربة الصغيرة المكشوفة تناقش أمر حياتنا المستقبلة ، وكل واحد يتمتع بالاصغاء والنظر الينا الآن دون أن نراه » .

ومضى يقول بعد أن أجبته بالايجاب : « ولم لا ؟ ان هذا هو هدفى كما هو هدف كل رجل مستقيم التفكير ، أن يكون سعيدا وطيبا بقدر مافى وسعه ؛ وسأكون سعيدا معها ، اذا مارضيت هى بذلك ، وسأكون أحسن حالا مما لو كنت مع أجمل جميلات الدنيا ، حالما أصبح مستقلا تمام الاستقلال » .

ولم نلاحظ ، ونحن نتحدث على هذا الوجه أننا وصلنا الى منزل كونتسيفو وأن السماء تلبدت كلها بالغيوم ، وأنها على وشك أن تمطر . وكانت الشمس الى اليمين لم ترتفع كثيرا فى السماء ، فوق أشجار حديقة كونتسيفو العتيقة ، يغطى نصف قرصها اللامع الأحمر سحب رمادية ينبعث منها ضـوء ضئيل ، والأشعة النارية تفلت فى انبثاقات من النصف الآخر وتحط على الأشجار العتيقة فى الحديقة بلمعان أخاذ ، بينما تضىء نواحيها الخضراء الكثيفة الساكنة

فى الشق الساطع من السماء اللازوردية ، وأشعة الضوء فى هذا الجانب من السماء كانت شديدة التباين ازاء السحابة الكثيفة الأرجوانية المواجهة لنا فوق أشجار البتولا التى ترى عند الأفق •

وعلى مسافة قريبة الى اليمين ، فيما وراء الغابات والأشجار كنا نرى أسقف الأكواخ الصيفية المتعددة الألوان ، بعضها يعكس أشعة الشمس الساطعة ، بينما البعض الآخر يشمله طابع الكآبة الذى يتسم به النصف الآخر من السماء ، ومن تحت الى اليسار ، البركة الساكنة تشع زرقة تحيط بها أشجار الصفصاف الخضراء الباهتة تبرز معتمة عند سطحها الكئيب الذى يبدو منتفخاً فى ظاهره ، وفيما وراء البركة فى منتصف الطريق الى التل يمتد حقل قاتم مشبع بالبخار ، ويجرى الخط المستقيم ذو اللون الأخضر الذى يقسمه فى الوسط الى مسافة بعيدة ثم يستقر على الأفق الرصاصى اللون المنذر بالمطر • وعلى جانبى الطريق اللين الذى تتدحرج فوقه العربة الصغيرة المكشوفة فى حركة رتيبة ، يبدو نبات الجاودار الغزير المتشابك ، أخضر براقا ، وقد بدأ يفرخ سويقات هنا وهناك• وكان الهواء ساكنا تماما يتأرج نضارة ، وكانت خضرة الأشجار والأوراق والجاودار ساكنة ، غير عادية النقاوة والصفاء • كان يخيل الى أن كل ورقة وكل نصل من الحشائش يحيا حياته الخاصة الفردية الحرة السعيدة • والى جانب الطريق لمحت ممرا للمشاة ضاربا الى السواد يخترق الجاودار الأخضر القاتم الذى أصبح آنئذ فى أكثر من ربع

نموه • وذكرنى هذا الممر لسبب ما ، وفى وضوح خاص بقريتنا ، ونتيجة لتفكيرى فى القرية ، وبواسطة ترابط عجيب بين الأفكار ، ذكرنى بوضوح خاص بسونتشكا وبأننى كنت على حب معها •

بالرغم من كل صداقتى لدمترى ، والسرور الذى تبعثه فى صراحته ، لم أرغب فى معـــرفة أى شىء عن شعوره ونواياه ازاء ليوبوف سرجيفنا أكثر مما عرفت ، لكنى فكرت فى أنه ينبغى أن يعرف شيئا عن حبى لسونتشكا ، الذى كان يبدو لى حبا من طراز أرقى بكثير • ومع ذلك فلسبب ما لم أعقد النية على أن أخبره مباشرة بأفكارى ، وكم يكون جميلا أن أتزوج من سونتشكا ، وعن معيشتى فى الريف ، وكيف يكون لى أطفال صغار يتوقون الى السير على الأرض ، وينادوننى « بابا » وكيف يفرحنى عندما يأتى هو وزوجته ليوبوف سرجيفنا لزيارتى فى ملابس السفر ؟ ولكن بدلا من هذا كله أشرت الى الشمس الغاربة وقلت : « انظر يادمترى ، كم هى ساحرة !! » •

ولم يقل دمترى شيئا ، وواضح أنه امتعض لأننى أجبت عن اعترافه الذى كلفه مجهوداً فيما يحتمل ، بتوجيه التفاته الى الطبيعة التى كان موقفه منها جامداً تماما • كانت الطبيعة تؤثر فيه تأثيرا مختلفا جدا عن تأثيرها فى ، لم تكن تؤثر فيه كثيرا بجمالها كما تؤثر فيه بنفعها ، فهو يحبها بعقله أكثر مما يحبها بمشاعره •

وقلت له بعد هذا دون أن أراعى أنه كان منشغلا فيما يبدو

بأفكاره الخاصة غير مهتم مطلقا بما أقوله له : « أعتقد أنني أخبرتك عن سيدة صغيرة وقعت فى حبها حين كنت طفلا ، وقد رأيتها اليوم» ثم تابعت حديثي فى حماسة : « ولا بد أنني أحبها الآن » •

وبالرغم من تعبير عدم الاكتراث الذى كان لايزال يتراءى على وجهه ، فقد أخبرته بحبى وبجميع خططى لهناءة زواج المستقبل • ومن العجيب أن أقول اننى حالما ، وصفت له بالتفصيل كل قوة شعورى حتى أخذ شعورى هذا فى النقصان •

لقد باغتنا المطر بعد أن دلفنا مباشرة الى طريق أشجار البتولا المؤدى الى الطرز (الفيلا) ولم أعرف أنها تمطر الا بسقوط قطرات قليلة على أنفى ويدى ، وبشىء ما يطقطق على الأوراق الصغيرة المتلاصقة من البتولا التى كانت أغصانها متدلية دون حركة ، وبدت كأنها تتلقى هذه القطرات النقية الشفافة بحبور ، كما يرى ذلك من الأريج القوى الذى تملأ به الطريق • وهبطنا من العربة الصغيرة لكى نصل الى البيت بسرعة أكبر ، مجتازين الحديقة جريا ، ولكنا قابلنا عند مدخل البيت مباشرة أربع سيدات ، كانت اثنتان منهن يقمن بعملما ، ومع الثالثة كتاب ، والأخيرة كانت تقترب بخطى سريعة من ناحية أخرى مع كلب صغير • وقدمنى دمترى مباشرة الى أمه وأخته وعمته وليوبوف سرجيفنا • ووقفن برهة ، ولكن المطر بدأ يتساقط بسرعة متزايدة •

وقالت السيدة التى عرفت أنهـا أم دمترى : « لنذهب الى الشرفة ، فتقدمه لنـا هنـاك مرة أخـرى » وصعدنا الدرج مع السيدات •

(٧٨)

آل نخليودوف

كانت السيدة الوحيدة التى لفتت نظرى لأول وهلة أكثر من كل هذه المجموعة هى ليوبوف سرجيفنا التى كانت آخر من صعد الدرج ، وبين ذراعيها كلب صغير مدلل وفى قدميها حذاء سميك مربوط ، وتوقفت مرتين لتتفرس فى بامعـان ، ثم قبلت كلبهـا ، كانت تتصف بأى شىء آخر الا الجمال ـ ذات شعر أحمر خفيف قصير على جانب واحد تقريبا • والذى أضفى على وجهها البساطة، كل البسـاطة طريقة تصفيف شـعرها الغريبـة وجعله فى جانب واحد (وهى احدى طرق تصفيف الشعر التى تخترعها لأنفسهن النساء ذوات الشعر الخفيف) ، ولقد حاولت ما اسـتطعت مدفوعاً برغبة ادخال السرور الىقلب صاحبى اكتشاف لمحة جميلة واحدة بين قسماتها فلم أستطع، بل ان عينيها البنيتين ـ برغم تعبيرهما اللطيف ـ كانتا بالغتى الصغر متبلدتين ، فهى بالتأكيد لم تكن جميلة ؟ حتى

اليدين اللتين تكشفان عادة عن الأخلاق ، وان كانتا غير كبيرتين أو سيئتي التكوين ، الا أن لونهما كان أحمر ، وملمسهما كان خشناً •

وعندما تبعتهن الى الشرفة ، قالت كل واحدة من السيدات كلمات قليلة قبل أن يعدن الى مشاغلهن الكثيرة ، ما عدا فارنكا أخت دمترى التى كانت تنظر الى باهتمام من خلال عينيها الواسعتين الرماديتين القاتمتين ، وأخذت فارنكا تقرأ بصوت مرتفع من الكتاب الذى وضعته على ركبتيها ، مستخدمة أصبعها كمؤشر •

كانت الأميرة ماريا ايفانوفنا امرأة طويلة قوية البنية تناهز الأربعين ، وقد تكون أكثر من ذلك ، اذا ما أدخلنا فى حسابنا خصلات شعرها الضاربة الى اللون الرمادى ، والتى تظهر صراحة من تحت غطاء رأسها • ولكن وجهها الغض الرقيق ، الذى يكاد يخلو من التجاعيد تماماً ، وبخاصة لمعان عينيها الواسعتين البهيج المرح ، جعلها تبدو أصغر سناً • كانت عيناها البنيتان مفتوحتين عن آخرهما ، وشفتاها رقيقتين جداً ، وعابستين نوعاً ، وأنفها عادى منتظم انتظاماً كافياً ، مع ميل قليل الى اليسار • ولم تكن تضع خواتم فى يديها الكبيرتين الشبيهتين بأيدى الرجال ، مع أصابعهما النحيلة • وترتدى ثوباً محكما ذا لون أزرق داكن ، يناسب قوامها الأنيق وكان لا يزال فتياً ، وكان من الواضح أنها مزهوة به • وجلست معتدلة اعتدالاً غريباً تخيط ثوباً • وعندما دخلت

الشرفة ، أمسكت بيدى ، وجذبتني نحوها كأنها ترغب فى رؤيتى من مسافة أكثر قرباً • وقالت لى وهى تنظر الى بنفس النظرة الفاترة الصريحة التى يمتاز بها ابنها أيضاً ، وأنها عرفتنى منذ زمن طويل من أحاديث دمترى عنى ، وأنها دعتنى لقضاء يوم كامل معهم لكى يكون تعارفها بى أوثق • ثم أضافت : « افعل ما شئت ولا تكترث لنا أقل اكتراث ، ونحن كذلك لن نقيد أنفسنا من أجلك • امش أو اقرأ أو اصغ أو نم اذا كان هذا يروقك أكثر من غيره » •

أما صوفيا ايفانوفنا فكانت عانساً كبيرة السن ، وهى الأخت الصغرى للأميرة ، ولكن يبدو من ملامحها أنها هى الأكبر • وكانت تمتاز بذلك الأسلوب الخاص ، العامر بالأخلاق الذى يوجد فقط فى الفتيات القصيرات الشديدات الامتلاء ، اللائى يستعملن المشدات حول خصورهن ، حتى لكأن كل عافيتها قد صعدت الى أعلى بقوة بالغة تهددها فى كل لحظة بالاختناق • ولا تستطيع يداها السمينتان ان تتقابلا تحت نقطة بروز صدريتها • وكانت الأخوات تشبه احداها الأخرى شبهاً كبيراً جداً ، بالرغم من أن ماريا ايفانوفنا ذات شعر أسود وعينين داكنتين ، بينما كانت صوفيا ايفانوفنا شقراء ذات عينين زرقاوين واسعتين ، وهادئتين فى نفس الوقت • (وهذا مزيج نادر الحدوث) وكان لهما نفس الملامح ، نفس الأنف ونفس الشفتين ، الا أن أنف صوفيا وشفتيها كانت أكثر غلظاً ، وتميل الى الجانب الأيمن اذا ما ابتسمت ، فى حين أنها فى حالة الأميرة تميل الى

الجانب الأيسر • وواضح أن صوفيا ايفانوفنا حاولت أن تحافظ على هيئتها فتية ، اذا حكمنا بثوبها وتصفيف شعرها واخفائها لخصلات شعرها الرمادية ان وجد منها شيء • وخيل الى أن الطريقة التى كانت تنظر بها الى ، وهيئتها كانتا تدلان على أقصى حدود التعالى ، وقد امتعضت فى بادىء الأمر ، فى حين أننى شعرت من ناحية أخرى مع الأميرة أننى على سجيتى تماما • ويحتمل أن يكون مالفت نظرى هو بدانتها ، ثم تشابه معين بين وجهها وصورة كاترين العظيمة وهو الذى أضفى عليها مسحة التعاظم • ولكنى خجلت تماماً حين قالت لى وهى تتفرس فى بامعان طوال الوقت : « ان أصدقاء أصدقائنا أصدقاؤنا أيضا » واستعدت هدوئى وغيرت رأيى فيها كلية ؛ غير أنها بعد أن نطقت بهذه الكلمات تريثت برهة ثم فتحت فمها وتنهدت بعمق • ولا بد أن تكون بسبب بدانتها قد اعتادت التنهد بعمق بعد كل مرة تنطق فيها بكلمات قليلة ، وأن تفتح فمها قليلا ، وتقلب عينيها الواسعتين الزرقاوين • ان جزءاً كبيراً من دماثة الأخلاق المحببة كانت تفصح عنه هذه العادة لسبب أو لآخر ، اذ كان يزول عنى كل خوفى بعد ذلك التنهد ، وأعجبتنى الى أقصى حد • كانت عيناها فاتنتين ، وكان صوتها رخيماً مقبولا ، بل ان خطوط تكوينها البالغة الاستدارة كانت تبدو لى فى تلك المرحلة من الشباب غير عاطلة كلها من الجمال •

أما ليوبوف سرجيفنا ، بوصفها صديقة صديقى ، فكان لا بد

أن تقول لى شيئاً ودياً وخاصاً للغاية ، (وهذا ما كنت أظنه) ، بل انها تفرست فى وجهى مدة طويلة فى صمت ، كأنها لم تجزم بأن ما قصدت أن تقوله لى كان ودياً للغاية ، ولكنها قطعت الصمت لكى تستفسر منى عن القسم الذى دخلته ، ثم تفرست فى وجهى لحظة بامعان للمرة الثانية ، ومن الواضح أنها كانت مترددة فى أن تنطق بشىء خاص وودى أو لا تنطق ؟ واذ لاحظت هذا الشك ، فقد رجوتها معبراً بتقاسيم وجهى أن تخبرنى عن كل شىء ، ولكنها قالت : « يقولون ان العناية التى تبذل فى الجامعة للعلوم الطبيعية قليلة جداً فى هذه الأيام » ثم نادت كلبتها الصغيرة سوزيت •

تحدثت ليوبوف سرجيفنا طوال المساء فى هذا النوع من الكلام المتناثر غير الملائم أو غير المتصل ، ولكنى كنت أعتقد فى دمترى اعتقاداً راسخاً ، وكان ينظر الى فى بادىء الأمر بقلق شديد ، ثم اليها طوال المساء وكان تعبير وجهه يتساءل : « حسن ، وما رأيك؟ » ـ وذلك هو ما يحدث فى معظم الأحيان ، ومع أننى كنت مقتنعاً فى دخيلة نفسى بعدم وجود شىء خاص جداً عن ليوبوف سرجيفنا ، فقد كنت أبعد ما أكون عن التعبير عن فكرى حتى لنفسى •

وأخيراً كانت فارنكا آخر عضو فى هذه الأسرة ؛ فتاة سمينة نوعاً فى السادسة عشرة •

كانت الأشياء الوحيدة الجميلة فيها ، عيناها الرماديتان القاتمتان الواسعتان ، وكانتا تبسمان بمزيج من المرح واليقظة الهادئة ،

وتشبهان الى حد بعيد جداً عيني عمتها ، وضفيرة شعرها الشقراء البالغة الضخامة ، ثم يداها الجميلتان الناعمتان الى أقصى حد .

قالت صوفيا ايفانوفنا بتنهدها الرقيق وهى تقلب بعض قطع من الملابس كانت تخيطها : « أظنك قد تضايقت يا سيد نيكولاس لأنك لم تسمع البداية » وكانت القراءة قد توقفت لحظة لأن دمترى كان قد ذهب الى مكان ما .

« أو لعلك قرأت « روب روى » من قبل ؟ » .

وفى ذلك الوقت كنت أعتبر من واجبى ، ولو لمجرد أننى أرتدى الزى الرسمى للطلبة ، أن أجيب فى شيء كثير من الذكاء والصدق ولو اجابة بسيطة عن كل سؤال ، يوجهه الى أناس لم أعرفهم تمام المعرفة ، ممن يعتبرون الاجابات القصيرة الواضحة مثل « نعم ؛ ولا ؛ وحقا انها لشاقة ؛ ولماذا ، انها سارة » وما اليها ، أشياء يخجل منها المرء . ونظرت فى سراويلى الجديدة العصرية ، والى الأزرار اللامعة على سترتى وأجبت بأننى لم أقرأ «روب روى»، ولكن يسلينى كثيراً الاستماع اليه ، لأننى أفضل قراءة الكتب من وسطها على قراءتها من أولها .

وأضفت بابتسامة الرضاء عن النفس قائلا : « انها لتسلية مضاعفة ، فأنت تبدأ بالتساؤل عما حدث ، ثم عما سيحدث » .

وأخذت الأميرة تضحك نوعاً من الضحك غير الطبيعى .

(لاحظت فيما بعد أن الأميرة لا تعرف نوعاً آخر من الضحك) •

وقالت : « من المحتمل أن يكون ذلك صحيحاً ، وهل ستبقى هنا طويلا يا نيكولاس ؟ ولعلك لا تجد جرحاً لكرامتك ان أسقطت لفظ السيد ؟ متى سترحل ؟ » •

فأجبت : « لا أعرف ، ربما غداً ، ولكن قد نمكث وقتاً طويلا جداً » مع أننى كنت أعرف تماماً أننا سنسافر فى اليوم التالى »

أتمنى على السواء مدة أطول ان استطعت ، اكراما لنا ولدمترى معاً • ثم قالت الأميرة وهى تتطلع الى المدى البعيد : « ان الصداقة شىء مدهش فى سنك » •

وشعرت أنهم جميعاً ينظرون الى ينتظرون ماذا سأقول، بالرغم من أن فارنكا تظاهرت بأنها تفحص شغل عمتها ، وشعرت أنهن جميعا يختبرننى بنوع من الامتحان ، وأننى يجب أن أظهر على أحسن ما أستطيع •

فقلت : « حقا ، ان صداقة دمترى لى مفيدة ، ولكن صداقتى ليس فيها أى نفع له ، انه خير منى ألف مرة (لم يكن دمترى يسمع ما أقوله ، والا لخشيت أن يكشف ما فى كلماتى من رياء) •

وضحكت الأميرة للمرة الثانية ضحكتها غير الطبيعية ، التى كانت طبيعية بالنسبة لها •

وقالت : « فلتسمعوه يتكلم انك أنت المارد الصغير الكامل الخلق » .

وقلت لنفسى : « مارد كامل الخلق ، انه لشىء هام فيجب أن أتذكر ذلك » .

ومضت تقول وقد خفضت صوتها (وهذا شىء كان يعجبنى بنوع خاص) : « بصرف النظر عنك أنت فهو بارع فى هذا » . ثم أشارت بعينيها الى ليوبوف سرجيفنا قائلة : « لقد اكتشف فى عمتنا المسكينة (وهذا هو الاسم الذى كانوا يطلقونه على ليوبوف سرجيفنا) التى عرفتها مع كلبتها سوزيت لمدة عشرين عاماً ، صفات من الكمال لم أكن حتى أتوهمها » . ثم أضافت : « أطلبى منهم يا فاريا أن يحضروا لى كوباً من الماء والثلج » ، وراحت تنظر الى المدى البعيد مرة أخرى ، ربما حين وجدت أن الوقت مبكر نوعاً ، أو أنه ليس من الضرورى أن تطلعنى على شئون عائلية : « أو أن الأفضل أن تدعه (هو) يذهب، فليس (لديه) شىء يعمله ، واستمرى أنت فى القراءة .

وقالت لى : « اذهب من هذا الباب مباشرة يا صديقى ، وسر نحو خمس عشرة خطوة فى الممر وقل بصوت مرتفع : « بويتر ، أحضر لماريا ايفانوفنا كوبا من الماء والثلج » ثم ضحكت مرة أخرى باستخفاف ضحكتها غير الطبيعية .

وقلت فى نفسى بينما كنت أغادر الحجرة : « انها تريد بالتأكيد محاورتى ، ولربما تريد أن تقول انهـا لاحظت أننى شـاب ذكى جداً جداً » • ولكننى لم أكد أقطع الخمس عشرة خطوة حتى لحقت بى صوفيا ايفانوفنا ، السمينة اللاهثة بخطوات خفيفة سريعة •

وقالت : « أشكرك يا عزيزى ، اننى ذاهبة بنفسى الى هناك ، وسأخبره » •

(٧٩)

الحب

كانت صوفيا ايفانوفنا ، كما علمت فيما بعد ، احـدى أولئك النسوة الكبيرات السن النادرات اللائى وان كن قد ولدن للحيـاة العائلية الا أنهن ينكرن هذه السعادة ، ونتيجة لذلك يصممن فجأة على اغـداق كل كنز الحب الذى اختزن طوال الزمن ، فنما وقوى فى قلوبهن ، على أحبابهن المختارين • والمخزن غير قابل للنفاد بين العوانس من هذا الطراز الى حد كبير ، بالرغم من أن الأشخاص المختارين كثيرون • ولا يزال يوجد كثير من الحب الذى يسـكبنه على جميع المحيطين بهن ، من جميع الناس ، أخياراً وأشراراً ، ممن يتصادف أن يقابلنهم •

هناك ثلاثة أنواع من الحب :

١ ـ حب الجمال •

٢ ـ حب التضحية بالذات •

٣ ـ الحب الذاتى •

ولا أتحدث عن حب شاب لفتاة ، أو حبها له ؛ فأنا أخاف هذه العواطف ، وقد كنت سيىء الحظ للغاية فى الحياة من حيث انى لم أشهد شرارة واحدة من الصدق فى هذا النوع من الحب ، بل الكذب دون سواه ، الذى تغشى فيه الشهوات والعلاقات الزوجية والمال والرغبة فى ربط يدى الانسان أو حلهما ، على الشعور نفسه، فيصبح من المتعذر عليه كثيراً الوصول الى صميمه • اننى أتحدث عن الحب الموجه للجنس البشرى الذى يتركز وفقاً لقوة الروح شدة وضعفاً ، على شخص واحد أو على أشخاص عديدين ، أو ينهمر على الكثيرين ، وعن حب الأم أو الأب والأخ ، والأبناء ، حب الزميل والأصدقاء وابن الوطن ، وعن حب الانسان •

وينطوى حب الجمال على حب العاطفة نفسها والافصاح عنها ، لأن الناس الذين يحبون على هذا الوجه يكون هدف ميلهم محبوباً بقدر ما يثيره وحسب ، ذلك الشعور السار فى الوجدان الذى يلذ لهم التعبير عنه • والناس الذين يحبون مع حب الجمال لا يهتمون الا قليلا جداً بالمبادلة الا بوصفها شيئا لا أثر له على جمال

الاحساس ولذته ، وكثيراً ما يغيرون أهداف حبهم ، اذ أن غرضهم الأساسى ليس الا استثارة شعورهم السار بالحب • وللمحافظة على هذا الاحساس السار فى نفوسهم، يتحدثون دون انقطاع عن عاطفتهم بألطف العبارات ، وعن الشخص المقصود بهذا الحب ، وعن أولئك الذين لا صلة لهم بهذا الحب بوجه من الوجوه •

وفى بلادنا أناس ينتمون الى طبقة معينة ممن يحبون حباً « جمالياً » ولا يقتصرون على التحدث عن حبهم الى كل شخص ، بل لا بد لهم من التحدث عنه باللغة الفرنسية ، ومن المريب والغريب أن أقول ذلك ، ولكنى مقتنع أن أناساً كثيرين من الطبقة الممتازة وبخاصة من النساء اللائى كان ولا يزال حبهن لأصدقائهن ولأطفالهن ولأزواجهن يفنى سريعاً اذا ما حرمن من التحدث عنه بالفرنسية•

والنوع الثانى من الحب ـ حب التضحية بالذات ـ ويتضمن عملية تضحية الشخص بنفسه من أجل الهدف الذى أحبه دون أى اعتبار لكون الشخص المحبوب سيصبح أحسن أو أسوأ • ودستور هذا النوع من الحب هو « ليس هناك شيء مكروه لا أفعله لاثبات اخلاصى للعالم كله و « له » أو « لها » • والناس الذين يحبون على هذا الوجه لا يعتقدون مطلقا فى المبادلة (لأن تضحية الشخص بنفسه فى سبيل شخص لا يفهمه أجدر بالتقدير) ، وهم دائما فى حالة مرضية ترفع دائما من قدر التضحية ، وهم ثابتون فى معظمهم لأنه من العسير عليهم فقدان تلك التضحيات التى بذلوها فى سبيل

هدف حبهم • وهم مستعدون دائما للموت لكى يثبتوا له أو لها مدى اخلاصهم ، ولكنهم يستهينون بمظاهر الحب اليومية الصغيرة التى لا تحتاج الى ظهور تضحية بالنفس من نوع خاص • وهم لا يهتمون بما اذا كنت قد أكلت أو نمت على مايرام ، وما اذا كنت فرحاً أو أنك بصحة ، ولا يفعلون شيئا ليدبروا لك تلك الوسائل من الراحة اذا كانت فى نطاق قدرتهم ، ولكنهم يواجهون الرصاص ويلقون بأنفسهم فى الماء أو فى النار لكى يذوبوا أسى من أجل الحب ـ فهم مستعدون دائماً لكل هذا اذا ماعرضت المناسبة وحسب• وفوق هذا، فان الناس الذين يميلون الى حب التضحية بالنفس يزهون دائماً بحبهم ، وهم حريصون غيورون مرتابون ؟ وعجيب أن أقول انهم يتمنون الخطر من أجل هدفه حتى يمكنهم انقاذه من شقائه ، ولكى يهيئوا له الراحة ـ بل ينشدون له الرذائل لكى يقوموه •

انك تعيش وحيداً فى الريف مع زوجتك التى تحبك حباً ينطوى على التضحية بالنفس ، وأنت شخص طيب هادىء ، ولديك مشاغل تحبها ، وزوجتك الودود ، يبلغ بها الضعف بحيث لا تستطيع أن تشغل نفسها بادارة شئون المنزل التى عهد بها الى أيدى الخدم ، ولا بالأطفال الذين تتنولهم أيدى المربيات ، ولا بأى شىء تحبه ، لأنها لا تحب شيئاً الا أنت• فمن الواضح أنها مريضة ولكنها لا تريد أن تؤلمك ، ولا تذكر لك هذا ، وهى بادية الضيق ، ولكنها مستعدة لتحمل هذا الضيق طوال حياتها من أجلك • ولكونك ممعناً فى

انشغالك بأعمالك الى حد بعيد (كيفما كانت هذه الأعمال ـ صيد ، كتب ، فلاحة ، خدمة) فان ذلك يقتلها ، وهي متأكدة أن هـذه المشاغل ستدمرك ، ولكنهـــا تلتزم هدوءها وتقاسي • ولكنك الآن تصاب بمرض ، وتنسى زوجتك المحبة مرضها من أجلك ، وبالرغم من توسلاتك ألا تعذب نفســـها للاشيء ، فانها تجلس الى جوار فراشك ولا تتحول عنه ، وتشعر بنظرتها الحانية عليك في كل ثانية ، وتقول لك : « هذا أنت ! لقد قلت لك • ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئا بالنسبة الى ، فلن أتركك » وتتحسن قليلا في الصباح ، وتذهب الى حجرة أخرى ، ولكن الحجرة غير دافئة أو مرتبة ، ولم يطلب من الطباخ عمل الحســـاء وهو الشيء الوحيد الذي تستطيع تناوله ، ولم يطلب الدواء بعد ، ولكن زوجتك المسكينة المحبة تنظر اليك بنفس تلك النظرة الحانية التي أضناها السهر ، وتمشي على أطراف أصابعها ، وتصدر الى الخدم أوامر متضاربة هامسة لم يكن لهم بها عهد • وأنت تريد أن تقرأ ؟ فتخبرك زوجتك الودود وهي تتنهد ، أنها تعرف عدم اصغائك لنصحها وأنك ستغضب منها ، وأنها قد اعتادت هذا ـ ولكن من الأفضل لك ألا تقرأ ـ وأنت تريد أن تمشي في الحجرة ، فالأفضل ألا تفعل • وتريد التحدث الى صديق وصل لتوه ـ فالكلام ليس ملائما لك • وتعاودك الحمى مرة أخرى في الليل ، وتطلب أن تترك وحيدا ؟ ولكن زوجتك الودود تجلس شاحبة اللون منهوكة القـــوى تتنهد من وقت الى آخر على المقعد المواجه لك في ضوء مصباح ليلي خافت ، وتثير فيك الشعور بالهياج

ونفاد الصبر لأقل صوت أو حركة تصدر منها ، ولديك خادم عاش معك عشرين عاماً وقد ألفته ، وهو يخدمك بطريقة مستحبة ومرضية لأنه نام فى أثناء النهار نوماً كافيا، بالاضافة الى أنه يتناول أجراً فى مقابل خدمته ، ولكنها لا تؤمله بالقيام على خدمتك . انها ستقوم بكل شيء بأصابعها الهزيلة غير المدربة ، التى لا تستطيع تحاشى مراقبتها بضيق مكبوت عندما تجاهد هذه الأصـــابع البيضاء عبثا فى انتزاع سدادة قارورة أو اطفاء شمعة أو صب الدواء لك . وان كنت رجلا ملولا حاد الطبع ، ورجوتها أن تبتعد ، فان أذنك المتهيجة ، أذن الشخص المريض ستـسمع التنهد والنشيج خارج الباب ، والهمس بشيء من الهراء الى خادمك ؟ وأخيراً ، اذا لم تمت ، فان زوجتك المحبة التى لم تنم طوال العشرين ليلة التى رقدتها مريضا (كما تكرر هذا على أذنيك دون انقطاع) تمرض هى الأخرى وتنهار وتتألم ، وتصبح أقل قدرة على أى عمل، وفى الوقت الذى تعود فيه الى حالتك الطبيعية، تعبر هى عن حبها للتضحية بالذات ، بأن تبعث حولك نوعا من الكآبة الرفيقة التى تصل اليك ، والى كل مايحيط بك دون قصد .

والنوع الثالث ـ الحب الذاتى ـ يتضمن محاولة اشباع جميع الحاجات والرغبات ، بل وجميع الرذائل الخاصة بالشيء المحبوب . والناس الذين يحبون على هذه الصورة انما يحبون دائما من أجل الحياة ، لأنهم كلمـــا يزداد حبهم ، تزداد معرفتهم بهدف حبهم ، ويسهل عليهم أن يحبوا ـ أى اشباع رغبـاته أو رغباتها . وقلما

يكون الافصـــاح عن حبهم بكلمـــات ، واذا أمكن الافصاح عنه بالكلمات ، فلا يكون الافصاح بليغـاً مع حالة الرضاء عن النفس ، ولكنه يكون على استحياء وقلة لباقة لأنهم يخشون دائما أن يكون حبهم غير كاف، بل ان هؤلاء الناس يحبون رذائل الشخص المحبوب لأنها تمنحهم فرصة أخرى لارضاء رغباته أو رغباتها، وهم يبحثون عن المبادلة بل يخدعون أنفسهم عامدين ، معتقدين فيها ، سعداء اذا ماحصلوا عليها ، ولكن الجميع على السواء يحبون حتى تحت ظروف متناقضة ، وهم لا يكتفون بالرغبة فى سعادة الشخص المحبوب ، ولكنهم يجاهدون على الدوام فى تحصيلها له أو لها بكل الوسـائل المعنوية والمادية ، كبيرها وصغيرها ، التى تكون فى نطاق قدرتهم •

وكان هذا هو الحب الذاتى الموجه لابن أخيها ولأختها ولليوبوف سرجيفنا ، بل ولى أنا ، لأن دمترى أحبنى • هو الحب الذى يشع من العيون ، فى كل كلمة وكل حركة تصدر من صوفيا ايفانوفنا •

ولم أقدر صوفيا ايفانوفنا تقديرا كاملا الا أخيراً ، ولكن حتى آنئذ كان السؤال الذى طرأ على ذهنى هو : « لماذا راح دمترى الذى كان يحاول فهم الحب على وجه مختلف تماماً عن فهم الشبان المعتاد، والذى كانت أمام عينيه دائما هذه الصوفيا ايفانوفنا الحلوة المحبة ، راح فجأة يحب تلك الليوبوف سرجيفنا الغامضة ، ويسلم فقط بأن عمته أيضا تتصف بصفات حميدة ؟ حقـاً ، ما أصدق المثل القائل : « لا يقام وزن لنبى فى بلده » : واذن لا يوجد غير أحد أمرين ،

اما أن يكون فى كل انسان فى الواقع قدر من الشر أوفر من الخير، واما أن يكون الانسان أكثر تقبلا منه للخير • ولم يكن دمترى قد عرف ليوبوف منذ أمد طويل ، بينما كان قد خبر حب عمته منذ ولادته •

(٨٠)

اصبحت أكثر تعارفا

عندما عدت الى الشرفة وجدتهم لا يتحدثون عنى كما ظننت ؛ ومع ذلك لم تكن فارنكا تقرأ ، ووضعت كتابها جانباً وشغلت فى جدل حام مع دمترى الذى كان يذرع الحجرة ذهابا وايابا ويسوى ربطة عنقه فى رقبته ويزر عينيه •ويظهر أن موضوع النقاش كان يدور حول ايفان ياكوفلفتش والخرافة ، ولكنه كان نقاشا حامياً جدا ، بالنسبة لسببه الذى وان كان حقيقيا الا أنه تافه لا يهم الأسرة كلها عن قرب • وقد جلست الأميرة وليوبوف سرجيفنا صامتتين تصغيان الى كل كلمة ، ومن الواضح أنهما كانتا تريدان من وقت لآخر الاشتراك فى المناقشة ولكنهما تكبحان هذه الرغبة وتسمحان بأن تمثل فارنكا احديهما ويمثل دمترى الأخرى • وعندما دخلت نظرت الى فارنكا نظرة تدل على عدم الاهتمام ، حتى لقد كان من الواضح أنها مهتمة اهتماماً عميقا بالنقاش فلم تهتم اذا كنت قد سمعت

أو لم أسمع ماقالته • أما الأميرة التى كانت فيما يظهـــر فى صف فارنكا ، فكان على وجهها نفس التعبير ، ولكن دمترى أخذ يناقش حتى فى حضورى نقاشاً أشد حرارة من ذى قبل ، وبدا على ليوبوف سرجيفنا أنها ذعرت الى حد بعيد لدى ظهورى ، وقالت لغير شخص معين : « ان الأقدمين محقون اذ يقولون : « لو كان الشباب يعلم ، ولو كانت الشيخوخة تستطيع » •

ولكن هذا القول المأثور لم يضع حداً للجدل ، ولكنه حثنى على التفكير فى أن ليوبوف سرجيفنا وصـــديقى كانا على خطأ • وبالرغم من أننى شعرت بالضيق نوعاً ما لوجودى أثناء مشاحنة عائلية صغيرة ، فقد كان يلذ لى أن ألاحظ العلاقات الحقيقية فى هذه الأسرة تنكشف من خلال تقدمها وأشعر أن وجودى لم يمنعهم من الحديث بحرية •

وكثيرا مايحـــدث أن ترى أسرة تختفى تحت نفس ستار الحشمة لعدة سنوات ، وتظل العـــلاقات الحقيقية بين أعضائها سراً غامضا عليك (لقد لاحظت حتى أنه كلما تعذر النفاذ فى هذا الستار وازداد زخرفاً ازدادت لمغطة العلاقات الحقيقية التى يخفيها عنك) • ثم يتصـــادف أن يمضى يوم واحـــد ، ثم تظهـــر دون أى توقع مشكلة ما فى محيط هذه الأسرة ، يغلب أن تكون تافهة ، تتصل بسيدة شقراء أو زيارة بخيول الزوج ؟ وبدون أى سبب ظاهر قد يثور العراك ويشتد عنفه حتى يتعذر تصفية الموقف تحت غطاء هذا

الستار ، ثم على حين فجأة ، تنكشف جميع العلاقات الفظة مما يفزع المتشاجرين أنفسهم ويحير الحاضرين • ويرفرف الستار الذى لم يعد يغطى شيئا بين الجانبين المتشاجرين دون جدوى ، ولكنه يفيد فى تذكيرك وحسب بمدى الزمن الذى ظللت فيه مخدوعا فيهاء وكثيرا مايكون ارتطام رأس شخص ارتطاما شديدا بالسقف أقل ايلاما من لمسة مهما كانت خفيفة ، وتوجد مثل هذه القرحة والنقطة الحساسة فى حب دمترى الغــريب لليوبوف سرجيفنا ؟ الذى أثار فى أمه وأخته ، ان لم يكن شعورا بالحقد فهو على الأقل عاطفة أسرة جــرح شعورها ، وكان هذا هو السبب فى أن النقاش حول ايفان ياكوفلفتش والخرافة ذا أهمية كبرى عندهم جميعا •

وقالت فارنكا بصوتها الرخيم وهى تنطق كل حرف بجلاء : « انك تحـــاول أن تفحص مايسخر منه الآخـرون ويزدرونه ؟ فيجب أن تحاول دائما الكشف عن شيء لطيف وجدير بالاعتبار »

ورد دمترى قائلا بحركة عصبية من رأسه وهو يبتعد عن أخته : « أولا ، ان أكثر الناس طيشا دون غيره هو الذى يستطيع الاستهانة برجل مثل ايفان ياكوفلفتش ، وثانيا أنك « أنت » التى تحاولين عامدة عدم رؤية الخير الموجود تحت نظرك بالفعل » •

وعندما انضمت الينا صــوفيا ايفانوفنا نظرت الينا مرات عدة بصورة مفزعة ؟ مرة الى ابن أخيها ثم الى ابنة أخيها ثم الى ؟ وفتحت فمها مرتين كأنها تنوى الكلام ، ثم تنهدت بتثاقل •

وقالت : « والآن تفضلى يافاريا فاستأنفى القراءة ، فأنا مشتاقة جداً الى معـــرفة ما اذا كان قد وجدها ثانية (والواقع أن الكتاب لا يبدو أنه يحتوى على كلمة عن أى شخص يجـــد أى شخص آخر) ثم قالت لابن أخيها برغم نظرة الاستياء التى رمقها بها لأنها قطعت حبل حـــديثه على الأرجح : « أما بالنسبة لك يامتيا العزيز فخير لك أن تغطى خدك لأن الهواء رطب وقد تصاب بألم فى أسنانك مرة أخرى » • واستؤنفت القراءة •

ان هذه المشاحنة الصغيرة لم تعكر هدوء الأسرة أقل تعكير ولا ذلك الوئام الواعى الذى يغطى الدائرة النسائية فى الأسرة •

وهذه الدائرة التى كان من الواضـــح أن الأميرة ايفانوفنا قد أعطتها صفتها ووجهتها ، كانت بالنسبة الى نغمة جديدة جذابة وذات منطق من نوع معين ، وفى نفس الوقت ذات بساطة وانسجام ؟ وقد وضح لى هذه النغمة جمال الأشياء ونقاؤها وبساطتها ـ الجرس ، وغلاف الكتاب والمقعد ذو المساند ، والمنضدة ، وجلسة الأمـــيرة المعتدلة فى مشدها المحكم ، وخصلاتها الرمادية الظاهرة للعيان ، وفى طريقة مناداتها لى فى أول مقابلة لنا باسمى المجرد ، نيكولاس، وبالضمير « هو » ، وفى مشاغلهم ، كالقراءة بصوت مرتفع والخياطة، وفى بياض أيدى النساء الملحوظ (كانت فيهم علامة عائلية مشتركة على اليد هى جزء ناعم من راحة اليد لونه وردى قاتم ، يختلف اختلافا قويا عن البياض غير العادى فى الجزء الأعلى من اليد) ، ولكن

هذه الصفة كانت تتمثل على أبرز ماتكون فى الطريقة الممتازة التى يتحدث بها الثلاث اللغتين الفرنسية والروسية ، والنطق بكل حرف على حدة ، واختتام كل كلمة وعبارة بدقة متحذلقة ـ كل هذا وبخاصة معاملتهم لى فى بساطة واهتمام فى هذه الجماعة كشخص راشد ، والادلاء الى بأفكارهم الخاصة والاصغاء الى آرائى (لم أكن قد تعودت ذلك الا قليلا ، وبالرغم من أزرارى اللامعة وحواشى الأكمام الزرقاء فقد كنت لا أزال خائفا من أن يوجه الى سؤال على حين فجأة : « هل تظن الناس سيتحدثون معك حديثا جديا ؟ أذهب وادرس ! ») . وقد نجم عن كل هذا عدم شعورى بأقل ضيق فى جماعتهم . فنهضت من على مقعدى وتنقلت من مكان الى مكان وتحدثت مع الجميع ماعدا فارنكا ، التى كنت لا أزال أرى من غير اللائق لسبب ما ، التحدث اليها أولا .

وفى أثناء القراءة ، وبينما كنت أستمع الى صوتها اللطيف ، كنت أتفرس مرة اليها ومرة الى الممر الرملى بحديقة الأزهار التى كانت تتكون فيه بقع مستديرة قاتمة من المطر ، والى أشجار الزيزفون التى كانت لا تزال قطرات المطر تتقطر على أوراقها بين حين وآخر من حافة السحابة المرعدة الزرقاء الباهتة الآخذة فى الضمور ، ثم أتفرس فيها ثانية ، ثم أخيراً فى أشعة الشمس القرمزية الغاربة التى كانت تغلف بالضوء أشجار البتولا العتيقة المتقطرة بالمطر ، ثم الى فارنكا ثانية ، وقررت أنها لم تكن ساذجة البتة كما توهمتها فى أول الأمر .

وقلت فى نفسى : « يا للأسف لقد وقعت فى الحب ، وفارنكا ليست سونتشكا ، كم يروق لى أن أصبح عضواً فى هذه الأسرة ! سأظفر بأم وعمة وزوجة ، كل ذلك على الفور » وبينما أتأمل على هذا الوجه تطلعت الى فارنكا وهى تقرأ ، وفكرت فى أننى يجب أن أجتذبها وأجعلهـا تنظر الى • ورفعت فارنكا رأسـها من كتابها ، وتطلعت الى ، وقابلت عينى ، ثم استدارت •

وقالت : « لم يتوقف المطر بعد » •

وعانيت فى الحال شعوراً غريباً ••• تذكرت فجأة أن ما كان يحدث لى آنئذ كان تكراراً بالضبط لما حدث مرة من قبل ، وكان المطـر آنئذ يتساقط خفيفا ، وكانت الشمس تغـــرب وراء أشجار البتولا ، وكنت أنظر (اليهـــا) وكانت تقرأ ، واجتذبتها ورفعت رأسها ونظرت الى ، بل اننى تذكرت أن هذا قد حدث من قبل •

وقلت فى نفسى : « أتكون هى ؟ هى ؟ هل هى بداية » ولكنى قررت بسرعة أنها لم تكن (هى) ، وأنها لم تكن البداية بعد ، فهى أولا ليست جميلة المنظر ، وثانيا هى ليست الا سيدة شابة ، وقد تعرفت بها تعرفاً عـــاديا الى أبعد حد ، بينما (هى) ستكون مشهورة وسأقابلها فى مكان ما غير عادى ، بالاضافة الى أن هذه الأسرة تروق لى كثيرا لأننى لم أشاهد شيئا حتى الآن » وقلت فى تصميم : « ولكن هناك أخريات مثلها بطبيعة الحال ، وسأقابل كثيرات منهن فى مجرى حياتى » •

(٨١)

ظهرت على أحسن حال

وانتهت القراءة فى وقت تناول الشاى ، وشغلت السيدات بالحديث عن الأشخاص والأحداث ، التى لم أكن ملما بها ، وتعمدن فيما أظن أن يجعلننى أشعر بالرغم من استقبالى الودى بالفرق فى السن والمركز بينهن وبينى • ومع ذلك ففى الحديث العام لذت بصمتى السابق وبحثت عن عرض ذكائى المشهور وأصالتى ، وهو الشىء الذى أعتبر أن حلتى الرسمية بنوع خاص تضطرنى الى عمله • وعندما دار الحديث حول المنازل الريفية ، رويت فجأة كيف كان للأمير ايفان ايفانتش « فيلا » رائعة بالقرب من موسكو حتى ان الناس كانوا يفدون من لندن وباريس لرؤيتها ؛ وعن وجود سياج من القضبان الحديدية يساوى ثلاثمائة وثمانين روبل ، وأن الأمير ايفان ايفانتش أحد أقاربى الأقربين ، حتى اننى تناولت معه الغداء فى ذلك اليوم • وقال لى اننى يجب أن أؤكد له حضورى لقضاء كل الصيف معه فى (الفيلا) ولكننى رفضت ذلك لأننى كنت أعرف البيت جيدا منذ أن زرته عدة مرات ، وأن جميع هذه الأسيجة والقناطر لا تهمنى البتة لأننى لا أتحمل الترف وخاصة فى الريف ، وأننى أحب أن يكون كل شىء فى الريف مثل الريف نفسه • وما أن نطقت بهذا الكذب الفظيع المعقد حتى ارتبكت واحمر وجهى

احمراراً شديداً ، ولاشك أن كل واحد أدرك أننى كنت أكذب ، وتحولت عنى فارنكا التى كانت تناولنى فى تلك اللحظة فنجانا من الشاى ، وصوفيا ايفانوفنا التى كانت تتأملنى أثناء حديثى ، وأخذتا تتحدثان عن شيء آخر بأسلوب كثيرا مالاحظته منذ ذلك الحين لدى المهذبين من الناس عندما يبدأ أحد الشبان الصغار فى الكذب صراحة فى وجوههم ، وهم يعنـون بذلك : « اننا نعرف بطبيعة الحال أنه يكذب ، فلماذا يكذب الزميل المسكين !! »

ان سبب قولى ان الأمير ايفان ايفانتش يملك (فيلا) هو أننى لم أجد مبرراً أفضل من ذلك لذكر علاقتى بالأمير ايفان ايفانتش ، وتناولى معه الطعام فى ذلك اليوم ، ولكن لماذا ذكرت أن السياج يساوى ثلاثمائة وثمانين ألف روبل ، وأننى زرت بيته مرات كثيرة فى حين أننى لم أزره حتى مرة واحدة ، ولم يكن هذا مستطاعاً مادام الأمير ايفان ايفانتش كان يعيش فقط فى موسكو أو نابلى ، وهذا ماكان يعرفه آل نخليودوف جد المعرفة ؟ اننى لا أستطيع فى الحقيقة تعليل ذلك لنفسى ؛ ولم ألاحظ أبدا فى نفسى ، لا فى الطفولة ولا فى الصـبا ولا فى مرحلة النضج ولا فيما بعد رذيلة الكذب ، بل على العكس ، كنت صريحا ومستقيماً جدا على الأصح ؛ ولكن تملكتنى ابان هذه الفترة الأولى من المراهقة رغبة غريبة فى الكذب لدرجة التهور دون سبب ظاهر ، وأقول « لدرجة التهور » عامداً ، لأننى كنت أكذب فى أشياء كان من اليسير الى أقصى حد

الكشف عن كذبى فيها • ويبدو لى أن الرغبة فى التفاخر واظهار نفسى كأننى رجل مختلف تماما عمـــا كنت ، مقترنة بأمل يتعذر تحقيقه فى حياة الكاذب ، بشرط ألا ينكشف كذبه ، كانت هى السبب الجوهرى فى هذا الميل الغريب •

وبعد أن تناولنا الشاى ، وتوقف سقوط المطر ، صفت السماء وهدأت ، واقترحت الأميرة أن نذهب فى نزهة على الأقدام بالحديقة السفلية والاعجاب ببقعتها المحبوبة ، فأجبت جريا على طريقتى فى أن أكون دائما مبتكرا ، ولاعتبارى أن أناساً أذكياء مثل الأميرة ومثلى يجب أن يرتفعوا فوق الآداب الاجتماعية المألوفة ، أجبت أننى أكره المشى العشوائى ، واذا اهتممت بالمشى على اطلاقه ، فأكون وحيدا تماماً • ولم أدرك أن هذه وقاحة صريحة ، بل خيل الى آنئذ أن ليس هناك شىء أدعى الى الخـزى من الثنـاء المبتذل ، وليس هناك أكثر ظرفا وجدة من قليل من الصراحة الوقحة • ومع ذلك فقد ذهبت الى النزهة مع بقية المجموعة راضيا كل الرضى عن اجابتى •

كانت بقعة الأميرة المفضلة بأقصى الحديقة ، فى أعماقها ، على جسر صـــغير فوق أرض غمقــة ليست بالفسيحة ؛ وكان المنظر محدوداً الى أقصى حد ، ولكنه غاية فى الكآبة والبهجة معا • ولقد ألفنا كثيراً الفن والطبيعة مختلطين حتى ان تلك الظواهر الطبيعية التى لا تقابلها البتة فى الصـــور لا تلفت نظرنا فى كثير جدا من الأحيان كما هو الحال فى الطبيعة الحقيقية ـ وان كانت من الطبيعة

الحقيقية ـ والعكس بالعكس ، فان هذه الظواهر الطبيعية التي تتكرر في الفن أكثر مما ينبغي تبدو لنا مبتذلة ، أو أنها في بعض الأحوال، حين تكون متغلغلة تماما في الفكر والعاطفة وحدهما ، تبدو خيالية • وكان المنظر من بقعة الأميرة المفضلة من هذا النوع ، ويتكون من بركة صغيرة ذات شواطىء كثيفة النماء ، من ورائها تل منحدر تغطيه أشجار وأحراج عتيقة منتشرة ، تكثر فيها التغيرات ذات الخضرة المتفاوتة الألـــوان ، وعند سفح التل شجرة بتولا معمرة متهدلة فوق البركة ، يتشبث بعضها بشاطىء البركة الرطب بجذورها السميكة ، ويرتكز تاجها على شجرة دردار طويلة قوية ، وتتأرجح أغصانها الملتوية على سطح البركة الصقيل الذى يعكس صورة هذه الفروع المتدلية والنباتات الخضراء المحيطة بها •

وقالت الأميرة وهى تهز رأسها دون أن توجه حديثها لشخص بعينه : « ياله من منظر ساحر !! » •

فقلت : « حقا انه مدهش ، ولكنه يبدو مخيفا جدا بصورة ما كمناظر المسرح » وذلك لرغبتي في التظاهر بأن لى رأياً خاصاً في كل شيء •

واستمرت الأمـــيرة فى الاعجـــاب بالمنظر كأنها لم تسمع ملاحظتى ، والتفتت الى أختها وليوبوف سرجيفنا ، وأشارت الى بعض التفاصيل المتفرقة ـ القرمة المعوجة الناتئة ، وانعكاس الصورة التى كانت تروقها كثيراً • وقالت صوفيـــا ايفانوفنا ان كل شىء جميل

جدا ، وأن أختها اعتادت أن تقضى هنا ساعات عدة فى كل مرة ، ولكن كان من الواضح أنهـا قالت ذلك لارضـاء الأميرة فقط . ولاحظت أن الناس الذين وهبوا الاستعداد لما أسميه الحب الذاتى ، قلما يدركون جمال الطبيعة . وكان يبدو على ليوبوف سرجيفنا أنها مفتونة اللب ، وكان من بين ما وجهته من أسئلة عن أشياء أخرى : « بماذا تتشبث شجرة البتولا تلك ؟ وهل ستبقى طويلا ؟ » وكانت تنظر باستمرار الى كلبتها سوزيت التى كانت تجرى الى خلف والى أمام عبر الجسر على سيقانها المعوجة تبصبص بذنبها معبرة عن القلق كأنها وجدت نفسها مصادفة ولأول مرة فى حياتها فى غير حجرتها. وبدأ دمترى مع أمه حديثاً منطقياً فى موضوع أن المنظر لا يبلغ حد الجمال حين يكون الأفق محدوداً . ولم تقل فارنكا شيئا . وعندما درت ألتفت نحوها كانت واقفة منحنية على سياج الجسر ، وجانب وجهها الى ناحيتى ، تنظر أمامها مباشرة ، ويغلب على الظن أنها كانت مهمته اهتمـاماً عميقـاً بشىء ما ، بل بشىء أثر فيهـا ، اذ كان من الواضح أنها غارقة فى حلم يقظة ، ولم تكن تفكر فى نفسها ، ولا فى أن أحداً ينظر اليها . وكانت عيناها الواسعتان مملوءتين بالملاحظة المقصودة ، من فكر هادىء صاف ؛ وكانت وقفتها غير مصطنعة ؛ وبالرغم من قصر قامتها كان فيها شىء كثير من المهابة ، حتى لقد خطر لى مرة أخرى ما تخيلته ذكراها ؛ وسألت نفسى مرة أخرى : « أهى البداية ؟ » وأجبت ثانية بأننى وقعت فعلا فى حب سونتشكا ، وأن فارنكا ليست الا سيدة شابة ، وأخت صديقى . ولكنى أحببتها

فى تلك اللحظة ، وشعرت نتيجة لذلك برغبة غامضة فى أن أقول لها شيئا يكدرها قليلا •

قلت لصديقى وأنا أقترب من فارنكا لكى تسمع ماكنت أوشك أن أقوله : « أتعرف يا دمترى ، أنه حتى لو لم يوجد بعوض ، لما كان فى هذا المكان شىء جميل » ثم أضفت وأنا أضرب جبينى ، وكنت فى الحقيقة أسحق بعوضة ، « وهو الآن مكان مخيف تماما » •

وقالت لى فارنكا دون أن تلتفت الى : « واذن ، فأنت لا تهتم بالطبيعة ؟ » •

وأجبت وأنا راض كل الرضى لقولى هذا الكـــلام المكدر ، وظهورى بمظهر الشخص الشاذ الأطوار :

« ان الاعجاب بالطبيعة عمل عقيم لا نفع فيه » ورفعت فارنكا حاجبيها وظلت لحظة غير مدركة تقريبا وعليها سمة من الاشفاق ، ثم استمرت فى نظرتها الى الأمام مباشرة برصانتها المعهودة دائما •

وتضايقت منها ، ولكن بالرغم من هــذا ، فان سـياج الجسر الضارب الى الرمادى ، بلونه الحائل ، الذى تنحنى فوقه ، وانعكاس القرمة المتدلية من شجرة البتولا المتهـاوية حتى لكأنها مشتاقة الى اللحاق بأغصانها المتهـدلة ورائحة المستنقع ، وشعورى بالبعوضة المسحوقة على جبينى ، ونظرتها الواعية ووقفتها المهيبة ، بالرغم من كل هذا ، كثيراً ما كان يقفز الى خيالى فيما بعد على غير توقع كلية•

(٨٢)

دمترى

عندما عدنا الى البيت بعد نزهتنا لم ترغب فارنكا فى الغناء كما كانت تفعل عادة فى المساء ؛ وكنت واثقا من أننى المسئول عن ذلك، وتوهمت أن ماقلته لهـا على الجسر كان هو السبب • ولم يتناول آل نخليودوف العشاء ، وذهبوا الى الفراش فى ساعة مبكرة ، وكان دمترى فى ذلك اليوم يتألم من أسنانه كما تنبأت صوفيا ايفانوفنا ، فذهبنا الى حجرته ، مبكرين ، بل أكثر تبكيراً من المعتاد • ولظنى أننى قد فعلت كل ما تطلبته منى بنيقتى الزرقاء وأزرارى ، وأننى أعجبت الجميع ، فقد كنت فى حالة عقلية لطيفة راضية • وكان دمترى على العكس قليل الكلام مكتئباً بسبب المشاحنة وألم أسنانه• وجلس الى المائدة وتناول كراساته ـ مذكراته اليومية ، والكتاب الذى تعود أن يسجل فيه كل مساء واجبـاته الماضية والمستقبلة ـ وظل يكتب فيهما وقتا طويلا جدا وهو متجهم الوجه دوما ، يدلك خده بيده •

وصاح بالخادمة التى أرسلتها صوفيا ايفانوفنا للاستفسار عن حالة أسنانه وعما اذا كان لا يريد وضع كمادة : « آه ، أتركينى وحدى ! » ثم أخبرتنى أن فراشى سيكون معداً فى الحال ، وأستطيع أن آوى اليه مباشرة ، ثم عادت الى ليوبوف سرجيفنا •

أخذت أفكر حين تركونى وحدى بالحجرة ، وأقول لنفسى : « ياللأسف ، ان فارنكا ليست جميلة ، وكذلك سونتشكا ! كم يكون مبهجاً لو تقدمت اليهم ومنحتها يدى عندما أترك الجامعة !! سأقول : « أيتها الأميرة ، بما أننى لم أعد بعد صغيراً ، ولذلك لا أستطيع أن أحب حباً حاراً ، فستكونين موضع رعايتى كأخت عزيزة ، وسأقول لأمها : « وأنت ، فأنا أبجلك الآن ، أما فيما يتعلق بك ياصوفيا ايفانوفنا فأتوسل اليك أن تصدقى أننى أقدرك تقديراً عالياً » ، ثم أسألها فى بساطة وصراحة : « أتقبلين أن تكونى زوجتى ؟ » ، « نعم » ثم تناولنى يدها ، فأضغط عليها وأقول : ليس حبى كلاما يا حبيبتى ، ولكنه بالأعمال • ثم خطرت لى فكرة : ماذا تكون الحال لو أن دمترى وقع فى حب ليوبتشكا فجأة ؟ » وذلك لأن ليوبتشكا تحبه ـ وترغب فى أن يتزوجها ؟ واذن ، فواحد منا سوف لا يستطيع أن يتزوج ، وهذا أمر هام ، لأن هذا ماينبغى أن أفعله• وسأراقب كيف تجرى الأمور ولا أقول شيئا • ولكنى سأذهب الى دمترى وأقول له : « عبثا نحاول ياصديقى أن يكتم أحدنا أسراره عن الآخر ، انك تعرف أن حبى لأختك لن ينتهى الا بانتهاء حياتى فقط ـ ومع ذلك فأنا أعرف كل شىء ـ لقد حرمتنى من أجمل أمل ، لقد صيرتنى تعيساً ، ولكن هذه هى الطريقة التى يثأر بها نيكولاى ارتنييف من تعاسة حياته كلها ـ اليك أختى ، وينبغى لى أن أمنحه يد ليوبتشكا • وسيقول : « لا ، لن يكون ! » وأقول له : « لا فائدة أيها الأمير نخليودوف من محاولة التفوق على فى كرم

الأخلاق ، لا يوجد فى العالم كله رجل أكثر نخوة من نيكولاى ارتنييف ، ثم أنحنى لـه وأنسـحب • وسيجـرى خلفى دمتـرى وليوبتشكا دامعى العينين ، ويتوسلان الى أن أقبل تضحيتهما ـ وقد كنت أوافق ، وأكون سعيدا جدا لو كنت أحب فارنكا » هذه الأحلام كانت سارة جداً ، حتى لقد أحببت كثيراً جدا أن أنقلها الى صديقى، ولكن بالرغم من تعاهدنا المتبادل على الصراحة ، شعرت لسبب ما ، أن عمل ذلك متعذر من الناحية المادية •

عـاد دمترى من عند ليـوبوف سرجيفنـا ببعض قطرات على ضرسه كانت قد أعطتها له وكان لا يزال يقاسى ألماً شديداً وبالتالى ظل مكتئباً ، ولم يكن فراشى قد أعد بعد ، وجاء صبى صغير ، وهو خادم دمترى يسألنى عن المكان الذى سأنام فيه •

وصاح دمترى وهو يدق بقدمه : « آه ، اذهب الى الشيطان ؛ فاسكا ، فاسكا » ثم صرخ قائلا حـالما خرج الخادم ، وكان يزداد ارتفاع صوته فى كل صرخة : « فاسكا ، ضع لى فراشا على الأرض»

وقلت : « لا ، دعنى أنام أنا على الأرض » •

وراح دمترى يقول بنفس لهجته الغاضبة : « حسن ، هذا لا يهم ، رتبه فى أى مكان ، ولماذا لا تجعله هنا ؟ »

ولكن ، من الواضح أن فاسكا لم يعرف ماهو المطلوب منه ، فوقف دون حراك •

وصاح دمترى فجأة وقد ثارت ثائرته : « حسن ، ماذا تريد؟ أتسمع ، اذهب فى الحال ، ونفذ ما أقوله لك ! » •

ولكن فاسكا وقف خائفا دون حركة اذ لم يفهم •

واذن ، فأنت مصر على قتلى ، على اخراجى عن صوابى ؟ ثم قفز دمترى من على مقعده وانقض على فاسكا ، وانهال على رأسه بعدة لكمات من قبضته ، وهو يندفع الى خارج الحجرة ، وتوقف دمترى عند البـــاب ونظر الى ، واستحالت مسحة الغيظ والقسوة التى اكتسى بها وجهه برهة الى تعبير صبيانى ودود لطيف خجول ، حتى لقد أسفت له ، وبقدر ما وددت كثيراً أن أنصرف عنه لم أستطع حمل نفسى على ذلك • لم يقل شيئا ، ولكنه أخذ يذرع الحجرة وقتا طويلا ، وينظر الى من وقت لآخر بنفس النظرة الضارعة ، ثم تناول كراسة مذكرات من على المنضدة وكتب فيها شيئا ما وخلع سترته وطواها بعناية ، وذهب الى الممشى حيث الأيقونات معلقة ، وشبك يديه الكبيرتين البيضاوين على صدره ، وأخذ يصلى ؛ ظل يصلى وقتاً طويلا ، حتى لقد اتسع الوقت أمام فاسكا لاحضار الحشية وفرشها على الأرض ، كما أمرته هامساً أن يفعل • وخلعت ملابسى ورقدت فى فراشى الذى أعد هنالك على الأرض ، ولكن دمترى كان لايزال مستمراً فى صـــلاته • وبينما كنت أنظر الى ظهر دمترى المحنى نوعا ما ، والى نعلى قدميه اللتين كانتا تتمثلان أمامى نوعا من الخضوع عندما انبطح على الأرض ، أحببت دمترى أكثر من ذى

قبل ، وظللت أفكر : « هل أخبره ، أو لا أخبره بما كنت أحلم بأختنا ؟ وعندما فرغ دمترى من صلاته ، رقد بجانبى على الفراش متكئا على مرفقه ، وتفرس فى طويلا وفى صمت بنظرة ثابتة ودود، ومن الواضح أنه كان متأملا ، ولكنه كان يبدو كمن يعاقب نفسه . وابتسمت عندما نظرت اليه ، كما ابتسم لى هو أيضا .

وقال : « لماذا لم تخبرنى أننى تصرفت بطريقة مكروهة ؟ لقد فكرت فى ذلك مباشرة بطبيعة الحال » .

فأجبت « نعم » ـ وبالرغم من أننى كنت أفكر فى شىء آخر، الا أنه خيل الى حقيقة أننى فكرت فيها ـ فقد أجبت : « نعم ، لم تكن طريقة لطيفة كلية ؟ ولم أكن انتظر ذلك منك » . وقد جربت نوعاً خاصاً من الترضية فى تلك اللحظة حين خاطبته بضمير المفرد. ثم أضفت : « حسنا ، والآن كيف حال أسنانك ؟ » .

وانفجر دمترى فى ود عميق جدا حتى خيل الى أن الدموع تقف فى عينيه اللامعتين فقال ، « أحسن كثيرا . آه ، ياصديقى نيكولنكا ؟ لقد عرفت ، أنا أشعر اننى شرير ، والله يعلم كم أحاول أن أتحسن ، وكم أتوسل اليه تعالى أن يجعلنى أحسن حالا ؟ ولكن ماذا أفعل مادام مزاجى شرساً وفظيعاً الى هذا الحد ؟ ماذا أفعل ؟ اننى أحاول كبح جماح نفسى واصـــلاح ذاتى ؟ ولكن كل شىء

يصبح مستحيلا على حين فجأة ، انه ليتعـــذر على ذلك فى جميع الأحوال عندما أكون وحدى ، فأنا بحاجة الى مساعدة شخص ما ومعونته ، وأصبحت تفهمنى الآن ليوبوف سرجيفنا ، وقد ساعدتنى فى هذا كثيرا ، وأعرف من مذكراتى اليومية أننى تحسنت كثيراً ابان العام الماضى • آه ، يانيكولنكا « ياعزيزى ! » ثم تابع حديثه فى حب غريب غير مألوف وفى لهجة أهدأ ، بعد هذا الاعتراف ، فقال : « ما أكثر مايعنيه تأثير امرأة مثلها ! يا الهى ! فكر فى مدى الفائدة التى أجنيها حين يكون لى صــديقة مثلها بعد أن أصبح مستقلا !! اننى رجل مختلف كل الاختلاف حين أكون معها » •

وأخذ دمترى آنئذ يكشف لى عن آرائه فى الزواج ، وحياة الريف ، واصلاح الذات المستمر •

قال : « سأعيش فى الريف ، ولربما تزورنى ، وستتزوج من سونتشكا ، وسيلعب أطفالنا معاً • ان هذا يبدو هزلا كله ، ولكن قد يصدق أيضا كل الصدق » •

وقلت مبتسماً وأنا أفكر فى نفس الوقت انه من الأفضل لى لو تزوجت أخته : « بطبيعة الحال ، ولم لا ؟ » •

وقال بعد صمت قصير : « أخبرك عما يجول فقط بخيالك من حيث حبك لسونتشكا ، ولكنى أرى أن هذا ليس حبا جاداً : انك لا تعرف بعد ماهو شعورك الحقيقى » •

ولم أحر جواباً ، لأننى كنت متفقاً معه تقريباً ، وبقينا صامتين برهة .

لا بد أنك لاحظت أن مزاجى عاد اليوم شرساً مرة أخرى ، ونشبت مشاحنة بذيئة بينى وبين فاريا . وساءت حالتى كثيرا بعد ذلك وخاصة أنها حدثت فى حضورك . وبالرغم من أنها تفكر فى كثير من الأشياء بطريقة ينبغى ألا تفكر بها ، فهى فتاة رقيقة ، وتكون على أحسن حال اذا ماعرفتها عن كثب » .

ان تحول حديثه من اثبات عدم حبى لأخته ، الى مدحها ، أبهجنى كثيرا وأخجلنى ؛ ومع ذلك لم أقل له شيئا عن أخته ، ورحت أتحدث عن شىء آخر .

ومن ثمة أخذنا نتحدث حتى بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وكان الفجر الباهت يتراءى فى النافذة عندما ذهب دمترى الى فراشه وأطفأ النور .

وقال : « والآن هيا الى النوم » .

« وأجبت : « نعم ، ولكن بعد كلمة واحدة فقط » .

« حسن وماهى ؟ »

« ان الحياة شىء عظيم ، أليس كذلك ؟ » .

وأجاب فى صوت خيل الى أننى ، حتى فى الظلام ، أستطيع أن أرى معه ملامحه المرحة وعينيه المحبتين ، وابتسامته الصبيانية •

(٨٣)

فى الريف

وفى اليوم التالى ، رحلنا ، فولوديا وأنا ، فى عربة بريد الى الريف • واستعرضت فى ذهنى أثناء الطريق ذكريات موسكو •• وتذكرت سونتشكا فالاخينا ، على أن ذلك لم يحدث حتى حل المساء وكنا قد قطعنا خمس مراحل • وقلت فى نفسى : « انه لمن الغريب أننى أحب ، ومع ذلك نسيت تماما كل شىء عن الحب ، يجب أن أفكر فيها » • وبدأت أفكر فيها بالفعل كما يفكر المرء أثناء السفر ، تفكيراً متقطعا ولكنه واضح ؛ ومن ثمة رددت نفسى الى حالة اعتبرتها الى حد ما ضرورية لظهورى حزينا مفكراً أمام جميع أهل المنزل لمدة يومين بعد وصولنا ، وبخاصة فى حضور كاتنكا التى أعتبرها خبيرة كبرى فى مثل هذه الشئون ، والتى ألمحت اليه باشارة عن الحالة التى وجدت عليها قلبى • ولكن بالرغم من جميع محاولاتى فى التصنع أمام الآخرين ، وأمام نفسى ، وبالرغم من اتخاذى جميع دلائل الرصانة المصطنعة التى لاحظتها خـــلال هذين اليومين على آخرين فى حالة هيام ، فاننى لم أحمل فى ذهنى بصورة دائمة أننى

أحب ، بل كنت أتذكر ذلك خاصة في المساء • وأخيرا استغرقتني دائرة الحياة الريفية الجديدة ومشاغلها ، بسرعة كبرى حتى أنني نسيت كل شيء عن حبي لسونتشكا نسيانا تاما •

وصلنا بتروفسكوى في الليل ، وكنت مستغرقا تماما في النوم حتى أنني لم أر المنزل ولا طريق البتولا ولا أي شخص من أهل المنزل الذين آووا الى فراشهم وناموا منـــذ وقت طويل • وانحني فوكا العجوز ، وكان عاري القدمين ، ملفوفاً بثوب نسائي فضفاض، وفي يده شمعة ، وفتح لنا الباب • كان يهتز فرحا لدى رؤيته لنا ، وقبل أكتافنا ، وأسرع يجمع بســـاطه اللبـادى ثم أخذ يرتدى ملابسه • واجتزت الدهليز وصعدت السلم دون أن أستفيق تماما ؛ ولكن في حجرة الانتظار ، كان قفل الباب والمزلاج ، والألواح المقوسة ، وخزانة الملابس ، والشمعدان القديم المرقط بالشحم من قديم ، وشبح البرد ، والشمعة المعوجة التي أشعلت أخيرا في مصباح الصورة ، والنافذة المزدوجة المتربة على الدوام التي لم ينفض ترابها البتة ، والتي كان ينمو خلفها ، فيما أذكر ، الدردار الجبلي ــ كان هذا كله مألوفاً لدى عامراً بالذكريات ، متسقاً مع نفسه كأنه متحد في فكرة واحدة ، حتى لقد شعرت فجأة بهذا المنزل القديم العزيز يربت على • وتساءلت : « كيف استطعنا ، المنزل وأنا ، أن يستغني أحدنا عن الآخر كل هذه المدة الطويلة ؟ » وجريت مسرعاً لأرى ما اذا كانت الحجرات على هذا المنوال • كان كل شيء كما هو ،

غير أن كل شيء بدا أصغر حجماً وأكثر انخفاضاً ، بينما أنا أطول وأكثر وزنا وأشد غلظة • ولكن المنزل استقبلنى فى حضنه فرحاً كما كنت تماماً • وكل طابق ، وكل نافذة ، وكل درجة من السلم ، وكل صوت أيقظ فى عالماً من الأشكال والمشاعر والأحداث من الماضى الهانىء الذى لن يعود أبداً • وذهبنا الى حجرة نومنا فى طفولتنا ، كل مخاوفى الصبيانية كانت تتربص مرة أخرى فى ظلام الأركان • والأبواب • وذهبنا الى حجرة المائدة : كان نفس الحب الأمومى الرقيق يشع فوق كل شيء فى الحجرة • وذهبنا الى البهو : كان يبدو كأن طرب الطفولة العاصف المهمل قد تريث فى هذه الغرفة ، وكان ينتظر فقط أن تعاد اليه الحياة • وفى حجرة الجلوس ، حيث قادنا فوكا ، وحيث أعد لنا الفراش ، خيل الى كأن كل شيء ـ المرآة والستار ، والأيقونة الخشبية العتيقة ، وكل نتوء فى الجدران مغطى بالورق الأبيض ـ كان يتحدث عن آلام تلك التى لن توجد ثانية وعن موتها •

ورقدنا ، وتركنا فوكا بعد أن تمنى لنا ليلة سعيدة •

وقال فولوديا : « فى هذه الحجرة ماتت أمنا ، أليس كذلك؟ »

ولم أجبه وتصنعت النوم ، فلو كنت قد نطقت بكلمة واحدة لانفجرت بالبكاء • وعندما استيقظت صباح اليوم التالى رأيت أبى لايزال فى عباءته المنزلية ، وخفه المزخرف جالسا على فراش فولوديا

يثرثر معه ويضحك ، وقفز بسرعة في وثبة مرحة ، وتقدم نحوى ، وقدم لى خده وضغطه على شفتى •

وقال ملاطفا بلهجته الخاصة وهو يرمقنى بعينيه الصغيرتين المتألقين : « لقد أحسنت أيها الدبلوماسى فشكراً •• يقول فولوديا انك اجتزت الامتحان على مايرام ، وهذا أمر هام ، فأنت شخص صغير لطيف حينما تضع فى رأسك ألا تكون غبيا •• شكراً لك ياولدى العزيز • سيكون الوقت متسعا لنا هنا ، وقد ننتقل فى الشتاء الى سان بترسبورج ، الا أنه من المؤسف أن موسم الصيد قد انتهى ، وكان بودى أن أهيىء لكما شيئا من التسلية بهذه الوسيلة • هل تتقن القنص يافالديمار ؟ هنالك أى عدد من الحيوانات ، وسأذهب بنفسى معكما فى أحد الأيام • ولذلك سننتقل بمشيئة الله الى سان بترسبورج فى فصل الشتاء ، وستقابلون أناساً وتنشئون علاقات •• لقد كبرتم الآن يا أولادى ، وكنت أقول حالا لفالديمار أنكما الآن تقفان على أقدامكما وقد انتهى واجبى ، فأنتما تستطيعان السير وحدكما • ولكن اذا رغبتما فى نصيحة فأرجو أن تفعلا ـ فأنا لم أصبح بعد (بابا ؟ بل صديقكما وزميلكما وناصحكما حيثما أكون ذا نفع لكما ، ولا شىء أكثر من هذا • فما مدى مطابقة ذلك لفلسفتكما ياكوكو ؟ أهو خير أم شر ؟ » •

وأجبت بطبيعة الحال أنه مطابق لفلسفتنا تماما ، وانني فى الواقع أعتقد ذلك • كانت على وجه بابا فى ذلك اليوم سمة ساحرة

مرحة وسعيدة ، وتلك العلاقات الجديدة التى أنشأها معى ، كأننى صنوه وزميله ، جعلتنى أحبه أكثر • من ذى قبل •

والآن ، أخبرنى ، هل زرت جميع أقاربنا ، وآل ايفن ؟ وهل رأيت الرجل العجوز ؟ وماذا قال لك ؟ » ثم تابع حديثه مستفسراً : « هل ذهبت لزيارة الأمير ايفان ايفانتش ؟ » •

وتحادثنا كثيرا قبل ارتداء ملابسنا حتى بدأت الشمس تهجر نوافذ حجرة الجلوس • ودخل الى الحجرة ياكوف العجوز على عهدنا به دائما ، يفتل أصابعه من وراء ظهره ويكرر على الدوام كلمة : « وأيضا ــــ » وأبلغ أبى أن العربة قد أعدت •

وسألت بابا : « الى أين تذهب ؟ » •

وقال أبى ، بهزة كتفه المعتادة ، وسعال الغيظ : « لقد وعدت أن أذهب اليــــوم الى أسرة ايفانوف • هل تذكـــر الايفانوفا ، الفلمنكية الحسناء ؟ لقد اعتادت زيارة أمك ، انهم أناس ظرفاء » • وبهزة من كتفه مقصودة (هكذا بدت لى) غادر أبى الحجرة •

كانت ليوبتشكا قد جاءت الى الباب مرات عدة أثناء محادثتنا ونادت : « هل أســتطيع الدخول » ولكن بابا كان يصيح فى كل مرة من خلال الباب : « لا تستطيعين فى الحقيقــة لأننــا لم نلبس ثيابنا بعد •

« وما الضرر ؟ لقد رأيتك فى عباءتك المنزلية من قبل » •

فصاح بها : « لا تستطيعين رؤية أخويك دون « سراويل » ... افترضى أن واحدا منهما يطرق بابك ، فهل هذا بكاف لك ؟ والآن ، اذهبا واطرقا ، أيها الولدان ، انه لا يليق بهما حتى التحدث معك وهما على هذه الهيئة المهملة » .

وصاحت ليوبتشكا من الخارج : « آه ، كم يشق على احتمالكم ! مهما كانت الحال ، أسرعوا بالنزول الى حجرة الاستقبال ، ان ميمى تموت شوقاً الى رؤيتكم ! » .

وحالما ذهب بابا ، ارتديت سترة الطالب بأسرع ما استطعت وذهبت الى حجرة الاستقبال ، وكان فولوديا على العكس ، غير متعجل ومكث فى الطابق العلوى وقتاً طويلا يتحدث الى ياكوف عن أحسن أماكن البكاشين ودجاج الأرض . لم يكن فى هذا العالم شىء يخافه كما قلت ، أكثر من خوفه من ابداء العواطف كما كان يسميها نحو أخيه أو أخته أو بابا ، ويتحاشى كل تعبير عن الشعور يحس به وينحرف الى النقيض ـ البرود ـ الذى يجرح غالباً شعور الناس الذين لا يعرفون له سبباً . وقابلت بابا بحجرة الانتظار وهو يسرع الى العربة فى خطوات قصيرة رشيقة ، وكان يرتدى معطف موسكو التقليدى الجديد وشممت رائحة عطر ؟ وعندما رآنى أومأ برأسه مبتهجاً كأنه يريد أن يقول : « أترى ، ألست لطيفاً ؟ » ولفت نظرى مرة أخرى تعبير السعادة الذى لاحظته فى عينيه فى ذلك الصباح .

كانت حجرة الطعام نفس الحجرة المتألقة الراقية ذات « البيانو » الانجليزي الأصفر الفاخر ، ونوافذها الضخمة المفتوحة التى ترى من خلالها الأشجار الخضراء ، وممشى الحديقة البرتقالية اللون تلوح للنظر فى حبور . وبعد أن قبلت ميمى وليوبتشكا ، وكنت فى طريقى الى كاتنكا خطر لى فجأة أنه ليس من الملائم أن أقبلها ؛ فوقفت عاجزاً صامتا خجلا . وقدمت لى كاتنكا التى لم تكن مرتبكة بالمرة ، يدها البيضاء وهنأتنى على دخولى الجامعة . وعندما دخل فولوديا حدث له نفس الشيء حين رأى كاتنكا . من العسير فى الواقع بعد أن كبرنا معاً وأصبح كل منا يرى الآخر كل يوم وفى كل وقت أن نقرر كيف ينبغى الآن أن يحيى أحدنا الآخر بعد افتراقنا الأول . لقد خجلت كاتنكا منا أكثر من الأخريات ، لم يعان فولوديا أى ارتباك ، بل انحنى أمامها قليلا ثم تقدم من ليوبتشكا التى تحدث اليها حديثاً موجزاً ولكنه غير جاد ، ثم ذهب الى مكان ما للنزهة .

(٨٤)

موقفنا من الفتيات

كانت آراء فولوديا عن الفتيات غريبة جداً حتى لقد كان يسلى نفسه بأسئلة مثل : « هل كن جائعات ؟ هل نمن نوماً هادئاً ؟ هل كن يرتدين ملابس ملائمة ؟ هل ارتكبن أخطاء فى اللغة الفرنسية

تخجله أمام الغرباء ؟ ولكنه لم يسلم مطلقاً بفكرة أنهن يستطعن أن يفكرن أو يشعرن بأى شيء انسانى ، وأكثر من هذا أنه لم يسلم بفكرة أن المرء يستطيع مناقشة أى شيء معهن ، وعندما كان يتصادف أن يتقدمن له بأى سؤال جدى (وهو شيء كن يحاولن تحاشيه دائماً) ، واذا سألنه رأيه عن قصة أو عن دراساته بالجامعة ، قطب وجهه وابتعد عنهن فى صمت أو أجاب فى لهجة فرنسية مشوهة(١)، أو يتظاهر بوجه جاد عليه مسحة من التبلد المقصود ، وكان يتفوه بكلمات لا معنى لها ولا ترابط بينها وبين السؤال كلية ، ويكسو عينيه فى الحال بالكآبة ، ويقول : ملف ، أو لقد انصرفوا ، أو كرنب ، أو ما يشبه هذا • وحين يتصادف أن أكرر على سمعه هذه الكلمات التى تكون قد نقلتها الى ليوبتشكا أو كاتنكا كان يقول دائماً :

« واذن ، فأنت لا تزال تبحث معهن المسائل ؟ حقاً ، أرى أنك لا تزال أخرق » •

ولا بد للمرء أن يسمعه لكى يقدر الاحتقار العميق الراسخ الذى يتمثل فى هذه الملاحظة •

لقد أصبح فولوديا راشداً منذ سنتين ، وكان يقع على الدوام فى حب كل امرأة حسناء يقابلها ، ومع أنه رأى كاتنكا كل يوم (وهى ترتدى الملابس الطويلة منذ عامين ، وتزداد حسناً يوماً بعد

---

(١) كان يقول مثلا بـ Comme ci tri joli ٢٢٤ بدلا من Comme c'est très joli

يوم) ولكن احتمال وقوعه فى حبها لم يطرأ على ذهنه مطلقاً ، وسواء كان منشأ هذا أن ذكريات الطفولة العادية ـ المسطرة وثيابها ونزواتها ، لا تزال حية فى ذاكرته ، أو أن منشأه النفور الذى يشعر به الشبان الصغار نحو كل شىء مألوف ، أو من الضعف البشرى عامة الذى يؤدى بالمرء حين يقابل شيئاً طيباً أو جميلا جداً فى بدء حياته ، الى أن يقول لنفسه : « آه ! سأقابل مثل هذا كثيراً » ـ ومهما كانت الحال ، فان فولوديا لم ينظر الى كاتنكا بعينى الرجل.

كان واضحا أن فولوديا كان ثقيل الظل الى حد بعيد طوال ذلك الصيف ، وكان سبب ثقل ظله احتقاره لنا ، الذى لم يحاول أن يخفيه عنا كما سبق أن قلت ، وكان تعبير وجهه يقول على الدوام : « آه ! يا للضيق ! لا يوجد من أتحدث اليه » . وكان يذهب فى الصباح الى الصيد ، أو يقرأ كتابا فى حجرته دون أن يرتدى ملابسه حتى وقت الغداء ، فاذا لم يكن أبى بالمنزل ، فانه يصحب كتابه حتى الى ذلك الغداء ويروح يقرأ دون أن يتبادل كلمة مع أى شخص منا ، مما جعلنا نشعر بالذنب ازاءه على نحو ما . وكان يتمدد مع المساء أيضا على الأريكة فى حجرة الجلوس ، فاما أن يروح فى سبات ورأسه متكىء على مرفقه ، واما أن يقص علينا حكايات لا يمكن حدوثها ـ وقلما يكون محتشما فى بعض الأحيان ، مما كان يغضب ميمى فيحمر وجهها خجلا ، ونستلقى نحن من الضحك ، ولكنه لم يتلطف مطلقا بالتحدث مع أى فرد من أفراد

الأسرة حديثاً جاداً فيما عدا بابا ، ومعى من وقت لآخر ، ولم أحاول تقليد أخى عن رغبة فى آرائه نحو الفتيات ، وان لم أكن شديد الخوف من العاطفة كما كان هو ، وكان احتقارى للفتيات أبعد من أن يكون عميقا راسخ الجذور • بل اننى حاولت عدة مرات فى ذلك الصيف ، لحجتى الى التسلية ، توثيق علاقاتى مع ليوبتشكا وكاتنكا والحديث معهما ، ولكنى فى كل مناسبة كنت أجد فيهن عجزاً عن التفكير المنطقى ، والجهل بأبسط الأشياء العادية مثل ، ما هو المال ، وماذا يدرس فى الجامعة ، وما هى الحرب وما الى ذلك، فعدم الاهتمام بتفسيرات كل هذه الأشياء هو الذى عضد رأيى فى غير صالحهن •

أذكر كيف ظلت ليوبتشكا فى احدى الأمسيات تكرر عزف مقطوعة على « البيان » مطولة الى درجة الاملال ، وكان فولوديا مضطجعاً على الأريكة بحجرة الاستقبال مغفياً يتمتم فى فترات بتهكم خبيث معين ، ولكن دون أن يوجهه الى شخص معين : « يا الهى ! ها هى ذى تشتغل بكد ــ يا لها من موسيقية ، بتهوفن !! (ونطق هذا الاسم بتهكم خاص) هذه براعة ــ والآن ، مرة أخرى ! هو ذلك بالضبط » • وهكذا كنا ، كاتنكا وأنا ، لا نزال حول مائدة الشاى ، ولا أذكر كيف حولت كاتنكا الحديث الى موضوعها المفضل ــ الحب ؛ وكنت فى حالة تسمح بالتفلسف ، وبدأت أحدد معنى الحب فى تعال ، بأنه الرغبة فى الحصول على شىء لا يملكه الشخص ،

وما الى ذلك . ولكن كاتنكا أجـابت بأن الأمر على العكس ، فان الحب لا يكون حباً اذا كانت الفتـاة تؤمل الزواج من رجل تناله ، وأن الملكية فى أيها أقل الأشياء قيمة ، ولكن الحب الصادق الوحيد هو الذى يستطيع تحمل الفراق (أدركت من هذا أنها تشـير الى حبهـا لدوبكوف) . ونهض فولوديا الذى ترامى اليه حديثنـا بالضرورة ، مستنداً الى مرفقه وصـاح مستفسراً : « كاتنكا ، ألا يوجد روسيون ؟ » .

وقالت كاتنكا : « يا لحديثك الفارغ الذى لا ينتهى ! » .

وراح فولوديا يقول وهو يشدد كل كلمة : « هذا ؟ فى علبة الفلفل ؟ » وشعرت أن له كل الحق .

وبصرف النظر عن الصفات العامة للذكاء ودرجة الحساسية ، والاحساس الفنى ، توجد صفة خاصة تظهر بدرجات متفاوتة فى دوائر المجتمع المتفاوتة وبخاصـة فى العـائلات ، وهى الصفة التى أطلق عليها « الادراك » . والنقطة الجوهرية فى هذه الصفة تتكون من شعور تقليدى بالتناسب ، ومن وجهة نظر مقبولة لجـانب واحد للأشياء . ويستطيع شخصان من نفس الوسط أو من نفس العائلة يتمتعان بنفس الصفة أن يسمحا لتعبيرهما عن الشعور بالوصول الى نقطة معينة ، يدرك كلاهما فيما وراءها التعبير اللفظى وحسب . ويحس كلاهما على وجه الدقة أين ينتهى المدح ويبـدأ التهكم ، وأين تنتهى الحماسة ويبـدأ التظاهر ، فى حين أنه عند أناس لهم

نوع آخر من الفهم قد يبدو الأمر مختلفاً تماماً . ويرى أناس يتمتعون بنفس الفهم كل شيء في نفس الضوء الساخر أو الجميل أو المنفر . ولتيسير هوية هذا الفهم تظهر بين أناس من دائرة أو أسرة معينة لغة خاصة به ، وتعبيرات معينة من الكلام ، بل كلمات معينة تعبر عن ظلال من معنى لا يوجد عند أناس آخرين . وهذا الفهم في عائلتنا نما الى أقصى درجات النمو بين بابا وبيننا نحن الأخوين . وكان دوبكوف أيضاً مطابقاً لدائرتنا الصغيرة بدرجة كافية ، ومفهومة ، مع أن دمتري وان كان يفوقه براعة فقد كان مغلق العقل في هذه الناحية ، ولكن هذه المقدرة لم ترتفع في حالة من الحالات الى هذه الذروة من التهذيب ، كما ارتفعت بين فولوديا وبيني ، اذ نشأنا في ظروف متماثلة . وكان بابا متخلفاً عنا وبقدر ما كان من الواضح لنا أن العدد اثنين مضروباً في اثنين يساوي أربعة، بقدر ما كان ذلك عسير الفهم عليه . فمثلا ، حدث أن اتفقنا ، فولوديا وأنا ـ لسبب يعلمه الله ـ على الكلمات الآتية وما يقابلها من معان : كلمة عنب تدل على رغبة في التفاخر لأظهر أن لدى نقوداً، وكلمة ضربة (يجب أن تتشابك الأصابع ، مع تشديد خاص على الحرفين الساكنين في نفس الوقت) تدل على شيء جديد ، صحي ، لطيف ولكنه غير متحذلق ؛ والاسم المستعمل في حالة الجمع يدل على التحيز غير المعقول لذلك الشخص وهكذا . وفوق هذا كان المعنى يتوقف على تعبير الوجه ، وعلى الحديث بوجه عام ، ولذلك فمهما كان التعبير الجديد الذي يخترعه أحدنا لظل جديد من المعنى،

فان الآخر يفهمه فهما دقيقاً بهذا المعنى عند أول تلميح • ولم يكن للفتيات هذا الفهم ، وكان هـذا هو السبب الجـوهرى فى عزلتنـا النفسية والاحتقار الذى كنا نشعر به نحوهن •

ربمـا كان لهـن نوع من « الفهم » خاص بهن ولكنـه فهم يختلف عن فهمنا كل الاختلاف ، حتى أنه حيث كنا ننظر الى التعبير اللفظى كن ينظرن الى الشعور الحقيقى ، وكان تهكمنا فى نظرهن حقيقة ، وهكذا • ولم أفهم آنئذ أنهن غير ملومات على هذا ، وأن هذا العجز عن الفهم لا يمنع أن يكن فتيات طيبات وبارعات جداً ، وقد احتقرتهن بناء على ذلك •

وفوق هـذا ، فعندما انكشفت أمامى فكرة الصراحة وسرت فى تطبيقها على حالتى الى أقصى الحدود اتهمت طبيعة ليوبتشكا الهادئة الحيـيــة المنطوية على السرية ، لأنها لم تجـد ضرورة للتنقيب عن أفكارها وغرائزها الروحيـة وفحصها • فمثلا خيل الى حين كانت ليوبتشكا تشـير بعـلامة الصليب فوق أبى كل ليلة ، وحين كانت كاتنكا تبكى فى الكنيسة الصغيرة وهى تستمع الى القداس الذى أقيم لأمى ، وحين كانت تتأوه كاتنكا وتزر عينيها أثناء عزفها على «البيان» كان يخيل الى أن كل هذا محض ادعـاء : فمتى تعلمن التظاهر كالكبار ، ولماذا كن يخجلن من أنفسهن ؟

(٨٥)

أشغالى

على أن ذلك الصيف قرب بين نسائنا الصغيرات وبيني أكثر مما كانت الحال فى السنوات الأخرى بسبب عشقى الموسيقى الذى أنميته • وفى ذلك الربيع قدم جار شاب لزيارتنا فما أن دخل حجرة الجلوس حتى أخذ يتفرس فى «البيانو» وعكف على تقريب مقعده منه ، وهو يتحدث من وقت لآخر مع ميمى وكاتنكا • وبعد أن تكلموا برهة عن الطقس ومباهج الحياة الريفية ، وجه الحديث بمهارة الى مدوزنى (١) البيانو ، والى الموسيقى ، والى البيانو ، وختم الحديث بأنه يعرف العزف ؟ والواقع أنه عزف موسيقى لثلاث رقصات من « الفالس » وكانت ليوبتشكا وميمى وكاتنكا واقفات حول البيانو يشاهدنه ، ولم يأت هذا الشاب مرة أخرى ، ولكن عزفه راق لى الى أقصى حد كما أن جلسته الى البيانو وعادته فى ازاحة شعره ، وبخاصة أسلوبه فى تناول الثمانيات بيده اليسرى ومده ابهام يده وأصبعه الصغيرة بسرعة فوق المسافة الثمانية ، ثم سحبهما معاً ببطء ، ومدهما مرة أخرى بخفة ، فحركته هذه الرشيقة ، وجلسته المتوانية ، وطريقة ازاحة شعره ، والالتفات الذى وجهته

---

(١) المدوزن هو الشخص الذى يقوم باصلاح الآلات الموسيقية وضبط أوتارها (المترجم)

سيداتنا الى نبوغه ، انتهت بأن ألهبت فى فكرة الانكباب على البيانو وما أن اقنعت نفسى نتيجة لهذه الفكرة ، بأننى أملك الموهبة والشغف بالموسيقى فقد قررت تعلمها ؟ وقد تصرفت فى هذه الناحية كما يتصرف ملايين الذكور ، وبخاصة الاناث اللائى يدرسن بدون معلم ماهر ، ودون اختيار حقيقى ، وبلا أقل فهم لما يستطيع أن يضفيه الفن ، وكيف تتأهب له لتحصل على هذه الهبة . ان العزف ، وبالأحرى العزف على البيانو كان بالنسبة الى وسيلة لسلب لب الفتيات عن طريق مشاعرهن . وبمساعدة كاتنكا التى علمتنى العلامات الموسيقية ، روضت أصابعى الغليظة قليلاً ، وفى هذه العملية استنفدت ضمنا شهرين بحماسة شديدة حتى دربت أصبعى الرابعة العنيدة على ركبتى فى وقت الغداء ، وعلى وسادتى وأنا فى الفراش ، وبدأت على التو عزف « مقطوعات » عزفتها بطبيعة الحال بدافع نفسانى ، كما اعترفت بذلك حتى كاتنكا ، ولكن بسرعة تامة.

كان اختيار المعزوفات مألوفاً ـ الفالس ، ورقصات الجالوب ، وأغانى الحب (مقتبسات) وما الى ذلك ـ وجميعها من أكوام الأشياء البالغة الجمال الموجودة فى حوانيت الموسيقى ويقول لك : « هذه هى التى يجب ألا تعزفها ، لأنه ليس هناك أسوأ ولا أكثر مجافاة للذوق ، ولا أكثر تفاهة منها سبق أن كتب على ورقة موسيقى ومن المرجح أنك لنفس هذا السبب تجدها على كل بيانو لسيدة روسية صغيرة حقيقة كان لدينا « السوناتا الشجية » و « سوناتا

بتهوفن الصغرى » ، اللتان تذبحهما على الدوام النساء الصغيرات ، وقد عزفتهما ليوبتشكا فى ذكرى أمى ، وأشياء أخرى كان قد أعطاها لها مدرس موسكو ، ولكن كانت هناك مؤلفات لهذا المعلم ، ألحان عسكرية وموسيقى رقصة الجالوب السخيفة التى كانت تعزفها لوبتشكا كذلك • ان كاتنكا وأنا لم نكن نحب الأشياء الجادة، وكانت الأشياء المفضلة على كل شىء عندنا هى : « المهرج » و «العندليب» وكانت كاتنكا تعزفهما بمهارة بحيث لا ترى أصابعها ، وقد بدأت العزف بهمة وبشىء من المثابرة • واقتبست حركات الرجل الشاب، وكان يؤسفنى عدم وجود غرباء لسماع عزفى ، ولكن سرعان ما تحققت أن « ليست ، وكلكبرنر » كانا فوق مقدورى ، وتحققت من أننى لا أستطيع اللحاق بكاتنكا ، وتوهمت نتيجة لهذا أن الموسيقى الكلاسيكية أيسر منالا ، ومن ناحية أخرى لأجل الابتكار بنوع ما • وانتهيت فجأة الى الرغبة فى تعلم الموسيقى الألمانية ، وبدأت أستغرق فى نشوة روحية عندما عزفت ليوبتشكا « السوناتا الشجية » وان كانت هذه السوناتا ـ اذا التزمت الصدق ـ تثقل على منذ زمن طويل • وبدأت أعزف بتهوفن بنفسى ، وأنطق الاسم بالطريقة الألمانية • ولكن برغم كل هذا الخلط والادعاء ـ كما أذكر الآن ـ ربما كان يوجد فى شىء من طبيعة الموهبة ، لأن الموسيقى كثيراً ما كانت تؤثر فى الى حد البكاء ، وكنت أحاول انتقاء الأشياء التى تلذ لى فأعزفها على البيان دون أن أستعين بالنوتة، ولذلك ، فلو كان قد وجد من يعلمنى أن أنظر الى الموسيقى كغاية

فى ذاتها ، وليست وسيلة لسحر الفتيات ، فلربما كنت أصبح بالفعل موسيقياً بارعاً تماماً •

كانت مطالعة الروايات الفرنسية التى كان فولوديا قد بخسها حقها كثيراً جداً ، مشغلة أخرى من مشاغلى فى ذلك الصيف ، ففى ذلك الصيف كانت «مونت كريستو» والتمثيليات الدينية قد بدأت فى الظهور، وانغمست فى قراءة سو ، ودوماس ، وبول دى كوك، وكانت أكثر الشخصيات والحوادث شذوذاً حية تماماً كالحقيقة ، ولم أقتصر على عدم التجاسر على الشك فى كذب المؤلف ، ولكن المؤلف نفسه لم يكن حتى موجوداً بالنسبة لى ـ بل كان الناس الأحياء الذين يعملون والمغامرون يظهرون أمامى من خلال الكتاب المطبوع ، وبالرغم من أننى لم أقابل قط فى أى مكان ، أناساً مثل أولئكم الذين قرأت عنهم ، فاننى لم أشك لحظة فى أنهم سوف « يوجدون » فى يوم ما •

وكشفت فى نفسى كل العواطف التى وصفت ، والشبه بينى وبين جميع الشخصيات والأبطال والأوغاد فى كل رواية ، كما يجد كل رجل حساس فى نفسه جميع أعراض الأمراض الممكنة حين يقرأ كتابا طبيا • ومما سررت له فى هذه القصص ، الأفكار الماكرة والعواطف المشبوبة والشخصيات الطبيعية ، فالرجل الطيب كان طيباً تماماً ، كما أن الرجل الخبيث كان خبيثاً تماماً ـ بالضبط كما تخيلت الناس فى مستهل شبابى • وقد سرنى كثيراً جداً أن كل ذلك كان

باللغة الفرنسية ، وأننى أستطيع أن أتذكر الكلمات الفخمة التى ينطق بها الأبطال النبلاء ، وأستخدمها يوماً ما حين أنشغل فى عمل نبيل ، وكم من عبارات فرنسية مختلفة لفقتها بمساعدة تلك الكتب لكوليكوف اذا ما لقيته مرة أخرى ، ولها « هى » حين أقابلها وأصرح لها بحبى ! لقد أعددت أشياء لأقولها لهما تقتلهما على التو • وعلى هذه الروايات أيضاً أسست مثلا عليا جديدة فى القيمة الأخلاقية التى أردت الحصول عليها • وأهم من كل ذلك رغبت فى أن أكون «نبيلا» فى كل أعمالى وسلوكى ، لا بما تعنيه الكلمة الفرنسية التى تنطوى على معنى آخر كما فهمه الألمان عندما استعملوا هذه الكلمة، فلم يخلطوه بالشرف والصدق والاستقامة والصراحة ، ثم بعد ذلك أكون «عاطفياً» • وأن أتصف أخيراً بالصفة التى شعرت بالميل اليها، وهى أن أكون « كما ينبغى » بقدر ما أستطيع ، بل اننى حاولت أن أكون شبيهاً ، فى مظهرى الشخصى وعاداتى بالأبطال ممن يتصفون بواحدة من هذه الصفات • وأذكر أنه كان فى واحدة من مئات الروايات التى قرأتها فى ذلك الصيف بطل مشحوذ العاطفة الى أقصى حد ، ذو حاجبين غزيرين ، فرغبت رغبة قوية فى أن أكون على غراره شكلا (شعرت أننى مثله تماماً من الناحية الروحية) ، وذلك أنه حدث حين كنت أختبر حاجبى فى المرآة أن قصصتهما قليلا لكى ينموا بغزارة ، ولكن تصادف أننى جززت أكثر من اللازم فى موضع واحد ، وكان لا بد لى من تسويتهما ، وعندما انتهيت من ذلك نظرت فى المرآة وشاهدت شكلى ، وكم كان هلعى

اذ وجدتنى بدون حاجبين ، وبالتالى شديد القبح حقيقة • ومع ذلك عزيت نفسى بأن حاجبى سيكونان غزيرين بعد مدة وجيزة كحاجبى الرجل الملتهب العاطفة ، والشىء الوحيد الذى كان يزعجنى هو ما ستقوله أسرتنا عندما يروننى عاطلا من الحاجبين • وأحضرت مسحوقاً من فولوديا ، ودعكته فى حاجبى ، وأشعلت فيه النار • وبالرغم من أن المسحوق لم يومض الا أننى أصبحت تماماً كرجل أصيب بالحرق• ولم يشك أحد فى حيلتى ، ونما حاجباى فى الحقيقة بأغزر مما كانا ، وذلك بعد أن نسيت كل شىء عن الرجل العاطفى •

(٨٦)

كما ينبغى

أشرت عدة مرات خلال هذا السرد الى الفكرة المطابقة لهذا العنوان الفرنسى (١) ، وأشعر الآن بضرورة افراد فصل كامل لها ، لأنها كانت من أكثر الأفكار التى غرسها فى التعليم والمجتمع زيفاً ووبالاً •

يمكن تقسيم المجتمع الى فئات عدة : أغنياء وفقراء ، صالحون

---

(١) وضع هذا العنوان باللغة الفرنسية فى الترجمة الانجليزية •

وطحون ، عسكريون ومدنيون ، أذكياء وأغبياء وهكذا • ومع ذلك فكل انسان له مبدأه المفضل فى التقسيم الذى يرتب بمقتضاه تلقائياً كل شخص جديد • أما تقسيمى الأساسى المفضل فى الوقت الذى اكتب فيه ، فقد كان الى أناس كانوا « كما ينبغى أن يكونوا » ، وأناس « لم يكونوا كما ينبغى أن يكونوا » • والفئة الثانية كانت تنقسم مرة أخرى الى قسمين ثانويين : الى أناس « لم يكونوا كما ينبغى أن يكونوا » وحسب ، وعامة الناس • أما الناس الذين كانوا « كما ينبغى أن يكونوا » فقد اعتبرتهم جديرين بالاختلاط معى على قدم المساواة ؛ أما بالنسبة الى الفئة الثانية فقد تظاهرت باحتقارهم، ولكننى فى حقيقة الأمر كنت أبغضهم ، ويخالجنى نحوهم شعور معين بالتأذى الشخصى ، أما الفئة الثالثة فلم يكن لها وجود بالنسبة الى ـ كنت احتقرهم كل الاحتقار • أما فئتى هذه التى كانت « كما ينبغى أن تكون » فتتألف أولا وأساساً ممن يعرفون اللغة الفرنسية معرفة ممتازة ، وينطقونها نطقاً صحيحاً بنوع خاص • فالشخص الذى لم يكن ينطق الفرنسية نطقاً سليماً ، كان يوقظ فى نفسى على الفور شعوراً بالكراهية ، وأسأله فى عقلى بتهكم لاذع : « لماذا تريد أن تتكلم مثلنا فى حين أنك لا تعرف كيف تتكلم ؟ » والحالة الثانية لفئة « كما ينبغى أن يكونوا » هى أن يمتازوا بالطول والنظافة وأظافر الأصابع المصقولة ، والحالة الثالثة أن يكونوا على معرفة بالانحناء والرقص والحديث ، والرابعة هامة جداً ، وهى عدم الاهتمام بكل شىء ، والتعبير الدائم عن كياسة معينة ، وضيق ينطوى على الاحتقار •

وبالاضافة الى هذه الصفات كانت لى دلائل عامة أستطيع بها أن أقرر دون أن أتحدث الى الرجل ، الى أى فئة ينتسب ، وأهم هذه الدلائل ، بالاضافة الى تنظيم حجرته ، وتوقيعه ، وكتابته وعربته وخيوله ، هما قدماه ، وتناسق حذائه مع سرواله تحدد مباشرة فى نظرى منزلة الرجل الاجتماعية • فالحذاء الخالى من الكعب ، ذو الطرف المدبب والسراويل ذات النهايات الضيقة الخالية من أربطة القدم ـ وكان هذا هو « الشائع » ، والحذاء ذو القدم والكعب المستديرين الضيقين ، والسروال الضيق من أسفل ذو الأربطة التى تلتف حول القدمين ، أو الواسع ذو الأربطة المقوسة فوق أصابع القدمين كالخيمة ـ فان مثل هذا الرجل يكون من « النوع الردىء » وهكذا •

ومن العجيب أن هذه الفكرة قد تملكتنى أنا الذى كنت عطلا قطعاً من الصفات التى ينبغى أن تكون ، ولكن ربما يكون السبب الذى أدى الى تأصل هذه الفكرة فى نفسى بمثل هذا العمق هو مابذلته من جهود لأظفر بصفة « كما ينبغى أن أكون » • ويفزعنى أن أتذكر كم أضعت من وقتى الذى لا يقدر بثمن، وفى أثمن مرحلة من الحياة ـ سن السادسة عشرة لكى أنال هذه الصفة • وخيل الى أنها وصلت بسهولة الى كل شخص ممن قلدتهم ـ فولوديا ، ودوبكوف ومعظم معارفى • كنت أتطلع اليهم حاسداً ، وكنت أشقى سراً فى اللغة الفرنسية وفن الانحناء دون أن أنظر الى

الشخص الذى أنحنى له ، وفى المحادثة والرقص ، وفى تنمية عدم الاهتمام والضيق ، وفى تشذيب أظافر يدى ـ وكنت آنئذ أقص قطعاً من اللحم بالمقص ـ وأشعر طوال الوقت أن هناك الكثير مما يجب عمله قبل الوصول الى هدفى . ولكن بالنسبة الى حجرتى، ومنضدة الكتابة ، وعربتى ـ فلم أكن أعرف على الأقل كيف أرتبها بطريقة تصبح معها « كما ينبغى أن تكون » مع أننى كافحت فى سبيل العناية بها بالرغم من نفورى من الأشياء العملية ، ومع ذلك فان كل هذه الأشياء تبدو لأناس « آخرين » شيئا طبيعياً ، تماما كما لو كانت الأمور لا يمكن أن تكون على وجه غير هذا . أذكر مرة بعد جهد شاق غير مثمر فى أظافرى أن سألت دوبكوف الذى كانت أظافره مشذبة تشذيبا مدهشا ، عما اذا كانت بهذه الهيئة منذ وقت طويل ، وكيف استطاع أن يجعلها كذلك ، فأجاب دوبكوف : « لم أفعل شيئا قط فيما أذكر لكى أجعلها هكذا ، ولا أتخيل أن أظافر سيد ما يمكن أن تختلف عن هذه » وجرحت هذه الاجابة كبريائى جرحاً عميقا ، ولم أعرف آنئذ أن أحد شروط « كما ينبغى أن يكون » هو الكتمان ، فيما يتعلق بالمشاق التى تبذل للوصول الى « كما ينبغى أن أكون » . وفى رأيى أن « كما ينبغى أن تكون » لم تكن فقط فضلا كبيراً ، وصفة لطيفة وكمالا رغبت فى بلوغها ، ولكنها كانت الحالة الضرورية فى الحياة التى لا تكون بدونها سعادة ولا مجد ولا أى شىء طيب فى العالم . فما احترمت فنانا شهيرا ولا عالما ولا شخصا مفيداً للجنس البشرى اذا لم يكن « كما ينبغى

أن يكون » والرجل الذى « يكون كما ينبغى أن يكون » يقف فى مستوى أسمى من مستواهم بما لا يقاس ، فهو يدعهم يرسمون الصور ، ويؤلفون فى الموسيقى ، ويكتبون الكتب ، أو يفعلون الخير ، بل ويمتدحهم على هذا العمل ؛ ولماذا لا يمتدح العمل الطيب مهما كان مضمونه ؟ ولكنه لا يقف معهم فى مستوى واحد : فهو « كما ينبغى أن يكون » ، وهم ليسوا كذلك ، وهذا يكفى ، بل يخيل الى أنه لو كان لنا أخ أو أم أو أب ولم يكن « كما ينبغى أن يكون » لقلت انه من سوء طالعنا ، ولكن لا يمكن أن يكون هناك شىء مشترك بينهم وبينى ، ولكن ليس ضياع الوقت الذهبى الذى استنفد فى القلق المستمر لملاحظة جميع شروط « كما ينبغى أن تكون » التى كانت عسيرة جداً على ، وحرمتنى من كل مسعى جدى ، ولا البغض والاحتقار لتسعة أعشار الجنس البشرى ، ولا عدم الالتفات الى أى شىء جميل خارج دائرة « كما ينبغى أن يكون » ــ لم يكن شىء من هذا هو الضرر الرئيسى الذى ألحقته بى هذه الفكرة ، كان الضرر الجوهرى يتضمن الاقتناع بأن « كما ينبغى أن تكون » فى ذاتها ليست الا منزلة فى مجتمع ، وأن الانسان ليس بحاجة الى اجهاد نفسه لكى يصبح موظفاً أو صانع مركبات أو جنديا أو عالما اذا كان « كما ينبغى أن يكون » ؟ فاذا مابلغ هذه المنزلة فقد أنجز مهمته ، بل ووضع نفسه فوق معظم الجنس البشرى •

فى مرحلة معينة من المراهقة ، وبعد كثير من الأخطاء والانحرافات ، يشعر كل شخص عادة بضرورة القيام بدور ايجابى فى الحياة الاجتماعية ، ويتخير فرعاً من فروع الصناعة ، يكرس نفسه لها ، ولكن ندر مايحدث هذا مع رجل ممن « كما ينبغى أن يكونوا • ولقد عرفت ولا أزال أعرف كثيرين ، بل كثيرين جدا من الناس المسنين ، ذوى كبرياء وثقة بأنفسهم ، صارمين فى أحكامهم ، اذا ماسئلوا فى العالم الآخر : « من أنتم ؟ وماذا صنعتم هنالك فى الدنيا ؟ » فانهم لا يملكون رداً آخر غير : « لقد كنت سيداً كاملا تماماً » (١) •

ان هذا المصير كان ينتظرنى •

(٨٧)

الشباب

بالرغم من اختلاط الأفكار المدومة فى رأسى فى ذلك الصيف ، الا أننى كنت صغيرا بريئا طليقا ، ولذلك كنت سعيدا تقريبا • كيف أستيقظ مبكراً أحيانا بل غالبا أيضا بشىء من التسامح (كنت أنام بالشرفة فى الهواء الطلق وتوقظنى شمس الصباح الساطعة المائلة) فأرتدى ملابسى بسرعة ، وأتناول منشفة وقصة

---

(١) لقد كنت سيدا كاملا

« Je fus un homme très comme il faut.

فرنسية تحت ذراعى ، وأذهب لأستحم فى النهر فى ظل غيضة من أشجار البتولا على مسافة فرسخ من البيت ؛ ثم استلقى على الحشائش فى الظل ، وأرفع عينى من وقت لآخر عن كتابى لأتفرس فى سطح النهر الذى كان يبدو أزرق فى ظل الأشجار ، ثم يبدأ فى التموج تحت نسائم الصباح ، وفى حقل الجاودار الآخذ فى الاصفرار ، على الشاطىء المقابل ، تحت أشعة ضوء الصباح اللامعة الحمراء ، وهى تخضب جذوع أشجار الزان المكتئبة ، والمكتئبة دائما ، التى تتراجع الى أعماق الغابة الرطبة ، مختفية الواحدة خلف الأخرى . وكنت أحس بالبهجة اذ أشعر فى أعماقى بنفس قوة الحياة الجديدة الفتية التى كانت تتنفس من الطبيعة فيما حولى . وعندما كانت تملأ السماء سحب الصباح الرمادية الصغيرة ، ويرتجف جسمى بعد أن أستحم، أبدأ فى كثير من الأحيان فى المشى كيفما اتفق ، فى الغابات والمروج ، أبلل حذائى من أوله لآخره فى الندى الرطيب . وأنساق طوال الوقت الى أحلام زاهية عن أبطال آخر قصة قرأتها ، فأتخيل نفسى تارة جندياً عظيماً ، وتارة أخرى وزيراً ، ثم رجلا ذا قوة هائلة ، ثم رجل عواطف مشبوبة ، وأعكف على التطلع دون انقطاع فيما حولى مرتجفا على أمل « مقابلتها » فجأة فى بعض المروج أو وراء شجرة . وعندما كان يسوقنى بعض هذا التطواف بالقرب من بعض الفلاحين وهم يعملون لا يمنعنى كل تجاهلى « لعامة الشعب » من معاناة ارتباك شديد غير ارادى ، ومحاولة تجنب رؤيتهم لى . وعندما كانت تشتد الحرارة ، ولا تظهر سيداتنا لتناول الشاى ،

فكثيرا ماكنت أذهب الى البستان أو الحديقة لآكل أى شيء من الخضر أو الفاكهة الناضجة ، وكان هذا من مباهجي الأساسية ، فأنا أذهب الى بستان التفاح ، وربما أوغل فى صميم حرجة من أشجار توت العليق الطويلة الضخمة الغزيرة النماء ، وفوق رأسى سماء صافية حارة ، ومن حولى أغصان شجيرات توت العليق ذات الخضرة الشائكة متشابكة مع أعواد الحشائش الضارة ؛ وحشيشة القريص الداكنة الخضرة بشواشيها الرفيعة المزدهرة تمتد مصعدة فى رشاقة ، ونبات الأرقطيون الشبيه بالمخلب ، بأزهاره ذات اللون الأرجوانى والأشواك غير العادية ، تنمو غزيرة فوق شجيرات توت العليق ، ويزيد ارتفاعها على قامتك • هنا وهنالك مصحوبة بحشيشة القريص ، حتى لتصل فى ارتفاعها أغصان شجرة التفاح العتيقة ذات اللون الأخضر الباهت المتهدلة فى غزارة ، والتى تعلوها ثمار التفاح المستديرة لامعة كالعاج ، ولكنها لم تنضج بعد ، رطبة فى حرارة الشمس • والى أسفل ، شجيرة من حشيشة القريص عارية من الأوراق • تكاد أن تكون جافة ، مفتولة ، وملتوية تتطاول نحو الشمس ، ونصال ابرية الشكل من الحشائش تشق طريقها بين أوراق السنوات الأخيرة ، وكلها مخضلة بقطرات الندى ، تنمو مخضرة كثيفة فى الظلال الخالدة كأنها لم تعرف كيف تداعب شمس التفاح المبهجة •

الجو رطب دائما فى هذه الغابة ، وهى عبقة بالظل الغزير

الدائم ، وبنسيج العناكب ، والتفاح المتساقط الآخذ فى السواد على التربة المتعفنة ، وبأشجار حشيشة القريص ، وأحيانا بحشرة «ثاقبة الأذن » التى تبتلعها دون التفات الى ماتأكل من التوت ـ وبعد ذلك تأكل أخرى بأسرع ماتستطيع • وعندما تسير قدما ، تفزع العصافير الدورية التى تعيش دائما فى هذه الغابة ، وتسمع زقزقتها ورفيف أجنحتها الدقيقة الرشيقة فى الأغصان ، وتسمع فى بقعة واحدة طنين الدبور ، ووقع أقدام البستانى فى مكان ما بالممرات، و «آكيم» الأبله الصغير وقرقرته المستمرة لنفسه ، وتقول فى سرك : « لا ! لا هو ولا أى شخص آخر فى الدنيـــا يستطيع العثور على هنا ، وتقطف بكلتا يديك ثمـــار التوت الملىء بالعصـــارة من يمين ومن شمال، من على سيقانها البيضاء المخروطية وتلتهمها بانشراح الواحدة بعد الأخرى • وتبتل ساقاك حتى الركبة ؛ ويظل يجرى فى عقلك بعض هراء مخيف أو غيره (وتكرر فى ذهنك ألف مرة على التوالى، و ـ و ـ س ـ س ـ بعة ، و ـ و ـ عش ـ ر ، رين) ؛ وتلسعك حشيشة القريص فى ذراعيك ، بل فى ســاقيك من خلال سروالك المبتل ، وتأخذ أشعة الشمس المائلة تنفذ الى الغابة وتلفح رأسك ، وتكون رغبتك فى الأكل قد اختفت منذ وقت طويل ، وتظل جالسا فى الغابة الموحشة تصغى وتنظر وتفكر ، ثم تروح تقطف التوت وتأكله دون تفكير •

وفى نحو الساعة الحـادية عشرة فى الوقت الذى تتناول فيه

السيدات الشاى عادة ،ويستقر قرارهن فى العمل ، أذهب الى حجرة الاستقبال ، والى جوار النافذة الأولى المعلق عليها ستار أصم من تيل مبيض ، ترسل الشمس من خلال ثقوبه دوائر شديدة اللمعان فتسقط على أى شيء تقابله فى طريقها حتى ليؤذى العين النظر اليها ، ويقوم نول للتطريز يتنزه الذباب فوق نسيجه الكتانى الأبيض فى سلام ، وتجلس ميمى الى النول تهز رأسها دون توقف وفى غضب ، وتنتقل من مكان الى آخر لتتفادى الشمس التى تنفذ فجأة من موضع أو آخر ، وتنقض شعاعة محرقة من الضوء مرة على يدها ومرة على وجهها • وتسقط من النوافذ الثلاث الأخرى مع ظلال الاطارات رقعاً متألقة كاملة التربيع ، وترقد « ملكا » فى احدى هذه الرقع على أرض حجرة الجلوس العاطلة من الطلاء • وتجلس كاتنكا على الأريكة تشتغل بالحياكة أو القراءة ، وتلوح فى ضجر بيدها البيضاء التى تكاد أن تكون شفافة فى الضوء الباهر ، أو تهز رأسها عابسة لكى تهش الذباب الذى يزحف على جدائلها السميكة الذهبية ويطن فيها • وكانت ليوبتشكا اما تذرع الحجرة جيئة ورواحا عاقدة يديها وراء ظهرها تنتظر ذهابهن الى الحديقة ، أو عازفة قطعة بكل الأنغام التى ألفتها منذ زمن طويل • وكنت أجلس فى مكان ما أستمع الى الموسيقى أو أقرأ وأنتظر حتى أستطيع أنا نفسى الجلوس الى البيانو ، وبعد الغداء أرتضى أحياناً امتطاء صهوة جواد مع الفتيات (كنت أعتبر المشى تدريبا غير ملائم لسنى ولا لمركزى فى الهيئة الاجتماعية) وكانت رحلتنا التى أقودهم

فيها الى الأماكن غير العادية والوهاد ممتعة للغاية • وكانت لنا مغامرات أحيانا أظهر فيها شجاعة كبرى فتثني النساء على مهارتي في الركوب وجسارتي ، ويعتبرنني حاميهن • أما في المساء ، اذا لم يكن هنا زائرون ، وعقب الشاي الذي كنا نتناوله في الشرفة الظليلة ، وبعد مسيرة قصيرة مع بابا ، الى شئون الأملاك ، أرقد في مكاني القديم بالشرفة ، أقرأ أو أحلم ، كما كنت من قبل أصغي الى موسيقى كاتنكا وليوبتشكا • وأحيانا أترك وحيداً في حجرة الجلوس مع ليوبتشكا وهي تعزف بعض الموسيقى القديمة ، فألقي بكتابي وأتطلع من خلال باب الشرفة المفتوح الى أشجار الزان العالية ذات الأغصان الملتوية المتهدلة التي هبطت عليها ظلال المساء ، والى السماء الصافية التي لو تأملتها بنظرة ثابتة لظهرت لك بقعة ضاربة الى الصفرة ثم لا تلبث أن تختفي لتوها مرة أخرى ، وأصغي الى أصوات الموسيقى من القاعة ، والى صريف البوابة ، وأصوات النسوة والقطيع عند العودة الى القرية ، وأتذكر على حين فجأة في كثير من الجلاء ناتاليا سافشنا وأمي وكارل ايفانتش ، فأشعر بالحزن لحظة • ولكن روحي كانت مليئة بالحياة والأمل في هذه الفترة حتى أن هذه الذكريات كانت تمسني فقط بأجنحتها ثم تبتعد مرفرفة •

وبعد العشاء ، وأحيانا بعد النزهة الليلية في الحديقة مع واحد من الناس ـ كنت أخاف السير وحيداً في المماشي المظلمة ـ كنت أذهب لأنام على أرض الشرفة ، مما كان يمدني بلذة كبرى بالرغم

من ملايين البعوض التى كانت تهاجمنى • وعندما كان يكتمل القمر فطالما كنت أقضى ليالى برمتها جالساً فوق حشيتى أتأمل الأضواء والظلال مصغيا الى الصمت والضوضاء ، أحلم بموضوعات شـــتى وخاصة بالهناءة الشاعرية والشهوانية ، التى كان يخيل الى آنئذ أنها قمة السعادة فى الحياة ، وأحزن لكونها حتى ذلك الوقت منحتنى فقط فرصة تخيلها • وفى بعض الأحيان ، سرعان مايأوى الجميع الى فراشهم ، وأرى الأضواء فى حجرة الاستقبال وقد انتقلت الى الحجرات العليا حيث تسمع فى الحل أصوات نسائية ، وصوت فتح النوافذ وغلقها ، حتى أذهب الى الشرفة فأذرعها مصغياً فى اشتياق لجميع أصوات البيت وهى تغط فى النوم • وطالما كان هناك أقل أمل ولو قام على غير أساس لتحقيق قسط من السعادة التى أحلم بها ، فلا أستطيع أن أتخيل هناءة لنفسى وأنا هادىء البال •

عند كل صوت لقدم حافية ، ولدى كل سعال وكل آهة ، وكل قعقعة منخفضة لنافذة ، أو حفيف ثوب ، كنت أقفز من فراشى ، وأقف أتبصبص خلسة فيما حولى ، وأشعر باضطراب دون أى سبب ظاهر ، ولكن تختفى الأضواء فى الحال من النوافذ العليا ، وتفسح الأصوات ووقع الأقدام والحديث الطريق للغطيط ، ويبدأ الحارس الليلى فى الدق على لوحته ، وتزداد ظلمة الحـــديقة ، ومع ذلك تصبح أكثر بهاء عندما تختفى أشعة الضـــوء الحمراء من النوافذ ، وتنتقل آخر شمعة من حجرة المؤن الى حجرة الانتظار ملقية شريطاً

من الضوء على الحديقة المنداة ، ومن خلال النافذة كنت أستطيع رؤية شكل فوكا المقوس فى طريقه الى الفراش ، ملتفاً بدثار وبيده شمعة • وكثيراً ماكنت أشعر بسرور عظيم مثير فى الزحف على الحشائش الندية فى ظلال البيت السوداء ، والاقتراب من نافذة حجرة الانتظار والاصغاء بأنفاس خفيضة الى غطيط الصبى وتأوهات فوكا الذى كان يظن أن أحداً لا يستطيع سماعه ، وسماع صوته العجوز وهو يتلو صلواته وقتا طويلا ، طويلا جدا • وأخيرا تنطفىء آخر شمعة ، وتصفق النافذة ، وأبقى أنا وحيداً تماما ، وأتطلع حولى لأرى ما اذا كانت هناك امرأة بيضاء فى أى مكان بالقرب من الدغل المشجر أو بجوار فراشى ، وكنت أسرع الى الشرفة جريا ، ثم أرقد فى فراشى ، وأولى وجهى ناحية الحديقة ، وأغطى نفسى ماوسعنى أن أفعل خوفا من البعوض والخفافيش ، وأتفرس فى الحديقة وأتسمع الى أصوات الليل ، وأحلم بالحب والسعادة •

وحينئذ كان ينطوى كل شىء على معنى آخر فى نظرى : فمنظر أشجار البتولا العتيقة تتراءى أغصانها على أحد الجانبين لامعة فى ضوء القمر ، وتعتم الشجيرات والطريق على الجانب الآخر ، ويزداد هدوء البركة واشعاعها الغزير لمعانا كالصوت المرتفع ، ويتلألأ ضوء القمر من قطرات الندى على الأزهار أمام الشرفة ، وتلقى بظلالها الرشيقة عبر أحواض الزرع الرمادية ، وصيحات طيور الشنقب من وراء البركة ، وصوت رجل فى الطريق ، وصوت

احتكاك هادىء لا يكـاد يسمع بين شجرتى بتولا عتيقتين ، وطنين البعوض فوق أذنى وتحت دثارى ، وصوت سقوط تفاحة تلقفهـا فرع يابس ثم الأوراق الجافة ، وقفزات الضفادع التى تصل حتى الى درج الشرفة ، وتبدو عجيبة تحت ضوء القمر بظهورها الخضراء - كل هذا اتخذ فى نظرى مغزى غريباً ، مغزى جمال عظيم للغاية ينطوى على سعادة لا حد لها • وحينئذ ظهرت « هى » بضفيرة من الشعر طويلة سوداء ، وصدر نافر ، حزينة دائما وبارعة الجمال ، وبذراعين عاريتين وأحضان داعرة ••• أحبتنى ، وفى مقابل لحظة واحدة من حبها ضحيت بحياتى كلها • ولكن القمر ارتفع وارتفع سامقاً وتلألأ وتلألأ فى كبد السماء ، واشعاع البركة البهى المرتفع كالصوت ، أصبح أوضح فأوضح ، وتزايد سواد الظلال وتزايد ، وشف الضـوء وشف ؛ وبينما أتطلع وأصغى الى كل هذا قال لى شىء ما « انها » بذراعيها العاريتين وحضنها النارى بعيدة ، أبعـد كثيراً من أن تكون كل السعادة ، وأن حبها بعيد ، أبعد من أن يكون كل الهـناءة ؛ وكلمـا تطلعت الى القمر العالى المكتمل ، كنت أكثر سمواً ، وأنقى فأنقى ، وأقرب فأقرب « اليه تعالى » ، الى منبع كل جمال وهناءة • وتجلى أمامى الجمال الحقيقى والهناءة الحقيقية ، واندفعت الى عينى دموع فرح غير قانع ولكنه مزعزع •

كنت لا أزال وحيدا ، ولا أزال أتخيل أن هذه الطبيعة الخفية الرائعة التى يبدو أنها تجتذب اليها قرص القمر اللامع ، وتمسك

به لسبب ما ، فى بقعة عالية وان كانت غير محــددة فى السموات الزرقاء الباهتة ، وفى نفس الوقت تملأ كل الفضاء غير المحدود ، وتملأنى أنا ، تلك الدودة التافهة التى وصمت بكل شهوات الحيــاة الأرضية الحقيرة ، ولكن وهب أيضا قدرة غير محدودة على التخيل والحب ــ وخيل الى فى لحظات كهذه كأن الطبيعة والقمر وأنا جميعا أصبحنا واحداً .

(٨٨)

الجيران

فى اليوم الأول لوصولنا الى الريف ، دهشت لأن بابا وصف آل ابيفانوف بأنهم أناس على خلق ممتاز ؛ ومما زاد من دهشتى أنه كان يذهب الى منزلهم . لقد كانت هناك قضية قائمة بيننا وبين آل ابيفانوف منذ وقت طويل ، وقد سمعت بابا يثور غضباً على هذه القضية مرات كثيرة حين كنت طفلا ويهاجم آل ابيفانوف ، ويستدعى مختلف الناس ليدافعوا عنه ضدهم كما فهمت ، وســمعت ياكوف يسميهم أعــداءنا « أناس أشرار » ؛ وأذكر كيف طلبت أمى ألا يذكر أحد هؤلاء الناس فى بيتها أو فى حضورها .

ومن هذه المعلومات كونت بنفسى ابان طفولتى فكرة قاطعــة واضحة وهى أن آل ابيفانوف كانوا « أعداءنا » ، مستعدين لا لقطع

رقبة بابا فقط أو خنقه ، ولكنهم يفعلون ذلك بابنه أيضاً لو ظفروا به وأنهم « أناس أشرار » بكل ما تنطوى عليه الكلمة من معنى حرفى ، وأننى عندما شاهدت أفدوتيا فاسيلفنا ابيفانوفا « الفلمنكية الحسناء » تقوم على خدمة أمى فى السنة التى ماتت فيها كان من العسير على أن أصدق أنها واحدة من تلك الأسرة ، أسرة الناس الأشرار ، وظللت محتفظاً بأسوأ فكرة عن هذه الأسرة • وبالرغم من أننى كثيراً ما كنت أقابلهم خلال ذلك الصيف فقد استمر تحاملى قاسياً على كل الأسرة ؛ والحقيقة أن آل ابيفانوف كانوا كذلك ، وكانت الأسرة مكونة من أم أرملة تناهز الخمسين ولكنها بقيت عجوزاً مرحة ومتجددة ، ومن ابنتها الجميلة أفدوتيا فاسيلفنا ابيفانوفا ، وابنها المتلعثم اللسان بيوتر فاسيليفتش الذى كان نقيباً (يوزباشى) عزبا ذا نزعة جادة للغاية •

وعاشت أنا دمتريفنا ابيفانوفنا منفصلة عن زوجها لمدة عشرين عاماً قبل وفاته ، أحياناً فى بترسبرج حيث كان لها هناك بعض الأقارب ، ولكنها كانت تقضى معظم الأوقات فى قريتها « ميستشى » الواقعة على مسافة ثلاثة فراسخ منا • وكانت تروى فظائع كهذه فى الجيرة عن طريقة حياتها ، وأن « مسالينا » تعد طفلة بريئة اذا قورنت بها • وطلبت أمى نتيجة لذلك ألا يذكر حتى اسم ابيفانوفا فى بيتها • ولكن لو تحدثنا دون أى سخرية لقلنا ان من المحال تصديق حتى عشر الفضائح المشينة ـ فضائح الجيرة فى الريف •

ولكننى حين عرفت أنا دمتريفنا ، كانت رغم كل شىء بمنزل فلاح ناظر أشغال يسمى « متيوشا » يدهن شعره ويجعده دواماً ويرتدى سترة على الطراز القوقازى ويقف وراء مقعد أنا دمتريفنا وقت الغداء • وبينما كثيراً ما كانت تغرى ضيوفها بالفرنسية أثناء وجوده بالاعجاب بعينيه الجميلتين وفمه ، فان ما كانت تتحدث عنه أمثال هذه الشائعة باستمرار لم يكن له وجود • ويبدو فى الحقيقة أنه فى السنوات العشر الأخيرة ـ أى منذ الوقت الذى استدعت فيه أنا دمتريفنا ابنها المطواع « بتروشا » من الخدمة العسكرية ـ قد غيرت نمط حياتها تغييراً تاماً •

كانت أملاك أنا دمتريفنا صغيرة الرقعة كل من فوقها مائة نسمة ، وكانت نفقاتها كثيرة ابان حياتها المرحة ، ولذلك فان الرهون ومضاعفات الرهون السابقة على هذا بطبيعة الحال كانت قد حلت على أملاكها ، ولم يكن هناك مناص من بيعها بالمزاد العلنى ، وخيل لها ازاء هذه الضرورات الملحة أن الوصاية وجرد الأملاك ، ووصول القاضى ، وأمثال هذه الأشياء المؤلمة لم تنشأ من عجزها عن دفع الفائدة بقدر مانشأت عن كونها امرأة ؟ فكتبت أنا دمتريفنا الى ابنها الذى كان يعمل آنئذ فى فرقته العسكرية ، لكى يأتى وينقذ أمه من هذه الضائقات •

وبالرغم من أن بيوتر فاسيليفتش كان يقوم بعمله فى الخدمة العسكرية على خير وجه ، ويأمل أن يكون مستقلا فى القريب ،

فانه توقف عن كل شيء ، وتحول الى قائمة المتقاعدين ، وقدم الى القرية بوصفه الابن المحترم الذى يعتبر أن أول واجباته مواساة أمه فى سنها المتقدمة (كما كتب عن ذلك بمنتهى الاخلاص فى رسائله) .

كان بيوتر فاسيليفتش ، بالرغم من تقاسيم وجهه الساذجة ، وارتباكه ، وتلعثمه ، رجلا ذا مبادىء ثابتة جدا وحاسة عملية جديرة بالاعتبار . وقد حافظ على الأملاك الى حد ما بواسطة قروض صغيرة ومسايرة الظروف ، والرجاء والوعود ، واضطلع بيوتر فاسيليفتش بادارة الأملاك ، وارتدى سترة والده المبطنة بالفراء التى كانت متروكة بالمخزن ، وتخلص من جياده وعرباته ، ولم يشجع الضيوف على زيارة ميتستشى ، وحفر المصارف ، وزاد من رقعة الأرض الصالحة للزرع، وخفض حصص الفلاحين، وقطع أخشابه وباعها بطريقة تجارية ، ونظم شئونه وأقسم بيوتر فاسيليفتش ، وحافظ على قسمه ، أنه لن يرتدى ثياباً أخرى سوى «بكيشا» والده ، وسترة من الخيش صنعها بنفسه ، وألا يركب أية وسيلة أخرى للمواصلات غير العربة العادية مع الفلاحين التى تجرها خيول الشغل حتى تسدد جميع الديون ، وحاول أن يفرض هذا الأسلوب من عدم المبالاة فى الحياة على جميع الأسرة بقدر ما يسمح به احترامه لأمه ، الذى يعتبره واجبه . كان يتلعثم فى حجرة الجلوس ويتصرف تصرفاً ذليلا الى أقصى حد ازاء أمه ،

فينجز كل رغباتها ويزجر الناس اذا لم يفعلوا ما تأمر به أنا دمتريفنا، ولكنه فى مكتبه الخاص كان يدعو الجميع الى الحساب الدقيق اذا ما قدمت بطة على المائدة بدون أمر منه ، أو اذا أرسلت أنا دمتريفنا فلاحاً (موزيك) ليسأل عن صحة أحد الجيران ، أو أرسلت فتاة فلاحة الى الغابات لجمع توت العليق بدلا من استئصال الحشائش من الحديقة •

وفى مدى ثلاث سنوات دفعت جميع الديون ، وعاد بيوتر فاسيليفتش من رحلة الى موسكو ، فى ملابس جديدة وعربة (تارانتاس) • ولكن بالرغم من ازدهار الحال فى أعماله ، ظل محتفظاً بنفس ميله الى عدم المبالاة الذى كان يفاخر به دائماً فيما يظهر ، أسرته والأغراب • وكثيراً ما كان يقول متلعثماً « ان أى شخص يريد حقيقة أن يزورنى ، فأكون سعيداً لو رآنى فى معطف من جلد الشاة ، ويأكل أيضاً من حساء الكرنب » • ثم يضيف ـ « فأنا آكلها أيضاً » كانت كل كلمة وكل حركة معبرة عن كبريائه تقوم على ادراكه بأنه ضحى بنفسه لأمه ، واسترد الأملاك ، وأنه يحتقر الآخرين لأنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا •

ان أخلاق الأم والابنة كانت تختلف عن أخلاقه اختلافاً تاماً ، وكل منهما تختلف عن الأخرى من وجوه عدة ، فالأم كانت من خيرة نساء المجتمع لطفاً ومرحاً ، وكانت كلتاهما دمثتى الأخلاق، وكانت تبتهج ابتهاجاً حقيقياً لكل شىء مفرح سار ، بل كانت تملك

الى أقصى حد ، القدرة على الاستمتاع برؤية الشباب يمرح ، وهذه سمة توجد فقط فى ذوى الطباع الدمثة من المسنين • أما ابنتها أفدوتيا فاسليفنا ، فعلى العكس ، كانت شخصية جادة، أو بالأحرى، تملك بصورة غريبة تلك النزعة الحالمة غير المكترثة ، متعالية الى حد ما دون أية مبررات من تلك التىتملكها الجميلات غير المتزوجات بوجه عام ؛ وكلما حاولت أن تكون مرحة فان مرحها يكون غريباً بنوع ما كما لو كانت تضحك من نفسها أو من أولئك الذين تتحدث معهم أو من كل المجتمع ؛ ومن المحتمل أنها لم تكن تقصد أن تفعله• وكثيراً ما كنت أتساءل عما تقصده بمثل هذه الملاحظات: « نعم ، اننى جميلة الى حد فظيع » أو « ان الجميع بطبيعة الحال يحبوننى » وهكذا وكانت أنا دمتريفنا دائمة النشاط ، مغرمة بادارة شئون المنزل وتنسيق الحدائق ، وبالأزهار وطيور الكناريا والأشياء الجميلة • كانت حجراتها وحديقتها لا بالفسيحة ولا بالفاخرة ، بل كان كل شىء بالغ النظافة منسق بعناية كبرى ، ويحمل كل شىء طابعاً عاماً من ذلك الطرب الخفيف فى اطار أنيق مما يسمعه المرء واضحاً فى موسيقى الفالس أو البولكا الجميلة ، حتى ان كلمة « لعبة » التى كثيراً ما كان يستعملها ضيوفها فى المدح كانت ملائمة بنوع خاص لحديقة أنا دمتريفنا ومسكنها الأنيقين ، وأنا دمتريفنا نفسها كانت لعبة ـ فهى صغيرة نحيلة ذات وجه مشرق ، ويدين صغيرتين جميلتين ، مرحة على الدوام ، تتحرى اللياقة فى ملبسها

دائما • ولم يكن هناك شيء يعكر هذه السمة غير العروق الضاربة الى اللون الأرجوانى ، النافرة على يديها الصغيرتين •

أما أفدوتيا فاسليفنا فعلى العكس ، قلما كانت تفعل أى شيء ، فهى لم تقتصر على عدم شغفها بالانهماك فى الأزهار والأشياء الصغيرة الأنيقة ، بل كانت قليلة العناية بمظهرها ، فكانت تسرع دائماً بارتداء ملابسها عندما يصل الزائرون• ولكنها عندما كانت تعود الى الحجرة وقد ارتدت ملابسها كانت تبدو جميلة جمالا فائقاً ، باستثناء تعبير عينيها وابتسامها الفاتر الجامد ، الغريب بالنسبة للوجوه المليحة ، ووجهها البالغ الجمال الدقيق التناسق ، وهيئتها الجليلة ، كانت كأنها تقول لك على الدوام « انظر الى ان تكرمت » •

ولكن كل خفة روح الأم ، وعدم اكتراث الابنة وخلقها الحالم ، قد حدثنا عنهما شيء ما ، فقال ان الأولى لم تحب شيئاً قط ، لا الآن ولا فى أوقات مضت الا كل جميل مفرح ، وأن أفدوتيا فاسليفنا واحدة من ذوات الطبائع اللائى لو أحببن مرة ، لضحين بحياتهن كلها للشخص الذى أحببنه •

(٨٩)

زواج أبى

كان أبى فى الثامنة والأربعين عندما اتخذ أفدوتيا فاسليفنا ايفانوفا زوجة ثانية له •

وأظن أن بابا عندما قدم وحده الى الريف مع الفتيات فى الربيع ، كان فى تلك الحالة النفسية العصبية السعيدة التى تميل الى الاجتماع ، والتى يكون فيها المقامرون عادة عندما يتوقفون عن اللعب بعد المكاسب الوفيرة • وكان يشعر أنه لا يزال يختزن الكثير من الحظ غير المستنفد الذى اذا لم يبدده فى المقامرة ، فقد يصرفه على النجاح العام فى الحياة • وفوق هذا كان الوقت ربيعاً ، وأصبح يملك قدراً كبيراً من المال غير المنتظر ، وكان وحيداً تماماً ، ويشعر بالضجر • وفى أثناء مناقشته شئونه مع ياكوف ، وتذكره القضية التى لا تنتهى مع آل ايفانوف ، والحسناء أفدوتيا فاسليفنا التى لم يرها منذ وقت طويل ، يمكننى أن أتخيله يقول لياكوف : « أنت تعرف ياياكوف خارلامتش ما هو رأيى ، فأنا أرى من الخير أن أترك هذه القطعة الملعونة من الأرض تذهب عنى ، أتوافق ؟ ما رأيك ؟ » •

واستطيع أن أتخيل أصابع ياكوف تدور بالنفى على هذا

السؤال من وراء ظهره ، وكيف أثبتت : « أننا على حق قبل كل شيء يا بيوتر الكسندروفتش » •

ولكن بابا أمر باعداد العربة ، وارتدى معطفه الزيتوني الحديث الطراز ، وصفف البقية الباقية من شعره ، ورش منديله بالعطر • وركب الى منزل جاره وهو في أحسن حالات المرح التي أوحى بها اليه اقتناعه بأنه يتعامل مع وجيه أرستقراطي ، وبخاصة أنه كان يأمل في رؤية امرأة حسناء •

أعرف فقط أن أبي في زيارته هذه لم يقابل بيوتر فاسليفتش الذي كان في الحقول ، وأنه قضى ساعة أو ساعتين مع السيدات • وأستطيع أن أتخيله يفيض ظرفاً ويسحرهن وهو يدق الأرض بنعله الرقيق ويهمس ويرنو بنظرات الغرام ، وأستطيع أن أتخيل أيضاً ، كيف شعرت المرأة العجوز الصغيرة نحوه بميل رقيق مفاجيء ، وكيف أصبحت ابنتها الفاترة الجميلة منتعشة •

وعندما جرت الخادمة تلهث لتعلن الى بيوتر فاسليفتش أن ارتنيف العجوز نفسه قد حضر ، أستطيع أن أتخيله يجيب غاضباً : « حسن ، وماذا في ذلك ؟ وما سبب حضوره ؟ » وكيف رجع الى بيته نتيجة لذلك متباطئا قدر ما استطاع ، ولعله أوى الى مكتبه ، وارتدى سترته القذرة متعمداً ، وبعث بعبارة الى الطباخ ألا

يتجاسر ، لأية مناسبة مهما كانت أن يضم اضافات على الغداء حتى اذا أمرت السيدات بذلك •

كثيراً ما رأيت أبى فى صحبة آل ابيفانوف فيما بعد ، ولذلك أستطيع تكوين فكرة جلية عن ذلك اللقاء الأول• أستطيع أن أتخيل أنه بالرغم من أن أبى عرض انهاء هذه القضية بسلام ، فان بيوتر فاسليفتش كان مشاكساً حانقاً لأنه ضحى أعماله فى سبيل أمه ، وأن والدى لم يفعل شيئاً مثل هذا ، وكيف بوغت دون سبب ، وكيف أن والدى الذى تظاهر بعدم ملاحظة كآبته ، كان مرحاً ممازحاً ، وعامله كأنه مهرج مدهش ، وهو شىء كان يضايق بويتر فاسليفتش نوعا ما فى بعض الأوقات وان كان لا يملك الا أن يذعن له أحيانا رغم ارادته • ولسبب ما أو لآخر ، بالاضافة الى ميل أبى الى تحويل كل شىء الى مزاح ، وأطلق على بيوتر فاسليفتش لقب عقيد (أميرالاى) ، وبالرغم من أن ابيفانوف الذى احمر وجهه تجهما ، بل أخذ يتلعثم أكثر من ذى قبل ، قد أبدى مرة ملاحظة فى حضورى هى أنه « ليس ع ــ ع ــ ق ــ قيداً ، بل ــ ن ن ــ ق ــ قيا » وناداه أبى مرة أخرى بعد خمس دقائق فقط بلقب عقيد •

لقد أخبرنى ليوبتشكا أنه كانت هناك قبل وصولنا الى القرية ، مقابلات يومية مع آل ابيفانوف ، وأن الأمور كانت تجرى على قدم وساق • وأعد أبى ، بقدرته على تنظيم كل شىء بلمسة من الأصالة والفطنة ، وفى نفس الوقت بطريقة بسيطة أنيقة ، أفواجاً للقنص

وصيد السمك والألعاب النارية كان يحضرها آل ايفانوف • وقالت ليوبتشكا أن الأمور كانت تجرى أيضاً بصورة أجمل لو لم يكن هناك بويتر فاسليفتش المتزمت ، الذى كان يتجهم ويتلعثم ، ويشوش كل شيء •

بعد وصولنا جاء آل ايفانوف لزيارتنا مرتين فقط ، وزرناهم مرة واحدة ؛ ولكن بعد عيد القديس بطرس ، وهو عيد والدى ، الذى زارنا فيه آل ايفانوف وعدد كبير غيرهم ، توقفت كل علاقاتنا بآل ايفانوف ، وكان أبى يزورهم وحده •

خلال الفترة القصيرة ، عندما كانت تتسع الفرص لرؤية بابا ودونتشكا ـ كما كانت تناديها أمها ، كان هذا ما لاحظته عنهم : كان بابا باستمرار فى تلك الحالة النفسية السعيدة التى لفتت نظرى يوم وصولنا • لقد كان مرحاً للغاية ، فتياً ممتلئاً حيوية وسعادة ، حتى ان سعادته كانت تشع على جميع من حوله ، وتنقل اليهم نفس المزاج ، ولم يكن ينتقل خطوة قط بعيداً عن أفدوتيا فاسيلفنا عندما تكون بالحجرة ، وكان يقدم لها دون انقطاع من الثناء العذب ماكنت أشعر معه بالخجل له ، أو يجلس يتأملها فى صمت ، وينتفض كتفاه بصورة عاطفية ورضاء ذاتى ، ثم يسعل ؛ بل يهمس أحياناً اليها مبتسماً ، ولكنه يفعل كل هذا بتلك السمة الشبيهة بالمزاح الخاصة به فى أكثر الأمور وقاراً •

كان يبدو أن أفدوتيا فاسليفنا قد أصابتها من بابا عدوى السعادة التى كانت فى هذه الفترة تشع دون انقطاع تقريبا من عينيها الواسعتين الزرقاوين ، باستثناء اللحظات التى تتملكها فيها نوبات من الخجل المفاجئة حتى لأتألم من أجلها أنا الذى ألفت هذا الشعور ، ويؤذينى النظر اليها • ومن الواضح أنها فى مثل هذه المحظات تخشى كل نظرة وكل حركة ، ويخيل اليها كأن كل شخص يتأملها ولا يفكر في سواها ، ويستنكر كل شيء عنها • ونظرت الى الجميع على استحياء ، وكان اللون يظهر على وجهها ثم يغيب ، وبدأت تتحدث في شجاعة وبصوت مرتفع ، ولكنه حديث لغو فى معظمه ، وهى مدركة لهذا ، مدركة أن الجميع ومن بينهم بابا ، كان مصغيا ، ثم أحمر وجهها مرة أخرى • ولم يكن أبى حتى فى مثل هذه الأحوال يلاحظ هذا اللغو ، ولكنه يروح يسعل بحماسة كالمعتاد ، ويتفرس فيها فرحاً طروباً • كنت ألاحظ أن نوبات الخجل وان كانت تتملك أفدوتيا دون أي سبب ، فانها فى بعض الأحيان كانت تحدث مباشرة بعد ذكر امرأة صغيرة جميلة فى حضرة بابا • ان التحولات المستمرة من الأشياء الجديرة بالتأمل، الى انبساطها الغريب المحرج الذى تحدثت عنه من قبل ، وتكرار بابا لكلماته المفضلة ، ودورات الحديث ، وطريقتها فى مواصلة الجدل الذى كان يبدأه بابا ــ كل هذا كان يمكن أن يفسر لى العلاقات التى نشأت بين بابا وأفدوتيا فاسليفنا ، لو كان موضوع الحديث أى شخص آخر غير بابا ، ولو كنت أنا أكبر قليلا ، ولكننى لم أشك فى شيء قط ،

حتى حين تسلم أبى فى حضورى رسالة من بويتر فاسليفتش وتكدر كثيراً ، ثم أوقف زياراته الى منزل آل ايفانوف حتى نهاية أغسطس .

فى آخر أغسطس بدأ بابا يزور جيرانه مرة أخرى ؛ وفى اليوم السابق على رحيلنا ، فولوديا وأنا الى موسكو أعلن لنا أنه سيتزوج من أفدوتيا فاسليفنا .

(٩٠)

كيف تلقينا الخبر

عرف كل من فى البيت الحقيقة فى اليوم السابق على اعلانها وكانوا يناقشونها ، ولم تفارق ميمى حجرتها طوال اليوم وكانت تبكى ، وجلست معها كاتنكا ، وخرجت فقط للغداء ، وعليها سمات استياء من الواضح أنها استعارتها من أمها : وكانت ليوبتشكا متهللة للغاية وقالت أثناء الغداء انها عرفت سراً ممتازاً لن تفشيه لأحد .

وقال فولوديا الذى لم يشاركها رضاءها : « لا يوجد فى سرك شىء هام ، بل على العكس ان كنت قادرة على أى تفكير جاد لفهمت أنه من سوء الطالع الى حد كبير » وتفرست فيه ليوبتشكا فى غيظ ولم تقل شيئا .

أراد فولوديا بعد الغـــداء أن يتأبط ذراعى ، ولكنه خشى أن يكون هذا تصرفاً عاطفيـــاً أكثر مما ينبغى ، فلمس مرفقى فقط ، واتجه بى الى القاعة بايماءة منه •

وسألنى عندما اقتنع بنفسه أننا وحيدان : « هل تعـرف السر الذى أشارت اليه ليوبتشكا ؟ »

ندر ماكنا نتحدث ، فولوديا وأنا ، أحدنا الى الآخـر وجهـا لوجه عن أى شىء هام ، ولذلك عندما حدث هذا شعرنا بشىء من الحرج المتبادل ، وأخذت مقلتانا تتراقصـــن فى أعيننا أثناء شرح فولوديا للموضوع ، ولكنه راح الآن يحدق فى عينى بامعان مجيبا على الدهشة البادية فيهما : « ليس هناك مايخيفك ، ولكننا أخوان لا فرق بيننا ، ويجب أن نتشاور معاً فى موضوع عائلى خطير » ففهمت مايريد ، وتابع قوله :

« بابا سيتزوج ابيفانوفا ، أتعرف ؟ »

فأومأت بالايجاب لأنى كنت قد سمعت عن ذلك •

وراح فولوديا يقول : « وهذا شىء غير كريم » •

« لماذا ؟ »

فأجاب منزعجاً : « لماذا ؟ سيكون شيئاً مبهجاً جداً أن يكون لك خال متلعثم اللسان ، عقيد (أميرالاى) ، وكل هؤلاء الأقارب • حقا انها تبدو طيبة الآن فقط ، ليست سيئة ، ولكن من يدرى كيف

ستصير ؟ ولنسلم جدلا بأن هذا لا يحدث تغيراً فى حياتنا ، فلابد أن تظهر ليوبتشكا بسرعة فى المجتمع ، وليس هذا بالشىء المستحب مع زوجة أب كهذه ، فهى حتى لا تجيد التحدث بالفرنسية ، وأى آداب يمكن أن تعلمها اياها !! انها بائعة سمك ، ولا شىء أكثر من هذا : وحتى لو كانت طيبة ، فهى بائعة سمك ، لا فرق بينهما » وختم فولوديا حديثه ، وكان فيما يظهر مسروراً جدا بهذا الوصف « بائعة سمك » •

وكان من العجيب أن أسمع فولوديا آنئذ يصدر حكمه فى هدوء على اختيار بابا ، وقد صدمت لأنه كان صائباً •

واستفسرت : « ولماذا يتزوج بابا ؟ »

انها قصة غريبة ، يعرفهـا الله وحده ؛ وكل ما أعرفه أن بويتر فاسليفتش أغراه بالزواج وطالبه به ؛ وأن بابا لم يكن يريده ، ثم مال اليه بسبب نوع من الشهامة ، انها قصة عجيبة • لقد بدأت الآن فقط أفهم « أبى » • وراح فولوديا يقول : (وهو يطلق عليه « أبى » بدلا من بابا فسبب لى ذلك جرحاً عميقا) : انه رجل لطيف طيب وذكى ، ولكنه هوائى متردد ، وهذا شىء محير ! انه لا يستطيع أن ينظر الى امرأة بجنان ثابت ، فأنت تعرف أنه لا يتعرف بأية امرأة الا ويقع فى حبها ، حتى مع ميمى ، كما تعرف » •

« ماذا تقصد ؟ »

« أخبرك أنني اكتشفت أخيراً أنه كان يحب ميمى عندما كانت صغيرة ، وكان يكتب لها الشعر ، وكان بينهما شيء ، ولاتزال ميمى تقاسى حتى اليوم » ثم انفجر فولوديا ضاحكا .

وقلت فى دهشة : « لا يمكن أن يحدث هذا ! »

وتابع فولوديا حديثه ، وعاودته روح الجد ، وأخذ يتكلم فجأة بالفرنسية : « ولكن الموضوع هو كيف يرضى مثل هذا الزواج جميع أقربائنا ! وهى لابد أن تنجب أطفالا » .

وأجفلت من رأى فولوديا المتعقل ومن بعد نظره اجفالا شديدا ، حتى أننى لم أعرف بماذا أجيب .

وفى هذه اللحظة إقتربت منا ليوبتشكا .

وقال بوجه متهلل : « واذن ، فأنتما تعرفان ؟ »

وقال فولوديا : » نعم ، ولكننى مندهش يالوبتشكا ، انك لم تعودى بعد طفلة ، فكيف تشعرين بالفرح لأن بابا سيتزوج قطعة نفاية ؟ » .

وبدا على لوبتشكا الاهتمام فجأة وراحت تفكر .

آه ، فولوديا ! قطعة نفاية ؟ كيف تتجاسر أن تتحدث هكذا عن أفدوتيا فاسليفنا ؟ فاذا كان بابا مزمعاً على الزواج منها ، فلا يمكن أن تكون قطعة نفاية » .

« حسن » ، لا ــ لقد كانت هــذه فقط طريقتى فى عــرض الموضوع ، ولكن لا تزال ــ » وقاطعتنى ليوبتشكا فى حمية قائلة : « لا • (ولكن لا أزال) انك لم تسمعنى البتة أصف الفتــاة التى تحبها بأنها قطعة نفاية ، فكيف تقول ذلك عن بابا وعن امرأة ممتازة ؟ لا تقل لى ذلك حتى لو كنت أخى الأكبر ، يجب ألا تفعل » •

قد لا أستطيع حتى التعبير عن رأى عن ـــ »

واعترضته ليوبتشكا ثانية : « لا ! ليس عن أب كوالدنا ، ان ميمى تستطيع ، أما أنت ، يا أخى الأكبر فلا » •

وقال فولوديا فى غرور : « آه ، انك لا تفهمين شيئا بعد ••• اصغى •• هل من المستحب أن واحدة مثل ابيفانوفا « دونتشكا » تحتل مكان أمك الراحلة ؟ » •

وظلت ليوبتشكا صامتة لحظة ، ثم فاضت عيناه فجأة بالدموع •

وقالت : « عرفت أنك كنت مغرورا ، ولكننى لم أعرف أنك خبيث الى هذا الحد » ثم تركتنا •

وقال فولوديا ، وقد انطبع وجهه بطابع الوقار الساخر ، وألقى نظرة كئيبة بليدة : « مضيعة للوقت » ثم مضى يقول كأنه يؤنب نفسه على نسيانه نفسه الى حد التنازل بالحديث مع ليوبتشكا •

كان الطقس رديئــا فى اليوم التـــالى ، ولم يكن قد نزل بابا ولا السيدات لتناول الشاى حين دلفت الى حجرة الاستقبال ، وكانت

هناك أمطار خريفية باردة هطلت أثناء الليل ، وبقايا السحب التى أفرغت جعبتها أثناء الليل لاتزال متفرقة فى السماء مع قرص الشمس المكفهر الذى كان فى أعلى ارتفاعه ، يظهر من خلالها خافتا • كان الجو عصفاً رطبا باردا ، وكان الباب المؤدى الى الحديقة مفتوحاً ، وقد جفت البرك التى خلفتها أمطار الليل من على ألواح السقيفة التى اسودت من الرطوبة ، والريح تؤرجح الباب المفتوح الى خلف وأمام على مفصلتيه ، والممـرات مبللة موحلة ، وأشـــجار البتولا العتيقة بأغصانها البيضاء العارية ، والشجيرات والحشائش ، ونبات حشيشة القريص وأشجار الزبيب (البنـــتى) ، الكبيرة منهـــا التى انقلبت أوراقها الشاحبة تكافح كل منها فى نفس مكانها ، كأنها تريد أن تنفصل عن جذورها ، تتطاير من حولها أوراق صفراء مستديرة ، يطرد بعضـــها البعض من ممشى أشـــجار الزيزفون ، وبينما كان يخضلها البلل ، تتأثر على الطريق الرطبة ، وعلى « الحشة الثانية » فى المرعى الرطيب الداكن الخضرة • كان يشغل أفكارى زواج أبى الثانى ، من وجهـــة النظر التى ارتآها فولوديا : فمستقبل أختى ، ومستقبلنا ، بل ومستقبل والدى نفسه ، لا يبشر بخير بالنسبة الى • كانت تعذبنى فكرة أن امرأة غريبة ، أجنبية ، بل أهم من كل هذا أنها امرأة « صغيرة » لم يكن لها حق فى كثير من الوجوه ، فى أن تحتل المكان فجأة ـ ومكان من ؟ كانت مجرد سيدة « صغيرة » ستحتل مكان أمى الميتة ! كان قلبى مثقلا ، وكان يتراءى لى أبى مذنبا أكثر

فأكثر • وفى تلك اللحظة سمعت صوته وصوت فولوديا يتحدثان فى مخزن رئيس الخدم ، لم أكن أريد فى تلك اللحظة بالذات رؤية أبى ، فابتعدت عن الباب ، ولكن ليوبتشكا تقدمت منى وقالت ان بابا يسأل عنى •

كان واقفا فى حجرة الاستقبال مسندا احدى يديه على البيان ، يتطلع ناحيتى بصبر نافد ، ولكن عليه سمات الظفر • لقد فارقه ذلك التعبير عن الشباب والسعادة الذى لاحظته على وجهه ابان هذه الفترة ، كان يبدو مهموماً• وكان فولوديا متجهاً الىالحجرة وغليونه فى يده • واتجهت الى أبى وقلت له صباح الخير •

وقال فى تصميم وهو يرفع رأسه ، فى تلك اللهجة الغريبة الفاترة التى يتكلم بها المرء عن الأشياء الكريهة فى ظاهرها ، والتى لا يتسع الوقت للحكم عليها : « حسن يا أصدقائى ، أظنكم تعرفون أننى أفكر فى الزواج من أفدوتيا فاسليفنا » (ثم صمت لحظة) « ولم أكن أفكر مطلقا فى الزواج بعد أمكم ، ولكن — » (وتوقف لحظة) ـ « ولكن ـ ولكن ، من الواضح أنه النصيب ••• ان دونتشكا فتاة عزيزة لطيفة ، ولم تعد صغيرة جداً ، وآمل أن تحبوها يا أطفالى ، وقد أحبتكم من قبل بكل قلبها ، وهى امرأة طيبة » ثم قال وهو يلتفت الى فولوديا والى حتى لا يترك لنا فسحة من الوقت للاعتراض عليه : « والآن ، قد حان الوقت لمغادرة المنزل ، ولكنى سأبقى حتى العام الجديد فأذهب الى موسكو » (وتردد مرة أخرى)

« مع زوجتى وليوبتشكا » • وقد آلمنى أن أرى أبى يبدو هيابا مذنبا أمامنا ، واقتربت منه ؛ ولكن فولوديا استمر فى التدخين وأخذ يذرع الحجرة مطأطئا الرأس •

وختم والدى حديثه قائلا : « وهكذا يا أصدقائى مدبره والدكم الرجل العجوز » واحمر وجهه وسعل ، وضغط على يد فولوديا ويدى • وكانت الدموع تترقرق فى عينيه وهو يتكلم ، ولاحظت أن اليد التى مدها الى فولوديا الذى كان فى الجانب الآخر من الحجرة فى تلك اللحظة ، ترتجف قليلا ؛ وأثر فى منظر هذه اليد المرتجفة تأثيرا مؤلماً ، وخطرت على ذهنى فكرة لاتزال تقلقنى : كانت الفكرة التى خطرت لى ، هى أن بابا كان فى الجيش سنة ١٨١٢ ، وكان ضابطا شجاعاً ، كما كان مشهورا • واستبقيت يده الضخمة القوية ، وقبلتها ؛ وضغط هو على يدى • وما أن كبح دموعه حتى تناول فجأة رأس ليوبتشكا الأسود بين يديه وأخذ يقبلها فى عينيها • وتظاهر فولوديا بأن غليونه قد سقط ، فانحنى ومسح عينيه بقبضة يده ثم غادر الحجرة محاولا ألا يلاحظه أحد •

(٩١)
الجامعة

كان الزواج سيتم فى مدى أسبوعين ، ولكن محاضراتنا كانت قد بدأت ، وعدنا ، فولوديا وأنا الى موسكو فى مستهل شهر

سبتمبر ، وعاد آل نخليودوف أيضا من الريف ، وجــاء دمترى لزيارتى مباشرة (كنا قد وعدناه أن يكتب كل منا للآخر عند رحيلنا، ولكن لم نكتب بطبيعة الحال مرة واحدة) وصممنا على أن يصحبنى فى اليوم التالى الى الجامعة الى المحاضرة الأولى •

كان يوما صحواً مشمساً •

وحالما دخلت القاعة العامة شعرت بشخصيتى تختفى فى زحام الزملاء الصغار المرحين الذى تموج بضجته جميع الأبواب والدهاليز فى ضوء الشمس الساطع • وكان شعورى بأننى عضـــو فى هذه الجماعة الكبرى سار للغاية ، ولكن عدد من كنت أعرفهم بين هؤلاء الأشخاص كان قليلا وكان التعارف مقصورا على الايماءة بالرأس وكلمات : « كيف حالك يا ارتينييف » • ولكن جميع من حولى كانوا يحيون بالأيدى وبالحديث ـ عبارات الصداقة ، والابتسامات ، والتمنيات الطيبة ، والاشارات كانت كالمطر فى كل الأركان ؛ وفى كل مكان كنت أشعر بالرابطة التى تشدنى الى هذه الجماعة الفتية • وشعرت بالأسف لأن هذه الرابطة قد فاتتنى بطريقة ما ، ولكن هذا لم يكن الا انطباعاً مؤقتا • ونتيجة لهذا وللكدر الذى تسبب فيه اكتشفت بسرعة أنه كان من الخير لى عدم انتسابى لهذا المجتمع ، وأنه يجب أن تكون لى دائرتى من الناس الظرفاء • وجلست فى الصف الثـــالث حيث كان يجلس الكونت (ب) والبــارون (ز) والأمير (ر) ايفن وسادة آخرون من تلك الطبقة التى عرفت منهــا

فقط ايفن والكونت • ونظر الى هؤلاء السادة عرضاً ، وشعرت أنني لا أنتسب الى هذه الطبقة كذلك • وأخـــذت أراقب كل مايجري حولي • سيمنوف بشعره الرمادي المجعد وأسنانه البيضاء ، وسترته المفكوكة الأزرار ، يجلس على مسافة ليست بعيدة عني ، يتكيء على مرفقيه يقرض ريشــته ، والجمنازي الذي كان الأول في الأمتحان، وكان يجلس في الصف الأول بعنقه الملفوف بربطة الرقبة السوداء، ويلعب بمفتاح ساعة فضي على صدريته الحريرية • وكان ايكونين الذي كافح في سبيل دخول الجامعة يجلس في أعلى صف في سرواله الأزرق الذي يغطي كل حذائه تماما ، يضحك ويصيح بأنه على جبل برناسوس (١) • واشد ما أدهشني ، أن النكا الذي لم يحيني فقط ببرود ، بل باحتقار كأنه يريد أن يذكرني بأننا هنا سواء ، كان يجلس أمامي ويضع ساقيه النحيلتين على المقعد بطريقة خاصة طليقة هينة (وكان هذا لصالحي فيما كنت أظن) ، يتحدث الى طالب آخر ويلقي نظرات عارضــة ناحيتي • = كانت جماعة ايفن بجواري يتحدثون بالفرنسية وخيل الى أن هؤلاء السادة كانوا على غباء مطبق، فلم تكن كل كلمة ترامت الى من حديثهم لا معنى لها وحسب ، بل كانت خاطئة كذلك ، فهي ببساطة لم تكن لغة فرنسية بحال ، كما قلت في سري ، في حــين أن جمــاعة سيمنوف والنكا وغيرهم ؛

---

(١) جبل في وسط بلاد الاغريق كان مكرسا في الزمن القديم للالهات التسع بنات زيوس ، ويستوحي منهن الشعر والموسيقى • ويقصد أنه يجلس في أعلى مكان (المترجم)

وأحاديثهم وسلوكهم كانت تبدو كلها خسيسة وليست شريفة الخصال ، أى « ليست كما ينبغى أن تكون » •

لم أتبع أية جماعة ، واستولى على الامتعاض لشعورى بالعزلة وعجزى عن تكوين أصدقاء • كان أحد الطلبة فى الصف الذى أمامى يقضم أظافره التى احمرت كل أذيناتها بسبب الالتهاب ؟ وقد أثارنى هذا فيما يخيل الى ، حتى لقد ابتعدت عنه ، وأذكر فى أعماق روحى أن هذا اليوم الأول كان يوما محزنا جدا لنفسى •

أذكر حين دخل الاستاذ ، وحدث هرج عام ، ثم أعقبه صمت، أننى ألقيت على الاستاذ نظرتى الناقدة للأشياء ؟ وقد دهشت اذ بدأ الأستاذ محاضرته بعبارة تمهيدية ليست فى رأيى ، ذات معنى • كنت أحب أن تكون المحاضرة منطوية على الفطنة من أولها الى آخرها ، بحيث لا يقتطع منها شىء ولا تضاف اليها كلمة واحدة • ولما كنت غير مخدوع من هذه الناحية ، فقد خططت بسرعة ثمانية عشر وجها جانبيا متلاصقة فى دائرة على شكل ضفيرة وضعتها تحت عنوان « المحاضرة الأولى » ، فى كراسة مذكرات مجلدة تجليدا جميلا ، كنت قد أحضرتها معى ، وكنت أحرك يدى فقط عبر الورقة بين حين وآخر لكى يظن الأستاذ أننى أكتب (كنت واثقا من أنه كان يولينى قسطا وافراً من الالتفات) وما أن قررت فى هذه المحاضرة نفسها أنه ليس من الضرورى كتابة كل شىء يقوله الأستاذ ، بل

انه لمن الغباء عمل هذا ، حتى حافظت على هذه القاعدة طوال فترة الدراسة .

لم أشعر فى المحاضرات التالية شعوراً قوياً بعزلتى ، فقد كونت معارف كثيرين ، أحييهم باليد وأتحدث معهم ، ومع ذلك فلسبب أو لآخر لم تنشأ بينى وبين رفاقى ألفة حقيقية ، وكثيرا ماكنت أجد نفسى منقبضاً وأتصنع الابتهاج فقط . ولم أكن أستطيع الانضمام الى جماعة ايفن والأشراف ، كما كان يطلق عليهم ، لأننى أذكر الآن أننى كنت خشنا فظا معهم ، ولا أنحنى لهم الا بعد أن ينحنوا الى ، وواضح أن حاجتهم الى معرفتى كانت ضئيلة جداً . ومع ذلك فان هذا الموقف بالنسبة للآخرين ، قد نشـــأ من سبب مختلف كل الاختـلاف . وسرعان ماكنت أشعر بأن أحد الزملاء قد بدأ يميل الى بدرجـة مشجعة حتى أجعله يفهم أننى أتناول الطعام بمنزل الأمير ايفـــان ايفانتش ، وأننى أملك دروشكى ، وكنت أقول كل هذا لأضع نفسى فى مكانة أكثر تشجيعا ، ولكى يزداد زميلى حباً لى ، ولكن كان يحدث العكس تقريبا فى كل مرة ، وكان يحيرنى أن أرى زميلى يتصنع نحوى الفتور والتعالى حالما يسمع عن علاقتى بالأمير ايفن ايفانتش .

كان بيننا طالب تكفله الدولة على نفقتها ، هو أوبيروف ، الشاب المتواضع ، الحاذق الشغال الى أقصى حد ، والذى كان يقدم لكل شخص يده جامدة مثل لوح الخشب دون أن يثنى أصابعه ، أو يحدث

بها أية حركة ، ولذلك فان المازحين من بين أقرانه كانوا يصافحونه باليد أحيانا بنفس الطريقة ، ويطلقون عليها « طريقة اللوح » فى المصافحة . كنت أجلس باستمرار تقريبا بجانبه وكنا نتجاذب الحديث غالبا ، وكان أوبيروف يعجبنى بنوع خاص لآرائه الحرة فيما يتصل بالأساتذة ؛ فهو يحدد بطريقة غاية فى الوضوح والسداد مزايا تدريس كل أستاذ ونقائصه ، بل انه كان يسخر منهم فى بعض الأحيان ، مما كان يترك فى نفسى بنوع خاص أثرا غريبا مفزعاً ، لصدوره من فمه البالغ الصغر ، وبصوته الهادىء . ومع ذلك فانه كان يسجل بعناية جميع المحاضرات دون استثناء بخطه الصغير . وكنا قد بدأنا نصبح صديقين ، وقررنا المذاكرة سويا ، وأخذت عيناه تلتفتان الى بابتهاج عندما كنت أذهب لأحتل مكانى المعتاد الى جانبه ، ولكنى وجدت من الضرورى أن أوضح له مرة فى مجرى المحادثة أن أمى وهى على وشك الموت التمست من أبى ألا يلحقنى بأى معهد من معاهد الدولة ، وأن جميع طلبة معاهد الدولة ، وان كانوا على جانب كبير من العلم الا أنهم ليسوا الناس اللائقين . وقلت متلعثما اذ شعرت بحمرة الخجل لسبب أو لآخر : « ليسوا كما ينبغى أن يكونوا » . ولم يقل لى أوبروف شيئا ولكنه فى المحاضرات التالية لم يحينى أولا ، ولم يصافحنى بيده الصغيرة الشبيهة باللوح ، ولم يخاطبنى . وعندما كنت أجلس فى مكانى ، كان يحنى رأسه حتى لتكاد تلمس كتبه ؛ ويتظاهر بالانشغال فيها . ودهشت لفتور

أوبروف المفاجيء ، ولكنى اعتبرت أن ملاطفة شـــاب كريم المحتد لطالب تعوله الدولة شيء لا يليق ، فتركته فى ســــلام ؛ بالرغم من أن فتوره كان يؤلمنى ، ويجب أن أعترف بهــــذا . ووصلت مرة مبكرا عنه ، ولما كان الأستاذ المحــاضر مشــهورا ؛ فقــد احتشـــد الطلبــة الذين لم يتعـودا حضــور محــاضرات ، وتقاطروا الى هذه المحاضرة وشغلت كل المقـــاعد ، فجلست فى مكان أوبيروف ، ووضعت كراســة مذكراتى على الدرج ثم خرجت . ولدى عودتى الى قاعة المحاضرات أدهشنى أن كراســة مذكراتى قد نقلت الى المقعد الخلفى ، وجلس أوبيروف فى مقعده ، فنبهته الى أننى كنت قد وضعت كتبى هناك .

فأجاب فجأة فى غضب ، بل دون أن ينظر الى : « لا أعرف شيئا عن ذلك » .

وقلت فى تعال : « أقـــول لك اننى وضعت كتبى هناك » ثم أضفت وأنا أتطلع الى الطلبة من حولى : « الجميع رأونى وأنا أفعل هذا » . وبالرغم من أن كثيرين تطلعوا الى فى فضول الا أن أحدا منهم لم يحر جواباً .

وقال أوبيروف وهو يستقر فى مكانه غاضـــبا ، ويحدق فى النظر حانقاً : « ان المقـــاعد هنا ليست بالبطاقات ، ويحتلها الذين يأتون أولا » .

فقلت : « معنى ذلك أنك عديم التربية » .

وخيل الى أن أوبيروف غمغم بشيء ما ، بل خيل الى أنه قال متمتماً : « انك جرو غبى » ولكنى لم أسمعه بالتأكيد . وماذا كان يفيدنى اذا سمعته؟ هل كان ينبغى أن نتشاجر مثل اثنين من المتشردين (كنت مغرما جدا بكلمة متشرد ، وقد استخدمتها كاجابة وحل فى كثير من الشئون المعقدة) ولربما أكون قلت شيئا أكثر من ذلك ، ولكن فى تلك اللحظة صفق الباب ، ودخل الأستاذ الحجرة مرتديا سترته الرسمية وهو يحك الأرض بقدمه ، واجتازها الى مكتبه .

ومع ذلك فحين احتجت الى كراسات المذكرات قبل الامتحان تذكر أوبيروف وعده فمنحنى كراساته ودعانى الى المذاكرة معه

(٩٢)

شئون القلب

استوعبت شئون القلب انتباهى شطرا كبيرا فى غضون الشتاء . لقد أحببت ثلاث مرات ، مرة وقعت فى حب حار مع سيدة موسرة كانت تركب الخيل بمدرسة فريتاج لركوب الخيل ، وكنت أذهب نتيجة لذلك الى المدرسة كل ثلاثاء وجمعة ـ وهما اليومان اللذان كانت تركب فيهما ـ لكى أتطلع اليها ، ولكنى فى كل مناسبة كنت

أخاف كثيرا أن ترانى ، حتى أننى كنت أقف بعيدا عنها على الدوام ، ثم أهرب على التو متغافلا اذا مارأيت احتمال قربها من البقعة التى أقف فيها ، وأتحول جانباً اذا ما نظرت ناحيتى ، حتى أننى لم أتأمل وجهها جيـداً ، ولا أعرف حتى هذا اليوم اذا كانت جميلة حقيقة أم لا .

وفاجأنى دوبكـوف الذى كان يعـــرف هذه السيدة مرة فى مدرسة ركوب الخيل مختبئا وراء الخدم وعباءات الفراء التى كانوا يحملونها ، وما أن عرف من دمترى عن هيامى حتى أفزعنى باقتراح تقديمى الى هذه السيدة المسترجلة وأسرعت بالابتعاد ، وكانت فكرة حديثه اليها بشأنى هى نفسها التى حالت دون اجترائى على دخول المدرسة مرة أخرى ، حتى الى مكان وقوف الخدم خشية أن أقابلها .

عندما كنت أقع فى حب امرأة لا أعرفها ، وبخاصة المتزوجات منهن ، كان يكتنفنى خجل أعنف ألف مرة من الخجل الذى كابدته فى حالة سونتشكا ، وكنت أخاف أكثر من أى شىء آخر فى العالم أن يكشف هدف حبى هذا الخجل ، أو حتى مجرد وجودى ؛ وخيل الى أنها اذا فعلت ذلك مرة ، فانها ستشعر بالمهـــانة الى الحد الذى لا تستطيع معه أن تغفر لى . والواقع أن هذه المرأة المسترجلة لو عرفت بالتفصيل كيف فكرت حين اختلست النظر اليهـــا من وراء الخدم ، فى القبض عليهـا وحملها بعيداً الى الريف ، وكيف كنت سأعيش معها هناك ، وماذا كنت سأفعل ، لساغ لها أن تشعر بشدة

اهانتها ، ولكنى لا أستطيع أن أدرك بوضوح انها حتى اذا عرفتنى بالفعل ، فسوف لا تعرف كل أفكارى عنها ، وأن ليس هناك شىء يثمينني اذن لمجرد تعرفى بها •

ووقعت فى حب سونتشكا مرة أخرى حين رأيتها مع أختى • وقد ذبل حبى الثانى لها منذ أمد طويل ، ولكنى وقعت فى حبها للمرة الثالثة عندما أعطتنى ليوبتشكا مجلدا من الشعر كانت سونتشكا قد نسخته ، وكان يضم كثيراً من فقرات العشق الحزين من قصة « الشيطان » للرمنتوف ، موضوع تحتها خطوط بالحبر الأحمر ، وفيه أزهار وضعت لتشير اليها • وعندما تذكرت كيف قبل فولوديا كيس حبيبته الصغير فى العام السابق ، حاولت أن أفعل مثله ، والواقع أننى حين أكون وحيداً بحجرتى فى المســاء ، كنت أقع فى هواجس ، وأضم شفتى على الأزهار عندما أتفرس فيها ، وأشعر بعاطفة معينة ، دامعة سارة ، ويعاودنى الحب مرة أخرى ، أو أتخيل على الأقل لعدة أيام أننى أحب •

وأخيراً وقعت فى الحب لثالث مرة فى ذلك الشتاء مع المرأة الصغيرة التى كان يحبها فولوديا ، والتى زارت بيتنا • وعندما أتذكر الآن تلك السيدة ، لا أجد فيها شيئا جميلا ولا شىء من ذلك الجمال المعين الذى يروقنى عـادة • كانت ابنة ســيدة من موسكو واسعة الشهرة ؛ راجحة العقل ؛ متضلعة فى العلم ؛ كانت صغيرة نحيلة ، ذات شعر أشقر أجعد طويل على الطراز الانجليزى ، وخد شفيف•

كان الجميع يقولون ان هذه السيدة الشـــابة أذكى من أمها وأكثر علما ، ولكن لا يسعنى أن أصدر حكما فىهذه النقطة أيا كان نوعه، ولشعورى بنـــوع من الاستحياء المستسلم عند تفكيرى فى ذكائها
علما ، ولكن لا يسعنى أن أصدر حكما فى هذه النقطة أيا كان نوعه،
لا توصف • ولكن هيام فولوديا الذى لم يكبحه قط فى التعبير عن طربه وجود الآخـرين ، قد انتقـل الى بقـوة شـعرت معهـا بوقوعى فى حب السـيدة اصـغيرة حبـاً حـاراً ولما شـعرت بأن أخبار « أخين كانا واقعين فى حب سيدة صـغيرة بعينها » لن تكون مرضية لفولوديا ، لم أذكر له شيئا عن حبى • ومن ناحية أخرى ، حصلت على أقصى حد من الرضا ، عن طريق هذه العاطفة على أساس أن حبنا كان نقيا حتى أنه بالرغم من أن هدفه واحد وهو نفس الكائن الفاتن ، فينبغى أن نظل أصدقاء ، متأهبين لتضحية ذواتنا بعضنا لبعض اذا ماعرضت الضرورة • ومع ذلك ظهـــر أن فولوديا لم يشاطرنى شعورى البتة فيما يتصل باستعداده للتضحية ، لأن حبه بلغ من العنف حداً جعله يعزم على أن يلطم ـ الرجل الذى قيل انه سيتزوجها ـ وهو دبلوماسى أصيل ـ على وجهه ويتحداه للمبارزة • كان مما يلذ لى كثيراً تضحية مشاعرى ، ولربما كان السبب هو أن ذلك لا يكلفنى جهداً ، ولذلك وجهت مرة واحدة فقط الى السيدة الصغيرة ملاحظة متسامية جدا فى قيمة الموسيقى الكلاسيكية ، ورغم بذل كل جهدى للمحافظة على حبى حيـاً فقد انطفأت جـذوته فى الأسبوع التالى •

المجتمع

ان المباهج التقليدية التى كنت أحلم بأن أهب لها نفسى عندما أدخل الجامعة تقليداً لأخى الأكبر ، تركتنى فى غاية خيبة الأمل فى ذلك الشتاء . كان فولوديا يرقص كثيراً ، وكذلك كان بابا يذهب الى الحفلات الراقصة مع زوجته الصغيرة ، ولا بد أنهما كانا يعتبراننى أصغر من أن تلائمنى هذه المباهج ، ولم يقدمنى أحد الى تلك البيوت التى كانت تقام فيها الحفلات الراقصة . وبالرغم من وعدى لدمترى بالتزام الصراحة ، لم أتحدث الى أى شخص ، بل اليه هو نفسه عن رغبتى فى الذهاب الى حفلات الرقص ، وعن مدى ما كان يضايقنى من اغفالى ، واعتبارى على ما يظهر فيلسوفا ، وهو ما كنت أتظاهر به نتيجة لذلك .

ومع ذلك ، فان الأميرة كورناكوفا أقامت حفلة مسائية ، ودعتنا بنفسها جميعاً ، ودعتنى أنا من بين الباقين ، فكانت هذه أول حفلة راقصة أذهب اليها . وجاء فولوديا الى حجرتى قبل ذهابه ، يريد أن يرى هندامى . وقد أدهشنى منه وحيرنى كثيراً تصرفه هذا ، وخيل الى أن رغبته فى حسن هندامى تدعو الى الخجل ، وكان يجب أن يخفيها ، وهو من ناحية أخرى اعتبر هذه الرغبة طبيعية ولا مفر منها ، الى حد أنه قال بصراحة تامة انه كان يخشى

أن أسبب له خزياً • وأمرنى أن أتأكد من انتقاء الحذاء ذى الجلد اللامع ، وفزع حين رآنى ألبس قفازاً من جلد الغزال (شاموا) ، ونظم لى وضع ساعتى بطريقة خاصة ، واصطحبنى الى محل حلاق فى « كوزنتسكى موست » حيث جعدوا لى شعرى ، وتراجع فولوديا الى الخلف وتأمل شعرى من مسافة بعيدة •

وقال للحلاق : « حسن ، على ما يرام ، ولكن ألا تستطيع فقط تسوية هذه الخصلات القليلة ؟ » •

ولكن بالرغم من تسوية السيد شارل كثيراً لهذه الخصلات الصغيرة بمادة صمغية ، فقد كانت تنفر وتعود كما كانت عندما أضع قبعتى ، بل كنت أبدو جملة بهذه التجعيدات أسوأ حالا مما كنت ؟ وكان عزائى الوحيد هو تظاهرى بالاهمال ، وذلك وحده يمكن أن يضفى على نوعاً من المظهر •

يبدو أن فولوديا كان يرى نفس الرأى ، لأنه رجانى أن أفك التجعدات ، فلما فعلت ذلك ولم يتحسن منظره ، لم يتأملنى مرة أخرى وظل صامتاً مغموماً طوال الطريق الى منزل آل كورناكوف •

دخلت مسكن آل كورناكوف بشجاعة مع فولوديا ، ولكن عندما دعتنى الأميرة الى الرقص ، وقلت لسبب أو لآخر ، اننى سوف لا أرقص ، بالرغم من أننى جئت بفكرة وحيدة هى أن أرقص وقتاً طويلا جدا ، فقد اعترانى الخجل ، وتركت وحدى مع

أناس لا أعـرفهم ، ترديت فى خجلى الكؤود المعتـاد ، والمتزايد دائماً . وبقيت صامتاً فى تلك البقعة طوال المساء .

وجـاءتنى احـدى الأميرات فى رقصـة « فالس » وسـألتنى بالطريقة الودية التقليدية الشائعة فى أسرتها عن السبب فى احجامى عن الرقص ، وأذكر كم كان خجلى من هذا السؤال ، ولكنى أذكر أيضا كيف شملت وجهى فى نفس الوقت ابتسامة لا ارادية تنطوى على الرضاء الذاتى ، وأخذت أتكلم لغواً ، فى لغـة فرنسـية بالغة الفخامة مليئة بالعبارات الاعتراضية ، حتى لأشعر بالخجل حتى الآن كلما تذكرت هذا ، بالرغم من انقضاء عشرات السنين . ومن ثمة فلا بد أن تكون الموسـيقى قد أثرت فى نفسى وأثارت أعصـابى ، وكنت أؤمل أيضـاً أن تخفى ما قتله من أشـياء أقل وضـوحاً . تكلمت عن المجتمع ، وعن غرور الناس وبخاصة النسـاء ، وأخيراً أوجدت نفسى فى ورطة معقدة حتى أننى عجزت عن اتمام عبـارة فى منتصفها .

حتى الأميرة الدمثة الأخلاق أصـابها الارتبـاك ونظرت الى نظرة لوم ، فابتسمت . وفى هذه اللحظة الحرجة جاء فولوديا الذى لاحظ أننى كنت أتكلم بحماسـة ، ولعله أراد أن يعـرف كيف فضلت الحـديث عن الرقص ، فاقترب منـا مع دوبكوف . وعندما رأى وجهى الباسم وسحنة الأميرة المذعورة ، وترامت الى سمعه مادة الحديث الذى أتناوله ، أحمر وجهه وعاد أدراجه . ونهضت الأميرة

وتركتنى ، ورحت ابتسم ولكن فى محنة من عذاب الضمير لغبائى ، حتى لقد تمنيت لو ابتلعتنى الأرض ، وشعرت أنه لا بد لى من القيام بحركة ما مهما كان الثمن، وأقول شيئاً يحسن موقفى بعض الشىء. ذهبت الى دوبكوف وسألته عما اذا كان قد رقص « معها » رقصة الفالس عدة مرات ، وفعلت ذلك ممازحاً وفى مزاج طروب ، ولكنى فى الحقيقة كنت ألتمس فى ذلك عون دوبكوف نفسه الذى صحت به أثناء الغداء بمطعم « يار » قائلا : « أمسك لسانك !! » وتظاهر دوبكوف أنه لم يسمعنى وانتحى جانباً ، فاقتربت من فولوديا وقلت له بمشقة محاولا أن أضفى على صوتى لهجة مرحة : « حسن ، يا فولوديا !! ألم تتعب بعد ؟ » . ولكن فولوديا تطلع الى كأنه يقول : « انك لا تتحدث الى هكذا عندما نكون وحيدين » ثم سار مبتعداً فى صمت ، وواضح أنه كان يخشى أن أستمر فى ملازمته .

وقلت فى نفسى : « يا الهى !! حتى أخى أيضاً يتخلى عنى !!»

ومع ذلك ، فلسبب ما لم أعد أقوى على الانصراف ، فوقفت مكتئباً حيث كنت حتى آخر المساء ، وعندما أخذ الجميع يغادرون الحجرة واحتشدوا فى القاعة ، وأخذ الخادم يساعدنى فى ارتداء سترتى بطريقة جعلت قبعتى تميل ، وأضحك ضحكة مغمومة ، قلت دون توجيه عبارتى الى شخص معين : « ياله من جمال ! »

مجالس الشرب

بالرغم من أن تأثير دمترى كان لا يزال يمنعنى من الاستسلام للهو الطلبة المألوف الذى يطلق عليه المنادمة ، فان ذلك الشتاء شهد مرة مشاركتى فى مثل هذا الترويح عن النفس ، وحملت منه انطباعا غير مقبول كلّ القبول . وهذا ما حدث :

ذات يوم فى مستهل العام ، وأثناء المحاضرة ، دعانا جميعنا الى بيته البارون (ز) لقضاء سهرة جماعية معه . وهو شاب طويل أشقر يمتاز بملامح جادة للغاية وتقاسيم عادية . وكلمة جميعنا كانت تعنى بطبيعة الحال كل أعضاء فصلنا الذين كانوا الى حد كبير أو صغير « كما ينبغى أن يكونوا » ولا تشمل بالطبيعة ، جراب ، ولا سيمنوفَ ولا أوبروف ، ولا أى زميل من الزملاء العاديين . وضحك فولوديا بازدراء عندما سمع أننى ذاهب الى وليمة طلبة السنة الأولى ، ولكنى توقعت منها مسرة كبرى جديرة بالاعتبار ، فهى بالنسبة الى وسيلة جديدة تماما لتزجية الوقت ، فبلغت بيت البارون (ز) فى موعدى ، فى الثامنة وهى الساعة الموضحة .

واستقبل البارون (ز) ضيوفه وهو فى صدريته البيضاء وسترته المفكوكة الأزرار بالقاعة الباهرة الضوء وحجرة الاستقبال ، فى

بيت صغير يسكنه والداه : وقد سمحا له باستخدام حجرات الاستقبال لتلك الوليمة المسائية • وكانت تظهر فى الدهليز رءوس الخادمات الفضوليات وثيابهن ، وفى مخزن المؤن ثوب سيدة خطر بذهنى أنها البارونة •

كان عدد الضيوف عشرين ، وكانوا جميعاً من الطلبة فيما عدا هر فروست الذى جاء مع ايفن ، وسيد طويل القامة أحمر الوجه يرتدى الملابس المدنية ، حضر الوليمة وكان الجميع يعرفونه بوصفه أحد أقارب البارون ، وطالب سابق بجامعة دوريات • وأحدثت الأنوار الباهرة الضوء ، والزينة التقليدية المعتادة بحجرات الاستقبال فى أول الأمر أثراً غير مشجع فى هذه الجماعة من الشباب التى أحتشد أعضاؤها قسراً عند الجدران ، باستثناء قليلين من ذوى الجرأة وطالب جامعة دوربات السابق الذى كان يبدو بصدريته المفكوكة الأزرار كأنه فى كل حجرة ، وفى كل ركن من كل حجرة ، فى نفس الوقت ، ويملأ كل المسكن بضوضاء صوته الصداح الفكه المجلجل الذى لا يصمت • ولكن الزملاء اما بقوا صامتين ، واما مكثوا يبحثون فى حياء فيما يتصل بالأساتذة والعلوم والامتحانات ، والموضوعات الجدية الهامة بوجه عام • وكان الجميع يتطلعون الى باب حجرة العشاء دون استثناء ، وقد اتسموا جميعاً بطابع لا ارادى يقول : « حان وقت البدء ! » وشعرت أنا أيضاً أن وقت البدء قد حان ، وانتظرت « البداية » فرحاً نافد الصبر •

وبعد أن دار الخادم بالشاى على الضيوف ، قال طالب جامعة دوربات لفروست باللغة الروسية •

« هل تعرف كيف تصنع الينش (١) يا فروست ؟ » •

وأجاب فروست وهو يهز ساقيه : « آوه ، بالتأكيد ! » ولكن طالب دوربات عاد فوجه اليه الحديث بالروسية قائلا :

« واذن ، فعليك به » (وقد خاطبه بضمير المفرد كأنه طالب من زملائه بجامعة دوربات) وبدأ فروست يذهب من حجرة الاستقبال الى حجرة العشاء ثم يعود ، بخطوات واسعة ، بساقيه المعوجتين العضليتين ، وبعد قليل من الذهاب والاياب وضع على المائدة سلطانية حساء ضخمة بها قمع من السكر يزن عشرة أرطال تسنده ثلاثة من خناجر الطلبة موضوعة متصالبة • وفى نفس الوقت لم يكف البارون (ز) عن التقرب الى ضيوفه الذين تجمعوا فى حجرة الاستقبال ، ويقول للجميع وعلى وجهه سمات الجد الجامدة ، وبنفس الكلمات : « هيا يا سادة ، فلنشرب كالرفاق الطيبين الأوفياء ، على طريقة الطلبة ، فمن العار ألا تسود الصداقة دائماً بين أعضاء قسمنا •• فكوا أزرار صدرياتكم اذا سمحتم ، أو اخلعوها ـ كالآخرين » والواقع أن طالب دوربات اشعل النار فى شراب « الروم » بسلطانية

---

(١) مشروب يصنع عادة من خليط النبيذ والماء الساخن أو اللبن والسكر والتوابل وغيرها • (المترجم)

الحساء بعد أن خلع سترته وطوى كمي قميصه الأبيض ورسخ قدميه متباعدتين في اصرار •

وصاح طالب دوربات فجأة بصوت مرح مرتفع كأننا نحن الذين صحنا مجتمعين : « أطفئوا الأنوار يا سادة » ونظرنا جميعاً في صمت الى سلطانية الحساء والى قميص طالب دوربات الأبيض وشعرنا جميعاً أن اللحظة المهيبة قد حانت •

وصاح طالب دوربات ثانية ، وكان واضحاً أنه شعر بالحرارة شعوراً شديداً • وشرع فروست وبقيتنا فى اطفاء الشموع • ساد الظلام الحجرة ، ولم يعد هناك غير الأكمام والأيدى البيضاء التى ترفع قمع السكر على الخناجر ، وحدها ، التى يضيئها اللب الضارب الى الزرقة ولم يعد صوت طالب دوربات وحده هو الصداح لأن الحديث والضحك ترامى من كل ركن بالحجرة • وخلع كثيرون ستراتهم (وبخاصة أولئك الذين كانوا يرتدون قمصاناً فاخرة بالغة النظافة) وفعلت نفس الشيء وفهمت أنه قد « بدأ » ومع أنه لم يحدث شيء مطرب حتى الساعة ، فقد كنت مقتنعاً تماماً ، بأن شرب كأس من الشراب الذى تم اعداده سيكون شيئاً عظيما •

لقد أعد المزيج ، وصب طالب دوربات «البنش» فى الأكواب ، وانسكب قدر كبير منه على المائدة أثناء العمل فصاح : « والآن هيا تعالوا أيها السادة ! » وكنا فى كل مرة نتناول كوباً مليئاً لزجاً يستهلها كل من طالب دوربات وفروست بأغنية ألمانية ، كان يتكرر

فيها كثيراً الهتاف بكلمة « جوتشى » (١) • واشتركنا فيه بنغمات غير متساوقة ، وأخذنا نخشخش بأكوابنا ، أو نصيح بشيء ما ، أو نمتدح « البنش » ، أو نحتسى الشراب الحلو القوى ، وكل يخز بذراعه ذراع الآخر ، أو نقتصر على مجرد الوقوف • ولم يعد هناك شيء ينتظره آنئذ ، ومجلس الشراب فى ابان المعمعة ، وقد احتسيت كوباً مليئاً من البنش ، وملأوا لى آخر ، وأخذ صدغاى يختلجان ، وبدت النار حمراء قرمزية ، كل واحد من حولى يصيح ويضحك ، ولكن شيئاً ما لم يبد لى مبهجاً وحسب ، بل كنت مقتنعا بأننى أنا نفسى ، وكل شخص غيرى يشعر بالضجر ، ولكننا جميعاً اعتبرنا من الضرورى لسبب أو لآخر أن نتظاهر بأنه مجلس مبهج للغاية ؛ والشخص الوحيد الذى لم ينافق هو طالب دوربات ، ظل وجهه يزداد احمراراً ، وكثر كلامه وكان يملأ كل كأس فارغة ، ويريق أكثر وأكثر على المائدة التى أصبحت محلاة لزجة • ولا يحضرنى على أى نظام جرت الأمور ، ولكن أذكر أننى أغرمت كثيراً بفروست وطالب دوربات فى تلك الأمسية ، حتى أننى حفظت أغنية ألمانية عن ظهر قلب ، وقبلت كلا منهما على شفتيه الحلوتين ، وأذكر أيضاً أننى كرهت طالب دوربات فى نفس ذلك المساء ، وأردت أن أقذف عليه مقعداً ، ولكنى أمسكت عن هذا ؛ ويحضرنى بالاضافة

---

(١) كلمة ألمانية تدل على المزاح (المترجم)

الى الشعور بتمرد جميع أطرافى الذى عانيته فى مطعم « اليار » ، فان رأسى أصيب بصداع ودوار حتى لقد خفت فى ذلك المساء خوفاً شديداً أن أموت للحظتى ، وأذكر أيضاً أننا جلسنا جميعاً على الأرض لسبب أو لآخر ، ولوحنا بأذرعنا مقلدين المجاذيف ، وأنشدنا أغنية « انزلوا الى أمنا الفلجا » واننى كنت فى نفس الوقت أفكر فى عدم ضرورة عمل ذلك ؟ وأبعد من هذا أذكر أننى عندما كنت راقداً على الأرض كانت احدى ساقى مشبوكة فى الأخرى ، وأخذنا دوراً فى المصارعة على طريقة الغجر ، وتسببت فى تشنج عضلة بعنق شخص ما ، وقلت فى نفسى ان هذا لم يكن ليحدث لو لم يكن سكراناً ، وأذكر كذلك أننا تناولنا طعام العشاء وشربنا شيئاً آخر ، وأننى خرجت الى الفناء لأروح عن نفسى ، وشعرت بالبرد فى رأسى ، وأننى لاحظت عندما انصرفت أن الظلام دامس ، وأن طريق الدروشكى أصبح منحدراً زلقاً ، وكان من المتعذر الابقاء على كوزما لأنه أصبح واهناً يهتز كالخرقة . ولكنى أذكر بنوع خاص أننى خلال المساء كنت أشعر باستمرار أننى كنت أتصرف بغباء كبير لتظاهرى بالفرح الشديد ، وبأننى أحب الشرب بوفرة . ولم أفكر فى أننى ثمل . وكنت أشعر طوال الوقت أن الجميع كانوا يتصرفون تصرفاً فيه حمق كثير بتظاهرهم كذلك . وخيل الى ان هذا لم يكن من الملائم لكل فرد على حده ، وكذلك بالنسبة لشخصى ؟ ولكن لما كان كل منا قد افترض أنه هو وحده الذى قاسى من هذا الشعور غير السار ، فقد شعرت أنه ينبغى أن

استمر فى هذا الادعاء ، لا لشيء الا لأن ثلاث زجاجات من الشمبانيا ثمن الواحدة عشرة روبلات ، وعشر زجاجات من الروم بأربعة روبلات لكل منها قد أفرغت فى سلطانية الحساء فبلغت جملتها سبعين روبل ، وهذا الى العشاء • كنت مقتنعاً تماما بكل هذا ، حتى أننى دهشت كثيراً فى اليوم التالى أثناء المحاضرة من أن زملائى الذين كانوا عند البارون (ز) ، لم يقتصروا على عدم الخجل من ذكر انهم كانوا هناك ، بل تحدثوا عن الوليمة حتى يسمع الطلبة الآخرون • قالوا انه كان مجلس شراب فاخر ، وأن طلبة دوربات كانت لهم اليد الطولى فى هذه الأشياء ، وأن عشرين رجلا شربوا أربعين زجاجة من الروم فيما بينهم، وأن كثيرين قد تركوا كالأموات تحت الموائد • ولا أستطيع أن أفهم لماذا تحدثوا عن ذلك ، بل انهم كذبوا فى الحديث عنهم •

(٩٥)

صداقتى مع آل نخيلودوف

رأيت الكثير فى غضون الشتاء لا من دمترى وحده الذى كان يتردد كثيراً جداً على بيتنا ، ولكن من جميع أسرته التى بدأت أعقد معهم أواصر الصداقة •

كان آل نخليودوف ـ الأم والعمة والابنة يقضين الأمسيات دائما فى منزلهن ، وكانت الأميرة تحب أن يأتى الشباب لزيارتها فى المساء ، رجال من النوع الذى وصفته بأنه قادر على قضاء المساء بدون لعب الورق أو الرقص . ولكن لابد أن يكون أمثال هؤلاء الرجال قليلين لأننى ندر ماكنت أقابل أى زائرين هناك مع أننى كنت أزورهم كل مساء تقريبا . وقد ألفت أعضاء هذه الأسرة وطباعهم وكونت فكرة واضحة عن علاقاتهم المتبادلة ، وألفت حجراتهم وأثاثهم . وعندما لا يكون هناك ضيوف ، كنت أشعر بغاية الراحة فيما عدا المناسبات التى أترك فيها الحجرة وحدى مع فرنكا . لم أكن أستطيع التخلص من التفكير فى أنها مادامت فتاة ليست وافرة الجمال فانها ستكون سعيدة لو أننى وقعت فى حبها ، ولكن حتى هذه المضايقة بدأت تتبدد ، فقد كان فى مظهرها الطبيعى الذى ينطوى على عدم الاهتمام إذا ماتحدثت الى أو الى أخيها أو ليوبوف سرجيفنا ماجعلنى أنظر اليها على أنها ليست شخصا مهينا أو خطيراً وأظهر السرور الذى أحظى به فى الاجتماع بها . وطوال فترة معرفتى بها كانت تبدو لى أحيانا فتاة قبيحة جداً ثم مرة أخرى ليست بالغة القبح ، ولكنى لم أسأل نفسى مرة واحدة مطلقاً فيما يتصل بها « هل وقعت فى حبها أم لا ؟ » كان يتصادف أحيانا أن أتحدث اليها مباشرة ، ولكنى كثيرا ماكنت أوجه ملاحظاتى أثناء وجودها الى ليوبوف سرجيفنا أو الى دمترى ، ووجدت فى هذه الوسيلة الأخيرة لذة معينة . وكنت أشعر برضاء كبير فى التحدث أمامها والاستماع الى غنائها والاحساس

بوجه عام بوجودها فى الحجرة التى أكون فيها ، ولكن التفكير فيما ستصير اليه علاقاتى مع فارنكا آخر الأمر، وأحلامى بشأن تضحية نفسى فى سبيل صديقى فيما اذا وقع فى حب أختى ، فقلما كان آنئذ يجول بخاطرى • واذا حدث أن خطر لى شيء من هذه الأفكار والأحلام ، فاننى كنت أدفع عنى أى تفكير فى المستقبل مادمت راضيا عن الحاضر •

ومع ذلك فبالرغم من هذه الصداقة ظللت أشعر بأن واجبى الحتمى هو أن أخفى عن مجتمع نخليودوف كليـة ، وعن فارنكا بخاصة عواطفى وميولى الحقيقية ، وأحاول دائما أن أبدو مختلفا كل الاختلاف عن حقيقتى ، وفى صورة لم يكن من المحتمل فى الواقع أن أكون عليها • لقد تصنعت أن أكون روحانيا ، وأن أفرط فى الطرب واظهار العجب ، والمزاح عندما يستخفنى الفرح لأى شيء ، وأحاول فى نفس الوقت اظهار عدم الاهتمام لكل حدث غير عادى أراه أو يقال لى عنه • وحاولت أن أبدو مزدريا حقودا لا يحافظ على قدسية شيء ، وهو حاد الملاحظة فى نفس الوقت ، وحاولت أن أكون منطقيا فى جميع أعمالى ، مهذبا مدققا فى حياتى ، وفى نفس الوقت شخصا يزدرى كل الأشياء المادية وأستطيع القول آمنا أننى كنت فى حقيقتى أفضل كثيرا من الكائن العجيب الذى اصطنعته ، ولكنى مع تعبيرى عن نفسى على هذا الوجه ، أحبنى آل نخليودوف ، وكانت النتيجة لحسن الحظ أنهم لم يصدقوا نفاقى ، ولكن ليوبوف سرجيفنا ،

التى كانت تعتبرنى أنانيا كبيرا وملحدا وساخرا ، كانت هى وحدها فيما يظهر التى لم تحبنى ، وكثيرا ماكانت تتشـــاجر معى وتثور ثائرتها ، وتحيرنى بألفاظها الخارجة عن الموضوع والمفككة . ولكن دمترى ظل محافظا معها على العلاقات الغريبة التى تزيد على علاقات الصداقة ، وقال ان أحدا لم يفهمها وأنهــا قدمت له خيراً كثيرا ، واستمرت صداقته معها تسبب الغم لأسرته .

كانت فارنكا مرة تناقش معى هذه العلاقة التى لا يفهمها الجميع ففسرتها لى على هذا الوجه : « دمترى شخص أنانى ، وهو متكبر جدا ، وبالرغم من كل مهارته فهو مغــرم جدا بأن يكون موضع المديح والاعجاب ـ يجب أن يكون الأول دائما ـ وتجد « عمتى » نفسها ببراءة روحها معجبة به ، ولا تملك الحصافة الكافية لاخفاء هذا الاعجاب عنه ، وهكذا تطريه ـ لا نفاقا ، ولكن بخلوص نية » .

تذكرت هذا الحكم ، وعند فحصه فيما بعد لم يسعنى الا أن أظن فارنكا كانت ماهرة جدا فأطريتها نتيجة لذلك عن اقتناع برأيى الشخصى ، وكان هذا النوع من الاطراء ناجما عما كشفته فيها من ذكاء ومن صفات أخلاقية أخرى ، وقمت بهذا الاطراء باعتدال شديد وان كان عن اقتناع ، ولم أبلغ الى أقصى حد من الاغراق فى ذلك الاطراء . ومن ثمة ، فعندما أخبرتنى صوفيا ايفانوفنا التى لم تتعب أبدا من الكلام عن ابنة أخيها ، كيف أن فارنكا أعطت حين كانت طفلة فى الريف منذ أربع سنوات ، جميع ملابسها وأحذيتها لأطفال

الفلاحين دون اذن فكان لابد من استرجاعها فيما بعد ، ولم أسلم لساعتي بأن هذا العمل يستحق الاطراء في رأيي ، بل انه يستوجب السخرية من الناحية العقلية ، من هذه النظرة غير العملية الى الأمور •

عندما يكون لدى آل نخليودوف ضيوف آخرون ، ومن بين الآخرين فولوديا ودوبكوف ، أنسحب بعيدا عن الأنظار راضيا عن نفسي ، وبشعور معين هادى بالقوة ، كشعور أحد أفراد الأسرة ، لا أتحدث ، بل أكتفي بالاصغاء الى ماكان يقوله الآخرون • وكان يخيل الى أن كل ماكان يقوله الآخرون ينطوى على غباء لا يمكن تصديقه حتى لقد كنت أتساءل كيف أن امرأة في مثل ذكاء الأميرة ومنطقها ، وكذلك كل أسرتها العاقلة يمكن أن يصغوا الى مثل هذه التفاهة ويجيبوا عليها • ولو حدث أن قارنت آنئذ ماقاله الآخرون بما قلته أنا حين كنت وحيداً لما شعرت بالتأكيد بأقل دهشة ؛ كان لابد أن أشعر بدهشة أقل لو أنني آمنت بأن أعضاء أسرتي ـ أفدوتيا فاسليفنا ، وليوبتشكا وكاتنكا ـ كن كغيرهن من النساء الأخريات جميعا ، ولسن أسوأ من غيرهن ، ولو كنت قد تذكرت أن دوبكوف وكاتنكا وأفدوتيا فاسليفنا كانوا يتحدثون معاً أمسيات برمتها ، ويضحكون في حبور ، وأن هذا كان يحدث في كل مناسبة تقريبا ، فيقبض دوبكوف على أول كلمة مناسبة كتكأة ، وينشد بحماس أشعار : «ضيف تعيس على مائدة الحياة» أو مقتبسات من «الشيطان» •

كم كان هراء ذلك الذى كانوا يتحدثون فيه اجمالا !! وبأى قدر من اللذة ولعدة ساعات دون انقطاع كانوا يتحدثون !!

عندما يكون هناك زائرون ، فان فارنكا بطبيعة الحال كانت توليني اهتماما أقل مما لو كنا وحيدين ؛ وآنئذ لا تكون هناك موسيقى ولا قراءة ؛ وكنت مغرماً جدا بالاستماع اليهما . وكانت أثناء حديثها مع الزائرين تفقـــد الشيء الذى كان فى نظرى فتنتها الأساسية ـ حصافتها الهادئة وبساطتها . وأذكر كم كان حديثها مع أخى فولوديا عن المسرح والطقس مفاجأة غريبة لى . كنت أعرف أن فولوديا كان يتجنب الأماكن العامة وينفر منها أكثر من أى شيء آخر فى العالم ؛ وكانت فارنكا كذلك تسخر دائما من المناقشات المسلية المصطنعة عن الطقس وما اليه ، فلماذا اذن حين يجتمعان سويا ينطقان على الدوام بما لا يمكن احتماله من سخافات ، وأنهما يكونان أيضا كأن أحدهما يخجل من الآخر ؟ وكنت أثور على فارنكا فى الخفاء عقب كل حديث وأهزأ بالزائرين فى اليوم التالى ، ولكنى كنت أجد سروراً عظيماً فى بقائى وحدى فى دائرة أسرة نخليودوف .

ومهما كانت الأحوال ، فقد بدأت أظفر بلذة فى وجودى مع دمترى فى حجرة الاستقبال مع أمه أكثر من وجودى معه وجهـا لوجه .

صداقتى مع نخيلودوف

كانت صـــداقتى لدمترى حتى هذا الوقت معلقة على شعرة ، وكنت أنتقده منذ وقت طويل لعـــدم كشفه عن سقطاته ، وكنا فى شـبابنا الأول نحب بالعاطفة فقط ، ولذلك كنا نحب أناسـاً كاملين وحسب ، ولكن حالما يأخذ ضباب العـــاطفة فى الذوبان ، فتنفذ فيه بالضرورة أشعة التمييز العقلى الصـــافية ، وتميط اللثـام عن هدف عاطفتنا على وجهـــه الحقيقى ، بما فيه من استحقاق وقصـــور ، فان القصور وحده هو الذى يلفت نظرنا بوصفه شيئا غير متوقع ، وفى صورة جلية مبالغ فيها • والشعور بالجاذبية نحو الجدة والأمل فى وجودها غير مستحيل تماما فى رجل آخـــر يشجعنا لا على الفتور وحسب ، ولكن على النفور من الهدف السابق لعاطفتنا ، فنهجره دون ندم ونسرع قدما للبحث عن كمال جديد ، فان كان لم يحدث لى هذا بالضبط فى علاقتى مع دمترى ، فالسبب فقط هو أننى كنت مرتبطا به بانعطاف عقلىعنيد متحذلق أكثر منه انعطافا قلبيا، الأمر الذى كنت أخجل من زيفه ؟ وفوق هذا كانت تربطنا قاعدة الصراحة الغريبة • وكنا نخشى كثيرا جدا اذا ما افترقنا فان كلا منا سيترك تحت سلطان الآخر كل الأسرار الخاصة التى أسرها كل منا الى الآخر ، والتى يخجل منها كل منا ، هذا بالاضافة الى أننا منذ وقت طويل لم نطبق

قاعدتنا فى الصراحة كما كانت واضحة أمامنا ، وقد أربكنا ذلك وأوجد بيننا علاقات غريبة •

كنت فى كل مرة تقريبا أذهب فيها الى دمترى فى ذلك الشتاء، أجد معه زميله الجامعى ، وهو طالب اسمه بيزوبيدوف الذى كان يذاكر معه • كان بيزوبيدوف صغيرا نحيلا ، به آثار مرض الجدرى، يداه صغيرتان جدا يكسوهما النمش ، وكتلة كبيرة من الشعر الأحمر المشعث • وكان دائما مهلهل الملابس قذرا ، غير مهذب بل لا يحسن المذاكرة • وكانت علاقات دمترى به مثل علاقاته بليوبوف سرجيفنا ، غير واضحة فى ذهنى ، والسبب الوحيد الذى من أجله اختاره من جميع زملائه فأصبح صديقه الحميم هو عدم وجود طالب فى كل الجامعة أقبح من بيزو بيدوف مظهراً ؛ ولابد أن يكون ذلك السبب على وجه التحديد هو الذى وجده دمترى ملائما لاظهار صداقته له متحديا الجميع ، وكان الشعور بالتعالى يظهر فى كل علاقته بهذا الطالب - « لا يهم من تكون ، فهذا سواء عندى ، فان أحببته فهو الشخص الملائم » •

ومن المدهش أنه لم يجد صعوبة فى أن يضغط على نفسه باستمرار ، وأن يحتمل بيزوبيدوف التعيس موقفه الثقيل • ولم تعجبنى هذه الصداقة البتة •

ذهبت مرة لقضاء أمسية مع دمترى فى حجرة استقبال أمه فى الحديث والاستماع الى غناء فارنكا أو قراءتها ، ولكن بيزوبيدوف كان

جالساً فى الطابق العلوى • وأجابنى دمترى فى لهجة عنيفة أنه لا يستطيع النزول لأن لديه زميلا كما أستطيع رؤية ذلك بنفسى •

ثم أضاف قائلا : « وزيادة على ذلك ، فماذا يوجد فى الجلوس هنالك من لهو ؟ فالبقاء هنا والثرثرة أفضل كثيراً » وبالرغم من أن فكرة الجلوس والتحدث مع بيزوبيدوف لمدة ساعتين لم ترقنى ، فاننى لم أستطع أن أحمل نفسى على دخول حجرة الاستقبال وحدى ، وتكدرت لغرابة أطوار صديقى فجلست على كرسى هزاز وأخذت أتأرجح فى صمت • لقد أثارنى دمترى وبيزوبيدوف كثيرا جدا لأنهما حرمانى لذة الذهاب الى الطابق السفلى • واستمعت منفعلا فى صمت الى حديثهما منتظراً انصراف بيزوبيدوف • وقلت فى نفسى : « انه ضيف ممتع جدا يلذ الجلوس معه » وذلك حين أحضر الخادم الشاى ، وكان على دمترى أن يرجو بيزوبيدوف خمس مرات على الأقل ليتناول كوباً ، لأن الضيف الخجول اعتبر نفسه مضطرا الى رفضه أولا ، والى أن يقول :« أرجوك لا تهتم بى » وبذل دمترى مجهودا واضحاً فشغل زائره بمناقشة ، وبذل عدة محاولات فاشلة ليجرنى اليها ولكنى التزمت صمتا مقبضا •

وقلت فى عقلى لديمترى بينما كنت أتأرجح فى رتابة وصمت فى مقعدى : « لماذا تحاول ، فتتظاهر بسمات من لا يتجاسر على التفكير بأنه متضايق ؟ • وأججت لهيب البغضاء الكامنة فى دخيلة نفسى أكثر فأكثر نحو صديقى ، وقلت فى نفسى : « ياله من أبله !! كان يمكن

أن يقضى أمسية مرحة مع أقربه الأعزاء ، ومع ذلك يجلس هنا مع هذا الحيوان ، وسيبقى كذلك الى أن يتأخر الوقت كثيرا فلا يسمح بالنزول الى حجرة الاستقبال ؟ ثم ألقيت نظرة على صديقى من وراء ظهر مقعدى ، فخيل الى أن يديه وهيئته ورقبته وبخاصة قفاه ، وركبتيه ، كريهة مقبضة الى حد أننى لو فعلت به شيئا حتى لو كان مؤذيا له الى أقصى حد لشعرت فى تلك اللحظة بسرور عظيم •

وأخيرا نهض بيزوبيدوف ، ولكن دمترى لم يستطع أن يفترق بسرعة عن ضيفه المبهج وطلب منه قضاء الليلة معه ، ولكن لحسن الحظ أن بيزوبيدوف لم يوافقه وانصرف •

وعاد دمترى بعد أن ودعه ، وهو يبتسم باشراق فى هيئة المعجب بنفسه ، ويفرك يديه ؟ ولعل ذلك يرجع الى اصراره على غرضه ، ولأنه استطاع أخيراً التخلص من ضيق • وأخذ يذرع الحجرة ويرمقنى بنظراته الفينة بعد الفينة • كان لايزال بغيضا على نفسى : وقلت فى سرى : « كيف يستطيع أن يستمر فى المشى وتقطيب الوجه على هذه الصورة ؟ » •

وقال لى فجأة وقد وقف أمامى : « لماذا أنت غاضب ؟ »

فأجبت الاجابة الوحيدة التى يلجأ اليها المرء فى مثل هذه المناسبات : « لست غاضبا أقل الغضب ، اننى متضايق وحسب ، لأنك تموه على وعلى بيزوبيدوف وعلى نفسك » •

يااللهراء !! انني لا أموه على أحد مطلقا » •

انني لم أنس قاعدة الصراحة ، وأقول لك دون مواربة ، انني مقتنع أن ذلك البيزوبيدوف لا يطاق بالنسبة اليك وكذلك بالنسبة الى ، لأنه غبي ، والله يعلم ماذا غير ذلك ؟ ولكنك تريد أن تبدو في عينيه عظيما » •

« ليس هذا بصحيح ؟ بالاضافة الى أن بيزوبيدوف رجل لطيف جدا ، ولنبدأ بـــــ »

« ولكنى أقول لك ، انه لكذلك ؟ بل أذهب الى أبعد من ذلك فأقول لك ان صداقتك مع ليوبوف سرجيفنا قائمة كذلك على أنها تظنك الها » •

« وأنا أقول لك انه ليس كذلك »

فأجبت في حرارة الكدر المكبوت رغبة في تجريده من سلاحه بصراحتى : « وأنا أقول لك انه هذا ، لأنني أعـــرفه من تجربتي الخاصة •لقد قلت لك ، وأكرره انه يبدو لى دائما أنني أحب الناس الذين يذكرون لى أشياء طلية ، ثم عندما أختبر الأمر بدقة ، أرى أنه ليس هناك ود حقيقى » •

وراح دمترى يصلح من ربطة عنقه في حركة غاضبة : « لا ، فأنا عندما أحب ، لا يستطيع مدح ولا تأنيب تغيير مشاعرى » •

« هذا ليس صحيحا ، وقد اعترفت لك أننى كرهت بابا برهة وتمنيت له الموت حين وصفنى بأننى لا أصلح لشىء ، تماما كما ـ »

« تكلم عن نفسك ، فانك لو كنت مع مزيد الأسف مثل ـــ »

وصحت وأنا أقفز من مقعدى وأحـــدق فى عينيه بشجاعة اليائس : « على العكس ، ان ماتقوله ليس كريماً ؛ ألم تحدثنى الا عن أخى ؟ لن أذكرك بما قلت لأنه لا يشرفك ؛ ألم تتحدث الى ـ سأقول لك كيف أفهمك الآن ـــ »

ولرغبتى فى ايلامه حتى بأقوى مما آلمنى ، بدأت أثبت له أنه لم يحب أحداً ، وأذكر له كل شىء خيل الى أنه يعطينى الحق فى تأنيبه • وشعرت بسرور كبير جدا لذكر كل شىء له ، متناسياً تماما أن الغرض الوحيد المحتمل لما قلته ، والذى جعله يعترف بقصوره الذى اتهمته به ، لا يمكن بلوغه فى اللحظة الراهنة عندما يكون منفعلا ، ولكنى لم أقل له هذا مطلقا وهو رابط الجأش ويستطيع أن يعلنه •

وأنذرنا النقاش بالتطور الى مشاحنة عندما صمت دمترى فجأة وذهب الى الحجرة الأخرى ؛ وكنت على وشـك أن أتبعه للتحدث طوال الوقت ، ولكنه لم يجبنى • وعرفت أن هذا الانفعال العنيف كان فى قائمة نقائصه ، وأنه كان يحاول آنئذ التغلب عليه • ولعنت كل أفكاره •

كانت هذه هى نتيجة قاعدتنا (أن يقول كل منا لصاحبه كل شيء يفكر فيه ، ولا يقول مطلقا أى شيء عن صاحبه لأى شخص ثالث)• وقد جرفتنا الصراحة فى بعض الأحيان الى أوقح الاعترافات؛ فكان من المخجل أن كشفنا عن أحلام وأمنيات غامضة كأنها رغبات وعواطف محددة ، تماما كما أوضحت له على سبيل المثال ، ولم تقتصر هذه الاعترافات على عدم احكام الرباط الذى وحد بيننا ، بل انها جمدت شعورنا نفسه وفرقت بيننا • والآن ، لم تسمح له الأنانية بأقل تسليم • وفى حرارة نقاشنا استخدمنا نفس الأسلحة التى زود بها أحدنا الآخر من قبل ، والتى كانت ضربات مؤلمة أفظع الألم •

(٩٧)

زوجة الأب

بالرغم من أن بابا لم يقصد الحضور الى موسكو مع زوجته الا بعد العام الجديد ، فانه وصل مع الكلاب فى أكتوبر ، فى موسم الصيد الخريفى الممتاز • وقال بابا انه غير فكرته لأن قضيته ستعرض على مجلس الشيوخ، ولكن ميمى قالت لنا ان أفدوتيا فاسيلفنا قد ضاق صدرها بالريف ، وأنها كثيرا ماكانت تتحدث عن موسكو ، وتتمارض ، حتى أن بابا صمم على الاستجابة الى رغباتها ـ وقالت ميمى وهى تشير وتفكر تفكيراً عميقا ، كأنها تريد أن تقول : « انها

لم تحبه مطلقاً ، ولكنها عكفت على ترديد الحب على آذان كل شخص ، لأنها كانت تريد الزواج من رجل غنى ، وتصور ماذا كانت تفعل له « واحدة معينة » او أنه فقط عرف كيف يقدرها حق قدرها » •

ومع ذلك فان هذه « الواحـــدة المعينة » لم تنصف أفدوتيا فاسليفنا • فان حبها لبابا ـ وهو حب حار غيور ـ وتضحيتها لذاتها كانا ظاهرين فى كل كلمة وكل نظرة وكل حركة • ولكن هذا الحب لم يمنعها على الأقل ، بالاضافة الى رغبتها فى عدم ترك زوجها ، من التعلق برغبتها فى شراء قبعة فاخرة تصنعها « مدام آنيت » صانعة القبعات ؛ بها ريش نعام عجيب أزرق ، وفى ثياب من قطيفة البندقية الزرقاء ، التى تكشف فى ذوق فنى عن ذراعيها وصدرها البيض الناعمة التى لم تنكشف من قبل لشخص ما غير زوجها ووصيفات ثيابها • وانحازت كاتنكا بطبيعة الحال الى صف والدتها ، فى حين توطدت علاقات غريبة مازحة بيننا وبين زوجة والدنا منذ اليوم الأول لوصولنا • وحالما هبطت من العربة ، تقدم فولوديا يصرف بقدمه ، ويميل الى خلف والى أمام ليقبل يدها ، بوجه وقور ونظرة مكتئبة متبلدة ، ثم قال كمن يقدم لها شخصاً ما :

« لى الشرف أن أقدم لك تهانى بوصول أم عزيزة وأن أقبل يدها » •

وقالت أفدوتيا فاسليفنا بابتسامتها الجميلة الرتيبة : « آه ، ابنى العزيز !! » •

وقلت أنا أيضا وأنا أقترب منها لأقبل يدها محاولا اصطناع هيأة فولوديا ولهجته عن غير قصد : « ولا تنسى ابنك العزيز الثانى » •

لو كانت زوجة أبى ونحن واثقين من تبادلنا الود ، فلربما دل هذا التعبير على احتقار لعرض آية علامات للود ، واذا كانت علاقتنا بعضنا ببعض غير سليمة فلربما دلت على السخرية أو الاحتقار أو المداهنة أو الرغبة فى اخفاء علاقاتنا الحقيقية عن والدنا الذى كان موجودا ، وكذلك اخفاء كثير من الأفكار والمشاعر ، ولكن فى هذه الحالة لم يكن هذا التعبير ، الذى يلائم ذوق أفدوتيا فاسليفنا الى أبعد حد ، يدل على شىء مطلقا وانما كان يشير وحسب الى عدم وجود أية علاقات مطلقا • وكثيرا ماكنت ألاحظ هذه العـــلاقات الزائفة المصطنعة منذئذ بين عائلات أخرى أدرك أعضاؤها أن العلاقات الحقيقية لن تكون سارة تماما ، ثم توطدت هذه العلاقات بطريقة تلقائية بيننا وبين أفدوتيا فاسليفنا • ولم نكد نحيد عن هذه العلاقات أبداً ، وكنا على الدوام نافق فى تأدبنا معها ، ونتكلم الفرنسية ، ونحك قدمنا وننحنى ، ونناديها « بأمنا العزيزة » وتجيب هى بمزاح دائما وبنفس الطريقة ، وبابتسامتها الرتيبة • وكانت ليوبتشـــكا الباكية بساقيها المقوستين وثرثرتها البريئة قد أخذت هى وحدها تميل الى زوجة أبينا ، وكافحت بسذاجة كبرى وأحيانا فى غلظة لكى تقربها من كل أفراد أسرتنا ، ولقاء ذلك كانت ليوبتشكا هى المخلوقة الوحيدة فى العالم التى تحمل لها أفدوتيا فارسليفنا قطرة من الحب باستثناء

حبها الحار لبابا ، بل كانت أفدوتيا فاسيليفنا تظهر نحوها اعجاباً خاصاً مدهشا واحتراما متردداً مما سبب لى غيظاً شديداً .

كانت أفدوتيا مغرمة جدا فى أول الأمر بتسمية نفسها « زوجة أب » ، وتومىء الى الطريقة السيئة المجحفة التي ينظر بها الأطفال وأهل البيت دائما الى زوجة الأب ، وما يترتب على هذا من حرج موقفها . ولكن بالرغم من ادراكها لكل متاعب هذا الموقف ، لم تفعل شيئا لتحاشيه ، مثل ملاطفتها لشخص أو تقديم هدايا لآخر ، أو تحمل التذمر ، وكان هذا من أيسر الأمور عليها ، مادامت محبوبة جداً ، ولا يسلبها طبعها . ومع ذلك ، فانها لم تقتصر على الامتناع عن عمل شيء من هذه الأعمـــال ، بل على العكس ، كانت تدرك مركزها ، وأعدت نفسها للدفاع دون أن تهاجم ، وهي تسلم بأن جميع أعضاء المنزل يرغبون فى استخدام كل الوسائل التى فى متناولهم لاهانتها ، وترى فى كل شيء غرضاً ، وتعتبر أن أكرم طريقة هى أن تقاسى فى صمت ، فهذا الميل الى السلبية فى كسب الود أورثها العداوة . وفوق ذلك كان ينقصها الى حد كبير صفة فهم بعضهم البعض بدون كلام تقريباً ، وكانت هذه قد تقدمت كثيراً فى منزلنا ، وقد سبق أن أشرت اليها ، وكانت عاداتها تتعارض كثيرا مع العادات التى أصبحت متأصلة فى بيتنا حتى أن هذه الحالة وحدها جعلت الناس يتحاملون عليها . وكانت تعيش دائما فى بيتنا النظيف المرتب كمـــا لو كانت قد وصلت فى هذه اللحظة ؛ كانت تستيقظ

وتذهب للنوم آونة مبكرة ، وآونة متأخرة ، ومرة تخرج لتناول الغداء ، ومرة أخرى لا تخرج ؛ تتناول العشاء فى بعض الأحيان ثم تعود فلاتتناوله أحيانا أخرى. وتتجول فىالبيت معظم الوقت نصف كاسية حين لا يكون لدينا ضيوف ولا تخجل من الظهور أمامنا ، بل أمام الخدم فىمنطق(١) أبيض مع شال حول جسمها، وذراعين عاريتين. وكان عدم المبالاة بالعرف ، يروقنى أول الأمر ، ولكن كانت نتيجته أننى سرعان مافقدت كل احترام كنت أضمره لها . وأهم مالفت نظرى ، بل كان أشد غرابة أنها كانت تجمع فى شخصها امرأتين مختلفتين كل الاختلاف ، وفقاً لوجود الضيوف أو عدم وجودهم : واحدة سليمة فى حضرة الضيوف ، جميلة صغيرة فاترة ، أنيقة الملبس ، لا بالذكية ولا بالغبية ، ولكنها مرحة ؛ أما الأخرى فحين لا يكون هناك ضيوف ، امرأة مكتئبة مهمومة ، لم تعد بعد صغيرة ، مهملة الهندام متضايقة ، وان كانت ودودا .. وكثيرا ماكنت أفكر حين أنظر اليها بعد عودتها باسمة من زياراتها ، موردة الوجه من برودة الشتاء سعيدة لشعورها بجمالها ، وتذهب الى المرآة لتعاين شكلها وهى تنزع قبعتها ، أو وهى ذاهبة الى العربة تخشخش فى ثوب الرقص الثمين ذى النحر العارى ، شاعرة بقليل من الخجل ولكن فى كبرياء ، أمام الخدم ؛ أو فى البيت ؛ فى الاجتماعات المسائية الصغيرة ، مرتدية ثوبا حريريا ضيقا ، حول عنقها الناعم شريط من

---

(١) ماترتديه النساء تحت الثوب كالوزرة أو «الكمبينزون» .

المخرم الرقيق ؛ وتشرق فى كل انحناءة بابتسامتها المطردة ، الجميلة مع ذلك - كثيرا مافكرت فيما يمكن أن يقوله أولئك الذين يهرفون ضدها لو أنهم رأوها كما رأيتها فى الأمسيات وهى باقية فى بيتها ، وهى تائهة فى الحجرات الخافتة الضوء كالشبح ، فى انتظار عودة زوجها من النادى ، فى نوع من الدثار وبشعر مشعث ؟ كانت تذهب أحيانا الى البيان فتعزف مقطوعتها الوحيـــدة فى « الفالس » ضجرة بالجهد الذى تبذله ، ثم تتناول رواية ، وبعد أن تقرأ سطورا قليلة من وسطها تلقى بها جانبا ، ثم لكى لا توقظ الخدم ، تذهب بنفسها الى مخزن المؤن فتحضر خيارة وقطعة من لحم العجل البارد ، فتأكلهما وهى واقفة بالقـــرب من نافذة المخزن ، أو تطوف من حجرة الى حجرة على غير هدف ، قلقة مهمومة • ولكن الأهم من جميع الأشياء الأخرى التى سببت التباعد بيننا كان عدم فهمها الذى تجلى بنوع خاص فى طريقة التفاتها الغريبة عندما يتحدث الناس اليها عن أشياء لا تعرف عنها شيئا • ولا لوم عليها فى أنها اكتسبت دون وعى عادة الابتسام الخفيف بشفتيها وحدهما ، واحناء رأسها حين تقال لها أشياء لا تهمها (وهى لا تهتم بشىء سوى نفسها وزوجها) ؛ ولكن تلك الابتسامة وانحناءة رأسها التى كانت تتكرر كثيراً كانتا مستقبحتين لسبب غير واضح •

وكذلك مرحها الذى كان يبدو كأنه سخرية من نفسها ومنا ومن المجتمع كله ، كان سخيفا ولا ينتقل الى أحد • ولكن أهم شىء

على الاطلاق انها لم تكن تخجل من الحديث المستمر لكل شخص عن حبها لبابا • وبالرغم من أنها لم تكذب أقل كذب فى قولها بأن حياتها كلها تتألف من حبها لزوجها ؛ وبالرغم من أنها أثبتت ذلك فى حياتها برمتها ، فمع ذلك ، ووفقاً لآرائنا الخاصة ؛ فإن تأكيدها المستمر وفى غير تحفظ لحبها كان شيئا بغيضاً ، ونخجل لها حين نتحدث عنه أمام الغرباء ، بل كان يخجلنا أكثر مما لو أخطأت فى اللغة الفرنسية •

لقد أحبت زوجها أكثر من أى شيء فى العالم ، وقد أحبها زوجها ، وبخاصة فى أول الأمر ؛ وحين رأى أنه لم يكن الوحيد الذى تروق له وأن الهدف الوحيد من وجودها كان الظفر بحب زوجها ، ولكن كان يبدو عليها كما لو كانت تفعل عن عمد كل شيء لا يروق له أن يعمله ، وذلك لكى تظهر له قوة حبها كاملة واستعدادها لتضحية ذاتها •

كانت مغرمة بالتنميق ، وكان والدى يحب أن يراها جميلة فى المجتمع ، تثير المديح والاعجاب ، وقد ضحت بحبها للولائم من أجل والدى ، وتعودت شيئا فشيئا البقاء فى البيت ، مرتدية قميصا نصفيا (بلوزة) رمادى اللون وكان بابا الذى يعتبر الحرية والمساواة حالتين لابد منهما فى العلاقات المنزلية ، يأمل فى أن تسير محبوبته ليوبتشكا مع زوجته الصغيرة الطيبة معاً بطريقة مخلصة ودية ؛ ومادامت أفدوتيا فاسليفنا هى التى تضحى بنفسها ، فقد أخذت على عاتقها أن تبدى احتراما فى غير موضعه « لسيدة البيت الحقيقية » وهو اللقب الذى

كانت تطلقه على ليوبتشكا ، وكان ذلك يؤلم بابا ألما عميقا • وقامر أبى كثيراً فى ذلك الشتاء ؛ وفى نحو نهاية الشتاء خسر قسطاً كبيراً من المال ، وأخفى شئون مقامرته عن جميع أهل البيت كما كان يفعل دائما ، اذ لم يكن يحب الخلط بين لعبه وبين حياته العائلية • وضحت أفدوتيا فاسليفنا بنفسها برغم مرضها فى بعض الأحيان بل انها قرابة نهاية الشتاء ، وهى حبلى كانت ترى من واجبها الذهاب لمقابلة بابا بمشيتها المتأرجحة و « بلوزتها » الرمادية وشعرها المشعث فى الساعة الرابعة أو الخامسة صباحاً عند عودته من ناديه ، متعبا خجلانا بعد خسائره فى بعض الأحيان •

كانت تستفسر منه بفكر شارد عما اذا كان موفقاً فى اللعب ، ثم تصغى اليه بالتفاتتها المتلطفة وايماءات رأسها ، وهو يقص عليها أعماله فى النادى ، ويلتمس منها ويكرر مائة مرة ألا تظل ساهرة فى انتظاره • ولكن بالرغم من أن مكاسبه وخسائره والتى تتوقف عليها كل ممتلكات بابا ، لا تهتم لها أقل اهتمام ، وكانت أول من تقابله كل ليلة عندما يعود من النادى • وفوق هذا كانت مضطرة الى الذهاب لمقابلته لا بدافع شغفها بتضحية ذاتها وحدها ، ولكن بدافع من الغيرة الخفية التى كانت تقاسى منها الى أبعد حد • ولم يستطع أحد البتة اقناعها بأن بابا كان يرجع متأخراً من النادى وليس من عند احدى العشيقات • كانت تحاول قراءة أسرار حب بابا فى وجهه ، ولما كانت لا تستطيع أن ترى فيه شيئا ، كانت تتنهد فى كثير من الأسى ، وتستسلم الى التفكير فى تعاستها •

ونتيجة لهذه التضحيات الكثيرة المستمرة نشأ فى موقف بابا ازاء زوجته فى نحو الأشهر الأخيرة من الشتاء ، التى خسر فيها قدراً كبيرا ، مما ترتب عليه انقباضه النفسى معظم الوقت ، نشأ شعور واضح ومختلط من « الكراهية الصامتة » ومن ذلك النفور المكبوت من الهدف الذى تدور حوله عواطف المرء التى تعبر عن نفسها بالرغبة غير الارادية فى الحاق كل نوع مستطاع من المضايقات الأدبية الحقيرة بذلك الهدف .

(٩٨)

زملاء جدد

كان الشتاء قد انقضى دون أن نشعر به ، وبدأ ذوبان الجليد ، وفى الجامعة علقت قوائم الامتحان ، فتذكرت فجأة أننى يجب أن أجيب على ثمانية عشر موضوعاً حضرت محاضرات فيها ، ولكنى لم أصغ الى واحد منها أو أكتبها أو أعدها . ومن العجيب أن سؤالا مثل : «كيف أستطيع اجتياز الامتحان ؟» لم يدر بذهنى مرة واحدة، ولكنى كنت فى حالة مبهمة للغاية طوال ذلك الشتاء ترجع الى سرورى لكونى أصبحت « كما ينبغى أن أكون » وأننى حين كان يتصادف أن أقارن نفسى بزملائى وأقول لنفسى : « انهم سيجتازون الامتحان ، ولكنهم ليسوا « كما ينبغى أن يكونوا » حتى الآن ؟ ومن

ثمة فلدى ميزة فائقة عليهم ، ويجب أن أنجح » وكنت أذهب الى المحاضرات لمجرد أننى اعتدتها وحسب ، ولأن بابا أخرجنى من البيت ، هذا بالاضافة الى معارفى الكثيرين الذين كثيرا ماكنت ألقاهم وأقضى وقتاً سعيدا معهم بالجامعة .. كنت أحب الضوضاء والثرثرة والضحك فى القاعة الكبرى ، وأصبحت آنئذ أحب الجلوس فى المقاعد الخلفية أثناء المحاضرات فأحلم بشىء أو بالآخر لرتابة صوت الأستاذ ، وأراقب زملائى ، وكنت أحب الهرب أحيانا مع شخص ما الى حانة « ماترن » لشرب الفودكا ، وتناول وجبة خفيفة . ولما كنت أعرف أن الأستاذ سيعنفنى على دخولى القاعة بعد الاستاذ ، واحداث صريف مخجل بالباب ، أحببت أن أشترك فى عراك لعبة « شوط مقابل شوط » التى نظمت فى كثير من الضحك فى الدهاليز . وكان كل ذلك مدعاة لكثرة الفكاهة .

ومع ذلك ، ففى الوقت الذى بدأ فيه الجميع حضور المحاضرات بانتظام أكثر من ذى قبل ، وبعـــد أن أتم أستاذ الطبيعيات مقرره ، وانصرفنا حتى يحين وقت الامتحانات ، أنشغل الطلبة فى مذكراتهم ، واعداد أنفسهم ، وبدأت أنا أيضاً أفكر فى اعداد نفسى . ولم يقتصر أوبروف الذى لم أكف عن الانحناء له ، برغم أن علاقاتنا فيما عدا ذلك كانت فاترة كما سبق أن قلت ، لم يقتصر على منحى مذكراته ، بل دعانى الى الاستعداد معه ومع طلبة آخرين من هذه المذكرات . فوافقته شاكرا مؤملا أننى بهذا الكـــرم أن أخفف تماما اختلافى

السابق معه ، وكان كل ماطلبته أن تعقد الاجتماعات دائما فى منزلى لأن لدى مسكنا لطيفا .

وقد أجابوا على هذا بأنهم يقصـــدون عقد هذه الاجتماعات بالمناوبة ـ فأحيانا يكون الاجتماع فى مسكن زميل وأحيانا لدى زميل آخر بحسب القرب . وتم الاجتماع الأول بمسكن زوخين ، وكان غرفة صغيرة خلف فاصل فى بيت واسع فى تروبنى بوليفار . وتأخرت فى الاجتماع الأول وحضرت بعد أن بدأت القراءة ؛ وكانت الحجرة الصغيرة ملأى بدخان التبغ الخشن الذى يستعمله زوخين . وكانت على المائدة زجاجة فودكا وأكواب وخبز وملح وعظمة ضأن .

ودعانى زوخين دون أن ينهض من مكانه لأتناول جرعة من الفودكا وأن أخلع سترتى .

وأضاف قائلا : « أتوقع أنك لم تتعود مثل هذه المنادمة ؟ » .

كان كلّ منهم يرتدى صـدراً قذراً لقميص من البفتـة (١) وحـاولت ألا أظهر لهم ازدرائى ، فخلعت ســترتى ووضعتها على الأريكة بروح الزمالة . وراح زوخين يقرأ بصوت مرتفع مشيراً بين حـين وآخر الى كراسـات المذكرات ، بينما كان الآخـرون يستوقفونه ليوجهوا اليه الأسئلة ، فكان يجيب عنها باختصار وذكاء ودقـة .. واستمعت برهـة ، ولما كنت لم أفهم كثيراً لعـدم المامى بما سبق ، وجهت سؤالا .

---

(١) يكتفى بعض الفقراء بلبس صدر قميص ، وهو الجزء الذى يظهر من السترة فيظهر كأنه قميص كامل وذلك للاقتصاد وحسب .

فقال زوخين : « ليس من الخير أيها الزميل القديم أن تستمع اذا لم تعرف ذلك ، وسأعطيك كراسات المذكرات لكى تقرأها حتى الغد » .

وخجلت لجهلى ، وأدركت فى نفس الوقت ما تنطوى عليه ملاحظة زوخين من عدالة تامة . فتوقفت عن الاستماع وشغلت نفسى بملاحظة رفاقى الجدد ؛ ووفقاً لتقسيم الرجال الى فئة الذين « كما ينبغى أن يكونوا » وفئة من « ليسوا كما ينبغى أن يكونوا »، فمن الواضح أنهم كانوا يتبعون الفئة الثانية وبالتالى أثاروا فى نفسى، لا الشعور بالاحتقار وحسب ، بل كراهية شخصية معينة كنت أحملها لهم ، اذ بالرغم من أنهم لم يكونوا « كما ينبغى أن يكونوا »، لم يبد لى أنهم يعتبروننى مساويا لهم وحسب ، بل كانوا يشجعوننى بطريقة لطيفة . ومما أثار فى نفسى هذا الشعور ، أقدامهم وايديهم القذرة بأظافرها المقضومة ، وكان لأيروف ظفر واحد طويل بأصبعه الخنصر ، وصدور القمصان الوردية، والسباب الذى اعتادوا توجيهه بعضهم الى البعض ، والحجرة القذرة ، وعادة زوخين من الشمشمة باستمرار وضغطه على احدى فتحتى أنفه بأصبعه ، وطريقة حديثهم بنوع خاص ، حيث يشددون النبرة على كلمات معينة فكانت تبدو لى شكلية ومنافية جداً للرقة . ولكن الشىء الذى أثار كراهيتى « كما ينبغى أن تثور » تلك النبرة يشددونها على كلمات روسية معينة ، وعلى الكلمات الأجنبية خاصة .

ولكن بالرغم من ظاهرهم الذى كنت أنفر منه فى ذلك الوقت نفوراً لا يقاوم ، استطعت الكشف عن شيء طيب فى هؤلاء الناس ؛ فقد شعرت بجاذبية نحوهم مدفوعاً بحسدى لرفقتهم الفكهة التى ربطت بينهم ، وأردت أن أوثق تعارفى بهم ، ولم يكن هذا بالشيء العسير على ، وكنت قد عرفت أوبروف الرقيق المستقيم ، وقد أعجبنى كثيراً زوخين المقدام ، ذا الذكاء الفائق الذى كان من الواضح أنه يسيطر على كل الحلقة . كان رجلا صغيراً قوى البنية أسمر البشرة ؛ ذا وجه منتفخ الى حد ما ، ومشرق دائماً ، ولكنه ذكى نشيط مستقل الى أقصى حد . وترجع هذه السمة بنوع خاص الى جبينه الذى لم يكن عالياً ، بل مقوساً فوق عينين عميقتين سوداوين ، وشعره القصير الخشن ، ولحيته الكثة السوداء التى يدل مظهرها على أنها لم تحلق أبداً ، ويبدو أنه لم يكن يفكر فى نفسه (وهو الشيء الذى كان يعجبنى دائماً فى الناس) ، ولكن كان من الواضح أن عقله لم يكن عقيماً بحال ، وكانت ملامحه المعبرة من تلك التى تتعرض فى نظرك الى تغير تام ومفاجيء بعد ساعات قلائل من رؤيتها لأول مرة . وهذا ما حدث لزوخين قرب نهاية السهرة ، فقد ظهرت على وجهه فجأة تجعدات جديدة ، وازداد غور عينيه ، واختلفت ابتسامته ، بل تغير كل وجهه حتى لقد أصبح من العسير أن أعرفه .

وعندما انتهى الاجتماع ، شربنا ، زوخين والطلبة الآخرون

وأنا ، زجاجة من الفودكا لكل منا ، اظهاراً لرغبتنا فى أن نكون أصدقاء أوفياء ولم يبق شىء يذكر فى الزجاجة • واستفسر زوخين عمن لديه ربع روبل حتى يمكن ارسال المرأة العجوز القائمة على خدمته لشراء بعض الفودكا ، فقدمت نقودى ، ولكن زوخين التفت الى أوبيروف كأنه لم يسمعنى ، فسحب أوبيروف كيساً صغيراً من الخرز وأعطاه النقود المطلوبة •

وقال أوبروف الذى لم يكن قد شرب هو نفسه شيئاً قط : « لاحظ ألا تأخذ مبلغاً أكثر من اللازم » •

وأجاب زوخين وهو يمتص النخاع من عظمة الضأن : « لا أظن ذلك » (وتذكرت أننى فكرت آنئذ أنه لا بد أن يكون سبب ذكائه هو أكله النخاع) ، ثم كرر عبارته « لا أظن ذلك » وهو يبتسم ابتسامة خفيفة وكانت ابتسامته كتلك التى يلاحظها الانسان قسراً ، ويشعر له بالامتنان من أجلها : « ولكن ما الضرر اذا فعلت ؟ أراهن على أننى أستطيع الآن مواجهة أى واحد من أصحابنا الذين يتطايرون كالغبار ، كل شىء هنا على أهبة الاستعداد » ثم أضاف وهو يربت رأسه فى زهو : « ولكن سيمنوف يجازف الى حد الاخفاق بطريقته فى شرب الخمر » •

الحقيقة أن نفس هذا السيمنوف الرمادى الشعر الذى سرنى كثيراً فى الامتحان الأول أن ثيابه كانت أسوأ منى ، والذى عكف بعد أن أصبح الثانى فى امتحانات دخول الجامعة، على حضور المحاضرات

بانتظام ابان الشهر الأول كطالب ، قد أدمن الشراب ادماناً شديداً ، ثم لم يظهر فى الجامعة مطلقاً قرابة آخر العام الدراسى •

وسأل عنه شخص ما « أين هو ؟ » •

فراح زوخين يقول : « لقد غاب عنى ، وفى آخر مرة كنا معا ، قضينا ليلة فى » لسبون » ، وانتهت نهاية بديعة • ويقال ان فضيحة ما حدثت بعد ذلك ، فهذا رجل أمامك ! أى حرارة تتأجج فيه ! وأى عقل ! ومن المؤسف أنه سينتهى الى النوم ، ولكن لا شك فى هذا • انه ليس من النوع الذى يجلس هادئاً بالجامعة مع ثورانه هذا » •

وبعد قليل من الحديث نهضنا لكى ننصرف ، وقد اتفقنا على الاجتماع عند زوخين فى الأيام التالية لأن بيته كان أقرب لجميع الباقين • وعندما خرجنا الى الفناء ، كان ضميرى يعذبنى نوعاً ما لأنهم سيذهبون جميعاً سيراً على الأقدام بينما أركب أنا وحدى الدروشكى ، فاقترحت على أوبيروف فى استحياء أن آخذه الى بيته • وخرج زوخين معنا وبعد أن اقترض قطعة فضية من فئة الروبل من أوبيروف ، ثم ذهب ليقيم بها ليلة مع أصدقائه • وبينما كنا راكبين فى طريقنا حدثنى أوبيروف كثيراً عن أخلاق زوخين وطريقة حياته؛ وعندما وصلت الى البيت لم أنم الا بعد وقت طويل ، اذ أخذت أفكر فى الناس الجدد الذين تعرفت بهم ، وظللت برهة طويلة راقداً متيقظاً ، متردداً بين الاحترام الذى أثاره فى نفسى علمهم وبساطتهم

وأماناتهم وشاعرية شبابهم وجسارتهم ، وبين النفور الذى شعرت به نحو مظهرهم غير الكريم • وبالرغم من كل شوقى كان من المحال تماماً فى ذلك الوقت أن أعاشرهم • لقد كانت آراؤنا مختلفة اختلافاً تاماً ، كانت هناك ظلال لا حصر لها تشكل لى كل سحر الحياة ومعناها ليس لديهم منها أية اشارة ، والعكس بالعكس • والسبب الجوهرى فى عدم معاشرتهم هو العشرون روبل ثمن قماش سترتى، وعربتى ، وقمصانى الفاخرة ، وكان لهذا السبب اعتبار خاص عندى ؛ وخيل الى أننى أهنتهم بدلائل رخائى ، وشعرت بذنبى أمامهم ، فلم يكن من المستطاع بحال الارتباط معهم بعلاقات من المساواة والصداقة الخالصة ، لأننى أهنت نفسى أولاً ثم ثرت ضد اذلالى الذى لا أستحقه ، وأصبحت واثقاً من نفسى • ومع ذلك فان تلك الشجاعة ذات القوة الشاعرية التى أحسستها فى زوخين فى ذلك الوقت قد طغت الى حد كبير على الجانب الخشن المعيب من أخلاقه بحيث لم تؤثر فى نفسى مطلقاً تأثيراً غير سار •

ظللت أسبوعين تقريباً أذهب كل مساء للمذاكرة عند زوخين، وكانت مذاكرتى قليلة جداً لأننى كما سبق أن قلت فقدت الأساس منذ البداية ولم يكن لدى الصلابة الكافية للمذاكرة وحدى لكى ألحق بهم ، ولكنى ادعيت فقط أننى أصغى لما يقرأونه وأفهمه • ويخيل الى أن زملائى قد تكهنوا بادعائى ، ولاحظت أنهم كثيراً ما تخطوا فقرات كانوا هم يعرفونها ، ولم يسألونى عنها مطلقاً •

وكان تساهلى يتزايد كل يوم شيئاً فشيئاً ازاء قلة النظام فى هذه الحلقة ، وشعرت بالانجذاب اليها ، وجدت فيها كثيراً من الشاعرية . وكانت كلمة الشرف وحدها التى عاهدت بها دمترى على ألا أذهب الى أى مكان من مجالس الشرب هى التى قمعت رغبتى فى مشاطرتهم لهوهم .

فكرت مرة فى استعراض معلوماتى فى الأدب وبخاصة الأدب الفرنسى، ولذلك وجهت الحديث الى ذلك الموضوع ؟ ولشد ما كانت دهشتى ، أنهم بالرغم من نطقهم عناوين الكتب الأجنبية بالطريقة الروسية ، فقد قرأوا عدداً من الكتب أكثر مما قرأت ، وأنهم يعرفون ويقدرون الكتاب الانجليز بل والاسبانيين ، وكذلك ليساج الذى لم أكن حتى قد سمعت عنه . أما بوشكين وتشيكوفسكى فكانا أدباً بالنسبة اليهم (وليس كما كانت الحال بالنسبة الى ، كتب صغيرة ذات أغلفة صفراء كنت أقرأها وأدرسها كطفل) ، واحتقروا دوماس وسو وفيفا على السواء ، وأصدروا حكماً ، وبخاصة زوخين، على الأدب خيراً من حكمى عليه ، وأكثر وضوحاً مما أستطيع ، بحيث لم يسعنى الا أن أسلم ؟ ولم يكن لى ميزة عليهم فى معلوماتى الموسيقية ، وأكثر ما أدهشنى أن وجدت أوبيروف يعزف على الكمنجة ، وواحداً آخر من المجموعة يعزف على الفيولونسلو والبيان ، وكلاهما كانا يعزفان فى فرقة الموسيقى الجامعية، ويعرفان الموسيقى جد المعرفة ويقدرانها أسمى التقدير . وقصارى القول،

فانهما باستثناء النطق بالفرنسية والألمانية كانا يعرفان كل شيء حاولت أن أفاخر به أمامهم ، خيراً مني ، ولم يكونوا على الأقل فخورين به • كان يمكن أن أفاخر بأنني رجل مجتمع ، ولكنني لم أكن كذلك ، واختلف عن فولوديا ، فما هو اذن هذا التعالى الذى كنت أنظر به اليهم ؟ ـ هل هو معرفتى بالأمير ايفان ايفانتش ؟ أم نطقى للغة الفرنسية ؟ أم الدروشكى ؟ أهو قمصانى الفاخرة ؟ أم أظافر يدى ؟ أليست كل هذه الأشياء عبثا وهـراء ؟ وكان يتبدل هذا التفكير فى ذهنى تحت تأثير الحسد لبهجة الزمالة اللطيفة الناضرة التى أراها أمامى • كانوا ينادون بعضهم البعض بضمير المفرد «أنت» وكانت بساطة معاملتهم تقرب من الخشونة ، ولكن حتى هذا المظهر الخشن لم يستطع اخفاء خوفهم من أن يجرح أحدهم شعور الآخر • وكانت كلمتا « نصاب ، وخنزير » اللتان يستعملانهما فى معنى ودى يجعلاننى أتراجع وألتمس لنفسى سبباً للتهكم الباطن ، ولكن هاتين الكلمتين لا تسيئان اليهم أقل اساءة ، ولا تحولان دون استنادهم الى أقوى أساس من الصداقة كل ازاء الآخر • كانوا يتصفون بالحرص والرقة فى معاملاتهم بعضهم مع البعض ، كما هو الحال فقط لدى الفقراء جداً والصغار جداً من الناس • ولكن النقطة الأساسية هى أننى شممت رائحة شيء جريء وهمجى فى أخلاق زوخين ومغامراته فى مشرب « لسبون » وساورنى الشك فى أن هذه المشارب لا بد أن تكون شيئاً مختلفاً تماماً عن التمويه بالروم المشتعل والشمبانيا التى اشتركت فيه عند البارون (ز) •

زوخين وسيمنوف

لست أعرف الى أى طبقة من المجتمع كان ينتمى زوخين ، ولكنى أعرف أنه من طلبة مدرسة الجمنازيوم ، ولم يكن لديه مال كيفما كان ، ومن الواضح أنه لم يكن كريم المحتد ، كان فى الثامنة عشرة فى ذلك الوقت وان كان يبدو أكبر كثيراً من ذلك ، وهو بارز الذكاء ، سريع الادراك للفكرة بنوع خاص ؛ وكان تسليمه بموضوع برمته متعدد الجوانب، وادراك جميع فروعه والاستنتاجات المستمدة منه ، أيسر عليه من الفحص الدقيق للقوانين التى أدت للوصول الى هذه الاستنتاجات عن طريق المعرفة • وكان يعرف أنه ذكى ، وكان مزهواً بذلك ، وترتب على هذا الزهو أنه كان بسيطا ودمث الخلق فى معاملة كل شخص على نسق واحد ؛ ولا بد أنه قاسى كثيراً فى مجرى حياته • وقد نجحت كثيراً طبيعته المتوقدة الحساسة فى الظهور بذاتها فى الحب والصداقة والمال • والى حد محدود ، وفى الطبقات الدنيا من المجتمع ، لم يكن هناك شىء بالرغم من ذلك لم يشعر نحوه بعد أن يتحقق منه ، اما بالاحتقار واما بنوع من عدم الاهتمام أو الالتفات ، الناشىء عن السهولة الكبرى التى كان يحصل بها على كل شىء • وواضح أنه كان يتشبث فقط بكل جديد من أجل ازدراء ما يحصل عليه بعد الظفر بغايته ، وكانت

طبيعته الموهوبة تدرك هدفها دائماً ، فمن حقه أن يكون مزدريا . وكان هذا هو موقفه تماماً من العلوم : كان يدرس قليلا ، ولا يكتب مذكرات ، ومع ذلك كانت معلوماته كاملة في الرياضيات ، ولم يكن تفاخره غروراً حين قال انه يستطيع التفوق على الأستاذ . ولقد فكر كثيراً في أن ما يتعلمونه لا معنى له ، ولكنه بطبيعته النوعية ، العملية الجادة الماكرة دون وعي ، سرعان ماتوافق مع مايحتاجه الأستاذ ، وأحبه جميع الأساتذة . كان صريحاً مع السلطات ومع ذلك كانت السلطات تحترمه ، ولم يقتصر على عدم تقديره أو حبه للعلوم وحسب ، بل كان يزدرى حتى أولئكم الذين أجهدوا أنفسهم فى تحصيل ماحصله هو بغاية السهولة . ان العلوم ، كما يراها هو ، لا تحتاج الى أكثر من جزء من عشرة من مواهبه ؛ والحياة بالنسبة اليه كطالب ، لم تمنحه أى شيء يستطيع أن يكرس له نفسه تكريساً كاملا ، ولكن طبيعته الثائرة النشيطة ، تطلبت الحياة ، كما قال فاستسلم للانغماس فى شيء ما بقدر ما سمحت له امكانياته ، وأذعن بحماسة ورغبة لكى يستنزفه بقدر ما بقى فيه من قوة . والآن ، قبل الامتحانات ، تمت نبوءة أوبيروف ، فقد اختفى أسبوعين لكى نستعد أثناء الشطر الأخير من الوقت في مسكن أحد الطلبة ، ولكنه ظهر فى القاعة عند الامتحان الأول ، شاحباً هزيلا ، مرتجف اليدين ، واجتاز الامتحان بتفوق الى المرحلة الثانية .

وفى بداية هذه المرحلة كان هناك ثمانية رجال فى جماعة

المشرب ، وعلى رأسهم زوخين ، وكان اكونين وسيميوف بين هذا العـدد فى أول الأمر ، وترك الأول هذه الجماعة لأنه لم يستطع تحمل الانمغاس الطائش الذى أسرفوا فيه فى بداية ذلك العام ، بينما هجرهم الثانى لأنه وجد عربدتهم تعبث به عبثاً شديداً ، وكان كل رجال فرقتنا ينظرون اليهم فى أول الأمر بنوع من الخوف ويقص بعضهم على بعض أخبار لهوهم •

كان زوخين هو أهم الأبطال ، وقرابة نهاية العام أصبح سيمينوف هو البطل ، فكان ينظر الى سيمينوف بنوع معين من الخوف ، فاذا ما ظهر فى محاضرة ، وهو ما كان يحدث فى القليل النادر ، يسود الشعور بالحماس •

كان سيمينوف ينتهى من أعمال الانغماس فى الملذات قبيل الامتحانات مباشرة بطريقة على أعظم جانب من الابداع وقوة العزيمة، اذ تهيأت لى فرصة مشاهدتها بفضل معرفتى بزوخين• وهذا ما حدث : فى مساء أحد الأيام ، وكنا قد اجتمعنا عند زوخين ، وبعد أن وضع أوبيروف بالاضافة الى الشمعة الدهنية الموضوعة فى الشمعدان ، شمعة أخرى فى زجاجة ، وأخذ يقرأ ، وقد مال برأسه فوق كراسات المذكرات ، بصوته الحاد من مذكراته الخرساء المكتوبة فى العلوم الطبيعية ، دخلت صاحبة المنزل الحجرة وأخبرت زوخين أن شخصا أحضر له رسالة مختصرة •

وترك زوخين الحجرة ولكنه عاد بسرعة ، وكان يبدو عليه الاهتمام وقد أحنى رأسه . كان ممسكاً بمذكرة مكتوبة على ورقة تغليف رمادية اللون وورقتين من فئة العشرة روبلات .

وقال وهو يرفع رأسه وهو ينظر الينا فى رزانة بل فى مهابة. وقال : « يا سادة !! هذا جزء من خبر غير عادى » وسأله أوبيروف وهو يقلب صفحات مذكراته : « هل دفعوا لك أجر قيامك بتثقيفنا » واقترح شخص آخر قائلا : « فلنستمر » ولكن زوخين تابع حديثه بنفس اللهجة : « لا يا سادة ، ليس لأجلى ، لقد قلت لكم ـ جزء من خبر لا يصدق ! لقد أرسل سيمينوف جندياً يحمل الى هذه الروبلات العشرين التى كان قد اقترضها منى مرة ، ويكتب لى أن أذهب الى الثكنات العسكرية ان كنت أرغب فى رؤيته ... ثم أضاف وهو يتفرس فى كل منا بدوره : هل تدركون معنى ذلك ؟ » ولم يقل أحدنا شيئاً .. وتابع زوخين حديثه : « اننى ذاهب اليه الآن مباشرة ، فهيا ان شئتم » . وارتدى كل منا سترته بسرعة ، استعداداً للذهاب الى سيمنوف » وسأل أوبيروف بصوته المصرصر : « أليس من السماجة أن نذهب اليه جميعاً بكامل عددنا ، ونتفرس فيه كما لو كان تحفة نادرة » وكان شعورى أقرب ما يكون الى شعور أوبيروف ، وبخاصة أن معرفتى بسيمينوف كانت ضئيلة ، ولكنى كنت شديد الرغبة فى أن أشعر بأننى عضو فى الجماعة العامة ، وأن أرى سيمنوف حتى أننى لم أعلق على هذه الملاحظة.

وقال زوخين : « هذا لغو !! أية سماجة فى أن نذهب جميعاً لتوديع زميل لنا ؟ وماذا يهم المكان الموجود فيه ؟ انه هراء فى الحقيقة، فلماذا لا تأتون ان أردتم ذلك » .

استأجرنا عربات قليلة واصطحبنا معنا الجندى وذهبنا . لم يرض ضابط الصف القائم بالعمل أن يدعنا ندخل الى الثكنات ، ولكن زوخين استماله بطريقة ما ، وقادنا نفس الجندى الذى أحضر المذكرة الى حجرة كبيرة تضيئها عدة مصابيح ليلية صغيرة اضاءة خافتة ، وكان يجلس أو يرقد على الأسرة الموضوعة الى الجانبين المجندون فى معاطف خارجية رمادية ضخمة ، وجميعهم محلوقى مقدم الرأس . وأغرب ما لفت نظرى عند دخولنا الثكنات هو جوه الذى يكتم الأنفاس ، وصوت عدة مئات من الأشخاص المحبوسين يغطون . وتبعنا دليلنا وزوخين الذى سار بخطوات واسعة وثقة أمامنا بين الأسرة ، وعرتنى قشعريرة باطنة وأنا أتفحص كل راقد، أحاول أن أطابق بينه وبين الصورة العقلية التى تخيلتها لوجه سيمنوف المكتئب القوى بشعره الطويل المشعث الذى يغلب عليه اللون الرمادى ، وشفتيه الباهتتين ونظرة عينيه اللامعتين الرصينة . وعندما بلغنا أبعد ركن فى الثكنة حيث كان الطرف المتدلى من ذبالة منصهرة تخفق فى آخر وعاء خزفى صغير ملىء بالزيت الأسود . وأسرع زوخين الخطا ، وحينئذ وقفنا فجأة .

وقال لأحد المجندين ، وكان حليقا كالباقين ، يجلس على سريره في ثياب الجندي الداخلية ، ومعطف خارجي رمادي ملقى على كتفيه ، وكان يتحدث مع مجند آخر ويأكل شيئاً ما . لقد كان « هو » برأسه ذي الشعر الرمادي المجزوز حديثاً ، ومقدم رأسه الضارب الى الزرقة من أثر الحلاقة . وكان وجهه يتسم كالمعتاد بتعبير رصين قوي العزم ، كنت أخشى أن تضايقه رؤيتي ولذلك انتحيت جانباً . ويبدو أن أوبيروف شعر بنفس الشعور ، ولذلك بقى في المؤخرة ، ومع ذلك فان صوت سيمينوف وهو يحيى زوخين والآخرين بطريقته المقتضبة هدأت من روعنا ، فأسرعنا بالتقدم نحوه ، وقدمت له يدى ، وقدم له أوبيروف يده الشبيهة بلوح الخشب ، ولكن سيمينوف بادرنا فمد يده السمراء الضخمة ليوفر علينا الشعور البغيض بأننا نقدم له فضلا . وتكلم كالمعتاد ، في هدوء وتردد قائلا : « هالو ، زوخين ، شكراً لحضوركم ... اجلسوا يا سادة » ، ثم قال وهو يلتفت الى المجند الذى كان يؤاكله ويتحدث معه : « اذهب أنت يا كودرياشكا ، سوف نتم حديثنا فيما بعد ... هيا اجلسوا ، حسنا ؟ هل دهشت يا زوجين ؟ اه ؟ » .

فأجابه زوخين ، وهو يجلس بجانبه على السرير ، وعليه ما يشبه سمات الطبيب وهو يجلس بجوار سرير أحد مرضاه : « لا شيء يدهشني منك البتة ، ولربما كانت دهشتي أكثر لو أنك حضرت لأداء امتحاناتك ... حسن ، قل لنا أين كنت وكيف حدث كل

هذا ؟ فقال بصوته الملىء القوى : « فى الحانات والكهوف وأمثال هذه الأماكن ، يوجد مكان للجميع هيا اجلسوا ياسادة » ثم صاح فى لهجة آمرة ، وومضة خاطفة من أسنانه البيضاء ، بالمجند الراقد الى يساره مسند رأسه على ذراعه موجهاً نظره نحونا فى فضول بليد : « أبعد قدميك عن الطريق » ثم استمر فى تعبير وجهه المصمم المتغير مع كل جملة محكمة العبارة « أسمعتم تلك القصة الخاصة بالتاجر ؟ لقد مات الوغد ... لقد أرادوا طردى ، وبددت كل ما كان عندى من مال ، وليس هذا أسوأ ما فى الأمر ، سوف لا أنتهى من ديونى ـ انهم قذرون أيضاً . ليس لدى شىء أسدده لهم ... حسن ، هذا كل شىء » . وسأل زوخين : « ولكن كيف تدخل فكرة كهذه فى رأسك ؟ » . « بكل بساطة .. لقد كنت فى ياروسلافل ، فى ستوزنكا ، كما تعرف ، وكنت مع تاجر سابق ، وهو الآن معتمد تجنيد ، وقلت له : أعطنى ألف روبل فأسجل نفسى ، وقد فعلت » وقال زوخين : « ولكن لاحظ ، أنك سيد محترم » . « هذا لا يهم فى شىء ، لقد اهتم كيريل ايفانوف بذلك » . ومن هو كيريل ايفانوف ؟ » . « هو نفس المعتمد الذى اشترانى (ولمعت عيناه بصورة غريبة جداً ـ بمرح وتهكم ـ وبدا كأنه يبتسم وهو يقول هذا) . وقد حصلنا على اذن من (السناتو) المجلس التشريعى ، وذهبت الى نوع آخر من اللهو ، وسددت ديونى ، وها أنا ذا هنا .

وهذا كل شيء حسن ، لا بأس من هذا ، ليس لهم الحق فى تأديبى فالباقى على خمسة روبلات ثم من يدرينى فقد تنشب الحرب » .

ثم راح يقص على زوخين مغامراته الغريبة التى لا تصدق ، وكان تعبير وجهه المصمم المتغير على الدوام وعيناه تومضان بقوة .

ولما كنا لم نستطع البقاء مدة أطول من ذلك فى الثكنات ، فقد ودعناه وانصرفنا ، وصافح كلا منا ، وقال لنا دون أن يصحبنا الى الخارج : « تعالوا من وقت لآخر أيها السادة ، فهم يقولون اننا سنرحل فى مدى شهر فقط » ثم أومأ الينا مرة أخرى بما يشبه تلك الابتسامة الخاصة به . ومع ذلك فبعد أن خطا زوخين عدة خطوات دار الى الخلف ثانية . ولما كنت أريد أن أرى كيف سيودع أحدهما الآخر فقد وقفت أنا كذلك . رأيت زوخين يخرج نقوداً من جيبه، ويقدمها لسيمينوف ، ولكن الأخير دفع يده جانباً ، ثم رأيتهما يقبل أحدهما الآخر ، وسمعت زوخين يصيح بصوت مرتفع نوعاً ما وهو يقترب منا : « مع السلامة أيها المعاقب ! أراهن أنك ستصبح ضابطاً قبل اتمام دراستى » . وأجابه سيمينوف الذى لا يضحك أبداً ، بضحكة عالية مجلجلة غير عادية آلمتنى ألماً شديداً . وخرجنا .

وسرنا على الأقدام طوال الطريق الى البيت . وظل زوخين صامتاً ، وهو يشمشم باستمرار ويضع أصبعاً مرة فى أحد منخاريه ومرة فى الآخر . ثم تركنا عندما وصلنا الى البيت ، وراح يأخذ دورة من الشرب حتى يحين موعد الامتحانات .

رسبت

وأخيراً جاء يوم الامتحان الأول ـ فى حساب التفاضل والتكامل ـ ولكنى كنت لا أزال على حالتى المكفهرة ، ولم تكن لدى فكرة واضحة عما ينتظرنى ؛ وخطر ببالى أثناء الليل بعد استمتاعى بصحبة زوخين وزملائه أنه لابد من احداث تغيير فى اعتقاداتى ؛ وأن فيها شيئاً غير كريم وغير عادل فيما يجب أن تكون عليه ، ولكن فى الصباح ، فى ضوء الشمس ، أصبحت مرة أخرى « كما ينبغى أن أكون » وكنت راضيا جداً عن ذلك ، ولم أرغب فى احداث أي تغيير فى نفسى •

وذهبت وأنا على هذه الحال النفسية الى الامتحان الأول ، وجلست على مقعد جانبي حيث يجلس الأمراء والكونتات والبارونات ، وأخذت أتحدث معهم بالفرنسية ؛ وقد يبدو من الغريب أنه لم تطرأ على ذهنى فكرة أننى سأطلب حالا للاجابة عن أسئلة فى الموضوع الذى لا أعرف عنه شيئا مطلقا • وأخذت أتفرس بفتور فى أولئك الذين ذهبوا للامتحان ، بل وسمحت لنفسى أن أسخر من بعضهم •

قلت لالنكا وهو عائد من منضدة الامتحان : « حسن ، ياجراب؟ هل خفت ؟ »

وقال النكا الذى تمرد تماماً على نفوذى منذ اليوم الذى دخل فيه الجامعة : « سنرى كيف ستدبر أمورك » ولم يبتسم عندما تحدثت اليه ، وأظهر نفورا منى •

وابتسمت فى احتقار لاجابة النكا ، وان كان الشك الذى عبر عنه قد هزنى هزة مؤقتة ، ولكن الضباب غطى هذا الشعور مرة أخرى ، وبقيت غير مكترث شارد العقل ، حتى لقد وعدت أن أتناول الغداء مع البارون (ز) بمحل ماتزن حالما أنتهى من الامتحان (كما لو كان هذا أتفه الأمور شأنا) • وعندما استدعيت مع اكونين ، أصلحت من قميص زيى الرسمى وتقدمت الى منضدة الامتحان دون أى اكتراث •

وعرتنى رعدة خفيفة من الخوف هبطت على ظهرى عندما تفرس فى وجهى مباشرة الأستاذ الشاب ، وهو نفس الأستاذ الذى سبق أن سألنى فى امتحان الدخول ـ ولمست ورقة المذكرة التى كتبت عليها الأسئلة • وبالرغم من أن اكونين أخذ بطاقته بانحنائة بكل جسمه كما فعل فى الامتحانات السابقة ، فانه أجاب الى حد محدود ، وان كانت اجابته سيئة جداً ، وفعلت أنا ما فعله هو فى الامتحانات السابقة ، بل فعلت ماهو أسوأ ؛ لأننى أخذت بطاقة ثانية ، ولم أجب بالمرة • ونظر الأستاذ فى وجهى باشفاق وقال لى بصوت ثابت ، وان كان هادئاً : ـ

« لن تنجح الى المرحلة التالية ياسيد ارتنييف ، وخير لك

ألا تتقدم الى أى امتحان بعد ••• ان هذه المرحلة يجب أن تصفى »•
ثم أضاف : « وأنت كذلك ياسيد ايكونين » •

والتمس اكونين السماح له باعادة الامتحان كما لو كان يستجدى احسانا ، ولكن الاستاذ أجاب بأنه لا يستطيع أن يعمل فى يومين ماعجز عن عمله على مدى عام ، وأنه بالضرورة لا يستطيع أن ينجح • والتمس اكونين ثانية بطريقة مهينة يرثى لها ، ولكن الاستاذ رفض للمرة الثانية •

وقال بنفس الصوت الخفيض ، الثابت : « يمكنكما أن تنصرفا ياسادة » •

ولم أفكر فى مبارحة المنضدة الا فى تلك اللحظة ، وأخجلنى أننى اشتركت بواسطة صمتى بنصيب فى توسلات اكونين المهينة ، و لاأتذكر كيف سلكت طريقى فى القاعة بين الطلبة ؟ وأية اجابات أديتها عن أسئلتهم ، وكيف اجتزت حجرة الانتظار وعدت الى البيت • لقد كنت مغتاظا مهينا تعيساً فى غير تصنع •

وبقيت ثلاثة أيام لا أفارق حجرتى ولم أقابل أحداً ؟ ووجدت عزائى فى الدموع كما كنت فى طفولتى ، وبكيت كثيرا • بحثت عن غدارة لكى أقتل نفسى لو اشتدت بى الرغبة كثيرا الى هذا العمل ، وفكرت فى أن النكا جراب سوف يبصق على وجهى حين يقابلنى ، وأنه ان فعل فسيكون محقاً تماما ، وأن أوبيروف سوف يبتهج

لمصيبتى ويخبر كل شخص عن ذلك ، وأن كوليكوف كان على حق تماما حين أهاننى فى مشرب « البار » ، وأن أحاديثى السخيفة مع الأميرة كورناكوفا لم يكن ينتظر لها نتيجة أخرى ، وهكذا وهكذا . ان جميع لحظات حياتى التى كانت عذابا لحبى الذاتى ، وكانت أقسى من أن تحتمل ، مرت بذهنى الواحدة بعد الأخرى ، وحاولت أن ألوم شخصاً سواى على مصائبى . وفكرت فى أن شخصا ما قد فعل هذا عامداً ، وتذمرت من الأساتذة ؛ ومن زملائى ؛ ومن فولوديا ؛ ومن بابا لأنه أرسلنى الى الجامعة ؛ بل شكوت من « العناية الالهية » لأنها سمحت بأن أحيا لأرى مهانة كهذه . وأخيراً ؛ بعد أن شعرت بمهانتى التامة فى أعين جميع من عرفونى ، رجوت بابا أن يدعنى ألتحق بفرقة الخيالة (الهوسار) أو أذهب الى القوقاز . كان بابا مستاء منى ، ولكنه حين رأى حزنى الفظيع ، واسانى بقوله ان الأمر لم يبلغ الى هذا الحد من السوء ، وأن الأمور يمكن أن تنظم بنقلى الى قسم آخر . وكذلك قال فولوديا الذى لم يجد فى مصيبتى الفظيعة أى شىء ، اننى يجب ألا أشعر على الأقل بالخجل أمام زملائى الطلبة فى الدراسات الأخرى .

لم تفهم سيداتنا شيئا مما كان يدور، وما كن ليفهمن أو يستطعن فهم ماهو الامتحان ـ وما معنى الرسوب ، وانما أشفقن على اذ رأيننى حزينا .

كان دمترى يأتى لزيارتى كل يوم ، وكان لطيفا ودوداً الى

أقصى حد ابان هذه الفترة كلها ؛ ولكن لنفس هذا السبب خيل الى أنه أصبح فاترا نحوى ، وكان يؤلمنى دائما ، ويبدو مهيناً لى حضوره وصعوده الى حجرتى وجلوسه بالقرب منى صامتا ؛ وعلى وجهه شىء من مسحة الطبيب التى يتخذها حين يجلس عند فراش مريض اشتدت به العلة • كانت صوفيا ايفانوفا وفارنكا ترسلان الى معه كتبا كنت أرغب فى قراءتها من قبل ، وأرادتا أن أذهب لأراهما • ولكنى أدركت فى هذه الالتفاتة نفسها تلطفاً متعالياً ومهينا لشخصى الذى هبط الى الحضيض • وفى نهاية الأيام الثلاثة أصبحت رابط الجأش قليلا ، ولكنى لم أبارح المنزل الى يوم رحيلنا الى الريف ، وكنت أفكر فقط فى حزنى ، وأتنقل متكاسلا من حجرة الى حجرة محاولا تجنب جميع أفراد المنزل •

فكرت ، وفكرت ؛ وأخيراً ، فى ساعة متأخرة من المساء ، بينما كنت جالسا فى الطابق السفلى أستمع الى عزف أفدوتيا فاسليفنا موسيقى الفالس ، قفزت على حين فجأة وجريت الى الطابق العلوى ؛ وتناولت كراسة المذكرات التى كتبت عليها « قواعد الحياة » ؛ وفتحتها ؛ وساورتنى لحظة ندم وموجة نفسية ، فبكيت ، ولكن لم تعد دموع يأس • وعندما أفقت صممت على كتابة قواعد للحياة من جديد ، وكنت مقتنعاً اقتناعا راسخاً بأننى من الآن فصاعدا لن أرتكب خطأ ، ولا أبدد دقيقة واحدة فى تكاسل ؛ بل ولا أحيد عن قواعدى •

ومهما كان من استمرار هذه القوة الأخلاقية الدافعة وقتا طويلا بما تحتويه ، وبما فيها من قوانين جديدة فرضت على نموى الأخلاقى، فسأقص ذلك فى الشطر التالى السعيد من شبابى •

ياسنايا بوليانا

فى ٢٤ من سبتمبر

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٢٣٩ ١٩٧٣